



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



الرمضان
عليكم يا صابرين

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

مختصر في تفسير القرآن
التبليغ في تفسير القرآن

مُرْهُ عَلَى الْقُرْآنِ

الجزء السابع عشر

سورة التلاوة - سورة البقرة - سورة آل عمران

دار التكاويف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من هدى القرآن

كاتب:

آيت الله سيد محمد تقى مدرسى

نشرت فى الطباعة:

دار محبى الحسين (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١١	من هدى القرآن المجلد ١٧
١١	اشاره
١٢	اشاره
١٦	سوره المزمّل
١٦	اشاره
١٦	فضل السوره
١٧	الإطار العام
٢٠	[سوره المزمّل (٧٣): الآيات ١ الى ٢٠]
٢٠	اشاره
٢٠	اللغه
٢٣	قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا
٢٣	بينات من الآيات:
٦٠	سوره المدثر
٦٠	اشاره
٦٢	فضل السوره
٦٣	الإطار العام
٦٨	[سوره المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٣١]
٦٨	اشاره
٧٠	و لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ
٧٠	هدى من الآيات:
٧١	بينات من الآيات:
١٠٨	[سوره المدثر (٧٤): الآيات ٣٢ الى ٥٦]
١٠٨	اشاره

١٠٩ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ

١٠٩ هدى من الآيات:

١١١ بينات من الآيات:

١٣٤ سورة القيامة

١٣٤ اشاره

١٣٤ فضل السوره

١٣٧ الإطار العام

١٤٢ [سوره القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ٤٠]

١٤٢ اشاره

١٤٢ اللغه

١٤٥ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ

١٤٥ بينات من الآيات:

١٧٢ سورة الإنسان

١٧٢ اشاره

١٧٤ فضل السوره

١٧٥ الإطار العام

١٧٨ [سوره الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ٣١]

١٧٨ اشاره

١٧٨ اللغه

١٨١ إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لِرُحْمَةِ رَبِّكُمْ

١٨١ بينات من الآيات:

٢١٠ سورة المرسلات

٢١٠ اشاره

٢١٢ فضل السوره

٢١٣ الإطار العام

٢١٨ [سوره المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ٥٠]

٢١٨ اشارة

٢١٨ اللغة

٢٢١ وَيُلِّ يَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ

٢٢١ بينات من الآيات:

٢٥٢ سورة التبا

٢٥٢ اشارة

٢٥٤ فضل السوره

٢٥٥ الإطار العام

٢٥٨ [سوره النبيا (٧٨): الآيات ١ الى ٢٠]

٢٥٨ اشارة

٢٥٨ اللغة

٢٦٠ إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتاً

٢٦٠ هدى من الآيات:

٢٦١ بينات من الآيات:

٢٧٣ [سوره النبيا (٧٨): الآيات ٢١ الى ٤٠]

٢٧٣ اشارة

٢٧٣ اللغة

٢٧٥ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً

٢٧٥ هدى من الآيات:

٢٧٦ بينات من الآيات:

٢٨٨ سورة التازعات

٢٨٨ اشارة

٢٩٠ فضل السوره

٢٩١ الإطار العام

٢٩٤ [سوره التازعات (٧٩): الآيات ١ الى ٢٦]

٢٩٤ اشارة

اللغه - ٢٩٤

قُلُوبٌ يُؤْمِنُ وَيُؤْمِنُ بِمَا جَاءَهُمْ ٢٩٧

هدى من الآيات: ٢٩٧

بينات من الآيات: ٢٩٨

[سوره النزعات (٧٩): الآيات ٢٧ الى ٤٦] ٣٠٧

اشاره ٣٠٧

اللغه - ٣٠٧

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ٣٠٩

هدى من الآيات: ٣٠٩

بينات من الآيات: ٣١٠

سوره عبس ٣٢٠

اشاره ٣٢٠

فضل السوره ٣٢٢

الإطار العام ٣٢٣

[سوره عبس (٨٠): الآيات ١ الى ١٦] ٣٢٤

اشاره ٣٢٤

اللغه - ٣٢٤

عَبَسَ وَ تَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٣٢٧

بينات من الآيات: ٣٢٧

[سوره عبس (٨٠): الآيات ١٧ الى ٤٢] ٣٣٤

اشاره ٣٣٤

اللغه - ٣٣٤

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مِمَّا كَفَرَ ٣٣٨

بينات من الآيات: ٣٣٨

سوره التكوير ٣٥٢

اشاره ٣٥٢

٣٥٤	فضل السوره
٣٥٥	الإطار العام
٣٥٨	[سوره التكوير (٨١): الآيات ١ الى ٢٩]
٣٥٨	اشاره
٣٥٨	اللغه
٣٦٠	إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ
٣٦٠	بينات من الآيات:
٣٨٦	سوره الإنفطار
٣٨٦	اشاره
٣٨٨	فضل السوره
٣٨٩	الإطار العام
٣٩٠	[سوره الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ١٩]
٣٩٠	اشاره
٣٩٠	اللغه
٣٩٢	يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ
٣٩٢	بينات من الآيات:
٤٠٨	سوره المطففين
٤٠٨	اشاره
٤١٠	فضل السوره
٤١١	الإطار العام
٤١٢	[سوره المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ١٧]
٤١٢	اشاره
٤١٣	وَيْلٌٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ
٤١٣	بينات من الآيات:
٤٣٠	[سوره المطففين (٨٣): الآيات ١٨ الى ٣٦]
٤٣٠	اشاره

هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٤٣١

بينات من الآيات: ٤٣١

سوره الانشقاق ٤٤٤

اشاره ٤٤٤

فضل السوره ٤٤٤

الإطار العام ٤٤٧

[سوره الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٢٥] ٤٥٠

اشاره ٤٥٠

اللغه ٤٥٠

إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ٤٥٢

بينات من الآيات: ٤٥٢

سوره البروج ٤٧٠

اشاره ٤٧٠

فضل السوره ٤٧٢

الإطار العام: ٤٧٣

[سوره البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢] ٤٧٤

اشاره ٤٧٤

اللغه ٤٧٤

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ٤٧٩

بينات من الآيات: ٤٧٩

تعريف مركز ٤٩٣

سرشناسه: مدرسی، محمدتقی، - ۱۹۴۵

عنوان و نام پدیدآور: من هدی القرآن / محمدتقی المدرسی

مشخصات نشر: تهران: دار محبی الحسین، ۱۳۷۷.

مشخصات ظاهری: ج ۱۸

شابک: ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۱-۱۱۷-۱۸؛ ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۲۰-۳۱۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۹-X۱۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۸-۱۱۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۷-۳۱۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۶-۵۱۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۵-۷۱۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۴-۹۱۰-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۳-۰۹-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۲-۲۸-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۱-۴۷-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۱۰-۶۶-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۹-۲۵-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۸-۴۴-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۷-۶۳-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۶-۸۲-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۵-X۱-ISBN ۹۶۴-۵۶۴۸-۰۴-۱۱۸۰۰۰۹۶۴-۵۶۴۸-۰۳-۳

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: عربی

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر شده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۴م ۱۳۷۷۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۷-۱۲۵۶۱

ص: ۱

اشاره

سوره المزمل

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

فضل السوره

عن أبی عبد الله الصادق-عليه السلام-قال: «من قرأ سوره المزمل في العشاء الآخرة في آخر الليل كان له الليل و النهار شاهدين مع سوره المزمل، و أحياء الله حياه طيبه، و أماته ميته طيبه».

تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٤٥

ص:٥

التوحيد هو قاعده الانطلاق و الهدف الرئيسى لكل رسالات الله، و يتمثل عمقه الأصيل فى علاقه الإنسان المخلوق بر به الخالق، و لقد تمحورت كثير من الآيات القرآنيه فيما تمحورت حول منهجه هذه العلاقه، بالتأكيد عليها كأصل من أصول الإسلام، و بيان خلفياتها و معطياتها و تفاصيل برنامجها، و المتدبر فى سوره (المزمل) يجدها تعالج هذا الموضوع من زاويه قيام الليل، و أقول: قيام الليل لأنّ هذا التعبير أوسع من قولنا: صلاه الليل، و أقرب لما يعنيه السياق و يندب إليه.

١- فى البدايه يخاطب الله رسوله المزمل فارضا عليه قيام الليل فرضا كالصلاه و الصيام و الجهاد، حيث قالوا: بأنه-صلى الله عليه و آله- قد خصّ بوجوب قيامه الليل دون أمته، و يبين أنّ الليل عنده و بالتالى عند عباده الصالحين ليس كما يزعم الناس: فرصه لاسترخاء النوم، لأنها هزيع من عمر الإنسان ينبغى أن يكون مثل النهار ساحه سعى نحو الفلاح و السعاده، و من ثمّ فإنّ الأصل فى حياه الفرد الرسالى أنّه يقوم الليل إلا قليلا نصفه أو ينقص منه قليلا، أو يزيد عليه، إلاّ

أن تعترضه الأسباب و الأعذار الشرعيه من مرض و ضرب في الأرض و قتال في سبيل الله و ما أشبهه، كما تبين الآيه الأخيره من السوره(الآيات ١/٤).

٢-و يعتبر الربّ-عز و جل-ترتيل القرآن(قراءته بصوت حسن و تدبّر) من أهم البرامج في قيام الليل،إلى حد يمكن اعتباره كافيًا عن سائر برامج الليل، ذلك لأنّ القرآن هو الوسيله العظمى للاتصال بربّ العزه،ولأنّّه تعالى لا يريد منّا قياما روحيا مجردا،بل يريد علاقته تنعكس على كل أبعاد الحياه،حتى تتحول إلى نهج حياه من خلال تدبر القرآن و العمل بآياته(الآيات ٤/٢٠).

٣-و مع أنّ المؤمن يواجه مصاعب من هذا التكليف الإلهي حيث تحديات النفس و حب النوم إلا أنّ ناشئه الليل في مقابل ذلك أنفذ إلى أغوار النفس«أشدّ وطأ»و أصدق حينما ينبعث الإنسان من النفس لإصلاح الآخريين«أقوم قيلا»أقوم لقول الإنسان و سلوكه على طريق الحق و السعاده،و بالذات إذا أخذنا بعين الإعتبار معادله الزمن اليومي المنشطره إلى وقتين:الليل و النهار،فإنّ البشر بحاجه ماسّه و هو يكابد مشاكل الحياه و تحدّياتها بالنهار إلى إرادته التحدي و الاستقامه على الطريقه المثلى دون تأثر بالطبيعه أو بعواملها تأثرا سلبيًا،و ذلك يعرج إليه و يستلهمه المؤمنون من قيام الليل،فلا يشطّون في سبح النهار الطويل عن الحق و الصواب قيد أنمله(الآيات ٥/٧).

٤-و إذا كان الجميع معيّون بقيام الليل فإنّ الرساليين بالذات مخصوصون بهذا الفرض الإلهي،و يتركز الأمر عند القيادة الرساليه إلى حدّ الوجوب بالنسبه للإمام المعصوم،و إلى قريب من ذلك عند سواه.و السبب أنهم المستأمنون على رساله الله و جنوده الذين يخوضون الصراع المبدئي الحضاري ضد الباطل،و يعلم الله كم هي التحديات و الضغوط و المشاكل التي يواجهها من يركب هذا الطريق،و بالتالي

كم هم بحاجة إلى زاد الإيمان ووقود التقوى.

و لن يفلح الرساليون في صراعهم حتى يعرجوا إلى قَمّة التوحيد، و التوكل على ربّ العزه، و الصبر على الأذى و الحق في سبيل الله، و من هذا المنطلق تأتي أهميه قيام الليل، و يتضح دوره الأصيل في المسيره الرساليه، باعتباره معراجا رئيسيا إلى تلك القمّة السامقه.

٥- و بعد أن يحذّر الله المكذبين أولى النعمه نفسه مذكرا بالآخره و عذابه الشديد فيها يذكّرنا تعالى بأنّ بعثه حبيبه الرسول- صلى الله عليه و آله- إلينا مظهر لسنته الجاربه في الحياه، حيث يبعث الرسل شهداء على الأمم (مبشرين و منذرين) محذرا إيانا من معصيه أوليائه لأنها تؤدي إلى الأخذ الوبيل في الدنيا، كما انتهت بفرعون و ملئه و جنوده، و أعظم من تلك العاقبه عذاب يوم القيامه «يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ «لا ريب فيه، و إنها لمن عظيم تذكره الله إلى خلقه» فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا «.

٦- و في الخاتمه يبين لنا القرآن اهتمام الرعيل الأول بقيام الليل (و في طليعتهم النبي الأعظم) الذين كانوا يقومون أدنى من ثلثي الليل و نصفه و ثلثه حسب الظروف، و يقدمهم أسوه للأجيال بعد الأجيال، معالجا في الأثناء موضوع الظروف الاستثنائيه و الأعدار الشرعيه التي تمنع من قيام الليل، و موجها إيانا إلى بعض التكاليف المفروضه، و داعيا إلى الاستغفار «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

ص: ٨

[سوره المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ٢٠]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ (١) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذُرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لِمَدْيَنَ أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مَنفُطْرٌ بِهِ كَانَ وَعِيدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَهُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

اللغة

٧[سبحا]:السبح:المنقلب و المنصرف،و أصل السبح من الثقلب و منه السباح في الماء لتقلبه فيه.

٨[تبتل]:انقطع إلى الله،و أصله من تبتت الشيء قطعته.

١٤]كثيبا]:الكثيب الرمل المجتمع الكثير.

[مهيلا]:هلت الرمل أهيله هيلا فهو مهيل إذا حرّك أسفله فسال أعلاه.

١٦[وييلا-]:كلّ ثقيل وييل، و منه كلاً مستوبل أى مستوخم لا يستمرأ لثقله، و منه الوابل و الوابل و هو المطر العظيم القطر، و منه الوبال و هو ما يغلظ على النفس، و الوبييل الغليظ من العصى.

ص:١٠

بينات من الآيات:

[١] [يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ] لقد وقف المفسرون طويلا عند هذه الآية، و اختلفوا فى معنى المتزمل، فقال بعضهم: المتزمل بعباءه النبوه، و المتحمل لأثقالها (١)، و علق العلامة الطباطبائى على هذا الرأى قائلا: و لا شاهد عليه (٢). و فى الكشاف: كان رسول الله صلى الله عليه و آله نائما بالليل متزملا- فى قطيفته فتبه بما يهجن إليه الحاله التى كان عليها من التزمل فى قطيفته و استعداده للنوم، كما يفعل من لا يهمله أمر و لا يعنيه شأن (٣)، و

روى فى الدر المنثور عن جابر قال: اجتمعت قريش فى دار الندوه، فقالوا: سموا هذا الرجل اسما نصدرك الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا:

ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، قالوا: يفرق بين الحبيب و حبيبه،

ص: ١٢

١- ١) تفسير مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٧٧ عن عكرمه.

٢- ٢) تفسير الميزان ج ٢٠ ص ٦٠.

٣- ٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٤٤.

فتفرّق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فتزمل في ثيابه و تدثر فيها (١)، و قيل كان يتزمل بالثياب أول ما جاء به جبرئيل خوفاً حتى أنس به، وإنما خوطب بهذا في بدء الوحي و لم يكن قد بلغ شيئاً، ثم خوطب صلى الله عليه وآله بعد ذلك بالنبي و الرسول (٢).

و قبل أن نبين رأينا في هذه الآيه الكريمه نسجل بعض الملاحظات حول بعض من الآراء، فإنّ ما علق به الزمخشري من حيث العبارة (يهجن... لا يهّمه أمر..

لا يعنيه شأن) و من حيث المعنى لا يليق بمقام حبيب الله و صفوه أنبيائه و رسله و هو المعصوم، و المهتم بأمر الرساله إلى حدّ كاد يهلك نفسه من أجلها، و تحمّل من الأذى لها حتى خاطبه ربّه سبحانه: «طه* ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى» (٣).

و كذلك لا يليق بمقامه صلى الله عليه وآله ما

روى في الدر المنثور من أنّه تأثر بإعلام الجاهليين سلبيا فتزمل و تدثر في ثيابه! أمّا ما قيل من أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يتزمل خوفاً أو ذهب إلى خديجه قائلاً: (زملوني زملوني.. دثروني دثروني) أول ما اتصل بالله عبر أمينه جبرئيل حتى أنس به.. هذا الرأى الذى تبناه بعض المفسرين، فإنّه أبعد ما يكون عن طبيعه الأنبياء و شخصيه سيدهم الأعظم صلوات الله عليهم.

و السبب أنّ فيه شيئاً من نسبه الشك في صحه الرساله و الاتصال بالله عنده صلى الله عليه وآله، و هذا نقيض قول الله عنه: «وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ* وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ* وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ» (٤)

ص: ١٣

١-١) تفسير الدر المنثور ج ٦ ص ٢٧٦.

٢-٢) تفسير مجمع البيان/ج ٥ ص ٣٧٧.

٣-٣) طه ٣/١.

٤-٤) التكوير ٢٣/٢٥.

و الذى يبدو لى أنّ كلمه «المزمل» تحتمل معنيين:

الأول: ما أشار إليه عكرمه بأنّه المحتمل لأعباء النبوه، فإنّ المتصدى لأمر الرساله و مسئوليه التغيير بها أوحج ما يكون إلى قيام الليل، يستمد منه روح الإيمان و إرادته الاستقامه على الصراط الملىء بالمصاعب و التحديات. جاء فى المنجد: زملا الشىء: حملة، ازدمل الحمل: حملة بمزّه واحده، الزمل: الحمل (١).

الثانى: الذى لّف عليه ثيابه أو غطاءه على وجه الوصف لحال النبى حين نزل الوحي عليه بهذه الآيات، و هو ظاهر اللفظ و فى الخطاب بهذه الكلمه فائدتان:

أولاً: تلطف و تعطف و دلالة على قرب الرسول من ربه حتى يخاطبه بمثل هذا التعبير الذى يجرى بين الأحبه.

و ثانياً: التوسّع إلى كلّ من يتزمل للنوم، فإن الحديث يشمل انطلاقا من قاعده: (إياك أعنى و اسمعى يا جاره) التى نزلت بها آيات الذكر الحكيم.

على أنّ المعنى الأول هو الآخر يتسع لكلّ من تحمّل أعباء الدعاء إلى الله، و ليس فى هذا التعبير أدنى مساس بعظمه الرسول صلى الله عليه و آله - كما زعم البعض - فإنّه بشر مثلنا يحتاج إلى الراحة و النوم. و لعل الرسول كان ينام أول الليل ليقوم فى منتصفه و آخره، موصلاً قيامه بالليل بصلاه الصبح كما نقل عنه، و يقوى هذا الاحتمال اللغه حيث جاء فيها: زملا الشىء بثوبه أو فيه: لّفه (٢).

[٢] و حيث ينتفض كلّ مزّمّل على نداء الوحي الإلهى المتوجه إليه يجد نفسه

ص: ١٤

١- ١) المنجد: ماده زملا.

٢- ٢) المصدر.

[قم الليل] و لم يقل: (صل) لأنّ التعبير بالقيام أشمل من الصلاه، فالقيام يشمل الصلاه المخصوصه و غيرها، و كذلك الدعاء و قراءه القرآن و التفكير و الاستغفار، و الذى يستتبع محاكمه الماضى بالمحاسبه الذاتيه و التفكير المنهجى فى المستقبل. إذن فالليل ليس لمجرد النوم و الراحة، كلاً.. إنما هو فرصه المؤمنين الذهبيه للعروج نحو الكمال الروحى و العقلى، و الاتصال برّب العالمين.. و من ثمّ التخطيط السليم للمستقبل، سواء مستقبل الآخره البعيد، أو مستقبل الغد القريب فى الدنيا، حيث السبح الطويل كلّ نهار. و يتميّز الليل عن النهار بهدوئه و صفائه، و كون الإنسان فيه بعيداً عن كثير من المؤثرات التى تواجهه فى النهار، و لذلك جعله الله ميعاد لقائه بعباده الصالحين.

إنّ الإسلام يريد لأتباعه أن يقودوا البشريه، و يشيدوا على هداه سعادتها الخالده، و ذلك بحاجه إلى العزيمه العالیه، و الإراده الصلبه، و مناجاه الله الذى من عنده كلّ خير و سعاده.. و قيام الليل يؤمن لهم كلّ ذلك، كما أنّ بلوغ ذلك الهدف رهين السعى المستمر نحوه و الذى لا يكفيه النهار ممّا يدعو المؤمنين إلى مواصله السعى فى النهار بقيام الليل، بقيام الليل، فلا ينامون إلا قليلاً، بل: إنّ الهدف عظيم، و الفرصه قصيره، فلا بدّ إذن من سعى مضاعف، يسخّرون فيه ما يمكنهم من طاقاتهم، و ينتهزون لأجله ما يمكن من الوقت.

□
[إِلَّا قَلِيلًا] من عمرهم يخصصونه لراحه أبدانهم كحاجه طبيعیه تفرض نفسها على كلّ

مخلوق، وحيث يستريحون بالنوم فليس لذاته، بل لينهضوا من بعده إلى عمل دؤوب و إنجازات عظيمه، فإذا بك تدرس حياه أحدهم لتقسم إنجازاته على أيام عمره تجده أحيانا يسبق الزمان بإنجازاته الكبيره، و على عكسهم أولئك الذين يستسلمون لحب النوم و الراحة، فإن واحدهم يعيش ثمانين عاما في ظاهر الأمر و لكنك حينما تقيم حياته على أساس الأعمال و المنجزات تجده لم يعيش أكثر من عشرين أو ثلاثين سنه، لأنه كان ينام ساعات طويله في اليوم، أما أوقات يقظته فإنها تضيع بين غفله و لهو و لعب.

بلى. إن الله يريد لنا أن نقوم النصف الآخر من أعمارنا، و الذي عاده ما يخسره الناس، قياما نعمره بالعمل الصالح، و أى عمل صالح أفضل من التقرب إليه تعالى، و التدبر في كتابه، و استثاره العقل بآياته فيه و في الطبيعه؟ و إذا كان الأمر القرآني «قم» ظاهر في الوجوب بالنسبه إلى النبي و المعصومين -عليه و عليهم الصلاه و السلام- و محمول على الاستحباب لمن سواهم فإن المتقين يتلقونه على وجه الفرض عمليا، بحيث يلتزمون قيام الليل كالترامهم بالصلوات اليوميه، انطلاقا من تحسس أهميه هذا الأمر و دوره في حياتهم و شخصيتهم و حركتهم، و إيمانا بأن القرآن موجّه آياته إلى كل فرد فرد، و إليهم بصوره أخص من العالمين.

[٤/٣] و بعد أن أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و من خلاله كل مؤمن بقيام الليل إلا قليلا - كأعلى و أفضل نسبه للقيام، يضعنا أمام ثلاثه خيارات أخرى:

[نَصِيْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيْلًا* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ] و قد اختلف في الضمير المتصل بكلمه النصف هل هو عائد على الليل أو على القليل، و بالتالى اختلف نحويا في كون «نصفه» بدلا عن أيهما؟ فقال البعض

و من بينهم شيخ الطائفة: نصفه بدل من الليل، كقولك: ضرب زيدا رأسه (١)، و قيل: أنه بدل من القليل، فيكون بيانا للمستثنى، و يؤيد هذا القول ما

روى عن الصادق عليه السلام قال: «القليل النصف، أو انقص من القليل قليلا، أو زد على القليل قليلا» (٢)، و الأقرب - كما يبدو لي - أن الضمير في «نصفه» عائد إلى الليل فيكون المعنى: قم كلَّ الليل إلا قليلا، أو نصفه، أو أقل من النصف بالانقاص منه قليلا، أو أكثر من النصف بالزيادة عليه.

و نستطيع أن نقول: بأن المقصود من الليل في قوله: «قم الليل» هو الجنس، و أن المستثنى بعضه، فيكون المعنى: قم كلَّ الليالي إلا قليلا و بعضها، و هي - كما عثر صاحب المجمع - ليالي العذر كالمرض و غلبه النوم و غلبه العين و نحوها (٣)، و يؤيد ذلك ما

رواه محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام - قال: سألته عن قول الله تعالى: «الآية» قال: «أمره الله أن يصلّى كلَّ ليلة إلا أن تأتي عليه ليلة من الليالي لا يصلّى فيها شيئا» (٤) لعذر من الأعذار.

و السؤال: لما ذا أمر الله بالقيام على شبه من التردّد بين أربعة خيارات دون تحديد؟ لعله للأسباب التالية:

١- لأنّ الفرض المحدّد أمر مستحيل في بعض الظروف حتى بالنسبة إلى الرسول و المعصومين الذين يجب عليهم قيام الليل وجوبا شرعيّا عينيّا، ذلك أنّ الإنسان من الزاوية الواقعية عرضه للظروف المتغيرة التي لا يمكنه مقاومتها، كالمرض و الحرب و الظروف الأمنية،

قال عليّ بن أبي طالب: «خير الله نبيّه صلى الله عليه و آله في هذه

ص: ١٧

١- ١) التبيان ج ١٠ ص ١٦٢.

٢- ٢) تفسير مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٣٧٧.

٣- ٣) المصدر.

٤- ٤) تفسير الميزان ج ٢٠ ص ٧١ عن كتاب التهذيب.

الساعات القيام بالليل، وجعله موكولا- إلى رأيه، وكان النبي صلى الله عليه وآله وطائفه من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير، وشق ذلك عليهم، فكان الرجل منهم لا يدري كم صلى، وكم بقى من الليل، فكان يقوم الليل كله مخافه أن لا يحفظ القدر الواجب حتى خفف الله عنهم بآخر السوره « (١) الذي يشير القرآن فيه إشاره واضحه لواحد من أسباب تعدد الخيارات.

٢- ثم أنّ وضع المكلف أمام خيارات متعدده تختلف فى ثقلها على النفس وفضلها عند الله، لا فرق بين درجه التكليف هل هى الوجوب أو الندب والاستحباب، يكشف عن مدى إيمانه وإرادته حين يختار بنفسه أيها شاء، وفى ذلك نوع من الامتحان الإلهى للمؤمنين.

٣- كما نهتدى من ذلك بالنسبه لغير النبي صلى الله عليه وآله إلى استحباب قيام الليل لا وجوبه كحكم شرعى، وقد اعتبر الفقهاء الاختلاف فى النصوص ضيقا وسعه، وكثره وقلة، دليلا على الاستحباب، وذلك أنّ الفرض الواجب يكون محددا.

وقيام الليل- كما تقدّمت الإشارة- لا ينحصر فى عدد من الركعات والأذكار وحسب، بل هو برنامج متكامل للجسم والروح والعقل، وذلك بما يتضمّنه من صلاه ومناجاه وتلاوه للقرآن، يعرج من خلالها القائمون بالليل إلى آفاق الإيمان والمعرفه، وبالذات منها ترتيل القرآن الذى يحقّق تسامى الروح وافتتاح العقل معا، ممّا يسبّب فى آن واحد عروج الإنسان إلى مراتب الكمال.

وإنّ قراءه القرآن وتدبّر معانيه روح قيام الليل، فهو عهد الله للإنسان، وحبلى الممدود من السماء إلى الأرض، ونهجه الذى يداوى به أدواءه ويصل إلى السعاده عبره، فمنه يستمدّ روح التوحيد والتوكل والصبر، ومن آياته يستلهم بصائر الهدى

ص: ١٨

و الحق فى كل ميدان من الحياه، لينطلق بالنهار على هدى من ربه، و بين يديه بلسم لكل داء، و حل لكل مشكله، و رؤيه صائبه فى كل قضيه و حركه فى الحياه، فرديه أو اجتماعيه، و فى أى حقل من حقولها، بلى. إن قراءه القرآن بذاتها بركه و حسنه عظيمه، و لكن هدف القرآن أعظم من مجرد التبرك، بل إن خيرها الأكبر لا يحصل إلا باستثاره العقل به، و تدبر معانيه. أ و لم تسمع قول الله عز و جل: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ»؟ و التدبر فيه ليس لمجرد الفهم و إنما للعمل و التطبيق أيضا، و لهذا يربط القرآن نفسه بين ترتيله بالليل و السبح الطويل بالنهار. و لأن القراءه بذاتها ليست هدفا يأمرنا الله بقراءه آياته على وجه مخصوص هو الترتيل.

وَ رَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا وَ الترتيل هى القراءه الحسنه و المتأنيه المصحوبه بالتفكر و التدبر،

فعن عبد الله بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) عن قول الله عز و جل: «الآيه»، قال «قال أمير المؤمنين عليه السلام: بينه بيان، و لا تهذه هذ الشعر، و لا تنثره نثر الرمل، و لكن أفرعوا قلوبكم القاسيه، و لا يكن هم أحدكم آخر السوره» (١) و

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن القرآن لا يقرأ هذر مه (بسرعه) و لكن يرتل ترتيلا، فإذا مرت بآيه فيها ذكر الجنة فقف عندها، و اسأل الله -عز و جل- الجنة، و إذا مرت بآيه فيها ذكر النار فقف عندها، و تعوذ بالله من النار» (٢) و

قال عليه السلام: «هو أن تتمكث فيه، و تحسن به صوتك» (٣) و عن أم سلمه: كان رسول الله يقطع قراءته آيه آيه (٤) و عن أنس

ص: ١٩

١-١) تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٤٤٦.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) المصدر ص ٤٤٧.

٤-٤) المصدر.

قال: كان يمدّ صوته مدّا (١)، و

يصف الإمام على - عليه السلام - المتقين كيف يتعاملون مع القرآن عند قيام الليل فيقول: «أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دوائهم، فإذا مرّوا بآيه فيها تشويق ركنا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنّوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها فى أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعالى فى فكاك رقابهم» وهذا ينعكس بالنهار على شخصياتهم ماديا ومعنويا، حيث يضيف الإمام - عليه السلام - قائلا: «و أما النهار فحلما علماء، أبرار أتقياء» (٢).

و المعنى اللغوى للترتيل يلتقى مع ما تقدّم، يقال: رتل الشيء: تناسق و انتظم انتظاما حسنا، فهو رتل، و رتل الكلام: أحسن تأليفه إلى بعضه، و القرآن تأنق فى تلاوته، و الرتل فى المصطلح العسكرى صفّ الجنود أو الآليات المتراص، و قيل:

خفض الصوت عند القراءة (٣).

[٦/٥] و يبين الله واحده من الخلفيات الأساسيه التى تكشف أهميه قيام الليل، و ذلك ببيان دوره الأساسى فى بناء الشخصيه الرساليه القادره على تحمّل مسئوليته الوحي، فالأمانه الإلهيه ثقيله لأنّها تخالف أهواء الإنسان و حبه للراحه و الاسترسال، و الموقف السليم منها ليس الهروب من حملها، و إنّما العروج بالنفس إلى مستوى حملها بالتركيه و التربيه و التعليم من خلال البرامج المختلفه، و من بينها و أهمّها قيام الليل على الوجه الذى أشارت إليه الآيات الآنفه.

ص: ٢٠

١-١) المصدر.

٢-٢) نهج البلاغه خ ١٩٣ ص ٣٠٤.

٣-٣) المنجد/ماده رتل بإضافه و تصرف.

[إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا] قال عبد الله بن عمر: أى سنوحى إليك قولاً يثقل عليك و على أمتك (١)، وقيل «ثقيلاً»: لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق، و نفس مؤيده بالتوحيد، وقيل: عظيم الشأن، كما يقال: هذا كلام رصين، و هذا الكلام له وزن إذا كان واقعا موقعه (٢)، وقيل هو: ثقیل فى الميزان يوم القيامة، و قال القرطبي: هو متصل بما فرض من قيام الليل، أى سنلقى بافتراض صلاه الليل قولاً - ثقيلاً - يثقل حمله، لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك إلا بحمل شديد على النفس، و مجاهد الشيطان، فهو أمر يثقل على العبد (٣)، و ذهب البعض إلى تفسير مادى لمعنى الثقل مستدلاً بمرويات غير محققه كقول عائشه: إنه كان ليوحى إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و هو على راحلته فتضرب بجرانها (٤) (أى تضرب بمقدم عنقها إلى مذبحها الأرض) و

فى روايه:

كانت تبرك الدابه على الأرض من ثقل الوحي. و أن جبين الرسول صلى الله عليه و آله ليرفض عرفاً (٥).

و الذى أختاره: أن الثقل هو الثقل المعنوى قبل أن يكون الثقل المادى، و إذا صحّت الروايات المتقدمه حول ما يتركه نزول الوحي من أثر مادى على رسول الله صلى الله عليه و آله و على دابته من باب «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» فإنها مظاهر و دلالات على الآثار و الحقائق المعنويه ليس إلا.

و لا- ريب أن القرآن قول ثقيل باعتباره يحمّل الإنسان مسئوليات عظيمه كمسؤوليه الاستقلال و التغيير و التزكيه و تحدى الباطل، و لذلك فالإنسان بحاجة إلى قيام الليل

ص: ٢١

١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٤٧.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٧٨.

٣-٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ٣٨.

٤-٤) تفسير نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٤٧.

٥-٥) المصدر.

ليسموا إلى احتمالها، وهكذا تجد السياق يبين الصلة بين ثقل القرآن و بين قيام الليل، فيبين أن الصلاة و التهجد و الحاله النفسيه المنبعثه منها إذا نشأ كل ذلك بالليل كان أفضل منه إذا نشأ بالنهار.

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ وَ النَّاشِئَةَ فِي اللَّغَةِ مِنْ نَشْأِ اللَّيْلِ أَى أَحْدَثِهِ، وَ اللَّهِ: خَلْقُهُ، وَ الْحَدِيثُ أَوِ الْكَلَامُ: وَضَعُهُ وَ ابْتِدَاءُهُ، وَ سَمَّيْتَ سَاعَاتِ أَوَّلِ اللَّيْلِ نَاشِئَةً لِابْتِدَاءِ اللَّيْلِ بِهَا (١)، وَ عِنْدَنَا: مَا يَنْشَأُ بِاللَّيْلِ مِنْ عِبَادَةِ رُوحَانِيهِ أَوْ بَصِيرِهِ عَقْلَانِيهِ أَوْ حَكْمِهِ رَبَانِيهِ. أَمَّا الْمَفْسُورُونَ فَذَهَبُوا إِلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا رَكَعَتَانِ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرَبِ (لَعَلَّهَا الْغَفِيلَةُ، وَ قِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ) (٢)، وَ الْآخَرُ: أَنَّهَا قِيَامُ اللَّيْلِ،

ففى مجمع البيان عن الباقر و الصادق عليه السلام : هى القيام فى آخر الليل إلى صلاه الليل (٣)، و هو الأقرب إلى سياق السوره كما سبق.

هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ شَدَّه الْوَطْأُ بِمَعْنَى ثَبَاتِ الْقَدَمِ الَّذِى يَعْكُسُهُ ثِقَلُ الْوَطْأِ وَ شَدَّتْهَا، فَالْوَطْأُ الشَّدِيدُ عَلَى الْأَرْضِ أَثْبَتَ لِلْقَدَمِ، قَالَ قَتَادَةُ: أَثْبَتَ فِي الْخَيْرِ (٤)، وَ قَالَ الْفَرَّاءُ: أَشَدُّ ثَبَاتِ قَدَمٍ، لِأَنَّ النَّهَارَ يَضْطَرِبُ فِيهِ النَّاسُ، وَ يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ لِلْمَعَاشِ (٥). وَ لَا رَيْبَ أَنَّ الْاسْتِقَامَةَ عَلَى طَرِيقِ الرِّسَالَةِ أَمْرٌ مُسْتَصْعَبٌ بِحَاجَةِ إِلَى الْإِرَادَةِ الصَّلْبَةِ وَ الرُّوحِ الْعَالِيَةِ، حَتَّى يُوَاجِهَ الْإِنْسَانَ بِهِمَا تَحْدِيَاتِ الْاسْتِقَامَةِ عَلَى الْحَقِّ... وَ قِيَامُ اللَّيْلِ

ص: ٢٢

١- (١) المنجد/ماده نشأ.

٢- (٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٤٨ نقلا عن الكافي.

٣- (٣) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٧٨.

٤- (٤) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٧٨.

٥- (٥) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٧٥.

بقراءه القرآن و التدبر فيه و الدعاء و الاستغفار يعطى إرادته الثبات و روح التحمل و عند هذه الآيه ينبغى أن ندرس حياه الأجيال الأولى من المسلمين الذين صنعوا المنجزات العظيمه فى التاريخ، و غيروا مسيره الإنسانيه، فإنهم لا ريب كانوا يستلهمون من قيامهم الليل و ما إلى ذلك همّتهم العالیه، و إرادتهم الصلبه، فكانوا رهبان الليل و فرسان النهار.

كما أنّ ناشئه الليل ثقيله على النفوس لأنّ القائم لأدائها يواجه تحدى النفس التى يغالبها النعاس، و تحن إلى الفرار من المسؤوليّه، و تفضّل الراحة الجسديه على لقاء ربها الجبار، و تواجه كذلك تحدى الشيطان الذى يوسوس إليها بالتسويق، لها بالنوم بعذر أو آخره، و هكذا يكون قيام الليل منطلقا لإصلاح جذرىّ فى النفس و المجتمع، فهو إذا عمليه صعبه، و قد أشار القرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى:

« وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلَاةِ وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » (١).

و هكذا رأى بعضهم أنّ المراد من شدّه الوطأ صعوبه صلاه الليل ذاتها، قيل:

أثقل و أغلظ على المصلى من صلاه النهار، و هو من قولك: اشتدت على القوم و وطأه السلطان... فأعلم الله نبيّه أنّ الثواب فى قيام الليل على قدر شده الوطأ و ثقلها، و نظير

قوله صلى الله عليه و آله: «أفضل العبادات أحمرها» (٢) و قيام الليل حمز (صعب) لأنه يخلق توازن الشخصيه عند الإنسان لتكون قائمه على أسس رشيده على قيم الوحى و هدى العقل و تجارب البشر، فإذا برهبان الليل طاهره ألسنتهم عن الغيبه و الشتم و سائر الأخطاء و الذنوب المنطقيه التى من بينها شهاده الزور، لأنّ قيامهم بالليل يزيل من قلوبهم العقد، و يزرع فيها التقوى، كما يجعلهم يفكّرون فى كلامهم قبل النطق به، و يزنونه بميزان الحق و الصواب، الأمر الذى يعلمهم يصيبون الحق حين

ص: ٢٣

١-١) البقره ٤٥.

٢-٢) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٧٦.

يتكلمون، فإذا سكتوا تفكروا، وإذا نطقوا تفجرت الحكمة من جوانبهم، كما

وصفهم سيدهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «منطقهم الصواب» (١).

وَ أَقْوَمُ قِيلاً- أى أنهم أصوب للحق بجهاته المختلفه من غيرهم على الإطلاق، فهم الأقوم (يعنى الأفضل)، قال الفخر الرازى مفسرا الآيه: أحسن لفظاً، وقال أنس: أصوب وأهياً وأحد (٢)، وهذا أمر طبيعى لأنّ القائم بالليل يتصل بقول الله و وحيه (القرآن) و يؤسس به تفكيره و منطقته فى الحياه، و هو الذى يهديه للتي هى أقوم كما نعتة عزّ و جل، و لأنّ إثارة العقل بالتفكير فى آيات الله ليلا يرسم السبيل للمنطق الأقوم عند السبح و الكلام فى النهار.

و إذا اعتبرنا القرآن من مصاديق القول الثقيل الذى ألقاه الله على رسوله و على أتباعه فإنّ ناشئه الليل التى تهيأ القلب لاستقباله تجعله أهياً و أصلح لفهم معانيه و ثبوته فيه و العمل به.

[٧] إنّ مسئوليات الليل تتكامل- فى منهج المؤمن- مع مسئوليات النهار الذى يستوعب انتشارا واسعا، و سبحا طويلا.

إِنَّ لَمَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا- هناك رأيان كلاهما ينتهى لعلاج التوهّم بالتناقض بين مهام الإنسان فى الليل و مهامه فى النهار، فالإسلام يعتبر الإثنين يتكاملان:

ص: ٢٤

١-١) نهج البلاغه خ ١٩٣ ص ٣٠٣.

٢-٢) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٧٦.

الرأى الأول: السبح بمعنى: المهام و العمل، يقال: سبّح القوم: تقلّبوا و انتشروا فى الأرض (١)، فكأنّ القرآن يريد القول لنا بأنّ للمؤمن مسئوليتين:

إحداهما بالنهار على عشرات المهام و الأمور، و الأخرى بالليل تتحدد بقيامه، و مهما كانت المسئولية فى النهار كبيره طلب علم، أو جهاد فى سبيل الله، أو سعى للرزق الحلال) فإنّه من الخطأ استعاضه مسئوليه الليل بالنهار، لأنّ العالم لو لم يخلص لكان ضرر العلم عليه و على الناس أكبر من نفعه، و الذى يجعل العلم مفيدا، و العالم ملتزما برسائله فى الحياه، فلا يزيّف الحقائق، و لا يبيع نفسه و علمه على أيّ حكومه و طاغيه و مترف، هو الإيمان الذى يستلهمه من قيام الليل.

إنّ حاجه المؤمن لقيام الليل فى أىّ خندق كان هى حاجه ملّحه و أكيدة، لأنّ سبحة الطويل بالنهار جسد لا بد له من عقل و روح لا يجدهما إلاّ فى الاتصال بالله و إتباع وحيه. و إنّه لخطأ فظيح أن يقبل الإنسان على سبّح النهار الطويل و يخوض لججه من دون إعداد كاف، و إنّ الإمام عليا عليه السلام ليؤكد بأنّ ما يصير إليه المتقون من الفضيله بالنهار إنّما هى ثمره قيامهم بالليل، و ذلك حينما قال و

قد وصف شأنهم بالليل كما سبق: «و أما النهار فحلما علماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف يرى القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، و ما بالقوم من مرض، و يقول: لقد خولطوا، و لقد خالطهم أمر عظيم! لا- يرضون من أعمالهم القليل، و لا- يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متّهمون، و من أعمالهم مشفقون، إذا زكّى أحد منهم خاف ممّا يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسى من غيرى، و ربى أعلم بى من نفسى. اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون، و اجعلنى أفضل مما يظنون، و اغفر لى ما لا يعلمون» (٢).

الرأى الثانى: السبح بمعنى الفراغ و الفرصه، قال الجبائى: إن فاتك شىء بالليل

ص: ٢٥

١-١) المنجد: ماده سبّح.

٢-٢) نهج البلاغه خ ١٩٣ ص ٣٠٤.

فلك فى النهار فراغ تقضيه (١)، و جدير أن نقل هنا ما قاله العلامة الطبرسى: إن مذهبك فى النهار و مشاغلك كثره، فإنك تحتاج فيه إلى تبليغ الرسالة، و دعوه الخلق، و تعليم الفرائض و السنن، و إصلاح المعيشه لنفسك و عيالك، و فى الليل يفرغ للتذكرة و القراءه، فاجعل ناشئه الليل لعبادتك، لتأخذ بحظك من خير الدنيا و الآخرة، و فى هذا دلالة على أنه لا عذر لأحد فى ترك صلاه الليل لأجل التعليم و التعلم، لأن النبى صلى الله عليه و آله كان يحتاج إلى التعليم أكثر مما يحتاج الواحد منا، ثم لم يرض أن يترك حظه من قيام الليل (٢)، فلا يصح أن يتعلل المؤمن بشيء عن قيامه، ففى النهار فرصه كافيه للمهام الأخرى، أما الليل فإنه بالدرجه الأولى موضوع للقيام.

[٨]

فى حديث معروف: إن شئت أن يكلمك الله فاقرأ القرآن، و إن شئت أن تتكلم مع الله فناجه، و هكذا المؤمنون فى قيامهم الليلي تراهم يبادلون ربهم الحديث، فمره يتلون الكتاب و أخرى يذكرون ربهم بالدعاء، كما أمرهم الله فقال:

وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ ذَكَرَ اللَّهُ هُوَ مَخِ الْعِبَادَةِ، بل هو الهدف الرئيسى فى الإسلام، لأن نسيانه تعالى سبب كل انحراف فى حياه الإنسان. و قال: «اسم ربك» لأن المخلوق عاجز عن معرفه الذات و الاتصال بها مباشره، فجعل الله أسماء ذرائع العباد و وسائلهم إليه، و ذكر أسماء الله ليس بتلفظ حرفها و حسب، بل بالإيمان بها و معرفته من خلالها، إذ لكل اسم منها انعكاس فى خلقه.

و لقوله: «اسم» بالإفراد دلالة على الإطلاق الذى يفيد استخدام أى اسم من

ص: ٢٤

١-١) التبيان ج ١٠ ص ١٦٣.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٧٨.

أسمائه الحسنی، و هو الأقرب، لأنّ ذكر الله يتم بذكر اى من أسمائه، كما قال عزّ و جلّ: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» (١).

و الذكر الحقیقی ليس مجرد التلفظ بأسماء الله، بل هو إضافة إلى ذلك تعميق الصلّه به، فى آفاق توحیده، و الانقطاع إليه، و لذلك يردف الله مع الأمر بالذكر أمراً بالتبتّل.

وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَبُّلاً

روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام: «و أمّا التبتّل فأيماء بإصبعك السبابة» (٢)، و

روى زراره و حمران عن أبى جعفر و عن أبى عبد الله -عليهما السلام -: «إنّ التبتّل هنا رفع اليدين فى الصلاه» (٣)، و

عن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «التبتّل أن تقلّب كفيك فى الدعاء إذا دعوت» (٤)، و قد أشار جملة من المفسرين إلى أنّ المعنى هو الإخلاص فى الدعاء، و ما الإيماء بالإصبع، و رفع اليدين، و تقليب الكفّ إلا مظاهر له، فمثلها مثل الركوع و السجود و القنوت، و الأصل اللغوى للكلمة يهدينا إلى هذا المعنى، قال شيخ الطائفة: فالتبتّل الانقطاع إلى عباده الله، و منه: مريم البتول و فاطمة البتول، لانقطاع مريم إلى عباده الله، و انقطاع فاطمة عن القرين (لو لا على). و قيل: الانقطاع إلى الله تأميل الخير من جهته دون غيره (٥)، و أضاف الفخر الرازى: و قيل: صدقه بتله منقطعه من مال صاحبها، و قال الفراء: يقال للعابد إذا ترك كل شىء و أقبل على العبادة قد تبتّل، أى انقطع عن

ص: ٢٧

١-١ (الإسراء ١١٠).

٢-٢ (نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٥٠).

٣-٣ (مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٧٩).

٤-٤ (نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٤٩).

٥-٥ (التبيان ج ١٠ ص ١٦٤).

كُلُّ شَيْءٍ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ (١)، و في الدر المنثور عن قتاده: « وَ تَبَتَّلَ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » قال: أخلص له الدعوه و العباده، و عن مجاهد: أى أخلص المسأله و الدعاء إخلاصا.

و اختلف في «تبتيلا» لماذا جاء بهذه الصيغه، بينما يعتبر مصدر التبتل في هذه الآيه، فذهب البعض إلى ما لا يليق بأدب الوحي و عظمته، إذ قالوا: لمراعاه الفواصل (٢)، و يبدو أنّ التبتل مصدر كلمه أخرى أشير إليها، فكانت العباده تحتمل معنيين: الأول: الانقطاع الجدى، و عبّر عنه بكلمه «و تبتل»، و الثانى:

الانقطاع المره بعد الأخرى، و عبّر عنه بالمصدر «تبتيلا»، على أنّ الكلمه الأولى جاءت بصيغه التفعّل، و الثانى بصيغه التفعيل. و يبدو أنّ الكلمه تفيد التأكيد على التبتل و أن يكون حقيقيا، فليس كلّ مظهر تبتّل يحسب تبتّلا عند الله، و التبتل على وزن التفعّل الذى يعنى المداومه و العود إليه حيناً بعد حين، و ذلك أنّ الإنسان عرضه للانحراف و للتأثر بالعوامل السلبيه فى كلّ لحظه. إذن فهو بحاجة إلى مداواه هذه المعضله بالإلحاح على الانقطاع إلى الله، و التبتّل إليه حيناً بعد حين.

[٩] و يتعمّق ذكر الله و التبتل إليه فى نفس الإنسان و على جوارحه حينما يتأسسان على المعرفه به سبحانه، و غايه معرفته توحيده و التوكل عليه، و هذه هى الزاويه التى تنتظم من خلالها الآيه التاسعه فى سياق السوره حيث تعرفنا بربنا.

رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ قال صاحب المجمع: أى ربّ العالم بما فيه لأنه بين المشرق و المغرب، و قيل:

رب مشرق الشمس و مغربها (٣)، و الإطلاق هو الأقرب بصرف المعنى للمشرق

ص: ٢٨

١-١) التفسير الكبير/ ج ٣٠ ص ١٧٨.

٢-٢) الميزان ج ٢٠ ص ٦٥.

٣-٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٧٩.

والمغرب و ما بينهما، فكل الكائنات بمفرداتها آيات على ربوبيته، و أنها مخلوقات له عزّ و جل. و فى الآيه تناسب بين الاشاره إلى حركه الشروق و الغروب الكونيه و بين اسم (الرب) باعتبارهما مظهر و آيه للربوبيه التى تعنى الإنماء و التجديد و الإضافه فى الخلق، كما هناك تناسب مع قيام الليل و السبح بالنهار لارتباطهما بشروق الشمس و غروبها.

و حيث يطوف الإنسان بنظره و فكره متدبراً فى المشرق و المغرب و ما بينهما تتأكد له حقيقه التوحيد، إذ يكتشف أنّ كلّ شىء مخلوق لا يصح الاعتماد عليه؛ لأنّ له شروقا و غروبا، إلاّ الربّ الواحد الأحد الذى كان قبل الإنشاء، و يبقى بعد فناء الأشياء.

لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا - لا - تتخذ غيره، لأنّ الغير متغير، لا - ينبغى الاعتماد عليه؛ لأنّ ما سوى الله عرضه للزوال و الفناء. قال العلامة الطبرسى: أى حفيظا للقيام بأمرك، و قيل:

فاتخذه كافيا لما وعدك به، و اعتمد عليه، و فوّض أمرك إليه تجده خير حفيظ و كاف (١)، و فى فتح القدير: أى إذا عرفت أنّه المختص بالربوبيه فاتخذه و كيلا (٢).

[١٠] و حاجه الإنسان الرسالى إلى التوكل على الله و توحيدهِ و التبتل إليه و ذكره، و بالتالى حاجته إلى قيام الليل، حاجه ملحه تفرضها مسيرته الجهاديه الصعبه، حيث التحدييات التى يواجهها. و لو لا التوكل على الله و الاستمداد منه انحرف عن الصراط المستقيم شيئا كثيرا أو قليلا.

ص: ٢٩

١-١) المصدر.

٢-٢) فتح القدير/ج ٥ ص ٣١٨.

و من أعظم تلك التحديّات و الضغوط ما يقوله الأعداء ضد المؤمنين و بالخصوص قيادتهم، و ذلك أنّ الاعلام السلبي من أهمّ أسلحتهم الخطيره التي يوجّهون حرابها ضدهم، فإذا بهم يسعون لتشويه سمعه الرّساليين، و على المؤمنين أن يواجهوا ذلك بالصبر و الهجران الجميل.

وَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا- و الهجر الجميل هو المقاطعه بحكمه، و بعيدا عن الإثارة، لأنّ الهجر حينما يخرج عن سياق الحكمه قد يتحوّل إلى صراع مادّي حادّ في ظروف غير مناسبه، ممّا يضر أكثر ممّا ينفع، قال الفخر الرازي: الهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه و هواه، و يخالفهم مع حسن المخالفه و المداراه و الإغضاء، و ترك المكافاه (1).

إنّ الإسلام يريد للإنسان أن يبنى شخصيته و مواقفه على أساس الاستقلال، فلا يتأثر بردّات الفعل كالكلام السلبي الذي يوجّه ضده، بل يمضى قدما في تنفيذ خطّته الحكيمه التي رسمها لنفسه، دون أن يستفزّه الآخرون، و يسيرونه حسب خطّتهم، و يفرضوا عليه ساعه المعركه و طريقتها و أرضها، و من هنا فإنّ الصبر لا يعنى عدم اتخاذ الخطوات اللازمه تجاه تحديّات الأعداء، بل يعنى الانتظار حتى تحين الفرصه المناسبه حسب الخطه المرسومه، و كلّ ذلك يوفّره قيام الليل و التوكّل على الله.

و التعبير القرآني دقيق للغاية حيث قال تعالى: «وَ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ» أى أنّ ما يقوله الآخرون لا ينبغي أن يزلزل الرّساليين عن مواقفهم الصحيحه إلى غيرها، فقد يصعد المستكبرون و المترفون حربهم الإعلاميه ضدّ قيمه من القيم الإلهيه كالحجاب على أساس أنّه لون من ألوان الإرهاب، و هكذا الجهاد من أجل التحرّر

ص: ٣٠

و الاستقلال... فيجب على الرسالين أن يصبروا و يتجرّعوا كلمات الشتم و التجريح، و ضغط الاعلام، لا ان يتنازلوا عن قيمهم و يداهنوا فيها.

و قد نستوحى من الهجر الجميل أنه القائم على أساس العدل و الحكمه، فلا ينبغي أن يهجر المؤمن طرفا هجرا كاسحا، فيخس الناس أشياءهم، و لا يعترف لهم بأيّ إيجابيه، أو يقطع صلته معهم إلى حدّ يحرم نفسه إيجابياتهم... و بتعبير آخر:

ينبغي أن نصف الناس -حتى أعدائنا- من أنفسنا، فلا تصحب المقاطعه و الهجر عمليه إسقاط للآخرين بعيده عن حدود الله و شرائعه.

[١١] و يستلهم المؤمنون روح الصبر من أمرين هما: التوكل على الله، و الإيمان بأنه سوف يجازى أعداءهم شرّ مجازات، فلما ذا الاستعجال و عدم الصبر ما دام الفوت غير ممكن؟! بلى. قد لا يعاصر جيل من المؤمنين انتقام الله من أعدائهم و أعداء الرساله، و قد لا- ينتقم منهم في الدنيا، و لكنّ الأمر واقع لا- محاله إن فيها أو في الآخره، حيث عذاب الخزي الذي يلحق بالمترفين و المستكبرين المكذّبين بالرساله.

وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَ مَهَلْهُمْ قَلِيلًا- أى المترفين الذين يعارضون الرساله، و يكذّبون بآيات الله. و كلمه «ذرنى» تفيد التهديد و الوعيد، كما تشير إلى معنى التوكل على الله نعم الوكيل، حيث ينبغي للمؤمن و هو يصبر على ما يقوله الأعداء أن يطمئن اطمئنانا تامّا بأن صبره لن يذهب هباء، لأنّ المتوكل عليه سوف ينتقل له و للحق منهم. و لعلّ ذكر تنعمهم يهدينا إلى أنّ العذاب الذي سيحلّ بهم يشمل تغيير ما هم عليه من النعيم، و إلى ذلك أشار صاحب الميزان فقال: و الجمع بين توصيفهم بالمكذّبين و توصيفهم بأولى النعمه للإشاره إلى علّه ما يهدّدهم به من العذاب، فإنّ تكذّيبهم بالدعوه الإلهيه و هم متنعمون بنعمه ربهم كفران منهم بالنعمه، و جزاء الكفران سلب النعمه، و تبديلها

و مهما استطال شوط الصبر فى تصور المؤمنين، و امتدّ ترف المكذّبين و نعيمهم، إلاّ أنّه قصير بالقياس إلى معادله الزمن الحقيقه عند الله، بل هو قصير بالفعل، و الذى يدرس تاريخ الصراع بين الحق و الباطل يصل إلى قناعه راسخه بهذه السنّه الالهيه، تقول عائشه: لَمَّا نَزَلَتْ «الآيه» لم يكن إلاّ قليل حتى كانت وقعه بدر (٢) التى أذلّ الله فيها المشركين، و قيل: نزلت فى المطعمين ببدر و هم عشره، و قيل: نزلت فى صنّاديد قريش المستهزئين (٣)، و أضاف الزمخشري فى الكشّاف: و كانوا أهل تنعم و ترفّه (٤)، و ما ذلك إلاّ شاهدا و مصداقا لسنّه الله فى الحياه التى تمتدّ إلى الوراء من أعماق التاريخ و إلى الأمام إلى المستقبل البعيد.

[١٤/١٢] و يكشف لنا القرآن حجابا عن غيب ما أعدّ الله للمترفين المكذّبين من عذاب أليم و مهين فى الآخره، يوم ترجف الأرض و الجبال.

إِنَّ لَمَدِينًا أُنْكَالًا وَ جَحِيمًا قَالَ صَاحِبُ الْمُنْجَدِ: أُنْكَالٌ وَ نَكُولٌ: الْقَيْدُ الشَّدِيدُ مِنْ أَى شَىءٍ كَانَ، وَ حَدِيدُهُ اللَّجَامُ (٥)، و قيل و هو الأقرب: الصنيع الفظيع من العذاب الذى يخشاه من يراه و يحذر منه، و نكلّ به صنع به صنيعا يحذر غيره، و يجعله عبره له (٦) و لعلّ الكلمه تحمل فى طياتها معنى الشدّه و الانتقام و الإذلال، و القيود و الأغلال مظهر

ص: ٣٢

١-١) الميزان ج ٢٠ ص ٦٧.

٢-٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٧٩.

٣-٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٠.

٤-٤) الكشاف ج ٤ ص ٦٤٠.

٥-٥) المنجد/ماده نكل.

٦-٦) المصدر.

للتنكيل يرافقها عذاب الحريق بجهنم، وما يلقاه الإنسان في الآخرة من أنواع العذاب ليست مفروضة عليه و آتية من خارج القوانين و السنن الطبيعيه، بل هي من صنع يده، قدّمها لنفسه، فالكذب الذى يمارسه فى الدنيا يتحول إصررا و نادا عليه فى الآخرة، و هكذا الغيبه و السرقة، و السباب، و أكل أموال الناس بالباطل.. كلّها تصير أنكالا و جحيما.

وَ طَعَامًا ذَا غُصْبٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا أَى الطعم الذى لا يتهنأ بأكله و لا طعمه و لا رائحته الأكلون، بل يصعب عليهم مضغه و بلعه لما فيه من العذاب و أسباب الأذى. قال أكثر المفسرين: أنّ به شوكا، و قيل: لشده خشوته، و أوله الزمخشري و الرازى على أنه شجره الزقوم، و بهذا النفس عبّر صاحب الكشاف: الذى لا يساغ يعنى الضريع و شجر الزقوم (1).

و من أنواع العذاب المذكوره فى الآيتين يتبين لنا بأنّها تأتي نقيضا لما هم فيه من النعمه و الراحة فى الدنيا كجزاء لتكذيبهم، و عدم شكرهم ربهم عليها.

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ أَى تتحرك باضطراب شديد، و ترجف الجبال معها أيضا، و تضطرب بمن عليها (2)، من هول ذلك اليوم، الأمر الذى يكشف عن عظمه الموقف و مدى رهبته، فما بالك بهذا الإنسان الضعيف فى يوم أحداثه ترجف بالأرض و الجبال؟! إنه يكون أدنى من ريشه فى ريح عاصف يتقاذفها التيار الكاسح.

إنّ تصور هذا الموقف و الحضور عند هذه الحقيقه بالقلب يكفى وسيله يقتلع

ص: ٣٣

١-١) راجع الدر المنثور و الكشاف و المجمع و التفسير الكبير و التبيان عند الآيه.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٨٠.

الإنسان بها جذور الغرور بنفسه و قدرته في شخصيته، و اتكاله على الدنيا و ما فيها، و يتعزف عن طريقها على ربه و قدرته المطلقة، فيؤمن به و برسائله بدل التكذيب كما هو شأن أولى النعمه المبشرين بها.

إنّ الجبال الراسيه و المتماسكه تستحيل يومئذ كذرات الرمل نتيجه الرجف الشديد المتتالي الذي تتعرض له.

وَ كَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً قَالَ الْقَمِيّ مِثْلَ الرَّمْلِ (١)، و في مجمع البيان: أي رملا- متناثرا عن ابن عباس، و قيل: المهيل الذي إذا وطأته القدم زلّ من تحتها، و إذا أخذت أسفله أنهار أعلاه (٢)، و في المنجد: انكثب الرمل: اجتمع و انتشر بعضه فوق بعض، و كل ما انصبّ في شيء فقد انكثب فيه (٣)، و المهيل الذي يهال فيقع بعضه على بعض، يقال: أهال التراب: إذا هدّه من أساسه فانهار على بعضه منتثرا، و يسمّى التراب الناعم الذي تجمعه الرياح في الصحراء كثيب، و جمعه كثبان، و من خصائصه أنّه سريع و سهل الانهيار و الانتشار و التطاير في الهواء. و إذا كانت الجبال الصخرية الراسيه تستحيل كثيبا مهيبا فما بال الإنسان الضعيف عند ما ترجف به الأرض؟ و لماذا يتحدّى قدره ربه؟! و علاقه بين سياق السوره عن قيام الليل و بين الحديث عن مشاهد عذاب الآخرة هذه أنّ الخوف من أهوال ذلك اليوم يدفع المؤمنين إلى السعي من أجل الخلاص، و من ثمّ ينفخ فيهم روح القيام بالليل. و إنّها حقًا لتقصّ مضجع كلّ

ص: ٣٤

١-١) تفسير القميّ/ج ٢ ص ٣٩٢.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٨٠.

٣-٣) المنجد/ماده كتب.

ذى لبّ و ضمير حيين، إذ كيف تنام عينه و هو مطالب باقتحام هذه العقبات، و تجاوز أهوالها بنجاح؟! و ثمّه علاقه بين أمر الله للرسول صلى الله عليه و آله بالصبر على ما يقوله المكذّبون و بين كلامه عمّا أعدّ لهم من العذاب؛ و هي: أنّ عدم التصبر (الاستعجال) إنّما يندفع إليه الإنسان بهدف الانتقام و ردّ الفعل، و المؤمن يصبر و لا يتعجّل لأنّه لا يخاف الفوت، و يعلم أن سوف يأتي اليوم الذى ينتقم الله (و كيله) له من أعدائه.

[١٩/١٥] و إلى جانب التحذير من عذاب الآخرة يحذّر الله المترفين و غيرهم من عواقب التكذيب التى تنتظرهم فى الدنيا، و ذلك من خلال التذكير بالسنن الثابتة فى الحياه و مصير إحدى الأمم التى عصت رسولها فأهلك الله أهلها و أخذهم أخذاً وبيلاً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أى يقوم بالشهادة الحقه فيكم، و يجسّد القيم الإلهيه، ممّا يجعله ميزاناً لمعرفة الحق و الباطل، و أسوه لمن أراد الهدايه إلى الصراط المستقيم. و قد ذكر الله قوم فرعون لأنّ وجوه التشابه بين واقع أولئك و الواقع الذى عاصره الرسول كثيره، و من أبرزها: أنّ المترفين هم الذين يمثّلون جبهه الباطل فى الصراع فى كلا المقطعين التاريخيين.

و كما أنّ لله سنه ماضيه فى حياه المجتمعات فى إرسال الرسل فى الأمم بعد الأمم، و الأجيال بعد الأجيال، فإنّه عزّ و جلّ جعل سنّه الجزاء لا تنفك عنها أبداً، فإذا ما استجابت الأقوام لقياده الرسول و قيم الرساله أجزيت خيراً و سعاده فى الدنيا و الآخرة، أمّا إذا عصت و كذّبت فستعرض نفسها للانتقام و سوء العذاب،

كقوم فرعون الذين عصوا رسولهم موسى عليه السلام فاغرقوا و أهلکوا.

فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً أَي أَخْذًا شَدِيدًا مُنْكَرًا، وَفِي الْآيَةِ تَحْذِيرٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ مِنْ مَعْصِيَتِهِ، وَ تَلْوِيحٌ بِأَنَّ سُنَّةَ الْأَخْذِ لَيْسَتْ مُنْحَصَرَةً فِي زَمَانٍ دُونَ آخِرٍ، وَ لَا فِي قَوْمٍ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَ إِذْ يَذْكَرُنَا الْقُرْآنُ بِصُورِهِ مِنَ الْإِنْتِقَامِ الْإِلَهِيِّ فِي التَّارِيخِ فَلِكِي يَسَدُّ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الشَّيْطَانِ الَّذِي يُوَعِّلُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ خِلَالِهِ فِي الْإِنْحِرَافِ وَ الضَّلَالِ الْبَعِيدِ، حَيْثُ يَهْمُزُ فِي أُذُنِهِ وَ فِكْرِهِ: أَنَّ اللَّهَ رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ، وَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَعَذِّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَ أَنَّ هَذِهِ الْوَعُودُ لَيْسَتْ إِلَّا- لِمَجْرَدِ التَّخْوِيفِ لَا أَكْثَرَ... وَ لِهَذَا يُوجِّهُ اللَّهُ الْخُطَابَ مُبَاشِرَةً لِمَعَاصِرِي الرَّسُولِ وَ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الْهَرُوبَ مِنْ سَطَوَاتِ اللَّهِ إِذَا أَرَادَ الْإِنْتِقَامَ.

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا وَ ذَلِكَ لَشُدِّهِ أَهْوَالَهُ وَ رَهْبِهِ مُشَاهِدَهُ، قَالَ الْقَمِّي: تَشْبِيبُ الْوِلْدَانِ مِنَ الْفِرْعَوْنِ حَيْثُ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ (١)، وَ

فِي الدَّرِ الْمَنْثُورِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ- قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّ رَبَّنَا يَدْعُو آدَمَ فَيَقُولُ: يَا آدَمُ! أَخْرِجْ بَعث النار، فيقول: أي رب إلا- علم لي إلا ما علمتني: فيقول الله: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة و تسعة و تسعين يساقون إلى النار سوقا مقرنين كالحين، فإذا خرج بعث النار شاب كل وليد» (٢)، وَ

فِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ حِينَ أَبْصَرَ ذَلِكَ فِي وَجُوهِهِمْ: «إِنَّ بَنِي آدَمَ كَثِيرٌ، وَ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، وَ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَرِثَهُ لَصْلِبُهُ أَلْفَ رَجُلٍ فِيهِمْ

ص: ٣٦

١-١) تفسير القمي/ج ٢ ص ٣٩٣.

٢-٢) الدر المنثور/ج ٦ ص ٢٧٩.

و أشباههم جند لكم» (١)، و

قد حذّر الإمام على بن أبي طالب عليه السلام من ذلك اليوم فقال: احذروا يوما تفحص فيه الأعمال، و يكثر في الزلزال، و تشيب في الأطفال (٢)، و كيف لا يشيب الوليد من أهواله و هو اليوم الذى يفصل الله فيه بين الخلائق و يقرّر مصائرهم، فمن صائر إلى الجنة و من صائر إلى النار خالدين فيها أبدا.

بلى إنّه يوم عظيم، بل هو أعظم يوم فى وجود العالمين إنسا و جنّا، و كيف لا يسرع الشيب إلى من يقف بين يدي جبار السموات و الأرض ينتظر المسير إلى مصيره الأبدى، و بالذات أولئك المجرمون الذى سوّدوا صحائفهم بالسيئات و الفواحش، و بعدهم المذبذبون، أمّا المؤمنون و المتقون فإنّهم فى مأمن من رحمة الله، بل هو يوم سعادتهم و فرحتهم العظمى. أو ليسوا يلتقون حبيهم و سيدهم ربّ العالمين؟ و الشيب ليس كناية عن الشده و المحنه (٣) و حسب، بل لعله حقيقه مادّيّه تقع يوم القيامة، حيث أنّ حوادث ذلك اليوم الفظيع أعظم من قدره احتمال جسد الإنسان، و لو لا أنّ الله لم يقدر عليهم الموت لكانت كلّ حادثه منها تقضى عليهم جميعا.

إنّ الحوادث ذلك اليوم لا- تنعكس فقط على الإنسان بل على الطبيعه الصامته أيضا، فتأخذ الرجفه الأرض و الجبال لرهبه الموقف، و هكذا تشقّق السماء.

السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ

ص: ٣٧

١-١) التفسير الكبير/ ج ٣٠ ص ١٨٤.

٢-٢) نهج البلاغه خ ١٥٧ ص ٢٢٢.

٣-٣) المصدر.

و ليس فى حدوث هذا اليوم شك و تردد، لأنه ممّا وعده الله الوفىّ المقتدر، و هذا ما يجعل التعبير عن وقائع القيامة يأتى بصيغته الماضى فى الأغلب و كأنها وقعت.

□ كَأَنَّ وَعْدَهُ مَفْعُولًا إِذْنُ فَالْأَمْرُ لَيْسَ كَمَا يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ، وَ لَا - كَمَا يَضِلُّهُ الشَّيْطَانُ الْغُرُورُ بِأَنَّ وَعْدَهُ تَعَالَى لِلتَّخْوِيفِ فَقَطْ، كَلًّا.. فَوَعُودُ اللَّهِ صَادِقُهُ وَ وَقَعَهُ لَا - مَحَالَهُ، وَ لَا بِأَسْ أَنْ نَشِيرَ هُنَا إِلَى أَنَّ بَعْضَ الْفَلَسَفَاتِ الْمَادِيَّةِ ذَهَبَتْ فِي الضَّلَالِ بِعِيدَا حِينَمَا زَعَمَتْ بِأَنَّ الْآخِرَةَ لَا وَقَعَتْ لَهَا، وَ إِنَّمَا طَرَحَتْهَا الْفَلَسَفَاتُ الدِّينِيَّةُ لِكَيْ تَكُونَ عَامِلًا فِي تَوْجِيهِ أَتْبَاعِهَا نَحْوَ التَّقْيِيدِ بِمَبَادِئِهَا لَا غَيْرَ! وَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَرَدُّ رَدًّا حَاسِمًا وَ نَاسِفًا عَلَى هَذِهِ الظُّنُونِ وَ الْمَزَاعِمِ الْخَاطِئَةِ بِالتَّأْكِيدِ عَلَى أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ مَفْعُولٌ قَطْعًا.

ثم يقول الله مشيرا إلى ما تقدّم من بيان الآيات الكريمة.

□ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ تَذَكَّرُ الْإِنْسَانَ بِالْحَقِّ، وَ تُثِيرُ فِيهِ الْعَقْلَ وَ كَوَامِنَ الْخَيْرِ الَّتِي تَهْدِيهِ إِلَى رَبِّ الْعِزَّةِ، وَ تَرَسِّمُ لَهُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَ النَّهْجَ الْقَوِيمَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ.. فَدَوْرُ التَّذَكُّرِ إِذَا هُوَ بَيَانُ الْخَطُوطِ الْعَامَّةِ، وَ رَسْمُ مَعَالِمِ الطَّرِيقِ لِلْإِنْسَانِ، لَا فَرَضَ خِيَارٍ مَعْيِنٍ كَرَهَا، لِأَنَّ الْإِخْتِيَارَ مِنْ خِصَائِصِ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ، فَهُوَ الَّذِي يَرِيدُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ أَوْ لَا يَرِيدُ.

□ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَيَّ رَبِّهِ سَبِيلًا قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِي: إِنَّ التَّذَكُّرَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ السُّورَةِ كُلِّهَا، وَ اتَّخَذَ السَّبِيلَ عِبَارَةً عَنِ الْإِسْتِغْثَالِ بِالطَّاعَةِ، وَ الْإِحْتِرَازَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ (١)، وَ اخْتَارَ صَاحِبُ الْمِيزَانِ تَعْمِيمَ

ص: ٣٨

التذكرة على كل ما سبق، وخصّ صلاه الليل بالسييل، لأنها تهدي العبد إلى ربه (١)، والأصح: أن السبيل عموم الصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله، وقيام الليل خطوات فيه، إلا أن أبرز مصاديق السبيل القيم الإلهيه، وأظهرها القرآن، وقياده الرساليه، ومصدقها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأئمه الهدى-عليهم السلام- كما

□ جاء في دعاء الندبه: ثم جعلت أجر محمد-صلواتك عليه وآله-مودّتهم في كتابك، فقلت: «قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَيَّ رَبًّا سَيِّئًا» فكانوا هم السبيل إليك، والمسلك إلى رضوانك (٢). □

[٢٠] وفي ختام السوره يعود القرآن للحديث عن قيام الليل، بالإشاره إلى برنامج القيام عند الرعيّل الأول وبالذات عند أسوه المؤمنين وسيدهم حبيب الله النبي محمد-صلى الله عليه وآله-و بيان سماحه دين الإسلام و واقعيته، حيث يعتبر الظروف الحقيقيه عاملا- مؤثرا في التشريع، بحيث يرتفع التكليف بقيام الليل عن ذوى الأعذار المشروعه بصوره تامه، أو يخفف إلى حدّ الاكتفاء بقراءه ما يتيسر من القرآن، وممارسه مجموعه من الواجبات العامه التي من بينها الصلاه والزكاه والإنفاق والاستغفار.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ أَوْ أَقَلَّ مِنَ الثَّلَاثِينَ، وَ أَكْثَرَ مِنَ النِّصْفِ بَعْضَ الْأَحْيَانِ.
وَ نِصْفَهُ أحياناً أخرى.

ص: ٣٩

١-١) الميزان/ ج ٢٠ ص ٦٩.

٢-٢) مفاتيح الجنان ص ٥٣٣.

وَتُثْنَةُ أَحْيَانًا.. و هذا يعنى أنه-صلى الله عليه و آله-يطبق أمر الله بقيام الليل، و الذى مرّ بيانه فى الآيات (٤/٢). و للآيه واحده من دالتين: الأولى: أن رسول الله صلى الله عليه و آله كان يقوم كل ليله باختلاف فى مدّة القيام بين ليله و أخرى، فمره يقوم أقلّ من الثلثين، و ثانيه يقوم النصف، و ثالثه الثلث، أو أنه-صلى الله عليه و آله- كان ينهض لقيام الليل ثلاث مرات يستريح بينهما، كل ليله (أدنى من الثلثين، و منتصف الليل، و ثلثه).

و هناك روايه تشير إلى الاحتمال الثانى ذكرها العلامة الطوسى فى التهذيب:

قال الإمام الصادق عليه السلام و قد ذكر صلاه النّبى صلى الله عليه و آله: «كان يؤتى بطهور و يختم عند رأسه (أى يغطى بخمار) و يوضع سواكه تحت فراشه، ثم ينام ما شاء الله، و إذا استيقظ جلس، ثم قلب بصره فى السماء، ثم تلا- الآيات من آل عمران «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ..»، ثم يستن (أى يعمل بسنّه السواك) و يتطهر، ثم يقوم إلى المسجد، فيركع أربع ركعات على قدر قراءته ركوعه و سجوده، و سجوده على قدر ركوعه، يركع حتى يقال: متى يرفع رأسه؟ و يسجد حتى يقال: متى يرفع رأسه؟ ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات، ثم يقلب بصره فى السماء ثم يستن و يتطهر و يقوم إلى المسجد، فيصلى أربع ركعات كما ركع قبل ذلك، ثم يعود إلى فراشه فينام ما شاء الله، ثم يستيقظ فيجلس فيتلو الآيات من آل عمران، و يقلب بصره فى السماء، ثم يستن و يتطهر و يقوم إلى المسجد فيوتر (يصلى الوتر) و يصلى الركعتين (يعنى ركعتى الشفع أو نافله الفجر) ثم يخرج إلى الصلاه «(١).

و على خطى الرسول صلى الله عليه و آله كان خلص أصحابه من الرعيل الأول يقومون

ص: ٤٠

الليل كما يقومه النبي صلى الله عليه وآله وأسبياً به، إذ جعله الله أسوه المؤمنين، و كأن الآيه تبين معنى المعية بأنها ليست مجرد الزعم، ولا- الانتماء الدينى و الاجتماعى الظاهر لقياده الرسول و خطه، بل الصحبه الحقيقيه تتمثل فى الإبتاع العملى لقيادته و رسالته.

□ وَ طَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ نَحْنُ الْأَجْيَالُ الْحَاضِرَةُ-إذا فاتتنا صحبه النبي-صلى الله عليه وآله- بالأبدان و معيته فإننا نستطيع أن نكون معه باقتفاء أثره، و من أثره جهاده و قيامه بالليل قال الحسكاني: «الذين معك» على و أبو ذر (١).

□ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ قال صاحب المجمع: أى يقدر أوقاتها لتعملوا فيها على ما يأمركم به، و قيل:

لا- يفوته علم ما تفعلون، و المراد: أنه يعلم مقادير الليل و النهار، فيعلم القدر الذى تقومونه من الليل (٢)، و لعل فى التقدير إشاره إلى اختلاف الليالى و الأيام فى الجانب الزمنى، حيث تطول و تقصر، و ربنا هو الذى يعين المقادير المختلفه.

عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ وَ فى معنى الإحصاء قولان: أحدهما: الظاهر أى لن تعدّوه، و الآخر: لن تطيقوا قيامه، و هو الأقرب بدلاله السياق، حيث يجرى الحديث مباشره عن التوبه و التخفيف، و حيث يشير القرآن إلى جانب من الأعذار المشروعه التى تعيق عن قيام الليل بصورته الأوليه.. قال مقاتل: كان الرجل يصلى الليل كله مخافه أن

ص: ٤١

١-١) تفسير البصائر/ج ٥٠ ص ١٣٢ عن المجمع.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٣٨١.

لا- يصيب ما أمر به من القيام، فقال سبحانه: « عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » أى لن تطيقوا معرفه ذلك، وقال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فقال: إنكم لا تطيقون إحصاءه على الحقيقه، وقيل معناه: لن تطيقوا المداومه على قيام الليل، ويقع التقصير فيه (١).

فَتَابَ عَلَيْكُمْ أَى رَحْمَكُم وَ تَلَطَّفَ بِكُمْ، لِأَنَّ مِنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَدْ رَحِمَهُ. وَإِذَا أَخَذْنَا بِالْمَعْنَى الْأَصِيلِ لِلتَّوْبَةِ وَ هُوَ الرَّجُوعُ فَإِنَّ الْمَعْنَى: يَكُونُ: أَنَّهُ تَعَالَى بِدَى لَهُ أَمْرٌ فَعَادَ لَكُمْ وَ حِيَهُ بِحُكْمٍ آخَرَ غَيْرِ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ الَّذِي يَقْتَضِي قِيَامَ اللَّيْلِ كُلَّهُ إِلَّا قَلِيلًا، أَوِ الَّذِي كَانَ الْقِيَامُ فِيهِ وَاجِبًا لَا مُسْتَحَبًّا (٢).

فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ وَ تَأَكِيدَ اللَّهُ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يَهْدِينَا إِلَى عَظَمَتِهِ، وَ أَنَّ تِلَاوَتَهُ وَ تَدْبِيرَ مَعَانِيهِ رُوحَ قِيَامِ اللَّيْلِ وَ مِنْ أَهَمِّ أَمْرِهِ، حَيْثُ يَعُودُ الْإِنْسَانُ إِلَى كَلَامِ رَبِّهِ وَ عَهْدِهِ إِلَيْهِ، فَيَسْتَلْهِمُ مِنْهُ بَصَائِرَ الْحَقِّ، وَ مَنَاهِجَ حَيَاتِهِ فِي كُلِّ بَعْدٍ وَ جَانِبٍ. إِنَّ غَايَةَ قِيَامِ اللَّيْلِ هِيَ تَكَامُلُ الْإِنْسَانِ، تَكَامُلًا رُوحِيًّا بِالْتِهَجْدِ وَ التَّبَتُّلِ وَ الصَّلَاةِ، وَ تَكَامُلًا عَقْلِيًّا بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ اللَّهِ وَ تَدْبِيرِ آيَاتِ قُرْآنِهِ.. نَعَمْ. إِنَّ الظُّرُوفَ قَدْ لَمْ تَسْمَحْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ عَلَى صُورَتِهِ الْأَوَّلِيَّةِ، وَ لَكِنْ لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتْرَكَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَلَى أَيِّ حَالٍ، وَ لَوْ قَرَأَهُ مَا تيسَّرَ مِنْهُ. فَمَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ: « مَا تيسَّرَ مِنْهُ »؟ لَقَدْ اختلفَ المفسرون و القراء في القدر الذي تَضَمَّنَهُ هَذَا الْأَمْرُ مِنَ الْقِرَاءَةِ،

ص: ٤٢

(١-١) المصدر.

(٢-٢) مع أنه لا توجد روايات صريحة بأن قيام الليل كان واجبا شرعيا على المسلمين في أول الدعوة، إلا أنه محتمل، أو هكذا استقبلوه ثم تبين لهم غير ذلك.

فقال سعيد بن جبير: خمسين آيه، وقال ابن عباس: مائة آيه، وقال السدي: مائتا آيه، وقال جوبير: ثلث القرآن لأن الله يسره على عباده (١) إشاره لقوله تعالى:

« وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ » (٢)، وليس بين الأقوال الأربعة تناقض، لأن ما تيسر هو ما يجده القارئ يسيرا على نفسه، سواء كان آيه واحده أو القرآن كله، وإن كانت الكلمه فى ظاهرها إشاره إلى القليل، وقد ذهب البعض بعيدا حينما فسروا الآيه فى الصلاه وقال معناه: فصلوا ما تيسر من الصلاه، وعبر عن الصلاه بالقرآن لأنها تتضمنه (٣).

و جدير التساؤل عن السبب فى التيسير بعد التشدد فى منهجيه التشريع الإسلامى، الأمر الذى يكاد يصبح ظاهره فى أحكام الله لكثرتة شواهدة، فقد فرض الله على المؤمنين تقديم صدقه بين يدي نجواهم الرسول (٤) ثم ألغيت الصدقه، وحرم عليهم مقاربه أزواجهم حتى ليالى الصيام ثم أحلها (٥) وفى الجهاد فرضه واجبا إذا كانت نسبه المؤمنين إلى أعدائهم تعادل واحدا إلى عشره، أى أنهم يجب عليهم الجهاد و خوض الحرب إذا كانوا مائه و كان العدو ألفا، ثم خفف الحكم بنسبه واحد إلى اثنين (٦)، و مثل ذلك أحكام عديده و التى من بينها قيام الليل الذى نحن بصدد الكلام عنه.

إن هذه الظاهره فى التشريع الإسلامى تهدينا إلى أن إصلاح الإنسان -و بالذات فى الانطلاقه-بحاجه إلى برنامج مركز و صعب حتى يصلح نفسه

ص: ٤٣

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨١.

٢-٢) القمر ٤٠.

٣-٣) نقل هذا القول مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨١ و به قال صاحب الكشاف و الفخر الرازى.

٤-٤) المجادل ١٢/١٣.

٥-٥) البقره ١٨٧.

٦-٦) الأنفال ٦٥/٦٦.

إصلاحاً جذرياً، كما المقاتل في دورته العسكريه الأولى، فإذا ما استمرّ قطاره على السكه يخفّف عنه، و هذه منهجيه الإسلام في بناء أفراده و مجتمعه، و إذا صحّ هذا التحليل فإننا يجب أن نستفيد من ذلك في حياتنا و مسيرتنا، ففي بدايه التغيير ينبغي أن تؤخذ الأمه بالشده حتى تذوب في بوتقه الإيمان و العمل الرسالي، ثم يأتي دور التخفيف عنها شيئاً ما.

و يلفتنا القرآن إلى خصيصه تشريعيه في الإسلام و هي واقعيتها، و أخذها ظروف المشرّع له بعين الإعتبار، فهو ليس نظاماً قسرياً، بل تشريعاً واقعياً مرناً، و ذلك ممّا يؤكّد حقانيته.

عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى يَعْيقُهُمْ مَرْضُهُمْ عَنِ الْقِيَامِ، أَوْ يَجْعَلُهُ أَمْرًا مَكْلُفًا. وَ هَذِهِ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَعْوَقَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الَّتِي تَصِيبُ الْإِنْسَانَ بِالضَّعْفِ.

وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ لِيُغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَ يَجْعَلَهُمْ كِنَايَةً عَنِ التَّنْقُلِ وَ التَّرْحِيلِ وَ السَّعْيِ الْحَثِيثِ، وَ عِلَلُ الرَّازِي تَخْفِيفُ الْفَرْضِ عَلَى هَذَا الْفَرِيقِ وَ مَنْ يَلُونَهُمْ (المقاتلين في سبيل الله) قائلًا: و أمّا المسافرون و المجاهدون فهم مشغولون في النهار بالأعمال الشاقّه، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقّه عليهم (١).

وَ آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْلَاءِ لِكَلِمَتِهِ، وَ إِتْفَاقًا لِأَمْرِهِ، وَ تَحْكِيمًا لِشُرْعِهِ، وَ دِفَاعًا عَنِ تَغُورِ الْمُسْلِمِينَ،

ص: ٤٤

و هؤلاء لا شك لهم من الأجر الشىء العظيم، و لعمري إنَّ جهادهم بمثابة قيام الليل أجزا و قدرا عند الله؛ لأنهم لو لا جهادهم و قتالهم لكان الأمر كما حكى الله تعالى:

«لَهَيْدُمَتْ صَوَامِعُ وَ بَيْعٌ وَ صَيْلَمَاتٌ وَ مَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» (١). قال الفخر الرازى: و من لطائف هذه الآية أنه تعالى سَوَى بين المجاهدين و المسافرين للكسب الحلال (٢)، و هذا يؤيد

قول رسول الله صلى الله عليه و آله: «أَيُّمَا رَجُلٍ جَلَبَ شَيْئًا إِلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الْمُسْلِمِينَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا فَبَاعَهُ بِسَعْرِ يَوْمِهِ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الشَّهَدَاءِ» (٣)، و هو تأكيد لقول

الإمام الصادق-عليه السلام-: «الكَادُّ عَلَى عِيَالِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، و يؤكد الله مره أخرى أمره بتلاوه القرآن.

فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ و لو بضع آيات، المهم أن لا- يترك المؤمن رساله ربه، لأنه قد يستغنى عن قيام الليل و لكنه لا يستغنى عن بصائر الوحي فى حياته مهما كانت الظروف.

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ بِمُحَاسِنِهَا وَ فُرُوضِهَا، وَ حَقِيقَاتِهَا بِالتَّزَامِ مَضَامِينِهَا، وَ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا عَلَى الصَّعِيدِ الشَّخْصِيِّ وَ فِي الْمَجْتَمَعِ.

وَ آتُوا الزَّكَاةَ كُنَايَةً عَنِ كُلِّ إِتْفَاقٍ وَاجِبٍ، يَزَكِّي الْمُؤْمِنَ نَفْسَهُ وَ مَالَهُ بِإِعْطَائِهِ.

وَ أَفْرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا

ص: ٤٥

١- (١) الحج ٤٠.

٢- (٢) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٨٧.

٣- (٣) المصدر عن ابن مسعود.

و هو كل إنفاق مستحب في سبيل الله (١) الذي لا يضع عنده عمل عامل أبدا.

□
وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَفِي آيَةِ إِشَارِهِ لَيْسَ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَمَهِّدُ لِلْمُؤْمِنِينَ آخِرَتِهِمْ وَحَسَبَ، بَلْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ التَّوْفِيقَاتِ وَالْبَرَكَاتِ الَّتِي يَنَالُهَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا، وَهَكَذَا الْمَكَارِهِ الَّتِي تَدْفَعُ عَنْهُ، لَيْسَتْ إِلَّا نَتَائِجَ قَائِمَةٍ عَلَى مَقَدِّمَاتٍ سَابِقَةٍ بَادِرٍ إِلَيْهَا، وَالَّتِي مِنْ بَيْنِهَا الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَالْمَكْرُوهَ الَّذِي يَرْتَفِعُ عَنِ الْمُتَصَدِّقِ إِنَّمَا تَرْفَعُهُ صِدْقَتُهُ الَّتِي قَدَّمَهَا قَبْلَ حَدُوثِهِ.. فَالْمَنْفَقُ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ يَقْدَمُ بِإِنْفَاقِهِ خَيْرًا لِنَفْسِهِ.

هُوَ خَيْرًا وَ أَعْظَمَ أَجْرًا حَيْثُ يَنْضَاعِفُ خَيْرَهُ وَ أَجْرَهُ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَ كَيْفَ لَا- يَنْضَاعِفُ وَ الْمَجَازَى رَبِّ الْمُحْسِنِينَ؟! بَلَى. إِنَّ الصَّدَقَةَ الْقَلِيلَةَ لَا- يَنْحَصِرُ خَيْرُهَا وَ أَجْرُهَا فِي الدُّنْيَا، بَدْفَعِ الشَّرَّ عَنْ صَاحِبِهَا، وَ جَلْبِ الْبِرْكَهَ وَ التَّوْفِيقَ إِلَيْهِ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَى الْآخِرَةِ أَيْضًا، فَإِذَا بِالْدَّرْهِمِ الْوَاحِدِ يَسْتَحِيلُ جَنَّهُ عَالِيَهُ وَ حُورًا وَ نَعِيمًا لَا يَنْقَطِعُ، بَلْ يَضَاعِفُهُ اللَّهُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

□
وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ هُنَاكَ قَالَ وَ قَدْ خَفَّفَ حُكْمَ قِيَامِ اللَّيْلِ: «فَتَابَ عَلَيْكُمْ» وَ هُنَا يَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِغْفَارِ، مِمَّا يُوحَى لَهُمْ بِأَنْ تَرَكَ الْقِيَامَ بِاللَّيْلِ غَيْرَ مَحْمُودٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي حَالِ وَجُودِ الْعُذْرِ، فَكَيْفَ تَبْرُكُهُ دُونَهُ؟! كَمَا يَثِيرُ فِي أَنْفُسِهِمُ الشُّعُورَ بِالتَّقْصِيرِ، وَ مِنْ ثَمَّ يَدْفَعُهُمُ لِلْمَزِيدِ مِنَ السَّعْيِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالِاسْتِغْفَارِ.

ص: ٤٤

١- ١) لقد مر تفصيل في معنى القرض الحسن في سورة الحديد الآية (١١) فراجع.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و هذه الخاتمه تملأ القلوب أملا و طمعا فى غفرانه و رحمته تعالى، حيث أمرهم بالاستغفار، و أكد إليهم بأنه الغفور الرحيم، و كأنّ الخاتمه ضمانه بالإجابة بعد الأمر المتقدّم بالاستغفار، و لعل القرآن يريد أن يقول لنا بأن أداء المؤمن للفروض الواجبه-كإقامه الصلاه و الزكاه و الإنفاق-ينبغى أن لا يشحنه بالغرور و شعور الاكتفاء، فيقتصر على ذلك من دون المستحبات المشرّعه فى الدين و من بينها قيام الليل.

سوره المدثر

اشاره

ص: ۴۹

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر-عليه السلام- قال: «من قرأ في الفريضة سوره المدثر كان حقًا على الله عزّ وجلّ أن يجعله مع محمّد-صلّى الله عليه وآله- في درجه، ولا يدركه في حياه الدنيا شقاء أبدًا إن شاء الله».

نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٥٢

ص: ٥١

بعد أن يستنهض الوحي النبى المدثر لتحَمِل أعباء رساله بالإنذار، و تكبير الله، و تطهير ثيابه من كل نجاسه ماديه و معنويه، و مقاطعه الرجز بالهجران، ينهاه عن المنه على الله لأنها تقطع الخير، و يأمره بالصبر له كضروره تفرض نفسها على كل داعيه حق و حامل رساله. أ و ليس يريد الثوره على الواقع المنحرف و المتخلف؟ إذن يجب أن يتوقع الكثير من المشاكل و الضغوط المضاده فى هذا الطريق، و عليه يجب أن يتحمل و يصبر كشرط للاستقامه و تحقيق الهدف (الآيات ٧/١).

و لأنّ المؤمن يؤلمه تسلط الطغاه و المنحرفين من قوى سياسيه و اقتصاديه و اجتماعيه و عسكريه، و بالتالى يستعجل لهم الهلاك و الجزاء، فإنّ القرآن يسكن ألمه هذا بتوجيهنا إلى يوم القيامه حيث الانتقام الأعظم من أعداء رساله و المؤمنين، إذ ينقر فى الناقور إيذانا ببدء يوم عسير لا يسر فيه على الكافرين و أشباههم، يلاقون فيه ألوانا من العذاب الخالد الذى لا يطاق.. و أنى يطيق المخلوق الضعيف انتقام ربّ العزه؟! (الآيات ١٠/٨).

و هكذا نهتدى إلى أنّ محور السوره-فيما يبدو لى-صراع الرسول مع مراكز القوه التى لا بد أن يتحدّها بكل اقتدار.

و يعالج السياق طائفه من الأفكار الخاطئه التى يتشبّث بها المتسلّطون و المترفون لدعم مواقعهم القياديه،منها الزعم بأنّه لو لا رضا الله عنهم لما أوسع عليهم نعمه.

إذا فما فى يد الكفّار و الطغاه من نعيم ليس دليلا- على حبّ الله لهم،و لا- على صحه منهجهم فى الحياه..بلى. إنّ عندهم مالا ممدودا،و أتباعا كثيره و أبناء، و ممهّده لهم وسائل العيش الرغيد،الذى لا يشبعون منه،بل يطمعون فى زيادته..

و لكنّهم ضالون عن الصراط السوى،جاحدون لآيات الله..و بالتالى مستحقون لعذابه و انتقامه، و المقياس السليم للتقييم ليس الماده،بل القيم،و ليس الدنيا بل الآخرة،و المترفون على عناد مع قيم الحق،و خاسرون فى الآخرة،فهناك لا يبقى لهم نعيم و لا أنصار،و لا مقام احترام كما هم فى الدنيا،بل يتبدّل واقعهم إلى قطع من العذاب الأليم و المهين،و تصبح كلّ نعمه أعطيت لهم وبالا- عليهم حيث لم يؤدّوا شكرها..فهم أشدّ الناس عذابا لأنّهم قد أملى لهم من فضل الله،و من آلم ما يلقون عذابا الصعود المرهق(الآيات ١٧/١١).

و ليس إرهابهم بالعذاب مجرد انتقام عبثى،بل هو انتقام متأسس على الحساب الدقيق و الحكمه و العدل،فإنّك حيث تحقّق فى سببه تجسده منهجيتهم الخاطئه و الضاله فى الحياه،و التى تتركز على التفكير المنحرف و التقديرات الخاطئه..فإنّها حقّا هى المسؤوليه عمّا يحلّ بهم من اللعن و القتل و العذاب،فهم الذين عبسوا و بسروا ثم أدبروا و استكبروا،و كان هذا موقفهم من الحق قيما و قياده و حزبا،بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما رموا الحق بالتهم الرخيصه الباطله،فقالوا: «إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ»،و قالوا:بل هو من صنع البشر و ليس رساله من الله..من دون دليل إلّا

للطعن فيه و التهرب من مسئوليته الإيمان، و إلا لتضليل الناس عن طريق الهدى و سبيل الرشاد(الآيات ٢٥/١٨).

من هنا حقّ لو عذّب الله الكفّار المعاندين باعتبارهم يبارزون ربّ العزه و يحاربون الحق، و بالذات كبرائهم و الملام المترفين منهم، كالحكام الطغاه، و أصحاب الثروه، و أدياء العلم، و لذلك يتوعّد الجبار واحداهم بأشدّ العذاب، و يؤكّد ذلك لرسوله صلى الله عليه و آله و كل رسالى يقف على خط مواجهه و فى جبهه التحدى و الصراع ضد الباطل بأنّه سيصليه سقر، و هى أشد أقسام النار تلظيا و حراره و رهبه بحيث لا يمكن لبشر أن يتصوّرها و يدري ما هى، إلا أنّ القرآن يشير إلى بعض صفاتها الرهيبه حيث أنّها لا تبقى و لا تذر، لوّاحه للبشر.. و منظر آخر مخيف منها يمثله ملائكه غلاظ النار نفسها فرقه منهم.

إنّهم تسعه عشر.. هكذا يقول الله.. فأما المؤمنون فإنّهم تقشعر جلودهم ثم تلين، و هكذا يزداد خوفهم و تقواهم لمجرد سماعهم قول ربّ العزه، لأنّ المهم عندهم حقيقه الأمر لا تفاصيله حتى يختلفون فى ألوان أولئك النفر الموكّلون بسقر من الملائكه، و لا فى أحجامهم و أوزانهم و عددهم.. كما اختلف الكفّار و الذين فى قلوبهم مرض، و فتنوا أنفسهم قائلين: «ما ذا أراد الله بهذا مثلا؟! فضلوا عن الهدف و الحكمه ألا و هى التذكره.(الآيات ٣١/٢٦).

«كَلَّا- وَ الْقَمَرِ* وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ» هكذا يقسم ربنا أقساما غليظه عظيمه مترادفه، و يؤكّد بأنّ القضيّه كبيره و مشتمله على موعظه و إنذار عظيمين للبشر لو كانوا يعقلون.. بل إنّها ركيزه أساسيه و ملخه للإنسان فى مسيرته و مصيره، و ذلك أنّ تقدمه (فردا و أمه) و كذلك تأخره رهين موقفه من حقائق هذه الذكرى الإلهيه للبشر(الآيات ٣٧/٣٣).

و فى سياق الحديث عن الآخرة و عذاب سقر ينعطف بنا القرآن إلى آيه مهمه فى سورة، بل فى المنهجيه الإسلاميه بصوره عامه، و ذلك حينما يربط بين مستقبل الإنسان و حاضره و بين سعيه و مصيره و مؤكّداً بأنّه المسؤول عن نفسه، فهو الذى بيده حبسها فى العذاب كما بيده فك رهانها منه، و الدخول بها إلى جنّات الخلد و النعيم. و يضع الله الناس فردا فردا أمام حقيقه عظيمه و مهمه يجب أن يضعوها نصب أعينهم، و يتحركوا فى الحياه على إحياءاتها و مستلزماتها.. ألا و هى أنّ الأنفس كلّها رهينه.. رهينه شهواتها و ضلالها و قراراتها المنحرفه الخاطئه، إلا- أن يعتصم البشر بحبل الإيمان و يتبع منهجه فيخلصها الله من سجنها الخطير، كما صنع و يصنع بأصحاب اليمين (الآيات ٣٨/٣٩).

و من خلال حوار قصصى يدور بين أصحاب الجنه و المجرمين- ينقله القرآن- تبصّرنا الآيات الربّانيه بأهمّ ركائز الجريمه التى تؤدّى إلى سقر و التى حدّرتنا ربنا منها، و بذلك يجب القرآن على سؤال يفرض نفسه على كلّ من يعرف حقيقه سقر، حيث يبحث عن النجاه من شرّها، و يسعى لتجنّب أسباب التورّط فيها، و هى أربعه أساسيه كما يقرّ المجرمون أنفسهم: (عدم كونهم من المصلين، و عدم إطعامهم المسكين، و خوضهم مع الخائضين، و التكذيب بالآخرة) و ما ذا يرتجى لمن يوافيه الأجل، و يلقى ربه على هذا الضلال البعيد و الجريمه؟ (الآيات ٤٠/٤٧).

و من يتورّط فى الذنوب الأربعه الكبيره التى مرّ ذكرها فإنّ مصيره النار لا محاله، لأنّه لا عمل صالح عنده ينجيه من العذاب، و لن تدركه رحمه من الله و قد بارزه و حاربه، و لن يشفع له أحد، و لو استشفع له أحد- جدلاً- فلن تنفعه شفاعه أبداً، لأنّ الشفاعه تنفع من تكون مسيرته العامه فى الحياه مسيره سليمه، ثم يرتكب بعض الذنوب و المعاصى.. و ليس المجرمون كذلك (الآيه ٤٨).

و فى خاتمه السوره يستنكر القرآن على المجرمين (الكفار و مرضى القلوب) إعراضهم عن تذكره الله لهم و رحمته المتمثله فى آيات وحيه الهاديه، مع أنّهم مستقبلون أمرا عظيما و نارا لا تبقى و لا تدر.. و لا خلاص لهم إلا بالإقبال على التذكرة، و العمل على ضوء بصائرها و هداها!!! إنّهم حقّا يشبهون-حيث يعرضون عن آيات الله-قطيع حمر انقضّ عليه ليث لا يدرون قسوره إلى أين يفرون منه، و ما الحيله للخلاص.. و الحال أنّ آيات الله على عكس ذلك جاءت لتأخذ بأيديهم إلى ساحل الأمن و الرحمه و السعاده، و أولى بهم أن يستقبلوها كما يستقبل الضمأى و المجدبون غيث السماء.. «بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صِخْرَفًا مُنَشَّرَةً» و لن يكون ذلك أبدا، «بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ» و هذا فى الحقيقه-أعنى الكفر بالآخره و عدم حضورها فى وعى الإنسان- أكبر عامل فى الانحراف، و عدم الاهتمام بالتذكرة و التأثر بها (الآيات ٥٣/٤٩).

و يردّ القرآن على أباطيل المدبرين عنه و المستكبرين على الحق، الذين قالوا:

«إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ* إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» ردا موضوعيا حاسما فى آيات ثلاث (٥٤، ٥٥، ٥٦) تبين فى نفس الوقت دور القرآن بأنه التذكرة بالله و بالحق، و أنّ الإنسان مكلف بالاستجابة لهده، و لكنّه غير مجبور على ذلك بل مخير، و إن كان توفيق التذكرة و الهدايه لا يحصل «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ» و معرفه هذه الحقيقه أمر ضرورى بالنسبه للإنسان، لأنها تحيى فيه روح التوكل على الله و التضرع إليه، و تبعده عن الغرور الناشئ من الاعتماد على الذات.

خلاصه القول: إنّ الموضوع الرئيسى فى السوره تصدى الرسول لمراكز القوى الجاهليه، و لكنّها تعالج أيضا قضايا هامه أخرى و هى: أنّ الغنى و القدره و سائر نعم الله مجرد ابتلاء، و ليست دليلا على رضا الله عن أصحابها، و أنّ الإنسان رهن سعيه، و أنّ عليه هو أن يسعى نحو الهدايه، و أنّه لا يكره عليها إكراها.

[سوره المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٣١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمُنُّنْ
تَسْتَكْبِرُ (٦) وَرَبُّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَارِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذُرْنِي وَمَنْ
خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَيْنَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ
كَانَ لِلآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ
عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَى (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا
أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوْ آحَى لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا
جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزِرَ تَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ
الْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)

هدى من الآيات:

فى البدایه تبین الآیات الکریمه أهم الصفات التی یجب توافرها فى کل منذر یتصدى لهدايه الناس و تغییر الواقع بالرساله، و هی: تکبیر الله وحده، و تطهیر الثیاب من کل دنس و نجاسه، و مقاطعه الرجز بکل أشكاله و صوره، و عدم المنه على الله، و الصبر و الاستقامه فى الطریق الشائک، فالمنذر الرسالى لا یكون منذرا إلا إذا تحلى بهذه الصفات اللزومه، و كذلك لا یمکنه تحقیق أهدافه (الهدایه و التغبیر) إلا بها (الآیات ٧/١).

ثم تنذر الکفار بیوم عسیر علیهم لا یسر فیہ، یوم الانتقام، الذى یشفى به الله صدور المؤمنین الذین یتذوقون مراره الأذى منهم، و بالتالى یبعث فیهم روح الصبر و الاستقامه (الآیات ١٠/٨).

و من هذا الوعد العام لکل الکافرين و مرضى القلوب، یخص الله بوعیده

أقطاب الضلال و أئمة الكفر.. بصيغه الإفراد.. و كأنه يهدّدهم واحدا واحدا بالذات، لا فرق بين من عاصر النبي منهم و من يأتي بعدهم، مؤكّدا بأنّ ترفهم و ما هم فيه من نعمه ليس دليلا على قربهم منه و سلامه منهم، كلاً.. بل هو كيد عظيم ضدهم كما يأتوا في الآخرة ما لهم من خلاق و لا نصيب سوى العذاب الأليم، لأنّهم جحدوا بالآيات و فكّروا و قدّروا فما أسوء ما فكّروا فيه و قدّروا فأصيبت مقاتلهم، و دفعوا أنفسهم في نار سقر لا تبقى و لا تذر، عليها تسعة عشر من ملائكة الله الغلاظ الشداد (الآيات ٣١/١١).

بينات من الآيات:

[٢/١] مع اختلاف الكلمتين (المزمل و المدثر) في معناهما، و استقلال السورتين في موضوعهما و سياقهما، إلاّ أنّ البعض خلط بينهما إلى حدّ التطابق في النصوص الواردة في أسباب التنزيل ممّا يضعف رواياتها عندي. قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ لَقَدْ أَجْمَعُ الْمَفْسُرُونَ عَلَىٰ أَنَّ «المدثر» هو رسول الله -صلى الله عليه و آله و سلم- سمّاه ربّه بذلك،

قال الكلبي عن أبي عبد الله الصادق -عليه السلام- قال: «يا كلبى كم لمحمد صلى الله عليه و آله من اسم في القرآن؟» فقلت: اسمان أو ثلاثة، فقال: «يا كلبى له عشره أسماء» و عدّها إلى أن قال: «و يا أيّها المدثر و يا أيّها المزمل» (١) و وقع الاختلاف في أنّه صلى الله عليه و آله لم سمّي مدثراً، فمنهم من أول الظاهر، و منهم من بقى عليه، و تساءل: لما ذا تدثر الرسول بشيابه؟ فقال جابر عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه قال: جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت

ص: ٦٠

جوارى نزلت فاستبطنت الوادى، فنوديت فنظرت أمامى و خلفى، و عن يمينى و عن شمالى فلم أر أحدا، ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء- يعنى جبرئيل- فقلت: دثرونى دثرونى فصبوا علىّ ماء، فأنزل الله عزّ و جلّ:

«الآيات من المدثر» (١)، و

فى الدر المنثور: «رفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء على كرسى بين السماء و الأرض، فجئت رعبا فقلت:.. إلخ» (٢) و نقل الفخر الرازى أنّ نفرا من قريش آذوا رسول الله صلى الله عليه و آله و هم: أبو جهل، و أبو لهب، و أبو سفيان، و الوليد، و النضر بن الحرث، و أميه بن خلف، و العاص بن وائل فقالوا: إنّ محمدا لساحر، فوقع الضّجّه فى الناس: أنّ محمدا ساحر، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه و آله ذلك اشتد عليه، و رجع إلى بيته محزوننا، فتدثر بثوبه، فجاءه جبرئيل عليه السلام و أيقظه، و قال: «يا أيّها المُدَثِّرُ» (٣)، و ضعّف السيوطى ذلك فى أسباب النزول ص ٢٢٣، و لقد انتقدت فى سوره المزمّل أسباب النزول هذه لما فيها من إشاره إلى شك أصاب الرسول فى رسالته، و ضعف فى الموقف قبالة ضغوط المشركين، بلى. قد يكون النبى صلى الله عليه و آله حين نزول هذه الآيات متدثرا لأسباب عاديه.

و من المفسرين من تأول لكلمه المدثر غير ظاهرها فقال: إنّ المراد كونه متدثرا بدثار النبوه و الرساله، من قولهم ألبسه الله لباس التقوى، و زينّه برداء العلم، و يقال: تلبّس فلان بكذا (٤)، و قد نقل العلامة الطباطبائى هذا الرأى فى تفسيره و قوّاه (٥)، و قيل: المراد به الاستراحه و الفراغ، فكأنّه قيل له: يا أيّها المستريح

ص: ٦١

-
- ١- ١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٤ و التبيان ج ١٠ ص ١٧١، و الكشاف ج ٤ ص ٦٤٤ و التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٨٩، و فى ضلال القرآن ج ٨ ص ٣٤٥، و الميزان ج ٢٠ ص ٨٣.
 - ٢- ٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨٠.
 - ٣- ٣) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٠.
 - ٤- ٤) المصدر.
 - ٥- ٥) الميزان ج ٢٠ ص ٧٩.

الفارغ قد انقضى زمن الراحة، وأقبل زمن متاعب التكاليف و هدايه الناس (١)، و هو بعيد عمّا نعرفه من خلق الرسول الذى ما كان ليستريح و لا ينى يجاهد لإعلاء كلمه الله قبل و بعد البعثه.

و فى اللغه:المدثر:المتفعل من الدثار،إلا أنّ الثاء أدغمت فى الدال لأنها من مخرجها،مع أنّ الدال أقوى بالجهر فيها عن التبيان،و هو المتغطى بالثياب عند النوم (٢)،يقال:تدثر تدثرا،و دثره تدثيرا،و دثر الرسم يدثر دثورا إذا محى أثره (٣)، و القوى عندى فى معنى المدثر ثلاثة آراء:

الأول:ظاهر الكلمه أى المتدثر بغطاء،فإنّ الوحي كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه و آله فى مختلف حالاته،راكبا و راجلا،و نائما و يقظا و..و..

الثانى:المدثر بدثار النبوه،و قد بينا ما يشبه ذلك فى تفسير الآيه الأولى من سوره المزمل.

الثالث:المتكتم و المتخفى،و إنّما سمى الدثار دثارا لأنه يخفى النائم،من باب دثرت المعالم إذا انمحت و اختفت،و عليه يحتمل أن تكون سوره المدثر فاتحه المرحله العلنيه من الدعوه الإسلاميه،التي مرّت فى بدايتها بظروف السريه و الكتمان..و إذا صحّ هذا الرأى نكون قد وصلنا إلى حلّ للاختلاف بين المفسرين فى أنّه هل العلق هى أول ما نزل من القرآن أم سوره المدثر؟حيث يوصلنا هذا الرأى إلى أنّ العلق هى أول سوره نزلت على الإطلاق،أمّا المدثر فهى أول إيذان بإعلان الدعوه من الله.

ص:٦٢

١-١) المصدر.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٣.

٣-٣) التبيان ج ١٠ ص ١٧٢.

قُمْ فَأَنْذِرْ قال الرازي: في قوله: «قم» وجهان: قم من مضجعك، و قم قيام عزم و تصميم (١)، و يتسع المعنى لقيام الجهاد و التغيير و الثوره لوصفه تعالى المتفاعسين و الساكتين بالقاعدين في قوله « وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » (٢) و هكذا في مواضع أخرى من القرآن (٣)، و الإنذار و التحذير من عواقب الضلال و الانحراف إنه من أهم أهداف الحركه الرساليه الأصيله و منطلقاتها، لأنه يعكس في الحقيقه تحسس الطلائع بالواقع الفاسد، و من ثم تحركهم للتغيير إيماناً بالمسؤوليه الربانيه.

بلى. قد يكون نفسه على الطريق السوي، و لكنّ مسؤوليته شامله لا تنحصر في ذاته و حسب، بل هو كفرد من المجتمع مسئول عن واقعه، ليس من زاويه إنسانيه و دينيه فقط بل من زاويه واقعيه أيضاً، فإنّ تخلف مجتمعه و أمته يؤثر عليه شاء أم أبي، و إنّ القوانين و السنن الجزائيه تطال الجميع دون استثناء.. و لا- ريب أنّ نشر القيم الصالحه، و توعيه المجتمع، و من ثم تغيير مسيرته نحو الصواب، يجعل الإنسان أقرب إلى أهدافه، و أقدر على بلوغها بصورة أسرع و أفضل حيث يتحرك في محيط صالح ممهد للنهضه و التقدم.

و من الناس من يتوانى عن أداء مسؤوليته الاجتماعيه، و يتعامل بفهمه الخاطئ لقول الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٤) و يزعم أنه يأمر بالتقاعس و التساهل إزاء تخلف المجتمع و انحرافه،

ص: ٤٣

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٠.

٢-٢) النساء ٩٥.

٣-٣) المائده ٢٤، التوبه ٤٦-٨٦.

٤-٤) المائده ١٠٥.

كلاً.. أليس الظاهر القرآني حجّيه؟ أ و ليس هذا القرآن ينادى فينا بالقيام و النهضه للتغيير؟ أو ليس القرآن رساله الله إلى كلّ إنسان مكلف؟ أ و ليس الرسول صلى الله عليه و آله أسوه حسنه لنا جميعاً.. فقد قام و أنذر و أصلح بذلك مجتمعه و أسّس حضاره الإسلام.

إنّ الطلاق بين الأمه و رسالتها، و تقليد الشرق و الغرب، و سبات العقل، و حاله الفرديه و التفرق، و الجهل، و القعود عن الجهاد فى سبيل الله، و.. و.. كلّها خطوات نحو أسوء العواقب، و يجب علينا أن ننذر أنفسنا و أمتنا من مخاطرها، و أعظم ما ينبغى التحذير منه هو نسيان الله عزّ و جلّ فإنّه لمّا كان لا- مخافه أشدّ من الخوف من عقاب الله كان الإنذار منه أجلّ الإنذار، كما يقول شيخ الطائفه (١).

و علّق صاحب الميزان على أمر الله للنبي بالإنذار فقال: و التقدير: أنذر عشيرتك الأقرين لمناسبه ابتداء الدعوه كما ورد فى سوره الشعراء (٢)، و الأقرب إطلاق الإنذار، لأنّ التخصيص لا دليل عليه، مع أنّ سياق السوره وجّوها العام يوحى إلى أنّه موجه إلى الكفّار جميعاً، و هكذا يوجب الإنذار لجميع الناس على كلّ مسلم.

[٧/٣] و بعد الأمر الإلهى بالقيام و الإنذار يبيّن القرآن أهمّ الصفات التى يجب توافرها فى المنذر، حتى يكون عند الله منذراً بتمام المعنى، و لكى تثمر جهوده و مساعيه.. فليس المهم أن ينهض الواحد للجهاد و التغيير و حسب، بل الأهم أن يؤدّى دوره على الوجه الصحيح و الأكمل، و ذلك بالتزامه بخمس صفات فى شخصيته و مسيرته:

ص: ٦٤

١-١) التبيان ج ١٠ ص ١٧١.

٢-٢) الميزان ج ٢٠ ص ٨٠.

وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ حِينَ مَا يَقُومُونَ مِنْذَرًا لِلَّهِ يُوَاجِهُونَ فِي طَرِيقِهِ عَشْرَاتِ الْعُقَبَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَ التَّحْدِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، كَمَا يُوَاجِهُونَ الْقُوَى الْمُضَادَّةَ اِقْتِسَادِيَّةً وَ سِيَاسِيَّةً وَ اجْتِمَاعِيَّةً، وَ وَاجِبَهُ تَحْدِيئَهَا وَ رَفْضَ الْخُضُوعِ لَهَا، إِلَّا أَنَّهُ يَجِدُ نَفْسَهُ عَادَةً أَمَامَ أَحَدِ خِيَارَيْنِ: إِمَّا الْإِنْهَزَامَ وَ إِمَّا التَّحْدِيَّ وَ النُّصْرَ، فَكَيْفَ يَسِيرُ بِاتِّجَاهِ خِيَارِ التَّحْدِيِّ؟ إِنَّمَا يَرْتَكِزُ الْإِنْتِصَارَ ذَلِكَ عَلَى مَدَى رَسُوخِ تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ، وَ ذَلِكَ بِأَن يَكْبِرَهُ فِي وَعْيِهِ وَ يَعْظُمَهُ فِي نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَكْبِرَهُ بِلِسَانِهِ، فَاتَّئِدُ يَصْغُرُ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهُ، وَ تَتَسَاقَطُ فِي دَاخِلِهِ كُلُّ الْأَصْنَامِ. وَ هَذَا هُوَ سِرُّ اِنتِصَارِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْعُقَبَاتِ وَ التَّحْدِيَّاتِ وَ الضُّغُوطِ وَ الْقُوَى الْمُضَادَّةِ. وَ إِنَّهَا لَصِفَةٌ أُصِيلَهُ فِيهِمْ

يُصِفُهَا الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ» (١)، وَ عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الْمَعَادِلَةِ يَجِبُ أَنْ نَفْهَمَ مَعْنَى التَّكْبِيرِ فِي حَيَاتِنَا الْفَرْدِيَّةِ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَ السِّيَاسِيَّةِ.

وَ إِنَّمَا تَتَعَمَّقُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِي وَعْيِ الْإِنْسَانِ بِالْمَعْرِفَةِ السَّلِيمَةِ بِاللَّهِ، وَ أَنَّهُ الْكَبِيرُ الْمَتَعَالِ، وَ أَنَّهُ فَوْقَ أَنْ يُوصَفَ أَوْ تَرُقَى إِلَى ذَاتِهِ كَلِمَاتِ الْبَشَرِ أَوْ تَصَوُّرَاتِهِ، وَ لِهَذَا وَرَدَ فِي مَعْنَى (اللَّهِ أَكْبَرُ) عَنْ أُمَّةِ الْهُدَى - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ (٢)، وَ فِيمَا يَلِي نَنْقُلُ رَوَايَةَ تَبَيَّنَ نُورًا مِنْ أَنْوَارِ عَظْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ:

رَوَى الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ - أَنَّهُ قَالَ: وَ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي الْعَرْشِ كَحَلْقِهِ فِي فَلَاهُ، وَ إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَكًا يُقَالُ لَهُ «خِرْقَائِيلُ» لَهُ ثَمَانِيَةَ عَشْرٍ أَلْفِ جَنَاحٍ، مَا بَيْنَ الْجَنَاحِ إِلَى الْجَنَاحِ خَمْسَمِائَةَ عَامٍ، فَخَطَرَ لَهُ خَاطِرٌ: هَلْ فَوْقَ الْعَرْشِ شَيْءٌ؟ فَزَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَهَا أُجْنَحَهُ أُخْرَى، فَكَانَ لَهُ سِتٌّ وَ ثَلَاثُونَ أَلْفًا

١- (١) نهج البلاغه خ ١٩٣ ص ٣٠٣.

٢- (٢) الميزان ج ٢٠ ص ٨٠.

جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائه عام، ثم أوحى الله إليه: أيها الملك طر، فطار مقدار عشرين ألف عام لم ينل رأس قائمه من قوائم العرش، ثم ضاعف الله له في الجناح والقوه، وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف عام لم ينل أيضا، فأوحى الله إليه: أيها الملك لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ إلى ساق عرشي! فقال الملك: سبحان ربي الأعلى فأنزل الله عز وجل: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» فقال النبي: اجعلوها في سجودكم (١).

ولعل من مفاهيم تكبير الله أن يسعى الإنسان المؤمن لتحطيم كيان الضلال والكفر، كي تتهاوى الأنظمة والمعادلات الاستكباريه، وتبقى كلمه الله هي العليا في الواقع السياسى والاجتماعى، ويكون هو الأكبر في نفوس الناس ووعيمهم، وتكبره ألسنتهم بالعدو والأصل، قال الفخر الرازى: وهكذا تنبيه على أن الدعوه إلى معرفه الله ومعرفه تنزيهه مقدمه على سائر أنواع الدعوات (٢)، والذى يريد أن يدعو الناس إلى التوحيد يجب عليه أن يسقط كل الأصنام فى نفسه بالتكبير أولا، ثم يقدم نفسه نموذجا حقيقيا لرسالته، فإن ذلك يعظم الله ويكبره فى نفوس الآخرين.

ومن معانى تكبير الله أن يتجرد الفرد الرسالى فى دعوته لربه، فلا يتخذ رسالته وسعيه وسيله لتكبير أحد دونه، كالحكومات الجائره، أو الذات والعشيره والقوميه.. كما يصنع علماء السوء الذين يتخذون الدين ذريعه لمصالحهم وتضخيم أنفسهم فى المجتمع.

الثانيه: تطهير الثياب.

وَلِيَابِكَ فَطَهِّرْ

ص: ٦٦

١-١) موسوعه بحار الأنوار ج ٥٨ ص ٣٤.

٢-٢) التفسير الكبير للرازى/ ج ٣٠ ص ١٩١.

و يبدو أنّ الثياب هي عموم ما يتصل بشخصيه الإنسان ظاهرياً، و لذلك مصاديق ذكر المفسرون بعضها و منها:

١- اللباس، فإنّه يجب على الداعيه الرسالي أن يهتم بأناقته و نظافته في جَوّ العمل الرسالي الحادّ، و ليس صحيحاً أن ينسى مظهره بحجه خوضه الصراع الاجتماعي و السياسي، و التحديات المضاده، و لا بد أن يعلم بأنّ تصرفاته و سلوكه و مظهره كلّ ذلك مقياس عند البعض و دليل على شخصيته و من ثمّ رسالته.

و تطهير اللباس يعني رفع النجاسه عنه، و مراعات القواعد الصحيه العامه، و هناك روايات فسّرت التطهير بأنّه تقصير الثياب كي لا تعلق النجاسات و الأوساخ الأرضيه بها،

قال الإمام على عليه السلام: «ثيابك ارفعها لا تجرها» (١) و عن طاووس: و ثيابك فقصّير، قال الزجاج: لأنّ تقصير الثياب أبعد من النجاسه، فإنّه إذا انجزّ على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه (٢)، فالغرض إذن أن لا يطال الأرض، و ليس كما فهم بعض المترجمين الذين راحوا يقصّرون ثيابهم إلى قريب الركبه! و قيل في معنى تطهير الثياب: اتخاذها من الحلال دون الحرام لأنّه نوع من الطهاره (٣).

٢- الأزواج، قال في المجمع: و قيل معناه: و أزواجك فطهّرنّ من الكفر و المعاصي حتى يصرن مؤمنات (٤)، و لعل في قول الله عن الزوجات: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ» (٥) إشاره إلى هذا المعنى، و من الناحيه الواقعيه فإنّ أسرّه الإنسان و بالذات زوجه مظهر لشخصيته كما الثوب.

ص: ٦٧

١- ١) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٥٣.

٢- ٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٥.

٣- ٣) المصدر.

٤- ٤) المصدر.

٥- ٥) البقره ١٨٧.

٣- وقيل أن البدن من مصاديق الثياب باعتباره ثوب الروح و وعائها، وقيل معناه: وفسك فطهر من الذنوب، و الثياب عبارته عن النفس (١)، يقال: طاهر الثياب أى طاهر النفس منزّه عن العيب، و دنس الثياب أى خبيث الفعل و المذهب (٢).

و لعلّ التكبير هو عنوان الطهاره الباطنيه و وسيلتها، و أمر الله بتطهير الثياب بعد الأمر بالتكبير يهدينا إلى ضروره الطهارتين الباطنيه و الظاهريه عند الداعيه الرسالي، فإنّ الآخرين و بالذات المغرضين منهم قد لا يجدون ثغره فى رساله المؤمن و مبادئه و حتى شخصيته الذاتيه و لكنهم يجدون بعض الثغرات فى مظاهره (ثيابه) يطعنونه من خلالها، و يشوّهون شخصيته و سمعه رسالته عبرها.

الثالثه:مقاطعه الباطل مقاطعه تامه و شامله:

وَ الرَّجْزَ فَاهْجُزْ أى اقطع صلتك به. و اختلف فى الرجز فقيل: هو الأصنام و الأوثان عن ابن عباس، و قيل: المعاصى عن الحسن، و قيل معناه: جانب الفعل القبيح و الخلق الذميم، و قيل معناه: أخرج حبّ الدنيا من قلبك لأنه رأس كلّ خطيئه (٣)، و قيل: اهجر ما يؤدى إلى العذاب (٤)، و قال الرازى: الرجز العذاب، قال الله تعالى: «لئن كشفنا عنّا الرجز» أى العذاب، ثم سمى كيد الشيطان رجزا لأنه سبب للعذاب، و سميت الأصنام رجزا لهذا المعنى، فعلى هذا القول تكون الآيه

ص: ٤٨

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٥.

٢-٢) المنجد ماده ثوب.

٣-٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٥.

٤-٤) التبيان ج ١٠ ص ١٧٣.

داله على وجوب الاحتراز عن كل المعاصى (١)، و مثله صاحب الكشاف و الميزان. و

عن جابر قال: سمعت رسول الله. صلى الله عليه و آله يقول: «هى الأوثان» (٢).

و كل ما ذكره المفسرون صحيح، إلا أنه مصاديق لشيء واحد هو الباطل، و أظهر مفردات الرجز التى يجب على الداعيه الرسالى مقاطعتها التالىة:

ألف: على الصعيد الفردى.. العقائد و الأفكار الباطلة، و الأخلاق و الصفات السيئه، و الممارسات و السلوكيات الخاطئه.

باء: و على الصعيد الاجتماعى.. الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، كالزنا و السرقة و شهاده الزور و ظلم الناس و أكل أموالهم بالباطل.. و يدخل فى الرجز الاجتماعى مجالس البطالين و رفاق السوء، فإنهما يفسدان أخلاق المؤمن، و يؤثران سلبا على مسيرته.

جيم: و على الصعيد السياسى.. التعاون مع الطاغوت و الحكومات الفاسده، و الركون إلى الظالمين، و هكذا الانتماء إلى التجمعات السياسيه المنحرفه، و الخضوع للقيادات الضاله و الجائره.

الرابعه: عدم المئه على الله بل الإحساس الدائم بالتقصير تجاهه.

و لَا تَمُنُّنْ تَشِيَتَكُثِرُ و المؤمن الصادق لا يتبع جهاده و سعيه بالمنّ و الاستكثار أبدا، ذلك لأنه يعدّ عمله الصالح شرفا وفقه الله إليه، و أنه الذى يستفيد من العمل فى سبيل الله فى

ص: ٦٩

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٣.

٢-٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨١.

الدنيا والآخرة وليس العكس، لأنه المحتاج إلى الله و الفقير لرحمته، و إلى ذلك أشار القرآن بقوله تعالى: «قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِشْرًا بِالْمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١). ثم إنَّ المؤمن إنما يعمل صالحا لينال ثواب الله و رضوانه، و المنَّ يبطل الأجر فلما ذا يمنَّ على ربه؟

قال الإمام على عليه السلام يوصى مالك الأشر لما ولّاه مصر: «و إياك و المن على رعيتك بإحسانك.. فإنَّ المن يبطل الإحسان» (٢). ثم كيف يمنَّ المؤمن على ربه و هو يعلم بأنَّه لو لا- فضله و رحمته لما صدر منه الإحسان و لما استطاع إليه سبيلا؟! و لكلمه «تستكثر» معنيان يهتدى إليهما المتدبر:

الأول: لا- تمنَّ على الله باستكثار عملك، قال الرازي: لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقَّة كالمستكثر لما تفعله.. و نقل عن الحسن قوله: لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها (٣).

الثاني: لا تمنَّ على الله فإنَّ ذلك يزيدك عملا صالحا و أجرا بعد أجر، فإنَّ أصل المنَّ هو القطع، و الذي يمنَّ على ربه عمله في سبيله فإنَّه لا يستزيد عملا، و السبب أنَّه حينئذ يشعر بالاكتفاء و الإشباع فلا يجد حاجة تدعوه إلى المزيد من السعي و الاستكثار من الخير. و على الصعيد الاجتماعي فإنَّ المنَّ على الناس يدعوهم إلى النفور من الداعية، كما أنَّ عدمه يدعوهم للالتفات حوله بكثره. و ما أكثر ما منع المن و لا- يزال الخير و التكامل عن الكثير من الناس! أمَّا المؤمنون المخلصون و الواعون فإنَّهم لا يمنون على الله أبدا لعلمهم بأنَّ الإنسان مهما عمل صالحا فإنَّه قليل بالنسبة إلى أهدافه، و بالنسبة للجزاء الذي سوف يؤجره ربّه به على

ص: ٧٠

١-١ (١) الحجرات ١٧.

٢-٢ (٢) نهج البلاغه كتاب ٥٣ ص ٤٤٤.

٣-٣ (٣) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٤.

الخامسة: الصبر و الاستقامه فى طريق الحق.

وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ و هذه الآيه تكشف لنا طبيعه المسيره الرساليه بأنّها مليئه بالضغوط و المشاكل، لأنّها الطريق إلى الجنه التى حَفَّت بالمكاره، و يجب على كل داعيه إلى الله و كلّ مجاهد أن يعي هذه الحقيقه و قد اختار الانتماء إلى حزب الله و العمل فى سبيله، و من ثمّ يعدّ نفسه لمواجهة كلّ التحديات و المكاره بسلاح الصبر و الاستقامه.

إنّ الذى يتصور طريق الحق خاليا من الأشواك يخطئ فهم الحياه و سنن التغيير. أ و لست تريد بناء كيان الحقّ على إنقراض الباطل؟ بلَى. فأنت إذن فى صراع جذرىّ مع الباطل بكلّ أثقاله و امتداداته.. مع النظام الفاسد، و الطاغوت المتسلط، مع ثقافه التبريره، مع الاعلام التخديرى، مع التربيه الفاسده، مع العلاقات المتوتّره بين الناس.. و بكلمه: مع تخلف المجتمع الفاسد الذى تسعى لعلاجه، فلا بد أن تتوقّع ردّات الفعل المضاده، و الضغوط و التحديات المتواليه و المرکزه فى طريقك.

و حيث يحتدم الصراع و يصعدّ مرحله بعد مرحله تتضاعف التحديات و الضغوط، الأمر الذى يضع الرسالى (فردا و حركه) أمام خيارين: الهزيمه أو الصمود، و خياره الأصيل هو الاستقامه، فيجب إذن أن يصبر لربه، و الذى يعنى عدّه أمور:

الأول: أن يجعل صبره خالصا لوجه الله، لا يريد إلا رضوانه و ثوابه.

الثانى: أن يستقيم على الحق حتى لقاء ربه عزّ و جلّ، كما قال الله: « وَ اعْبُدْ

رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» (١)، فالصبر إذن ليس له حدٌّ كما يزعم البعض الذين يبزرون هزيمتهم و تراجعهم، بل يجب أن يصبر المؤمن و يصبر حتى يلقى ربه.

الثالث: أن يصبر لحكم ربه و يسلم لفضائه بعد أن يقوم بما ينبغي عمله ثم يترك الأمر لله يقدر فيه ما يشاء، و هذا معنى التسليم لله و التفويض إليه، و هو درجه عاليه من اليقين تضمّد جراحات الداعيه، و تطمئنه بأنّ الله ليس بغافل عما يلاقيه، و هو رقيب على كلّ شيء، و سوف ينتقم في المستقبل من أعدائه، و تتضمن الآيه تحذيرا موجّها إلى الكفار و المعاندين بالانتقام، و هذا ما يفسّر العلاقة بينها و بين الآيات القادمه.

[١٠-٨] فَمَا إِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ فِي الْمُنْجِدِ: الناقور جمع نواقير، و هو العود أو البوق ينفخ فيه، و النقر هنا بمعنى النفخ، و كانت هذه الآله تستخدم قديما لجمع الناس و الجيوش في المناسبات، و الذي يقصد بالناقور في هذه الآيه الصور، الذي ينفخ فيه إسرافيل مرّه فيصعق من في السموات و الأرض، و أخرى فيبعثون للحساب و الجزاء، و هو كهيته البوق.

و قد اختلف المفسرون في النفخه هذه هل هي الأولى أو الثانيه، فقوى صاحب التبيان كونها الأولى، و قال: قيل: أنّ ذلك في أول النفختين، و هو أول الشده الهائله (٢)، و قيل: أنّها النفخه الثانيه (٣).

و الأقرب عندي حمل النقر على الإطلاق، فإنّ كلا النفختين عسيران على الكافرين، فأما الأولى فإنّها تسلبهم ما في أيديهم من نعيم و حياه، و أمّا الثانيه

ص: ٧٢

١-١ (١) الحجر ٩٩.

٢-٢ (٢) التبيان ج ١٠ ص ١٧٤.

٣-٣ (٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٥.

فهى تبعثهم للوقوف بين يدى جبار السموات و الأرض للحساب و الجزاء. و لا ريب أن النفخه التى يعقبها الحساب أعسر من الأخرى التى تميت الناس فقط.

و قد يكون التعبير مجازيا أيضا، بحيث يصير النقر فى الناقر كناية عن يوم الانتقام.. كما نقول قرعت طبول الحرب.

فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ فهو يوم عسر مطلق لا يسر فيه على الكافرين، أما المؤمنون فإنهم مخصصون بلطف الله و رحمته، ممّا يهدينا إلى أن الجزاء و الانتقام الإلهى قائم على أساس الحكمة و التدبير الدقيق. و من الآيتين مجموعه يتبين أن ذلك اليوم بذاته عسير جدا لما فيه من أحداث و مواقف عظيمة لو لا أنه تعالى يسره على المؤمنين.

و حضور ذلك اليوم فى وعى المؤمنين، و بالذات الطلائع و القيادات الرساليه الذين يخوضون الصراع، و يواجهون آلام الضغوط و التحديات، من شأنه أن يثبتهم على الطريقه، و يصبرهم على الأذى فى جنب الله، إذ لا يخشون الفوت فيستعجلوا، بل هم على يقين بأن فى ضمير المستقبل يوم انتصار على الأعداء و انتقام حتمى منهم للحق، و أن السبيل لدفع عسره تجرّع آلام الجهاد من أجل الحق، و الصبر لله فى الحياه الدنيا.

[١٦/١١] و ليس بالضروره أن يتحقق هذا الوعد غدا أو بعد غد، و ليس صحيحا أن نشكك فيه لو تأخر عنا قليلا و نترك الجهاد فى سبيل الله، أو إنذار الكفار.. كلاً.. فإنّ تدبير الأمور بيد الله ذى الحكمة البالغه و العلم المحيط، و خطأ أن يعترض أحد على تقديراته، بل يجب أن نسلم له تسليما مطلقا بأنه يفعل ما فيه الخير و الصلاح، أما نحن فقاصرون عن إدراك حكمه كل قضاء و قدر، فلعلّه آخر طاغيه يتسلط على رقاب الناس، و يعيث الفساد فى الأرض، أو جعل أمر شعب من

الشعوب رهن أسره فاسده طاغيه يتوارثون الحكم و الظلم فليفعل ربنا ما يشاء مسلمين بقضائه كما أمرنا بذلك و قال:

ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا اَنْ حَمَلَ اَمَانَهُ الرِّسَالَةَ وَ مَنْ تَمَّ مَسْئُولِيهِ الْاِنذَارُ وَ التَّغْيِيرُ وَاجِبٌ اِنْسَانِي شَرْعِي، مَكْلَفٌ بِهِ كَلَّ مُؤْمِنٌ، بَلَّ كَلَّ اِنْسَانٌ عَاقِلٌ مُسْتَطِيعٌ، اَمَّا مَتَى وَ كَيْفَ يَتَغَيَّرُ النِّظَامُ الْحَاكِمُ، وَ يَنْتَصِرُ اَهْلُ الْحَقِّ عَلٰى حِزْبِ الشَّيْطَانِ، فَاِنَّهُ اَمْرٌ يَخْتَصُّ بِهِ رَبُّ الْعِزَّةِ، وَ مَا يَنْبَغِي لَنَا الْاِيْمَانُ بِهِ حِكْمَتُهُ الْبَالِغَةُ، وَ بِذَلِكَ نَزْدَادُ صَبْرًا وَ اسْتِقَامَةً.

و للآيه عده تفاسير أهمها و أقربها:

الأول: أنها وعيد للكفار، أى دعنى و إياه فأنى كاف له فى عقابه، كما يقول القائل: دعنى و إياه، و عن مقاتل: معناه: خل بينى و بينه فأنا أفرد بهلكته (١).

الثانى: أنها إشاره إلى أصل خلقه الإنسان، فمعناه: دعنى و من خلقتة فى بطن أمه وحده لا مال له و لا ولد (٢)، شبيهه قوله تعالى: « وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (٣)، و فى ذلك إشاره لطيفه إلى أنه تعالى سوف يسلب منه ما أعطاه من النعيم، فهو فى الأصل كان وحيدا جاء إلى الدنيا لا شىء معه، فمن الله عليه بالأموال الممدوده و البنين الشهود.

الثالث: أنها طعن فى نسب الوليد بن المغيرة بصورة خاصه إذ كان مجهول

ص: ٧٤

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٧.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) الأنعام ٩٤.

فعن زراره و حمران و محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ الوَحِيدَ وَلَدَ الزَّانَا» (١)، و

قال زراره: ذكر لأبي جعفر عليه السلام عن أحد بنى هشام أنه قال في خطبته: أنا ابن الوحيد (يعنى المتميّز المنقطع عن النظير، و هكذا كان هذا الأموى يفتخر بالوليد الذى لعنه الله من فوق عرشه)، فقال الباقر عليه السلام: «ويله لو علم ما الوحيد ما فخر بها» فقلنا له: و ما هو؟! قال: «من لا يعرف له أب» (٢).

و قيل معناه: دعنى و من خلقتة متوحدا بخلقه لا- شريك لى فى خلقه.. هكذا فى مجمع البيان و التفسير الكبير (٣)، و عن أبى عباس: كان الوليد يسمّى الوحيد فى قومه (٤)، قال الفخر الرازى: و كان يلقّب بالوحيد، و كان يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لى فى العرب نظير، و لا- لأبى نظير، فالمراد «ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ» أعنى «وحيدا» و طعن كثير من المتأخرين فى هذا الوجه، و قالوا: لا يجوز أن يصدّقه الله فى دعواه: أنه وحيد فى هذا الأمور.. ذكر ذلك الواحدى، و الكشّاف، و ردّ عليه ثلاثة ردود (٥).

و لقد كان الوليد بن المغيرة من طغاه الجاهلية المترفين، الذين أقبلت عليهم الدنيا بزینتها (المال و البنون) كما وصف الله بقوله:

وَ جَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَ مَا دَامَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى سَلْبِهِ وَ الذَّهَابُ بِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْهُ إِلَّا

ص: ٧٥

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٧.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) راجع مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٧ و التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٨.

٤-٤) المصدر الأول.

٥-٥) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٨.

لحكمه بالغه. و المال الممدود هو الكثير و المتنامى، قال الطبرسى فى المجمع: ما بين مكة إلى الطائف من الإبل المؤبلة- المجمع- و الخيل المسومة، و النعم المرحلة، و المستغلات التى لا تنقطع غلتها، و الجوارى و العبيد و العين الكثيره، و قيل: الذى لا تنقطع غلته عن سنه حتى يدرك غله سنه أخرى فهو ممدود على الأيام، و كان له -يعنى الوليد- بستان بالطائف لا ينقطع خيره فى شتاء و لا صيف (١).

و بَيِّنَ شُهُوداً إذا كان له عشره أولاد «شهودا» حضورا معه بمكة، لا يغيبون لغناهم عن ركوب السفر للتجاره (٢). و قد كانت كثره الأولاد- المذكور بالذات- تعدّ من أكبر النعم فى ذلك العصر بالخصوص بسبب العادات و الظروف الاجتماعيه و الأمنيه الحاكمه. أضف إلى ذلك أنّ مشيهم مع والدهم و سيدهم يعطيه عزه و هيبه بين الناس، فكيف إذا كان نفسه شيخ عشيره و صاحب جاه و ثروه؟! أو إلى هذا المعنى أشار الرازى فقال: إنهم رجال يشهدون معه المجمع و المحافل (٣).

و كلمه «بنين» شامله تتسع لأكثر ممّا تتسع إليه كلمه الأولاد، فهى تشمل الأولاد من الصلب، و الأولاد بالتبني، و الأتباع، لأنّ بين التابع و المتبوع علاقه التبني ذات الطرفين، و ما أكثر أولئك المصلحين الذين تحلّقوا حول الوليد، و لا يزالون يتبعون المترفين طمعا فى أن يصيهم فئات من طعامهم.

ثم أنّه تعالى حيث أراد به كيدا فتح عليه أبواب الخيرات كى يلقاه فى الآخره و ما له من خلاق، فبالإضافه لنعمتى المال الممدود و البنين الشهود بسط له من فضله ما مهّد به سبل العيش الرغيد و ذلل العقبات.

ص: ٧٦

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٧.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٨.

وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا قَالَ فِي الْمَنْجِد: مَهَّيْدُ الْفِرَاشِ: بَسْطُهُ وَوِطْأُهُ، وَالْأَمْرُ سَوَاهُ وَسَهْلُهُ وَأَصْلَحُهُ، وَتَمْهِيدُ الرَّجْلِ: تَمْكُنٌ، وَالْمَهْدَةُ جَمْعُهَا مَهْدٌ وَهِيَ مَا انْخَفَضَ مِنَ الْأَرْضِ فِي سَهْوِهِ وَاسْتَوَاءِ (١) بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ النَّاسُ مِنَ الْمَشْيِ عَلَيْهَا بِسَهْوِهِ وَرَاحِهِ.

وَعَلَى مِثْلِ هَذَا أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ، قَالَ الرَّازِيُّ: أَيْ وَبَسَطَتْ لَهُ الْجَاهُ الْعَرِيضُ وَالرِّيَاسَةُ فِي قَوْمِهِ، فَأَتَمَّتْ عَلَيْهِ نِعْمَتِي الْمَالِ وَالْجَاهِ، وَاجْتِمَاعُهُمَا هُوَ الْكَمَالُ عِنْدَ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَهَذَا يُدْعَى بِهَذَا فَيُقَالُ: أَدَامَ اللَّهُ تَمْهِيدَهُ، أَيْ بَسَطَتْهُ وَتَصَرَّفَهُ فِي الْأُمُورِ (٢)، وَمِنَ التَّمْهِيدِ صِحَّةُ الْبَدَنِ وَرَاحَةُ الْبَالِ وَمَا أَشْبَهَ. وَ الْمَفْعُولُ الْمَطْلُوقُ «تَمْهِيدًا» يَفِيدُ التَّأَكِيدَ وَالْمُبَالَغَةَ فِي الْاسْتِغْرَاقِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ النِّعْمُ دَاعِيَةً إِلَى الشُّكْرِ وَالْإِيمَانِ لِكُلِّ عَاقِلٍ وَصَاحِبِ ضَمِيرٍ حَيٍّ، فَهِيَ بِمِثَابِهِ عَامِلٌ يَعْجِدُ طَرِيقَ الْهُدَايَةِ لِلْإِنْسَانِ وَ يَمْهِّدُهُ لَهُ لَوْ تَفَكَّرَ وَعَقَلَ، وَ لَكِنَّ الْوَلِيدَ كَانَ مَرِيضَ الْقَلْبِ، وَ لِهَذَا كَانَ يَزِدَادُ ضَلَالًا وَ إِصْرَارًا عَلَى الْكُفْرِ بِنِسْبَةِ طَرْدِيهِ كَلَّمَا تَوَالَتْ عَلَيْهِ النِّعْمُ، وَ السَّبَبُ أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ يَقِفُ عِنْدَ حَدِّ الدُّنْيَا، وَ تَسِيْطِرُ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْمَادِيَّةُ بِحَيْثُ يَصْبِحُ جَمْعُ حَطَامَتِهَا هَدَفًا بِنَاتِهِ، فَإِذَا بِهِ يَفَكِّرُ فِي الْاسْتِرَادَةِ بِدَلِّ الْعَمَلِ عَلَى الشُّكْرِ لِصَاحِبِ النِّعْمَةِ.

ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يَتَلَوُّعُ عِنْدَ كُلِّ نِعْمَةٍ إِلَى تَوْفِيقِ الشُّكْرِ وَ أَدَاءِ حَقِّهَا لِلَّهِ وَ إِلَى النَّاسِ، وَ

صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ حِينَما قَالَ فِي حَقِّ طَالِبِ الدُّنْيَا: «مِنْهُمَانِ لَا يَشْبَعُ طَالِبُهُمَا: طَالِبُ الْعِلْمِ، وَ طَالِبُ الدُّنْيَا» (٣)

«فَمَا طَالِبُ الْعِلْمِ فَيَزِدَادُ رَضَى

ص: ٧٧

١-١) الْمَنْجِدُ مَادَهُ مَهْدٌ بِتَصْرُفٍ.

٢-٢) التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ ج ٣٠ ص ١٩٩.

٣-٣) كَنْزُ الْعَمَالِ ح ٣٨٩٣٢.

الرحمن، واما طالب الدنيا فيتمادى في الطغيان « (١) و

بئس العبد عبد له طمع يقوده إلى طبع (٢) (أى طبع قلبه بالرين)، و

صدق الإمام على عليه السلام إذ قال: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع» (٣) وإنما أعشى قلب الوليد تقادم الخير عليه و طمعه في زيادته، وإنه لمكر الله بالمترفين، الذى يزيدهم ضلالا عن الحق، وخساره فى الدنيا والآخرة، فلا يشكر ربه ولا هو يصل إلى غايته (الزيادة) لأن توسيع الله على أحد ليس مطلقا أبدا بل له حدّ و قيد، وليس خارجا عن سننه و قوانينه فى الحياه، فكيف يزيد من لا يؤدى شكر النعمه و هو القائل: «لَيْنُ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَيْنُ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (٤)؟ اقال صاحب التبيان: أى لم يشكرنى على هذه النعم، و هو مع ذلك يطمع أن أزيد فى إنعامه و التمهيد و التوطئه و التذليل و التسهيل.

كَلَّا أَي لَنْ يَكُونُ ذَلِكَ أَبَدًا، فهذه كلمه تفيد النفى القاطع و العنيف، و السبب هو عناده للآيات الربّانيه.

إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا و معاندتها يمنع الزيادة لسببين:

الأول: السبب الغيبي، فإنه تعالى يدافع عن رسالاته و آياته، و ينتقم للحق من جاحديه، بالإهلاك و الاستئصال تاره، و بالقحط و سلب البركه تاره أخرى.

الثانى: السبب الظاهر و ذلك أنّ آيات الله هى النهج القويم الذى يهدى

ص: ٧٨

١- ١) موسوعه بحار الأنوار ج ١ ص ١٨٢.

٢- ٢) المصدر ج ٧٧ ص ١٣٥.

٣- ٣) المصدر ج ٧٣ ص ١٧٠.

٤- ٤) إبراهيم ٧.

الإنسان إلى كل خير مادي و معنوي، و يأخذ بيده إلى الرفاه و النمو الاقتصادي لو عمل بها و طبّقها في حياته، و حيث يعاندها الكفّار و مرضى القلوب فكيف يستزيدون، و كيف توطأ لهم سبل العيش، و تمهّد أسباب السعادة؟! إقال المفسرون: و لم يزل في نقصان-يعنون الوليد-بعد قوله: «كلاً» حتى افتقر و مات فقيراً (١)، و قال العلامة الطبرسي عند تفسيره للآية: أى لا يكون كما ظن، و لا أزيده مع كفره (٢)، و إلى مثله ذهب الزمخشري في الكشاف.

و العناد مرحله من الكفر و النفور تشبه الجحود، فإنّ الإنسان حينما يكفر بالحق يكفر تاره لأنّه لمّا تتوفّر الآيات الدالّة عليه، أو لأنّه يكفر للتهرب من مسئوليّه الإيمان به، و لكنّه يكفر تاره بلا مبرّر سوى محاربه الله و الاستهزاء بآياته و هذا هو العناد.. أو تأخذه العزّه بالإثم، و يخلط بين الأمور كأن يكفر بالإسلام و القرآن لصراع شخصيّ بينه و بين الداعيه إلى الله، قال الرازي: و قوله: «إنّه كان» يدل على أنّه من قديم الزمان كان على هذه الحرفه (٣).

[٣١-١٧] و معانده آيات الله و من ثمّ محاربتّه ليس تمنع عن العنيد النعمه و الخير و حسب، بل و تؤدّي به إلى الشر و العذاب في دنياه و آخرته.

سَيَأْرَهُقُهُ صَيَّعُوداً أى سأجعله يتكلّف الصعود حتى يرهق إرهاقاً شديداً، و الصعود كناية عن المشقّه، ففي التحقيق نقلاً عن التهذيب: و يقال لأرهقنك صعوداً، أى لأجسمنك مشقه من الأمر، لأنّ الارتفاع في صعود أشق من الانحدار في هبوط، و منه اشتق

ص: ٧٩

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ١٩٩.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٧.

٣-٣) التفسير الكبير ج ١٠ ص ١٩٩.

تصعد في ذلك الأمر أي شقّ عليه (١).

ولا ريب أنّ من يعاند آيات الله وشرائعه ثم يتبع هواه وشرائع البشر فإنّه سيلاقى أنواع المصاعب والمشاكل باعتباره يسبح خلاف قوانين الله وسنن طبيعته، فهو على شبه مَن يصعد الجبال الرفيعة الوعره يرهقه الصعود. أ ترى كم لقيت و لا تزال تلاقى أمتنا الإسلاميه من العقبات كالتمزق و الظلم و التخلف الحضارى حينما هجرت كتاب ربها؟ فهى إذا حقيقه واقعيه يواجهها كلّ من يعاند آيات ربه فردا أو مجتمعا أو أمه و فى الجانبين المادى و المعنوى.

و لا ينتهى الأمر عند هذا الحد، بل يمتد العذاب إلى الآخرة و يتجلّى بصورة أشد و أكثر و أوضح حيث يتبيّن للمعاندين خطأهم الكبير فى صورته جبل مخيف من العذاب،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «صعود جبل فى النار من نحاس يحمل عليه (الكافر) ليصعده كارها، فإذا ضرب بيديه على الجبل ذابتا حتى تلحق بالركبتين، فإذا رفعهما عادتا، فلا يزال هكذا ما شاء الله» (٢)، و

فى فتح القدير عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «الصعود جبل فى النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفا ثم يهوى، و هو كذلك فيه أبدا» (٣)، و

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّ فى جهنم جبلا يقال له صعود، و إنّ فى صعود لواديا يقال له سقر، و إنّ فى سقر لجبا يقال له هبهب، كلّما كشف غطاء ذلك الجب ضجّ أهل النار من حرّه، و ذلك منازل الجبارين» (٤)، و يقال للألم الذى يصل إلى الرأس صعود لأنّه يرتفع إليه و لأنّه شديد أثره، و ربما تتسع الكلمه إلى معنى التزايد فإنّ العذاب الإلهى فى تصاعد مستمر.

ص: ٨٠

١- (١) التحقيق فى كلمات القرآن ج ٦ ص ٢٧٣.

٢- (٢) تفسير البصائر ج ٥٠ ص ٤٣٠.

٣- (٣) فتح القدير ج ٥ ص ٣٢٩.

٤- (٤) تفسير البصائر ج ٥٠ ص ٤٣٠ عن روضه الواعظين.

و بين القرآن السبب الرئيسي الآخر الذى يؤدى بالإنسان إلى الشقاء و العذاب فى الحياه و هو أولاً:فقدانه بركه رسالات الله و آياته،و ثانياً:اتباعه المناهج البشريه الضالاه،و اعتماده على فكره الضحل و تقديره الخاطئ.

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ وَ التَّفَكِيرُ هو تَقْلِيْبُ وَجْهِ الرَّأْيِ،بينما التقدير هو تحويل التفكير إلى خطه بعد الدراسه،يقال فَكَّرَ فى الأمر و تَفَكَّرَ،إذا نظر فيه و تدبَّرَ،ثم لَمَّا تَفَكَّرَ رَتَّبَ فى قلبه كلاماً و هَيَّأَهُ،و هو المراد من قوله:«و قَدَّرَ» (١)، و فى تفسير الميزان قال العلامة الطباطبائى:و التقدير عن تفكير نظم معانى و أوصاف فى الذهن بالتقديم و التأخير، و الوضع و الرفع لاستنتاج غرض مطلوب،و قد كان الرجل يهوى أن يقول فى أمر القرآن شيئاً يبطل به دعوته (٢).و لقد توهم الوليد بتفكيره و تقديره أن تهمة السحر ستدحض الحق..و ليس الأمر كذلك.

فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ و لقد ذمَّ الله تفكيره لأنَّه فَكَّرَ فكراً يحتال به للباطل،و لو فَكَّرَ على وجه طلب الرشاد لم يكن مذموماً بل كان ممدوحاً (٣)،لأنَّ التفكير و التخطيط بإعمال العقل على ضوء المعلومات و المعطيات أمر حسن بذاته،و إنما جاءت رسالات الله و بعث الأنبياء لغرض إصلاح الناس و هدايتهم باستثارة العقول.

بلى.إنَّ العقل بذاته و سيله خير و صلاح،و هو يعمل لصالح الإنسان،و لكن بشرط أن يكون خياره الأول صحيحاً،أما لو اختار الباطل ثم استثار عقله فى هذه

ص: ٨١

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٠٠.

٢-٢) الميزان/ج ٢٠ ص ٨٦.

٣-٣) التبيان ج ١٠ ص ١٧٧ بتصرف.

القناه فلن يجنى من تفكيره و تقديره سوى الضلال و العذاب، و يسمّى ذلك بالمكر و هى حيل الشيطان، و هكذا الفكر، و ذلك أنّه سلاح ذو حدّين، يكون تاره لصالح صاحبه و خير بشرية إذا كان قائما على أساس العقل، و يكون أخرى أداه لدمارها و وسيلة لإشعال الحروب، كما تفعل خبرات القوى الاستكباريه فى هذا العصر.

إنّ الإنسان قادر على نيل الحياه بالتفكير و التقدير إذا اختار مسبقا هدفا نبيلًا و اتخذ فكره و سيله لتحقيقه، فالمهم ليس أن تفكر و تقدّر بل الأهم لما ذا تمارس التفكير و التقدير، و إلى ذلك يوجّهنا القرآن بطرح السؤال: «كيف قدّر» مكررا؟ و يصف علىّ بن إبراهيم القمى حاله الوليد عند ما فكر و قدّر و يقول: نزلت فى الوليد بن المغيرة و كان شيخا كبيرا مجرّبا من دهاه العرب، و كان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه و آله، و

كان رسول الله صلى الله عليه و آله يقعد فى الحجره و يقرأ القرآن فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة، فقالوا: يا أبا عبد الشمس ما هذا الذى يقول محمد أشعر هو أم كهانه أم خطب؟ فقال: دعونى أسمع كلامه، فدنا من رسول الله صلى الله عليه و آله فقال: يا محمد أنشدنى من شعرك، قال: «ما هو شعر، و لكنّه كلام الله الذى ارتضاه لملائكته و أنبيائه» فقال: اتل علىّ منه شيئا، فقرأ رسول الله صلى الله عليه و آله حم السجده، فلما بلغ قوله «فَإِنْ أَعْرَضُوا (يا محمّد أعنى قريشا) فَقُلْ (لهم) أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ» فاقشعرّ الوليد، و قامت كلّ شعره فى رأسه و لحيته، و مرّ إلى بيته و لم يرجع إلى قريش من ذلك، فمشوا إلى أبى جهل فقالوا: يا أبا الحكم إنّ أبا عبد الشمس صبا إلى دين محمد أ ما تراه لم يرجع إلينا؟ فغدا أبو جهل فقال له: يا عم نكست رؤوسنا و فضحتنا و أشمتّ بنا عدونا و صبوت إلى دين محمد، فقال: ما صبوت إلى دينه، و لكنى سمعت منه كلاما صعبا تقشعرّ منه الجلود، فقال أبو جهل: أ خطب هو؟ قال: لا. إنّ الخطب كلام متصل و هذا كلام منشور

و لا- يشبهه بعضه بعضا، قال: أ فشعر هو؟ قال: لا. أما أني قد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها و رملها و رجزها و ما هو شعر، قال: فما هو؟ قال: دعني أفكر فيه، فلما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد الشمس ما تقول فيما قلناه؟ قال:

قولوا هو سحر فإنته أخذ بقلوب الناس (١). لقد انتهى به تفكيره القائم على أساس العناد إلى هذه النهايه الخاطئه، ففتوّه بهذا الباطل، و كان من الممكن أن يوصله العقل إلى ساحل الأمن و الهدى، و لكنّه لم يفكر و يقدر حينما فكر و قدر بمنهجيه موضوعيه و منطلقات سليمه، إنّما مارس كلّ ذلك بهدف تضليل الآخرين، و تبرير ما هو عليه من الباطل و الضلال لنفسه أمام وجدانه أولا ثم للناس المغرورين به، فأوقع نفسه في الشقاء، و استحقّ بذلك اللعنه و العذاب.

ثمّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ و تكرر اللعنه بالقتل عليه دلالة على استحقاقه ضعفا من العذاب، الأول على عناده الآيات الربانيه، و الآخر على اتباعه هواه و بنات فكره بدل تشريع الله، أو يكون أحدهما جزاء التفكير المنحرف، و الثاني جزاء التقدير الخاطي. قال العلامة الطبرسي: هذا تكرر للتأكيد، أي لعن و عذب، و قيل: لعن بما يجري مجرى القتل، و قيل: معناه لعن على أي حال قدر ما قدر من الكلام، كما يقال:

لأضربنه كيف صنع، أي على أي حال كان عليه (٢).

بلى. إنّ الناقد المنصف لا يستطيع إلا التسليم بصدق الرسول، و أنّ رساله حق، و لكنّ الوليد و أمثاله من المترفين و أعداء الحق لم يكونوا كذلك، بل سعوا إلى الانتقاد عبر منهجيه خاطئه تتركز على العزّه بالإثم، و المواقف العدائيه السابقه،

ص: ٨٣

١-١) تفسير القمي ج ٢ ص ٣٩٣.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٨.

و هذه من المؤثرات السلبية على نتيجة أى بحث و تفكير، و لعلّ السبب يعود إلى حالتهم الاجتماعيه إذ هم من المستكبرين الذين يبنون كيانهم على أساس الظلم و استثمار المحرومين و قهر المستضعفين، فأنى لهم القبول بقياده ربّانيه تفتخر بأنّها من الفقراء، و تسعى من أجل إسعاد المحرومين، و تحرير المستضعفين من نير المترفين.

ثُمَّ نَظَرُ و الأقرب أنّ النظر هنا بمعنى إعمال الفكر و البصر، فإنّ الطغاه المستكبرين حينما يريدون تضليل الناس عن الحق يفكّرون و يقدّرون أولاً ثم ينظرون مفتّشين عن ثغرات و أساليب لبثّ أفكارهم و تقديراتهم و نشرها بين الناس، فوسائل الاعلام المضلله من إذاعات و تلفزه و صحافه و حتى وسائل التثقيف و التربيه التي تروّج ثقافه الباطل، و تبثّ الإشاعات ضدّ المؤمنين و القيادات الرساليه..إنّها لا تتحدث اعتباطاً، بل هناك وراء القناع خبراء إعلاميون و نفسيون و سياسيون و..و..

يخطّطون للتضليل، و هذه سمه للأنظمه الفاسده..فإلى جانب فرعون كان هامان و جنود كثيرون متخصصون في كلّ في جانب من الجوانب، و من قصه قريش و أبى جهل مع الوليد يتضح أنّه من قياداتهم و عقولهم المدبّره، و هناك إشارات إلى هذا التفسير و جدتها لدى بعض المفسرين ففي البصائر: أى نظر في وجوه قومه (١)، و في الميزان: أى ثم نظر بعد التفكير و التقدير نظر من يريد أن يقضى في أمر سئل أن ينظر فيه (٢).

و بعد أن اختمرت الفكره الشيطانيه في رأسه بدأ حركته نحو الإنتاج و الإخراج كي تكون أمضى أثرا في نفوس الآخرين، فإذا بكلّ ملامحه مشحونه بأمارات الحقد

ص: ٨٤

١-١) البصائر ج ٥٠ ص ٣٦٢.

٢-٢) الميزان ج ٢٠ ص ٨٧.

و الغيظ على الرساله و الرسول صلى الله عليه و آله .

ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ و هذه المظاهر الخارجيه و أخرى غيرها ملامح لحالات نفسيه من الحقد و العناد يعكسها القرآن بأسلوبه التصويرى البديع، و إنها لطبيعه فى الإنسان أن تبدو على مظهره علامات مخبره بحيث يقول علماء النفس أنك تستطيع قراءه داخل الإنسان بمظهره، و

فى الحديث الشريف قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه و صفحات وجهه» (١).

قال القمى: العبوس للوجه، و البسور إلقاء الشدق (٢)، و عن قتاده قال: قبض ما بين عينيه و كلح (٣)، و فى فقه اللغه للثعالبي: إذا زوى ما بين عينى الرجل فهو قاطب عابس، فإذا كثر عن أنيابه مع العبوس فهو كالح، فإذا زاد عبوسه فهو باسر مكفهر (٤)، و ذكر اللغويون الاستعجال كواحد من معانى البسور يقال: بسر الغريم أى تقاضاه قبل الأجل، و بسر الدمل: عصره قبل نضجه، و بسر الفحل الناقه قبل الضبعه أى قبل أن تطلب اللقاح (٥)، فكان الباسر فى وجه أحد يستعجل به الأذى و الشر، و بذلك قال الراغب فى مفرداته (٦).

و قد تعبّر عن العبوس و البسور المفردات و التصرفات التى تصدر عن الإنسان بقلمه و فيه و مواقفه، فالطاغوت قد يعبّر عن عبوسه و بسوره و وجهه، و قد تظهر فى قمعه

ص: ٨٥

١-١) نهج البلاغه حكمه ٢٦ ص ٤٧٢.

٢-٢) تفسير القمى ج ٢ ص ٣٩٤ بتصرف.

٣-٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨٣.

٤-٤) فقه اللغه للثعالبي ص ١٤٠.

٥-٥) البصائر ج ٥٠ ص ٢٨٠ و إلى مثله ذهب صاحب المنجد.

٦-٦) مفردات الراغب ماده بسر.

الجنونى للمعارضه و الجماهير، و ما يقصّه القرآن الكريم عن الوليد بن المغيرة ليس إلا شاهدا على طبيعه الموقف الذى يتخذه المترفون فى كل مكان و زمان ضد الدعوات الإصلاحية، فإنهم باعتبارهم بؤره الفساد فى المجتمع أول المتضررين بهذا التغيير، و لهذا يكونون طليعه المعارضه للحق.

ثُمَّ أَذْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ بلى. إنه فكّر فى الموقف من الرساله، كان يريد الوصول إلى أفضل طريقه للمعارضه و التضليل.. بل و تبرير كفره أمام عقله و ضميره، و لكنّه كلما عمل فكره و نظره كلما تجلّت له الحقيقه و عاد بصره خاسئا و هو حسير، و كان من المفروض أن يقبل على الإيمان بالحق، و يتواضع له عن مراتب النفور و الاستكبار و الاعتزاز بالإثم، إلا أنه أصرّ على الكفر من لحظته الأولى فازداد إدبارا، و حيث اختار موقف الكفر فكّر مره أخرى لتبرير موقفه من الحقّ المبين، فما وجد تهمه أصلح- فى نظره- من قذف الرساله بالسحر.

فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ وَ لكلمه «يؤثر» هنا معنيان ربما أرادهما السياق معا:

الأول: ينقل عن الآخرين، و قد اتفق أكثر المفسرين عليه، أى يؤثره عن غيره من القوى القادره عليه كالسحره و الشياطين، من قولهم: اثرت الحديث اثره أثرا إذا حدّثت به عن قوم فى آثارهم، و منه قولهم: حديث مأثور عن فلان.

الثانى: تميل إليه النفوس و تفضّله على غيره، قال فى المجمع: و قيل هو من

الإيثار، أى سحر تَوَثَّره النفوس، و تختاره لحلاوته فيها (١)، و بذلك سعى الطاغية للتقليل من شأن أمرين مهمين: أحدهما: معجزه القرآن العظيم بظاهرة و محتواه، و الآخر: ظاهره الاستجابه للرساله الجديده و الدخول فى دين الرسول، و من ثمّ كان الوليد- كما هو حال أى طاغية و مترف- يسعى لتحقيق عده أهداف خبيثه من وراء هذه الشائعه الضاله:

١- تبرير هزيمتهم فى الصراع المبدئى و الحضارى مع الإسلام بقيمه و قيادته و حزبه.

٢- تضليل الناس عن الحق و وضع حدّ لرحفهم باتجاه الدخول فى الدين الجديد.

و قد جعل تهمه القرآن بالسحر مدخلا إليه لحلّ عقده تواجه كلّ من يحارب الذكر الحكيم، ألا و هى أنّ آثار الحكمة و العلم الإلهيه واضحه فى آياته. و إنّها لتهدى كلّ ذى لبّ منصف إلى كونها منتزله من عند ربّ العزه، و باعتراف الوليد نفسه حينما قال: سمعت منه- يعنى الرسول صلى الله عليه و آله - كلاما صعبا تقشعرّ منه الجلود... لا خطب و لا شعر، فمستحيل إذن أن ينسبه إلى المخلوقين من دون مقدّمه، فالمسافه بينه و بين كلام المخلوقين لا تحدّد و فضله عليه لا يوصف، و هو كفضل الله على سائر خلقه.. و من هذه المقدمه انطلق إلى ما أراد قوله بالضبط.

إِنَّ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ فَمَتَى مَا أَوْصَلَ هَذِهِ الْقِنَاعَةَ إِلَى أَذْهَانِ النَّاسِ تَقَدَّمَ خَطَوَاتِ أُسَاسِيهِ فِي الصَّرَاحِ ضِدَّ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَةِ فِي زَعْمِهِ، وَ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْهَدَفِ جُنِّدَ طَاقَاتُهُ.. فَفَكَّرَ وَ قَدَّرَ..

ص: ٨٧

أنه يستطيع إلى ذلك سيلا، و غاب عنه أن معجزه القرآن أعظم من أن يحجب نورها تقدير الإنس و الجن لو تظاهروا، فكيف بجاهل سفيه كالوليد بن المغيرة؟! « ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ »؟! من هنا فشلت كل جهوده و مساعيه الرامية إلى تضليل الناس عن الحق و حجبهم عن نوره، بل و حكم على نفسه بتفكيره و تقديره الخاطئين بالخساره و باللعه التي خلدتها القرآن في الأجيال بعد الأجيال في الدنيا، و جز نفسه إلى الهلاك و العذاب المهين في الآخرة، و أعظم منه غضب الله الذي توعدده بسقر فقال:

سَأَصِيلِيهِ سَقَرَ قَالَ فِي التَّبْيَانِ: أَيُّ أَلْزَمَهُ جَهَنَّمَ، وَ الْإِصْطِلَاءُ إِلْزَامٌ مَوْضِعِ النَّارِ.. وَ أَصْلُهُ اللَّزُومُ (١)، وَ صَلَّى الْكُفَّارَ بِالنَّارِ جَعَلَهَا أَكْثَرَ وَ أَشَدَّ مَسَاسًا بِهِمْ،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ان في جهنم لواديا للمتكبرين يقال له سقر، شكا إلى الله عز و جلّ حرّه، و سأله أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم» (٢)، و عن ابن عباس قال: سقر أسفل الجحيم، نار فيها شجره الزقوم (٣)، و إنّها من رهبتها و ما تتميز به من الصفات لا يستطيع بشر أن يتصوّر مداها و يعي حقيقتها.

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرَ وَ فِي هَذِهِ الصِّيغَةِ اسْتِثَارَةٌ لِلْإِنْسَانِ نَحْوِ السَّعْيِ إِلَى الْمَعْرِفَةِ وَ لَوْ بِصُورِهِ إِجْمَالِيَةٍ، وَ الْقُرْآنُ يَبَيِّنُ بَعْضَ صِفَاتِ سَقَرَ فَيَقُولُ:

لَا تُبْقَى وَلَا تَذُرُ

ص: ٨٨

١-١) التبيان ج ١٠ ص ١٨٠.

٢-٢) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٥٧.

٣-٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨٣.

قيل: لا- بقيهم أحياء فهي تمتهم، و لا- تترك لأبدانهم أثرا فهي لا- تذرهم، أى أنّ لها أثرين: الأول على الروح، والآخر على الجسم، وقيل: أنّ الكلمتين مترادفتين فى المعنى مختلفتين فى الدرجة و الأثر، و ذكرهما معا يفيد المبالغة و التأكيد، و قال فى التبيان: قيل: لا تبقى أحدا من أهلها إلا تناولته، و لا تذر من العذاب (١)، و فى الميزان قال العلامة الطباطبائي: لا تبقى شيئا ممن نالته إلا أحرقتة، و لا تدع أحدا ممن ألقى فيها إلا نالته، بخلاف نار الدنيا التى ربما تركت بعض ما ألقى فيها و لم تحرقه (٢)، و عن مجاهد قال: لا تحبى و لا تمت (٣)، و استدل صاحب الميزان على هذا الرأى بقوله تعالى: «الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ» (٤)، و الأقرب عندى أنّ معنى «لا تبقى» لا تدع أحدا من الناس الذين فيها باقيا بل تفتنهم جميعا، و معنى «لا تذر» أى لا تذر شيئا من أى واحد منهم، فالأول يشمل كل من فيها، و الثانى يتسع لكل جزء ممن فيها، و هو أعظم، و هذه - فيما يبدو لي - صفة النار مع قطع النظر عن صفة جهنم التى يجدد الله فيها ما تحرقه النار، فلا منافاه بينها و بين قوله سبحانه «لا يموت فيها ولا يحيى» إذ الحديث عن النار هنا جاء بقدر فهمنا لها و حسب مقاييسنا. و لعل من المعانى: أنّ سقر من حيث شدة العذاب و نوعيته لا تبقى من يلقى فيها، و من حيث المدة و الملازمه فإنها لا تترك أهلها أبدا، و هذا يهدينا إلى أنّ أهلها من الخالدين فى العذاب، فلا- تترك سقر أهلها بل يبقون خالدين فى العذاب، لأنّ الا-حتراق هناك ليس احتراقا عاديا و إنّما هو احتراق يشبه الاحتراق الذرى الذى لا ينتهى، و الله العالم.

و صفة أخرى لسقر هو تلويحها أهلها.

ص: ٨٩

١-١) التبيان ج ١٠ ص ١٨٠.

٢-٢) الميزان ج ٢٠ ص ٨٨.

٣-٣) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨٣.

٤-٤) الأعلى ١٣/١٢.

لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ فِي الْمَنجَدِ: أَلَا حَ فَلَانَا أَهْلَكَه (١) فَيُهِى الْمَهْلَكَه لِلْبَشَرِ، وَ يُقَالُ: لَوَّحَ فَلَانَا بِالْعَصَا وَ السِّيفِ وَ السُّوْطِ وَ النُّعْلِ: عَلَاهُ بِهَا وَ ضَرَبَهُ (٢)، وَ قِيلَ: الْمَعْطَشَةُ، تُقُولُ الْعَرَبُ:

إِبِلٌ لَوْحِي، وَ رَجُلٌ مَلَوَّاحٌ أَى سَرِيعُ الْعَطَشِ، وَ يُقَالُ لِمَنْ ضَرَبَتْهُ الشَّمْسُ وَ غَيَّرَتْ لَوْنَهُ لَوَّحَتْهُ تَلْوِيحًا، وَ كَأَنَّ سَقْرَ مَنْ حَرَّارَتْهَا تَغَيَّرَ جُلُودَ أَهْلِهَا وَ وَجُوهُهُمْ.

وَ حِينَ يَرِدُ الْمَجْرُمُونَ وَادِي سَقْرٍ يَسْتَقْبِلُهُمْ مَلَائِكَةٌ غَلَاظُ شِدَادٍ.. هُمْ مَالِكٌ وَ ثَمَانِيهِ عَشْرٌ، أَعْيُنُهُمْ كَالْبُرْقِ الْخَاطِفِ، وَ أَنْيَابُهُمْ كَالصِّيَاصِي، يُخْرِجُ لَهَبَ النَّارِ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، مَا بَيْنَ مَنْكَبِي أَحَدِهِمْ مَسِيرَهُ سَنَةٍ، تَسَعُ كَفِّ أَحَدِهِمْ مِثْلَ رِبِيْعِهِ وَ مُضْرٍ، نَزَعَتْ مِنْهُمْ الرَّحْمَةَ، يَرْفَعُ أَحَدُهُمْ سَبْعِينَ أَلْفًا فِيرْمِيهِمْ حَيْثُ أَرَادَ مِنْ جَهَنَّمَ (٣).

عَلَيْهَا تَسَعَةَ عَشْرَ وَ تَحْتَمِلُ الْآيَةَ مَعَانَ عَدَهُ:

الأول: المعنى الظاهر و هو أنّ خزنه سقر هذه عدتهم، و ليس ذلك بالقليل إذا كانت صفتهم كما ذكر صاحب المجمع، بل إنّه تعالى قادر أن يجعل عليها واحدا يدير شؤونها و يعدّب أهلها أشد أنواع العذاب.

الثاني: أنّ التسعة عشر خزنه وادى سقر فقط، و لبقية أجزاء جهنم خزنه آخرون.

الثالث: أنّ العدد المذكور هم بمثابة القواد و المدرء، و تحت إمرتهم ما لا يدرك

ص: ٩٠

١- ١) المنجد مادة لوح.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٨.

عددهم إلا- الله من الملائكة، و إلى هذا المعنى إشاره في قول الله: « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ »، و الجهل بهذه الحقائق هو الذى دفع المشركين إلى الاستهزاء، و كفرهم بالغيب.. قال أبو جهل يوما: يا معشر قريش! يزعم محمد أن جنود الله الذين يعدّونكم فى النار تسعه عشر، و أنتم أكثر الناس عددا، أ فيعجز مائه رجل منكم عن رجل منهم؟! (١)، و قال رجل من قريش يدعى أبا الأشد: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعه عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبى الأيمن عشره، و بمنكبى الأيسر التسعه (٢) فأنزل الله: «الآيه ٣١».

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ الدَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً إِنْ لَلَّهِ يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بِمَا يَشَاءُ، و مِمَّا يَمْتَحِنُهُمْ بِهِ أَمْرُهُمْ بِالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، و كَلَّمَا كَانَ الْغَيْبُ أَشَدَّ غَمُوضًا كَلَّمَا صَعِبَ الْإِيمَانُ بِهِ، و كَانَ أَرْفَعَ دَرَجَةَ فِي الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، و لِذَلِكَ

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّا صَبَرْنَا وَ شِيعَتُنَا أَصْبَرْنَا» (قال الراوى) قلت: جعلت فداك! كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟! قال: «لأننا نصبر على ما نعلم، و شيعتنا يصبرون على ما لا يعلمون» (٣)، و لقد جعل الله الإيمان بالغيب ركنا أساسيا فى الشخصيه الإيمانيه، و من هذا المنطلق أخفى كثيرا من الحقائق كالموت و البرزخ و الآخره، فأما الكفار و المشركون و الذين فى قلوبهم مرض فإن الغيب يزيدهم فتنه و نفورا، ليس لأنه لا- واقعيه له، فالآيات الهاديه إليه كثيره، و إنما لأن الإيمان به درجه رفيعه من العلم و الإيمان، لا- يصل إليها إلا- عباد الله المتميزون المتقون «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» (٤)، و سبيل المؤمنين إلى اليقين بالغيب أمران:

ص: ٩١

١- ١) أسباب النزول للسيوطى ص ٢٢٤.

٢- ٢) المصدر أخرجه السدى.

٣- ٣) موسوعه بحار الأنوار ج ٧١ ص ٨٠.

٤- ٤) البقره ٣.

أحدهما: الآيات و الحجج الهاديه إليه، فمن آثار الحكمة و العلم و النظام المتجليه فى الكون يهتدون إلى الإيمان بربهم، و من شواهد سنّه الجزاء فى التاريخ و الواقع يؤمنون بالجزاء الأ-عظم فى الآ-خره، فهم لا- ينتظرون أن تلامس جلودهم النار، و تبصر أعينهم الملائكّه، و يقعون فى قبضه الموت حتى يؤمنوا بكلّ ذلك، إنّما يكتفون بظهور الآيات و الحجج.. و هذه من أهمّ الخصائص التى تميّز العاقل عمّن سواه.

الثانى: إيمانهم بالله عزّ و جلّ كما وصف نفسه و تجلّى فى كتابه و خلقه بأسمائه الحسنى، فهم يؤمنون بالله القادر، القاهر، العليم، الرحمن الرحيم و.. و.. إيماننا قائما على اليقين و المعرفة. و متى ما بلغ الإنسان هذه الغايه صار مسلما بكلّ الحقائق الغيبية، فلا يشكّ فى الجنة و النار و ما فيهما من النعيم و العذاب، لأنّ الله الذى وعدنا بهما مطلق القدره لا يعجزه شىء أبدا، و لا يدخل فى نفق الجدال و الشكّ فى عدد أصحاب النار و صفاتهم، بل يسلم بما يسمعه عن الله تسليما مطلقا. و لأنّ الكفّار و المشركين و مرضى القلوب لم يبلغوا هذه الغايه الأساسيه صاروا إلى الشكّ فى حقائق الغيب، بل فى حقائق الشهود أيضا، فإذا بواحدهم يشكّ فى أصل وجوده، كما فعل السوفسطائيون! إنّ المؤمن ليس مسلما لله بفعله و قوله فقط، بل هو مسلّم بعقله و علمه أيضا، ففى سلوكه و مواقفه لا يخالف الحق، و فى داخله لا يثير أدنى تساؤل شكّى حول آيات ربه.. و هذه من أهم مرتكزات الإيمان و الإسلام، كما قال الله: «فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (١).. بلى. قد لا ندرك خلفيات بعض الأحكام الإلهيه، و قد لا نستوعب بصوره تامه بعض الحقائق، و لكنّ ذلك ليس مبررا للكفر بها أبدا فى منطق الإسلام و لا عند العقلاء، و هذه قيمه علميه مسلّمه و من صفات الراسخين فى

ص: ٩٢

العلم، قال تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» (١)، فالراسخون في العلم-غير أهل البيت-قد لا- يدركون تأويل بعض الآيات و لكنهم لا يكفرون بها، فذلك ليس من منطق العقلاء و أصحاب الألباب، و إلا لكان الكفر بالله أولى من كل شيء لأننا قاصرون عن إدراك كنهه و معرفه ذاته! إن في قلوب الكفار و المشركين لمرضا عضالا هو كفرهم بالله، و ذلك الكفر الذي تأباه عقولهم و فطرتهم و من ثم اتباعهم الباطل بصوره مفضوحه، و لذا فإنهم يبحثون دائما عما يبرر لهم هذا الموقف، فإذا بهم يختلفون في عدد الملائكه و ألوانهم و أشكالهم، بدل أن يسلموا آيات الذكر الحكيم. و ما ذا ينفعهم الاطلاع على ذلك؟ هل ينجيهم من عذب النار؟ كلا..

وَمَا جَعَلْنَا عَدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِ مِنْ جَهَةٍ تَزِيدُهُمْ ضَلَالًا وَنُفُورًا، و من جهه أخرى تظهر حقيقه معدنهم و شخصيتهم، كما تظهر النار طبيعه المعدن ذهبا و غيره، بينما ترفع هذه الآيه و ما تبينه من حقيقه المؤمنين درجه رفيعه في الإيمان.. حيث اليقين و التسليم بآيات الله و وعوده.

لَيْسَتِيقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ قِيلَ هُمُ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى، و سبب استيقانهم أنه مذكور في كتابهم (التوراه

ص: ٩٣

و الإنجيل) أنّ هذه عدّه ملائكه سقر، و حيث يبينها القرآن فذلك يدعوهم لليقين بأنّه من عند الله، و الأقرب حمل المعنى على أنّهم العلماء الذين حملوا رساله الله، أو الذين أعطوا الكتاب، و الكتاب هنا كناية عن العلم الذى يسطر فيه. و إنّما يستيقنون لأنّ ما طرحه الآيه تكشف لهم عن حقيقه جديده من الغيب تزيدهم إيمانا باعتبار كلّ حقيقه من الغيب يؤمنون بها يرتفعون بها درجه فى معراج اليقين.

وَ يَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ كُلَّمَا أَطَّلَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ كُلَّمَا تَكَامَلَتْ مَعْرِفَتُهُ بِهِ، وَ لَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ تَعَكِّسُ أَثَرَهَا الرُّوحَى فِى شَخْصِيَّتِهِ، فَيَزِدَادُ خَوْفًا مِنْ رَبِّهِ، وَ إِيمَانًا بِهِ، وَ عَمَلًا بِأَحْكَامِهِ وَ شَرَائِعِهِ.

وَ لَا يَزِيدُ تَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ أَى يَصْلُونَ إِلَى مَرْتَبَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ لَا شَكَّ مَعَهَا، وَ هَذِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ، لِأَنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ تَطْهِيرَ قُلُوبِهِمْ مِنْ رَوَاسِبِ الشَّكِّ وَ التَّرَدُّدِ.

وَ إِذَا بَلَغَ أَحَدٌ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَتَجَاوَزُ كُلَّ ابْتِلَاءٍ وَ فِتْنَةٍ لِأَنَّ

«الشكوك و الظنون لواقع الفتن، و مكدره لصفو المنائح و المنن» كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام (1).

وَ لَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَعْنَى الْمُنَافِقِينَ وَ ضِعَافَ الْإِيمَانِ، الَّذِينَ يَخَالِطُ إِيمَانَهُمُ الشَّكَّ وَ الرَيْبَ وَ الشَّرْكَ.

وَ الْكَافِرُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا وَ بَكَلْمِهِ: إِنَّ الْحَكْمَةَ مِنْ وَرَاءِ ذِكْرِ عَدَّةِ التَّسْعَةِ عَشَرَ ابْتِلَاءَ النَّاسِ لِيَعْلَمَ مِنْ

ص: ٩٤

يؤمن بالغيب فيزداد درجه في إيمانه حتى يبلغ مستوى اليقين الذى لا ريب معه، و ليعلم المنافق و الكافر بالغيب فيزداد شكًا و ضلالًا. و هكذا نجد هذه الحكمة في سائر شرائع الدين.

و إشاره القرآن لسؤال الكافرين و مرضى القلوب: « مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا » يكشف عن جهلهم و مدى ضلالهم و طريقتهم الاستهزائية بالآيات، فإن هدفهم من وراء ذلك ليس البحث عن الحق، بل هو مجرد السؤال كطريق للهروب من مسئوليته الإيمان، و تشكيك أنفسهم و المؤمنين في الحق.. فهم لا يعلمون الغيب حينما راحوا يشككون في صحة قول الله عن عده أصحاب النار، و لا يستطيعون انكار ذلك إذ لا دليل عندهم على خلافه.. و لذلك تساءلوا عن الخلفيات لهذه الحقيقه. و لو أجابهم القرآن ببيان سر هذا العدد لاختلقوا سؤالًا آخرًا، و هكذا.

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ أَي أَنَّ مَا طرحت الآيات هو مثل حى للضلال و الهدايه، فالحقيقه التى بينها الله فى كتابه واحده، و المعطيات لدى الفريقين و من بينها العقل و الإراده واحده، إلا أن الموقف مختلف تماما، و هذه الصوره العمليه للموقفين تكشف عن أن الهدى و الضلاله و إن كانا بيد الله إلا أن العامل الرئيسى فيهما هو الإنسان نفسه.. بإرادته و اختياره، و ليس كما يزعم الجبريه أبدا.

وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ لَأَنَّهُمْ غِيبٌ مُّسْتَوْرٌ، و لَأَنَّهُمْ مِنَ الْكَثْرَةِ بَحِثٌ لَا يَسْتَطِيعُ عَدَّهُمْ أَحَدٌ، فكيف و ربنا يخلق كل لحظه من ملائكته ما لا يحصيه إلا هو سبحانه و تعالى؟! اففى الأخبار أن لكل قطره غيث تنزل من السماء إلى الأرض ملكا موكلا بها، و أنه عز

و جَلَّ خَلْقُ مَلَكَاةِ الرُّوحِ لَهُ أَلْفُ رَأْسٍ فِي كُلِّ رَأْسٍ أَلْفُ لِسَانٍ وَ كُلُّ لِسَانٍ يَنْطِقُ بِأَلْفِ لُغَةٍ يَسْبِيحُ اللَّهَ تَعَالَى، فَيَخْلُقُ اللَّهُ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ مِنْ تَسْبِيحَاتِهِ مَلَكًا يَسْبِيحُ اللَّهَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَيْ أَنَّهُ يَخْلُقُ عِنْدَ كُلِّ تَسْبِيحَةٍ وَاحِدَةً مِلْيَارًا مَلَكًا (سُبْحَانَ اللَّهِ).

وَمَا هِيَ إِلَّا - ذِكْرِي لِلْبَشَرِ قِيلَ: أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى سَقَرٍ، وَقِيلَ: عَائِدٌ إِلَى عَدَّةِ الْمَلَائِكَةِ، وَ كِلَاهُمَا صَحِيحَانِ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ وَاحِدَةٌ، فَكِلَاهُمَا ذِكْرِي لِلنَّاسِ وَ مُتَصِلَانِ بِمَوْضُوعِ الْجَزَاءِ وَ الْعَذَابِ. فَالْمَهْمُ إِذَا أَنْ يَتَذَكَّرَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَ حَقَائِقَ الْغَيْبِ، لَا أَنْ يَجَادَلَ فِي الْقَشُورِ..و.

قد حَدَّثَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ النَّارِ مَبِينًا صَفَهُ وَاحِدًا مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ فَقَالَ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نَفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا. أَمْ تُرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشُّوْكَهِ تَصْيِيهِ، وَ الْعَثْرَةَ تَدْمِيهِ، وَ الرَّمْضَاءَ تَحْرِقُهُ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ مِنَ النَّارِ، ضَجِيعَ حَجَرِهِ، وَ قَرِينَ شَيْطَانِهِ؟! أَعْلَمْتُمْ أَنَّ مَلَكَ إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضَهَا بَعْضًا لِعُضْبِهِ، وَ إِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعًا مِنْ زَجْرَتِهِ.. فَاللَّهُ اللَّهُ مَعِشِرَ الْعِبَادِ! وَ أَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصَّحَةِ قَبْلَ السَّقَمِ، وَ فِي الْفَسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعُوا فِي فِكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْلِقَ رَهَائِنَهَا « (١).

ص: ٩٤

كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبْرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَهُ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا
سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَ لَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَ كُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَ كُنَّا
نُكذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِهِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ
مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَزَتْ مِنْ قَسْوَرِهِ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ
تَذْكَرُهُ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَ مَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)

هدى من الآيات:

«كلاً»..بهذا الردّ القاطع و العنيف يواجه القرآن أباطيل الكفّار في شأن الوحي، إذ زعموا أنّه سحر يؤثر، و أنّه قول البشر، و يوجّهنا إلى ثلاث من آيات الله في طبيعه، و هي القمر، و حين إدبار الليل، و عند إسفار الصباح، فعند ما يتدبّر الإنسان في هذه الآيات تتجلى له ذات الحقيقه العظمى التى تهدي إليها آيات الذكر و هي حقيقه التوحيد، بل يجدها شهادات هاديه إلى الإيمان بالرساله.. و كأنّها تقرأ عليه الآيات الثلاث (٣٧، ٣٦، ٣٥) من المدثر، و هكذا نجد القرآن في كثير من آياته يربط بين التفكّر في الطبيعه و الإيمان بالحق المنزل في الكتاب، ذلك أنّ القرآن ينطق بسنن الله في الخليقه، و الكائنات تجسّد آيات الله في القرآن، و هنا و هناك نجد تجليات أسماء الله سواء بسواء، و كلّ واحد منهما يهدى إلى الآخر، فكما أنّ آياته تكشف عن حقائقها و الأنظمه الحاكمه فيها، و تفسّر ظواهرها، فإنّها هي الأخرى تهدي إلى الإيمان به (الآيات ٣١/٣٤) من خلال توافقها مع الكتاب،

و تمثيلها لما فيه.

و لأنَّ سبيل الكتاب قويم و قائم على التوازن بين السلب و الإيجاب فإنَّه يؤكِّد صدق آياته « إِنَّهَا لَأِخْدَى الْكُبْرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » و ذلك مباشرة بعد أن يسفِّه مزاعم الكفار حول الرسالة، مؤكِّداً بأنَّ الموقف منها هو العامل الرئيسي في تقدُّم البشريه أو تأخرها، و ذلك أنَّ النفس البشريه رهينه في سجن الجهل و الظلم و الهوى و الشيطان و..و..و سعيها لا- يزيدا إلا- ارتهاناً و قيوداً على قيودها، إلا- أن تفك رهانها و تصلح سعيها بالسير على هدى ذكر الله و نذيره للبشر و هو كتابه الكريم، كما فك رهانهم به أصحاب اليمين (الآيات ٣٩/٣٥).

و من خلال حوار بين هذا الفريق المفلح و بين المجرمين الذين سلكوا سقر المحرقه و المخزيه يبيِّن لنا القرآن معالم الطريق إليها، فهى و إن كانت فى الآخرة دركه من النار إلا- أنَّها منهجيه عمليه فى الدنيا تتمثل فى ترك الصلاه، و عدم مساعدته المحتاجين و الضعفاء، و الخوض مع الخائضين، و التكذيب بالآخرة، و لقاء الله على هذا الضلال البعيد، و الذى لا ريب أن أحدا لا يشفع لصاحبه عند الله، بل لا تنفعه فيه شفاعه الشافعين (الآيات ٤٨/٤٠).

و يستنكر ربنا على الكفَّار حماقتهم و استحمارهم بالإعراض عن التذكرة التى جاءت لإنقاذهم من سقر الجهل و التخلف و الضلال فى الدنيا و من سقر النار فى الآخرة، و لكنَّ هزيمة الإنسان أمام هوى نفسه و همزات الشيطان، و عدم حضور الآخرة فى وعيه، هما اللذان يدفعانه إلى الإعراض عن التذكرة المبينه (الآيات ٥٣/٤٩).

و لأنَّ المقياس السليم لمعرفة الحق ليس موقف الناس، بل معرفته بذاته، فإنَّ إعراض المجرمين عن القرآن لا يعنى من قريب و لا بعيد أنه باطل، و لا يغيّر من

واقعه.. «كَلَّا» إِنَّهُ تَذَكَّرْهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ أَوْ أَدْبَرُوا عَنْهُ، فَمَنْ شَاءَ تَذَكَّرْ بِهِ رَبِّهِ وَالْحَقُّ، «وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» بِلَطْفِهِ وَتَوْفِيقِهِ (الآيات ٥٤/٥٦).

بينات من الآيات:

[٣٧-٣٢] إِنَّ الرِّسَالَةَ الإِلهِيَّةَ ذَكَرَى لِلْبَشَرِ، وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ - بِالذَّاتِ الْمَتَرَفِينَ وَ أَصْحَابِ السُّلْطَةِ مِنْهُمْ - يَخْشَوْنَ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِهَا، لِأَنَّهَا تَفْضَحُ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ وَالضَّلَالِ، وَ لِذَلِكَ تَجِدُهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ؛ تَمْنَعُهُمْ عَنْ ذَلِكَ عِزَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، كَمَا أَنَّهَا تَفْرُضُ عَلَيْهِمْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمَسْئُولِيَّاتِ وَ التَّنَازُلَاتِ كَمَسْئُولِيَّةِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ الطَّاعَةِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ، وَ التَّنَازُلِ عَنِ السُّلْطَةِ، وَ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَطِيقُهُ أَنْفُسُهُمُ الضَّيْقَةَ الْمَسْتَكْبِرَةَ.. فَلَا بَدَّ إِذَا مِنْ إِخْرَاجِ لِمَوْقِفِهِمُ الْبَاطِلِ مِنْ هَذِهِ الذِّكْرَى، وَ لَمَّا فَكَّرُوا وَ قَدَّرُوا بِهَذِهِ الْخَلْفِيَّةِ الثَّقِيلَةَ تَمَخَّضَتْ أَفْكَارُهُمْ وَ تَقْدِيرَاتُهُمْ عَنْ نَتَائِجِ خَاطِئِهِ، فَزَعَمُوا أَنَّ الرِّسَالَةَ «سِحْرٌ يُؤْثِرُ» وَ أَنَّهَا لَيْسَتْ «إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ»، وَ حَتَّى إِذْ نَادَى اللَّهُ لَهُمْ بِالسَّقَرِ لَمْ يَنْفَعَهُمْ، بَلْ اتَّخَذُوهُ تَبْرِيرًا جَدِيدًا لِكُفْرِهِمْ، حَيْثُ قَالُوا بِأَنَّ الْعِدَّةَ الْمَذْكُورَةَ عَنْ حِرَاسَتِهَا التَّسْعَةَ عَشَرَ: عِدَّةٌ قَلِيلٌ يُمْكِنُ مَوَاجَهَتُهُمْ! وَ هَكَذَا يَفْعَلُ كُلُّ مَتَرَفٍ وَ مَتَسَلِّطٍ، لَا تَزِيدُهُ الْحُجُجُ إِلَّا لَجَاجًا، إِذْ يَبْحَثُ فِيهَا عَنْ تَبْرِيرٍ جَدِيدٍ يَزْعَمُ أَنَّهُ يَسُوعُ لَهُ الْكُفْرُ وَ حَتَّى الْاسْتِهْزَاءُ حَتَّى أَنَّكَ تَجِدُ مِثْلًا بَعْضَ الْمُتَصَوِّفِ يَسْتَهْزِئُ بِالنَّارِ وَ يَقُولُ: سَوْفَ أَطْفِئُهَا بِطَرَفِ رِدَائِي! وَ هَكَذَا تَوَالَتْ كَلِمَاتُ الْقِسْمِ فِي السِّيَاقِ لَعَلْنَا نَسْتَجِيبُ لَهَا، وَ نَفَكِّرُ جَدِّيًا بِأَمْرِ لِعِقَابِ.

□
كَلَّا وَ الْقَمَرِ قِيلَ: مَعْنَاهُ لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ مِنْ أَنَّهُمْ يُمْكِنُهُمْ دَفْعُ خِزْنِهِ جَهَنَّمَ

و غلبتهم (١)، وقال الرازي و هو بعيد: إنه إنكار-بعد أن جعلها ذكرى-أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون (٢)، و مثله الزمخشري في الكشاف. و وجه استبعاد هذا الرأي أن نفي الذكرى بعد إثباتها بقوله: «وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ» يحتاج إلى تبعض و تخصيص يفرد الكفار و مرضى القلوب عن عموم البشر، و لا دليل عليه.

و الأفضل أن نقول: إن كلمة «كلاً» تأتي لردع الإنسان عن الجهل و الغفلة و عن مجمل الأفكار الباطلة التي كان أولئك يؤمنون بها، لأنها تأتي في سياق الجدل مع الخصم فيتأول-عند السامع-إلى نفي أفكاره.

و قسم الله بهذا الكوكب كقسمه بأي شيء آخر يعطيه أهميه و شأننا في وعى الإنسان المؤمن بالذات، و نحن على ضوء هذه الإشارة الإلهيه القرآنيه ينبغي أن نتحرك لفتح آفاق من المعرفه بهذا الكوكب و أهميته، و علاقه القسم به بما يريد بيانه القرآن في هذه الآيه و سياقها.

إن القمر و هكذا الليل بإدباره و الصبح عند تنفسه كل هذه الظواهر الكونيه تهدينا عند التفكير فيها إلى عظمه رساله، و أنها فعلا لإحدى الكبر، و أن أباطيل الكفار ليست صحيحه أبدا. و لعل القسم بالقمر جاء للأغراض التاليه: أن الحقيقه-و جزء منها رساله الله-قضيه واقعيه لا تنتفى بمجرد إنكارها، كما أن القمر و الحقائق الأخرى لا تمنحى من واقع الوجود بإنكار البعض لها.

و هكذا تبقى رساله كالقمر المنير تفرض نفسها على ظلام الكفر أنى حاولوا إنكارها. إنها رساله عظيمه لو وعوا حقيقتها لتذكروا بها، و عرفوا كم هي إنذار شديد و عظيم للبشر.

ص: ١٠١

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩١.

٢-٢) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٠٨.

وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ قَالَ أَكْثَرُ الْمَفْسِرِينَ أَنَّ «أَدْبَرَ» بِمَعْنَى وَّلَّى وَ ذَهَبَ، أَى قَسَمَا بِاللَّيْلِ إِذْ سَحَبَ ذِيوَلَهُ مُؤَذِّنَا بِطُلُوعِ الْفَجْرِ. وَ فِى التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ قَالَ قَطْرَب: إِذَا أَقْبَلَ بَعْدَ مَضَى النَّهَارِ (١)، عَلَى أَسَاسِ أَنَّهُ يَقَعُ فِى دُبْرِ النَّهَارِ وَ يَحِلُّ ظِلَامُهُ عَلَى خَطِّ رَحِيلِهِ الْأَخِيرَةِ، وَ هَذَا رَأَى بَعِيدًا، وَ قَدْ عَجَزَ الْبَعْضُ عَنِ إِدْرَاكِ وَقَعِ «إِذْ» فِى هَذِهِ الْآيَةِ وَ دَوَّرَهَا فِى أَدَاءِ الْمَعْنَى، فَافْتَرَضَ مَا يَشَاءُ، وَ اعْتَرَضَ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. قَالَ الْقُرْطُبِيُّ بَعْدَ بَيَانِ الْاِخْتِلَافِ فِى الْقِرَاءَاتِ وَ الْمَصَاحِفِ: وَ اخْتَارَ أَبُو عَيْسَى إِذَا أَدْبَرَ (وَ لَيْسَ إِذْ) قَالَ: لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مُوَافَقَةٍ لِلْحُرُوفِ الَّتِى تَلِيهِ، أَوْ تَرَاهُ يَقُولُ: وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَحَدُهُمَا «إِذْ» وَ الْآخَرُ «إِذَا»؟ وَ لَيْسَ فِى الْقُرْآنِ قَسْمٌ تَعَقُّبُهُ «إِذْ» وَ إِنَّمَا يَتَعَقَّبُهُ «إِذَا» (٢) وَ يَبْدُو لِي أَنَّ «إِذْ» هُنَا ظَرْفِيهِ لَا شَرْطِيهِ كَمَا فِى «إِذَا أَسْفَرَ»، فَيَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى يَقْسِمُ بِاللَّحْظَةِ الْمُبَاشِرَةِ لِجَمْعِ اللَّيْلِ فَلَوْلَ ظِلَامِهِ، وَ كَأَنَّهُ يَرِيدُنَا أَنْ نَعِيشَ ظَاهِرَهُ إِدْبَارَ اللَّيْلِ وَ بَزْوِغَ الْفَجْرِ.

وَ الصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ أَى أَضَاءَ وَ انبَلَجَ نوره، لِأَنَّ الصُّبْحَ لَهُ مَرَاكِلٌ يَتَدَرَجُ عِبْرَهَا وَ يَتَضَحُّ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ فَتَطْرُدُ كُلَّ فَلُولِ الظَّلَامِ، وَ تَكْشِفُ لِلنَّازِرِ عَنِ وَجْهِ الطَّبِيعَةِ مِنْ حَوْلِهِ، وَ فِى اللُّغَةِ: سَفَرَتِ الْمَرْأَةُ سَفُورًا كَشَفَتْ عَنِ وَجْهِهَا فَهِيَ سَافِرَةٌ، وَ أَسْفَرَ مَقْدَمَ رَأْسِهِ: انْحَسَرَ عَنْهُ الشَّعْرُ، وَ انْسَفَرَ الْغَيْمُ تَفَرَّقَ (٣) فَأَبْدَى وَجْهَ السَّمَاءِ، وَ يُقَالُ لِلصُّبْحِ أَسْفَرَ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَشَعُّعُ نوره يَكْشِفُ عَنِ نَفْسِهِ وَ عَنِ الطَّبِيعَةِ بِكُلِّ وَضُوحٍ. وَ رَبَّنَا يَقْسِمُ بِهِ فِى مَرَحَلَةِ الْإِسْفَارِ وَ لَيْسَ فِى أَى مَرَحَلَةٍ أُخْرَى مِنْ مَرَاكِلِهِ،

ص: ١٠٢

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٠٩.

٢-٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٨٤.

٣-٣) المنجد مادة سفر.

لتعلق شرط «إذا» بها بالذات.

و حينما يلتفت الإنسان ببصره إلى هذه الظواهر الكونية الثلاث، و يتفكر فيها بعقله، فإنه يجدها آيات هاديه إلى حقيقته التوحيد و الربوبية العظمى، و إلى ذات الحقيقه بتفاصيلها تهديه آيات القرآن، و حديثه عن سقر و ملائكتها و تذكره بها، ممّا يؤكد أنّ الذى خلق هذا الكون هو الذى أنزل ذلك التشريع، و أنّه إذا كانت هذه الظواهر و أمثالها كبيره فى نفس الإنسان و عظيمه فإنّ القرآن و الآخره واحده من أعظم الحقائق المندره.

إِنَّهَا لِأَخِيْدَى الْكُبْرِ قَالَ الْقُرْطُبِي: روى عن ابن عباس «إنّها» أى إنّ تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه و آله «لِأَخِيْدَى الْكُبْرِ» أى لكبيره من الكبائر (١)، و ليس فى السياق ما يؤيد هذا الرأى، بالذات إذا وصلنا الآية بما يليها، و قيل: إنّ قيام الساعه لإحدى الكبر (٢)، و هذا صحيح مسلّم به إلاّ أنّه لا دليل عليه لا فى النص و لا فى السياق، و قيل: يعنى سقر، و فيه وجه لأنّها واحده من أعظم شعب النار، و أكبر النذر للناس، و قد ذكرت و قيل: آيات القرآن لإحدى الكبر فى الوعيد (٣)، و هو أقرب الآراء و المصاديق إلى الآية. كما أولها أئمه الهدى فى الولاية، عن أبى الحسن الماضى قال:

«الولاية» (٤) باعتبارها سنام الإسلام، و واحده من أكبر أركانها و أهمها، و

عن الباقر عليه السلام قال: «يعنى فاطمه عليها السلام» (٥) لأنّ ولاءها و حبّها جزء من تولّى

ص: ١٠٣

١- (١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٨٥.

٢- (٢) المصدر.

٣- (٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٣١.

٤- (٤) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٥٨.

٥- (٥) تفسير القمى ج ٢ ص ٢٩٦.

اللّٰه ورسوله وحبهما بإجماع كل المذاهب الإسلاميه التي تواترت أحاديث فضلها في كتبهم. ثم يقول اللّٰه:

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ عَنِ كُلِّ ضَلَالٍ وَتَقْصِيرٍ وَذَنْبٍ، وَإِنَّمَا يَتَمَّ الْإِنذَارُ ببيان العواقب السيئه لكل ذلك، وبيان طريقه تجنّبها. وقد اختلف في من هو النذير إلى أقوال أقربها ثلاثه:

أحدها: أنّه النار التي ما جعل اللّٰه أصحابها إلا ملائكه، والثاني: أنّه رسول اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله، والثالث: وهو أقربها جميعا: أنّه القرآن باعتباره المنذر الأعظم و الثقل الأكبر على مرّ الدهور و الأجيال.

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ فالرساله الإلهيه إذا لا- جبر فيها لأحد على اختيار طريقها، بل الناس بالخيار بين الإيمان و الكفر، و التقدّم و التأخر، و على هذا الأساس يجب على كلّ مصلح ممارسه التغيير و الإنذار في مجتمعه و أمته. هذا واحد من معانى الآيه و هناك تفاسير خرى:

الأول: فمن شاء أن يتقدم في الإيمان بالرساله فيكون من السابقين أو يتأخر فيكون من اللاحقين فإنّ القرآن نذير له.

الثاني: أنّ «سقر» نذير و جزاء لكلّ من تقدّم إلى أئمه الهدى و نهجهم فأمن أو تأخر فكفر بهم لا فرق.

و

عن أبي الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام قال: «كلّ من تقدّم إلى ولايتنا تأخر

عن سقر، و كل من تأخر عن ولايتنا تقدّم إلى سقر» (١)، و إلى قريب من هذا المعنى أشار ابن عباس بقوله: من شاء اتبع طاعه الله، و من شاء تأخر عنها (٢)، و قال العلامة الطبرسي: و قيل أنّه سبحانه عبّر عن الإيمان و الطاعه بالتقدّم لأنّ صاحبه متقدّم في العقول و الدرجات، و عن الكفر و المعصيه بالتأخر لأنّه متأخر في العقول و الدرجات (٣).

الثالث: التقدم و التأخر الحضاريين في الدنيا، و التقدم و التأخر في الدرجات في الآخرة، فإنّهما مرهونان بموقف الإنسان (فردا و مجتمعا و أمّه و بشريه) من كتاب الله و ذكره للبشريه، فإن استمعت للنذر و اتبعت الآيات وصلت إلى السعاده في الدارين و تقدّمت مسيرتها، و إلاّ صارت إلى الشقاء و التخلف و واقع المسلمين في التاريخ و الآن خير دليل على هذه الحقيقه، فهم لما اتبعوا القرآن سعدوا و تقدموا و قادوا ركب الحضاره البشريه، و لكنّهم الآن حيث هجروه تورّطوا في أنواع المشاكل و البلاء، و

صدق رسول الله صلى الله عليه و آله حينما قال: «القرآن هدى من الضلاله، و تبيان من العمى، و استقاله من العثره، و نور من الظلمه، و ضياء من الأحزان، و عصمه من الهلكه، و رشد من الغوايه، و بيان من الفتن، و بلاغ من الدنيا إلى الآخرة، و فيه كمال دينكم» (قال الإمام الصادق عليه السلام) فهذه صفه رسول الله للقرآن و ما عدل أحد عن القرآن إلاّ إلى النار» (٤).

[٤٧/٣٨] و مع أنّنا نقول بأنّ للرساله الإلهيه دورا أساسيا في تقدم البشريه أو تخلفها و لكن بشرط أن يسعى الإنسان جاهدا في العمل بها.

ص: ١٠٥

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩١.

٢-٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٨٥.

٣-٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٠.

٤-٤) موسوعه بحار الأنوار ج ٩٢ ص ٢٦.

كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَهُ و تأكيد القرآن على هذه الحقيقه فى كثير من المواضع و بصيغ مختلفه ينطلق من كونها بصيره أساسيه يجب على الإنسان و عيها فى حياته، إذ هى روح المسئوليه، و الدافع الحقيقى لتحملها..فمتى ما آمن أحد بالعلاقه بين واقعہ و بين سعيه و مستقبله و بين سعيه فى الحياه تحمّل مسئوليتہ بتمامها. و من الآيه الكريمه نهتدى إلى البصائر التاليه:

ألف: أنّ فكره الجبر فكره خاطئه، فإنّ الله قد جعل مصير البشر بأيديهم و لم يشأ أن يحتمّ عليهم مصائرهم، بل إنهم هم الذين يرتهنون أنفسهم فى النار بسعيهم السيء كالمجرمين أو يفكّون أسرهم و يصيرون إلى الجنه بأعمالهم كأصحاب اليمين، و هذا من أبرز مظاهر العدله و الحكمه الإلهيه.

قال الامام الصادق عليه السلام يعظ واحدا من أصحابه: «اقصر نفسك عما يضرها قبل أن تفارقك، واسع فى فكاكها كما تسعى فى معيشتك، فإنّ نفسك رهينه بعملك» (١) بآء: أنّ هذه القاعده جاريه على كلّ نفس بدون استثناء أو تمييز بين أبيض و أسود، أو ذكر و أنثى، أو عربى و أعجمى، فلا قيمه أسمى من العمل الصالح.

هكذا يشرع الله لعباده، و ذلك يعنى أنّ كلّ الفلسفات الضيقه العنصريه و العرقيه و القوميه و..و..مرفوضه.

جيم: أنّ أغلب المآسى التى تصيب النفس و تصيب رهينه لها هى من كسبها و سعيها، كما قال ربنا سبحانه: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» (٢)، فالحوادث إنّما نذوق طعمها لقله انتباهنا و ضعف وعينا بأمر الحياه

ص: ١٠٦

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٥٨.

٢-٢) الشورى ٣٠.

و قوانينها، و الأمراض إنّما تتسلّل إلى أجسادنا لعدم اهتمامنا و القواعد الصّحيّه، و التخلف و التمزّق و سيطره الطغاه و الظالمين، و حتى الزلازل و الانهيارات و سائر الكوارث الطبيعيه.. إنّها جميعا من عند الإنسان نفسه، و هكذا الجزاء الأخرى، فإنّ أصحاب النار هم المسؤولون عن توزّطهم فيها لما أقدموا عليه من الجرائم و السيئات، كما أنّهم كانوا قادرين قبل انقضاء فرصه العمر على افتداء أنفسهم و فك أسرها بعمل الصالحات، كأصحاب اليمين الذين يمتازون عن سائر الناس بذلك.

إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ

قال الإمام الباقر عليه السلام: «نحن و شيعتنا أصحاب اليمين، و كلّ من أبغضنا أهل البيت فهم المرتنون» (١)، و

في الكشاف: و عن علي عليه السلام أنّه فسّر أصحاب اليمين بالأطفال، لأنّهم لا أعمال لهم يرتنون بها (٢)، و رجّحه الرازي في تفسيره، و ليست هذه إلّا مصاديق لحقيقه واحده، فالأصل من اليمن نقيض الشؤم، كما مرّ علينا في سورة الواقعة عند قول تعالى: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» (٣)، و إرجاع التعبير إلى أصله يجعله يتسع لمصاديق أخرى كثيره. و قد استثنى ربّنا أصحاب اليمين باعتبارهم من دون كلّ الناس ليسوا رهائن لأنّ كسبهم و سعيهم محمود، بل هم في نعيم واسع مقيم.

فِي جَزَاةٍ يَنْسَاءُلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ وَ السُّؤَالُ مَا هِيَ أَهْمِيهِ السُّؤَالُ عَنِ الْمُجْرِمِينَ بِالنَّسْبَةِ لِأَصْحَابِ الْجَنَّةِ؟ أَوْلَا: لِإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ لَذَّةَ النَّعْمِ مَادِيهِ وَ مَعْنُوِيهِ، فَكَمَا أَنَّ تَحَسُّسَ الْغِنَى

ص: ١٠٧

١-١) تفسير البصائر ج ٥٠ ص ٤٣٢.

٢-٢) الكشاف ج ٤ ص ٦٥٥.

٣-٣) الواقعة ٩/٨.

لأوضاع الفقراء يزيده شعورا بفضل الله عليه فإن أصحاب اليمين تزداد لذتهم بنعم الجنة و نعمه الهدايه حينما يطلعون على نقيضهم.

ثانيا: هذا الحوار المستقبلي نافع للمؤمنين في الدنيا، لأنه يكشف لهم عن مكامن الخطر، و معالم طريق النار، مما يمكنهم من تجنب الأخطاء و المزالق، فإن المعرفة بها لا تقل أهميه عن المعرفة بالصواب و الحق. و الذي يسعى لبناء شخصيه إيمانيه في نفسه ينبغي له أن يعرف صفات أهل النار ليتجنبها.

□ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ أَى شَىء (عمل و منهج) قادكم إلى النار؟ و إجابتهم تبين معالم الشخصيه المجرمه من جهه، و تؤكد عمليا ارتهان كل نفس بكسبها من جهه أخرى، فما هى الأسباب التى أدت بهم إلى الجريمه و من ثم إلى عذاب سقر؟ أولا: تركهم الصلاه.

□ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ و الآيه تشمل التاركين للصلاه من الأساس كالكفار و الممسوخين من المسلمين، كما تشمل أولئك الذين يمارسون طقوس العباده و لكنهم لا يلتزمون بقيمها و أهدافها، و هم الذين قال عنهم ربنا: « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ » (١)، فإنهم عند الله ليسوا من عداد المصلين، لأن تارك الصلاه إنما يصبح مجرما لأنه ترك أعظم دافع نحو الخير و أفضل رادع عن الشر و هو الصلاه،

ص: ١٠٨

قال تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (١) وذلك أنها عمود الدين، و روح الإيمان، وصله التقرب بالله.

قال الإمام على عليه السلام يعظ محمد بن أبي بكر: «واعلم يا محمد أنّ كلّ شيء تبع لصلاتك، و أعلم أنّ من ضيّع الصلاة فهو لغيرها أضيع» (٢)، و

قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «لا يزال الشيطان يربع من بنى آدم ما حافظ على الصلوات الخمس، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه و أوقعه فى العظائم» (٣).

و قد أعطى أئمة الهدى بعدا سياسيا و اجتماعيا لهذه الآية، من خلال تفسير ترك الصلاة فى ترك الانتماء إلى حزب الله و رفض القيادة الرسالية،

قال إدريس بن عبد الله سألته-يعنى الإمام الصادق عليه السلام-عن تفسير هذه الآية، قال: «أى لم نك من أتباع الأئمة عليهم السلام» (٤)، و

قال: «أما ترى الناس يسمّون الذى يلى السابق فى الحلبة المصلّى؟! أعنى حيث قال: الآية» لم نك من أتباع السابقين (٥)، و هذا واضح فى نصّ الآية الكريمة عند قوله: «من المصلين»..

فالمصلون إذا خط و حزب و قياده، و عدم الانتماء إليهم يستوجب عذاب سقر.. و من هذه الفكرة نهتدى إلى أنّ التفرج على الصراع بين الحق و الباطل فى المجتمع دون الانتماء إلى فريق الحق مسأله مرفوضه فى الإسلام.

و مع أنّ الكفار و المشركين كافرون بأصول الدين إلا أنّ الله يشير إلى كفرهم بالصلاه و هى فرع من فروع الدين كواحد من الكبائر. لما ذا؟! لأنّها عمود

ص: ١٠٩

١-١) العنكبوت ٤٥.

٢-٢) موسوعه بحار الأنوار ج ٨٣ ص ٢٤.

٣-٣) المصدر ج ٨٣ ص ٢٠٢.

٤-٤) البرهان ج ٤ ص ٤٠٤.

٥-٥) المصدر.

الدين، ولأن الكفار يحاسبون على الفروع أيضا، فالقانون واحد لا فرق فيه بين المؤمنين و الكفار.

ثانيا: عدم إطعام المسكين.

وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَ الْمَسْكِينِ أَشَدَّ حَاجَةً مِنَ الْفَقِيرِ، لأنه الذى يسكنه الفقر و لا يملك قوت يومه، و مساعده هذه الطبقة من الناس واجب شرعى إنسانى اجتماعى يفرضه الإسلام كما يفرضه العقل و العرف، فحينما يصل العوز بفرد من الأفراد إلى حدّ الضروريات الأوليه كالطعام اللازم للحياه فإنّ المجتمع مسئول أمام الله عن رفع حاجته بأيّ طريقه ممكنه.

و قد عكس الإسلام هذا المبدأ فى نظامه الاقتصادى و تشريعاته الجنائيه و القضائيه، بحيث رفع حدّ السرقة عمّن تدفعه إليها الحاجه الضروريه و قد تخلف مجتمعه عن أداء مسئوليته تجاهه. و اعتبر دراسه الأحوال الشخصيه و الظروف الاجتماعيه و الاقتصاديه جزء من نظامه القضائى فى المجتمع. و تأخذنا الآيه الكريمه حينما نتدبرها ضمن سياقها (صفات المجرمين) إلى أبعد من ذلك حينما تعتبر الإنسان الذى لا يتحمل مسئوليه الفقراء و المساكين (فردا و مجتمعا) هو مجرما أيضا، لأنّ اندفاع المسكين إلى ممارسه السرقة و الفساد تحت مسّ الجوع و الحاجه ليس بأعظم جريمه من جريمه عدم إسعافه من قبل ذوى الاستطاعه.

إنّ موقف الإسلام الحازم و الواضح من مساعده المساكين و المحرومين جزء من نهجه الأقوم لعلاج مشكله الظلم و الطبقه، و قد ربط القرآن بين العاقبه (سلوك سقر) و بين الأسباب (الآيات ٤٣/٤٨) لبيان أنّ عذاب سقر ليس إلا سلوكيات

ص: ١١٠

و أخلاق تتجسّد في الآخرة. و لتقريب الفكره نقول: لو افترضنا(سقرا)سجنا ذا أربعه جدران من نار فإنّ كلّ واحده من صفات المجرمين الأربع تمثّل واحدا منها.

ثالثا:الاسترسال مع التيار.

وَ كُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ قَالَ قَتَادَةُ:مَعْنَاهُ كَلَّمَا غَوَى غَاوٌ لِلدَّخُولِ فِي الْبَاطِلِ غَوَيْنَا مَعَهُ،أَي كُنَّا نَلْوُثُ أَنْفُسَنَا بِالْمُرُورِ فِي الْبَاطِلِ كَتَلْوِثِ الرَّجْلِ بِالْخَوْضِ،فَلَمَّا كَانَ هَؤُلَاءُ يَخْرُجُونَ مَعَهُ مِنْ يَكْذَبٍ بِالْحَقِّ مَشِيعِينَ لَهُمْ فِي الْقَوْلِ كَانُوا خَائِضِينَ مَعَهُمْ (١)و مَثَلٌ لَذَلِكَ ابْنُ زَيْدٍ فَقَالَ:نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ هُوَ قَوْلُهُمْ:كَاذِبٌ،مَجْنُونٌ، سَاحِرٌ.. (٢).

الاستقلال من أهمّ أهداف الإنسان في الحياه،باعتباره محتوى التوحيد،و جوهر العبوديه لله،و لباب حريه الإنسان..من هنا كان الخوض مع الخائضين و الاسترسال مع التيار الغالب أنّى اتجه كان ذلك جرما عظيما يرتكبه الإنسان في حقّ نفسه،و هو يعتبر كذلك من مصاديق الشرك بالله،الذى يستوجب عند الله أشدّ العذاب،لأنّه عامل رئيسى من عوامل خطأ الإنسان و انحرافه و ضلاله (٣).

و قد جاءت رسالات الله تهدى الإنسان إلى ذاته،و معرفه كرامته عند الله، و آفاق عالمه الكبير،بينما الشيطان،و أولياؤه يريدون تضليل الإنسان عن نفسه، و تجهيله بقيمتها و كرامتها و دورها المرسوم في انتخاب الخير و محاربه الشر،و من هنا

ص:١١١

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٨٦.

٢-٢) فتح القدير ج ٥ ص ٣٣٣.

٣-٣) لقد بيّنا دور حسّ التوافق الاجتماعى السلبى في كتابنا المنطق الإسلامى أصوله و مناهجه ص ٢٤٠/٢١٩.

نجد الطغاه و المترفين اليوم قد تسلّحوا بأجهزه إعلاميه فائقه الكفاءه من أجل سلب الإختيار من الإنسان الفرد، و قوله شخصيته ضمن القنوات التي يختارونها له، و تلقى المواقف و الأفكار الجاهزه من خلال وسائل السلطه. و لقد استطاعت الأنظمه الاستكباريه فى الغرب ربط شعوبها بوسائلها الإعلاميه بالخصوص فى القضايا السياسيه، فهى تخوض حينما خاضت حكوماتها و أحزابها. و الشاشه الصغيره و شبكات الصحف الكبيره أصبحت اليوم آلهه تعبد من دون الله، و تفرض آراءها على الناس فى شتى الأمور. و حتى اختيار لون فستان زوجته، و تسريحه شعرها، و طبيعه العلاقه معها، يستمده الإنسان الغربى من وسائل الدعايه و الاعلام لا من اختيار حرّ مستقل.

أما كيف يؤدّى حس التوافق إلى الجريمه؟ فالأمر واضح جدا، إذ أنّ الفرد الذى فقد الاستقلال سوف يشارك مجتمعه فى أخطائه حينما يتجه مركبه صوب الجريمه و الضلال، فإذا فسد أخلاقيا فسد معه، و إذا شنّ حربا ظالمه على الآخرين خاض فى دمائهم كما يخوضون، و إذا جلس مجالس الغيبه و البهتان و النميمه أدلى بدلوه فى لهو الحديث و لغوه دون أن يملك شجاعه المعارضه.

رابعا: التكلذب بالآخره.

وَ كُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ و اليقين هنا بمعنى العلم، و قد فسّرت الكلمه بالموت لأنّ الإنسان حينما يموت يرتفع عن بصره كلّ حجاب، فيرى الآخره و الجزاء و كلّ الحقائق التى ذكّرت بها رسالات الله عين اليقين. و فى الآيتين إشاره إلى أنّ فرصه النجاه قائمه ما دام حيّا، فلو وقع فى خط الباطل و الاجرام ثمّ تاب و أصلح قبل الموت نفعه ذلك و إلا فلا.

و حيث لا يعلم الإنسان مواعده مع الموت و لقاء ربه و جزائه فإنّه ينبغى له ملازمه

الطاعة و العمل الصالح بلا انقطاع، فلعله و قد فكّر في المعصيه و واقعها و افاه الأجل فصار إلى سوء العاقبه. هكذا

أوصى أمير المؤمنين ابنه الحسن -عليهما السلام- محذرا إياه من الموت: «فكن منه على حذر أن يدركك و أنت على حال سيئه، قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبه، فيحول بينك و بين ذلك، فإذا أنت قد أهلكت نفسك» (1).

و يعتبر الإسلام التّكذيب بالآخره و جزائها من أهم العوامل التي تدعو البشر إلى التحلّل من المسؤوليه، و الإفراط في الانحراف و الذنوب، و التعبير القرآني الوارد في الآيه دقيق جدا إذ يقول الله «نُكذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ» و كأنّ التّكذيب بالآخره و سبيله إلى كلّ تكذيب. بلى. إنّ خشيه العقاب تردع الإنسان من مخالفه القوانين، و من لا يخشى عقاب ربه كيف يلتزم بشرائعه؟ من هنا يؤكّد العلماء على ضروره القوانين الجزائيه، لأنّها ضروره ملحه في تنظيم علاقات المجتمع.

و قد أطلق الله على يوم القيامه أسماء كثيره قد تتفق في حيثياتها الأوليه، و لكنّها بلا- شك تختلف في إحياءاتها النفسيه و المعنويه، بحيث يمكن لنا القطع بأنّ التعبير ب«يوم الدين» في هذا السياق أصلح من أىّ تعبير آخر، و نكتشف ذلك في المفردات ضمن السياق الذي ترد فيه.

و لأنّ سياق سوره المدثر عن تبليغ الرساله و تكذيب الكفّار و مرضى القلوب بحقائق الدين كان من الحكمه التأكيد على «يوم الدين» بالذات، لبيان أنّ الدين هو المحور و الميزان في الآخره، و أنّ حقائقه التي يكذب بها أعداء الرساله سوف يأتي اليوم الذي يجليها، و بالتالي التأكيد على أنّ التدين ضروره مصيريه لكلّ إنسان.

[٥٣/٤٨] و يبيّن لنا القرآن صفه خامسه لأصحاب سقر هي في الحقيقه

ص: ١١٣

(١-١) نهج البلاغه ك ٣١ ص ٤٠٠.

عامل رئيسي من عوامل الجريمة و المعصية، و هو الفهم الخاطي لمفهوم الشفاعة الذي تنادي به كل رسالات الله، حيث التمنيات التي تحوّلها إلى مبرر لممارسه الخطايا.

و إذا كان هذا الفهم تبلور لدى اليهود في نظريه البنوّه و شعب الله المختار، و لدى النصارى في نظريه الفداء، فإنّ بعض المسلمين أيضا انزلق إلى مثل هذه المفاهيم و التمنيات، و لكن بقوالب و تعابير مختلفه، فقال البعض أنّ المسلمين خير أمّه أخرجت للناس، و أنّ الله لا يعذب أمّه فيها حبيبه النبي محمد صلى الله عليه و آله، و قال فريق:

إنّ الأولياء يشفعون له الخطايا من دون قيد و شرط، و القرآن ينسف كلّ هذه التمنيات الباطله حتى لا يدع مجالاً للإنسان يفرّ عبره عن تحمّل المسؤوليه، و قد حدّر أئمه الهدى من هذا الفهم الخاطي للشفاعة،

قال أبو بصير: دخلت على حميده أعزّيتها بأبي عبد الله فبكت، ثم قالت: يا أبا محمد لو شهدت حين حضره الموت و قد قبض إحدى عينيه ثم قال: «ادعوا لي قرابتي و من لطف لي» فلما اجتمعوا حوله قال:

«إنّ شفاعتنا لن تنال مستخفاً بالصلاه» (١).

و الآيه القرآنيه قويه في وقعها.

فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ لَأَنَّ أَحَدًا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ، و على افتراض ذلك لا تنفعهم، فكيف و أنّ أولياء الله لا يشفعون إلا لمن ارتضى ربّ العزه؟ و إنما عبّر القرآن بهذه الصيغه لينسف تصوراتهم الخاطئه و المغرقه في الأمانى، و ليس لبيان أنّ أحدا قد يتقدّم للشفاعة في المجرمين، بلى. إنّ الشفاعة حقيقه واقعيه و لكنّها تنفع من تكون مسيرته الكائنه مسيره صحيحه فتسقط عنه سيئاته الجانيه، و لا تكون مسيره الإنسان العامه سليمه إلا بالإقبال على رساله الله، و اتباع رسله و أوليائه، من هنا يستنكر الله على الكفار

ص: ١١٤

والمشركين إعراضهم عن تذكّره في الوقت الذي يتطلّعون إلى ذلك.

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرِهِ مُعْرِضِينَ قَالَ مقاتل: الإعراض عن القرآن من وجهين: أحدهما الجحود والإنكار، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه (١)، مع أنّ التذكّره إنّما جاءت من أجل نجاتهم (البشر) بتعبير القرآن، وليس ضدهم، فحقّ أن يستنكر القرآن موقفهم اللئيم من إحسان الله إليهم بالرسالة، وأن يشبّهم بالحمير وصفا لواقعهم وخطأ من قدرهم.

كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ وَ الاستنفار من النفور المختلط بشعور الخوف والخطر، والكلمه دخلت مصطلحا في علم العسكريه، يقال: استنفر الجيش إذا توقّع و تأهب لدفعه، و في المنجد:

المستنفر الشارد المدعور (٢)، والكلمه على وزن مستفعل ممّا يهدينا إلى أنّ المعرضين عن التذكّره يزيد أحدهم الآخر إعراضا و نفورا عن الحق، كما يزيد أفراد القطيع من حمار الوحش بعضهم بعضا ذعرا و شرودا من سطوه الأسد الهصور حينما يهجم عليهم.

و القسوره على الأقرب اسم الأسد حينما ينقضّ على طريدته، من القسر بمعنى القهر، أي أنّه يقهر السباع، و الحمر الوحشيه تهرب من السباع (٣) كأشدّ ما يكون، و سمّى الرامى و الصياد قسوره لأنّه بسهمه يصطاد الصيد و يقهره، و تقول العرب لكلّ رجل قوىّ شديد قسوره لأنّه يصرع الأقران، و يخافه الآخرون، و ما أبلغه من تشبيه تصويرى رائع.

و لعلّ سائلا يسأل: لما ذا يفرّ البشر من التذكّره؟ و الجواب: إنّ وجدان

ص: ١١٥

١-١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٨٨.

٢-٢) المنجد ماده نفر.

٣-٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٨٩.

الإنسان و عقله يرفضان كفره و عصيانه، و يعيش المجرم صراعا دائما معهما و لكنّه قد عقد عزمه عى المضىّ قدما مع شهواته، فيتهرب من الوعظ و الإرشاد حتى لا- يدعم جانب عقله و وجدانه، لأنّ الرساله تكبح جماح الهوى، و تحدّد تصرفات النفس بالأحكام و النظم، و تحمّله كامل المسؤوليه فى كلّ بعد من أبعاد الحياه الفرديه و الاجتماعيه.

بَيْلٌ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتِيَّ صُحُفًا مُنَشَّرَةً قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَلْيَصْبِحْ عِنْدَ كُلِّ رَجُلٍ مَنَّا صَحِيفَةً فِيهَا بَرَاءَتُهُ وَ أَمْنُهُ مِنَ النَّارِ، قَالَ مَطَرُ الْوَرَّاقِ: أَرَادُوا أَنْ يُعْطُوا بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَ قَالَ الْكَلْبِيُّ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: بَلَّغْنَا أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ يُصْبِحُ عِنْدَ رَأْسِهِ مَكْتُوبًا ذَنْبُهُ وَ كَفَّارَتُهُ، فَاتْنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَ قِيلَ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَ جَمَاعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَكْتُبُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ مَكْتُوبٌ فِيهَا: إِنِّي قَدْ أُرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ. نَظِيرُهُ: « وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ » (١).

و ما يريدونه محمول على ثلاثة أوجه:

الأول: أنّهم يريدون مشاهدته الرساله الإلهيه تنزّل فى قرطاس يلمسونه، و يكون متميزا معجزا من كلّ جهاته، و ما ذلك إلا شرط تبريرى للفرار من مسئوليّه الإيمان و الطاعه للرسول، و قد فضح الله هذه النوايا الخفيّه، و كشف عمّا فى قلوبهم من مرض فقال: « وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » (٢).

الثانى: أنّ الخضوع لقياده الآخرين، و بالذات الخضوع الشامل لجوانب

ص: ١١٤

١-١) المصدر ص ٩٠ بتقديم و تأخير.

٢-٢) الأنعام ٧.

الحياه، كما فى الأطروحه الإسلاميه للقياده، من أصعب الأمور على الإنسان، باعتباره يفرض عليه الخروج من شح النفس وحب الذات، و يحدّد مواقفه و تصرفاته، هذا فى سائر الناس، أمّا إذا كان من المترفين و أصحاب الوجاهه فالأمر أثقل عليه و أصعب، حيث تتوق نفسه للرئاسه على الآخرين، بينما النظام الإسلامى يفرض عليه الانصياع لأوامر القياده الرساليه، و ربما التنازل عن المراكز الاجتماعيه التى لا يستحقّها و الأموال التى جمعها من غير حلّها.. و هذا ما لا يطيقه أبو جهل و أمثاله، لذلك ترى كلّ واحد منهم يتمنى لو يكون هو الرسول الذى يختاره الله فينزل عليه وحيه، و من ثمّ يفرض قيادته على الناس، و يوجب عليهم الخضوع له.

قال مجاهد: أرادوا أن ينزل على كلّ واحد منهم كتاب فيه من الله عز و جل: إلى فلان بن فلان (١). و فى الآيه اعتراف ضمنى من المشركين و الكفار بأنّ الرساله فضل عظيم، تمنّاها كلّ واحد منهم لنفسه لما فيها من الشرف.

الثالث: أنّ هذه الآيه كشفت عن عقده مستعصيه عند الإنسان لا بدّ من الجهاد حتى يتغلّب عليها، و هى تلك العقده التى أشارت إليها آيات عديده فى الذكر تبين طلبات الكفار الإعجازيه، مثل قوله سبحانه: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا» أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً* أو تسقيط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله و الملائكته قبلاً» (٢)، و قالوا: «مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْمَسَاجِدِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا» (٣)، فهذه الآيات و نظائرها تكشف عن عقده أساسيه عند الإنسان و هى أنّه ينتظر ما يجبره على اتباع الحق جبراً، فتراه دائم الطلب بما يراه علّه لإيمانه أو يسوّف الإيمان و العمل الصالح إلى أيام يزعم أنّه يجد فيها ما

ص: ١١٧

١- (١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٩ ص ٩٠.

٢- (٢) الإسراء ٩٠/٩٢.

٣- (٣) الفرقان ٧.

يكون سبباً تاماً لهما. و كما تتجلى هذه الطبيعه فى الإنسان الفرد فإنها قد تتجلى فى شعب كامل و أمه كامله، و ثابت عملياً فى تاريخ البشر و لدى علماء النفس أن بعض الشعوب تنتظر حاله الكره على القانون حتى تلتزم به، و هو انتظار سخيف، إذ شرف الإنسان و كرامته (فرد أو أمه) يتمثل فى انتخابه الحر للخير و الفضيله، و ليس فى تحويله إلى أداة طيعة لإرادته قاهره حتى و لو استخدمت فى الطريق الصحيح.

هكذا كانت الهدايه من مسئوليه الإنسان ذاته، أن يختارها، و يسعى جاهدا إليها، و يجأ إلى ربه لتوفيقه إليها.. و يكون دليله فى كل ذلك عقله الذى يميز له و بوضوح كاف سبيل الهدى عن طريق الضلال، مما لا يدع له مجالاً للتبرير، و هو أكبر حجه لله عليه، و لعل الكلمه التاليه توحى بذلك:

□
كَلَّا لَيْسَ تَبْرِيرَهُمْ مَقْبُولًا، و لَيْسَ سَبَبُ اسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ عَدَمُ وُجُودِ هَذَا الشَّرْطِ أَوْ ذَاكَ.

و قوله فى الآيه السابقه «كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ» إشاره إلى كون هذه الصفه مرتكزه فى كل فرد فرد من البشر إلا ما شاء الله، و إلا من ينتصرون عليها و يصلحون أنفسهم.

ثم يبين ربنا بقول فصل العامل الرئيسى فى موقف الكفار من قيم الدين و قياده الرسول، ألا و هو عدم حضور الآخره فى وعيهم.

□ □
بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ إِذْ نَفْسُهُمْ صَحْفًا مِّنْشَرِهِ و المعجزات الأخرى ليس إلا تبريراً لموقفهم، و غطاء لشيء آخر هو عدم الخوف من الآخره، فالآخره إذن ليست فكره مجردة يكفى

الإنسان أن يلقلق بها لسانه، و يحفظها في ذاكرته، بل هيه حقيقه كبيره يجب أن يتفاعل معها عملياً، فتعكس آثارها في سلوكه و شخصيته، و أظهر آيات ذلك الخوف من الآخرة، بالخوف من عذاب الله و غضبه، فإنها أحق بأن يخافها البشر.

و عدم الخوف من الآخرة قد يكون نتيجة للكفر المحض بها، و قد يكون نتيجة للأفكار التبريريّة التي ينسجها الإنسان بخياله، كالشرك بالله، و أفكار الفداء الخاطئه.

[٥٦/٥٤] ثم يقول الله:

كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ أَى أَنَّ الإِعْرَاضَ وَ النُّفُورَ عَنِ الْقُرْآنِ لَأَـ يَصِيْرُهُ بِاطْلَاقٍ فَهُوَ بِآيَاتِهِ وَ حَقَائِقِهِ يَذَكِّرُ الْبَشَرَ بِأَعْظَمِ الْحَقَائِقِ، بَلْ بِهَا كَلَّهَا، إِذْ فِيهِ تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ.

و الرسول هو الآخر مصداق للتذكّره، حيث يقوم بذات الأهداف التي جاء من أجلها القرآن، و أعظمها تذكير الإنسان برّبّه عزّ و جلّ، عبر الأدلّه و الآيات التي تثير فيه العقل و توقظ الضمير و لكن من دون جبر، فالرسول ما عليه إلاّ البلاغ المبين، و القرآن ليس دوره إلاّ بيان الحق و الباطل معاً، و وضع الإنسان بكلّ وجوده المادى و المعنوى أمام الإختيار.

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ يَارَادْهُ وَ وَعِيهِ، فَإِنَّ أَىَ إِخْتِيَارٍ آخَرَ مَرْفُوضٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ شَيْءٌ لَّا فِي الدُّنْيَا وَ لَا فِي الْآخِرَةِ، وَ لِعَمْرِي إِنَّهَا لَمَنْ أَظْهَرَ الْآيَاتِ عَلَى أَنَّ الرِّسَالَهَ حَقٌّ، أَنَّ تَعْتَرَفَ لِلْإِنْسَانِ بِحُرِّيَّتِهِ وَ إِخْتِيَارِهِ وَ مَسْئُولِيَّتِهِ، وَ أَنَّ لَـ يَمَارَسُ مَعَهُ أَىَ لَوْنٍ مِنَ أَلْوَانِ الْإِـكْرَاهِ إِذْ «لَـ إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ» انْطِلاقاً مِنْ حَاجَتِهِ هُوَ إِلَى الْحَقِّ، وَ لَيْسَ الْعَكْسُ. وَ هَذِهِ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ خَصِيصَةٌ تَمَيِّزُ الرِّسَالَهَ الْإِلَهِيَّةَ عَنِ الدَّعَوَاتِ الْبَشَرِيَّةِ

المرتكزه على الجبر و الإكراه، و من ثمّ تجاهل دور الإنسان و حقه في تعيين مصيره.

و توازن الآيات بين الجبر و التفويض، لأنّ بصيره القرآن تهدي إلى أمر بين أمرين، و ذلك من خلال تذكيرنا بحقيقه مهمه بقرار الإنسان و اختياره في الحياه، ألا و هي أنّ مشيئته لا تكون إلاّ بالله. أ و ليس الله خلق الإنسان و أسبغ عليه نعمه ظاهره و باطنه، فلو لا- خلقه هل كان شيئاً حتى يشاء؟ ثمّ إنّه منحه العقل و الإراده، و وفرّ له فرصه المشيئه، و لو كان الإنسان كالحجر لا يملك عقلاً أو إرادته فهل كان يشاء شيئاً؟ و عند ما وفّرت له فرصه المشيئه و في لحظه المشيئه لو لا نور التأييد الذي ينمى إرادته لم يكن يمضى في مشيئته قدما في مقاومه جواذب الشهوه و ركائز النقص و العجز و الجهل التي هو فيها. أليس كذلك؟ و حينما تكون الهدايه محور المشيئه أ فيمكن للإنسان أن يبلغها من دون تذكره ربه و توفيقه؟ بلى. و هكذا قرار الإنسان مركّب من أمرين: أحدهما متصل به، و الآخر متصل بربه، فحيث يختار الهدايه و يسعى إليها سعيها يهديه الله و يبارك سعيه، و هذا معنى

قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر و لا تفويض، و لكن أمر بين أمرين» (قال المفضل) قلت: ما أمر بين أمرين؟ قال: «مثل رجل رأته على معصيه فنهيته فلم ينته، فتركته ففعل تلك المعصيه، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصيه» (١)، و

قال عليه السلام -: «الله تبارك و تعالى أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقونه (يجبرهم)، و الله أعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد» (٢) (فيفوّض لهم الأمر).

و

قال الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام لما سأله المأمون: يا أبا الحسن! الخلق

ص: ١٢٠

١- ١) موسوعه بحار الأنوار ج ٥ ص ١٧.

٢- ٢) توحيد المفضل ص ٣٦٠.

مجبورون؟:«اللّٰه أعدل من أن يجبر خلقه ثم يعذبهم» قال:فمطلقون؟قال:«اللّٰه أحكم من أن يهمل عبده و يكله إلى نفسه» (١)، وهذا البيان العميق للأئمة -عليهم السلام- في شأن إرادة الإنسان و قراره هو الحق الذي تهدينا إليه الأدلّة و الحجج البالغة، و أهداها وجدان الإنسان نفسه و تجاربه الشخصيه، فإنّ الجبريّة و إن جادلوا عن رأيهم إلا أنّ كلّ واحد واحد منهم يعلم علم يقين أنّه الذي يقّرر ما يريد لا يكرهه أحد على ذلك، و إنّ المفوضه ليعلمون بأنّ الأمور ليست كلّها بأيديهم.

وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ أَيُّهُ عَزَّ وَجَلَّ -أهل أن يتقيه خلقه و يخافوه، و أهل أن ترجى رحمته و مغفرته، و هذه اللمسه القرآنيه الأخييره تضع الإنسان على الصراط السويّ بين الخوف و الرجاء، كما وضعت الآيات بين الجبر و التفويض، على أنّ مغفره اللّٰه تسبق غضبه.

ص: ١٢١

سوره القیامه

اشاره

ص: ۱۲۳

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

عن أبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام قال: «من أدمن قراءه «لا أقسم» و كان يعمل بها بعثه الله عزّ و جلّ مع رسول الله-صلى الله عليه و آله- من قبره فى أحسن صوره، و يبشّره و يضحك فى وجهه حتى يجوز على الصراط و الميزان» نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٦١

ص: ١٢٥

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟ أَيُّ شَيْءٍ فِي كَيْفَانِهِ يَدُلُّ عَلَى الْعَبَثِ وَاللَّهْوِ؟ خَلَقَهُ أَطْوَارًا، أَمْ فَطَرْتَهُ الْقَوِيمَ، أَمْ نَفْسَهُ اللَّوَامَةَ الَّتِي تَبْصُرُهُ بِنَفْسِهِ رَغْمَ الْمَعَاذِيرِ الَّتِي يَلْقِيهَا، أَمْ الْحَجَجُ الْبَالِغُ وَأَعْظَمُ بِهَا كَالْقُرْآنِ الَّذِي تَكْفُلُ الرَّبُّ بِجَمْعِهِ وَبِيَانِهِ؟ هَكَذَا تَتَرَى آيَاتِ السُّورَةِ تَعْمِيقًا فِي وَعَيْنِ الْمَسْئُولِيَةِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَيْثُ يَسْوَى اللَّهُ حَتَّى الْبَنَانِ، وَحَيْثُ تَتَرَى فِيهِ الْفَوَاقِرَ وَالذُّوَاهِيَ.. وَ لَا يَجِدُ الْإِنْسَانَ مَفْرًا وَلَا وَزْرًا يَلْجَأُ إِلَيْهِ.

هَكَذَا نَهْتَدِي إِلَى مَحْوَرِ السُّورَةِ الْمَسْئُولِيَةِ، وَهَدَفَهَا تَعْمِيقَ الشُّعُورِ بِهَا، وَالْآيَةِ الَّتِي تَتَجَلَّى بِهَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ».

و تَفْصِيلَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ يَذَكِّرُنَا فِي مَطَلَعِ السُّورَةِ بِحَقِيقَتَيْنِ: الْقِيَامَةَ وَالنَّفْسَ اللَّوَامَةَ، وَ يَرْبِطُ بَيْنَهُمَا عَلَى أُسَاسِ أَنَّهُمَا مَظْهَرٌ لِلْمَسْئُولِيَةِ، فَكَمَا يَسْتَحْتُّ الْإِيمَانَ بِالْقِيَامَةِ الْإِنْسَانُ لِتَحْمَلِهَا فَإِنَّ النَّفْسَ اللَّوَامَةَ هِيَ الْأُخْرَى تَقُومُ بِذَاتِ الدُّورِ

من بعد آخر، إذ تقف أمام تراجعاته، و تنهره عن التقصير في أداء الواجب، و عن اقتحام الخطيئات (الآيات ١-٢).

و يستنكر السياق زعم الإنسان أنه لن يبعث تاره اخرى بعد أن يصير أشلاء موزعه و رميما. هل يحسب أن قدره الله محدوده مثله؟ كلاً.. قدرته تفوق تصوّر البشر.. فهو ليس قادرا على جمع عظامه و حسب، و إنما يقدر أن يسوّى بنانه أيضا، و الإنسان حينما يراجع نفسه و يتفكّر في آيات قدره الله في الطبيعه فإنه يعرف تلك الحقيقه، و لكنّه إنّما يخترع تلك الأفكار تبريرا للهروب من عرصه المسؤوليه، و الإيمان بالرساله التي تحدّد تصرفاته و لا تجعله مطلقا يتبع الهوى كما يريد..

و يؤكّد القرآن مره أخرى أنّ هذه هي الخلفيه الحقيقه لسؤاله عن القيامه (الآيات ٣-٦).

و يداوى ربّنا هذا المرض المستعصى في النفس البشريه بالتأكيد للإنسان أنه و إن استطاع موقتا (في الدنيا) تبرير ضلاله و الفرار من المسؤوليه تحت غطاءه فإنه لن يجد في المستقبل مفرا من ربه حينما تقوم القيامه «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصِيرُ* وَ خَسَفَ الْقَمَرُ* وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ» و عبر قنطره الدنيا الفانيه إلى دار الاستقرار عند الله، فهناك يجد نفسه وجها إلى وجه مع حقيقه أمره حيث يجد ما عمل محضرا أمامه (الآيات ١٧-١٣).

و يثير الوحي فينا حسّ النقد الذاتى، عن طريق تذكيرنا بحقيقه وجدانيه مسلّمه، ألا- و هي بصيره الإنسان على نفسه، فإنه قبل الآخرين شاهد عليها و عالم بواقعها، مهما توّسل بالأعذار و التبريرات الواهيه، و إنّما يؤكّد القرآن هذه الحقيقه لأنّ المراقبه الذاتيه أعظم أثرا، و أرسخ للتقوى في شخصيه الفرد (الآيات ١٤-١٥).

ثم ينعطف السياق إلى الحديث عن القرآن نفسه، داعياً الرسول إلى عدم التعجل به من قبل أن يقضى إليه وحيه، مؤكداً تكفله تعالى بجمعه وقرآنه ثم بيانه للناس.. وهذا مما جعل المفسرين يتحiron في فهم العلاقة بين سياق السوره و بين هذا المقطع، إلا أن هناك علاقته متينه ستتعرض لإيضاحها في البيّنات (الآيات ١٦-١٩).

و تهدينا الآيات إلى واحد من عوامل الانحراف و عدم تحمّل المسؤوليه عند الإنسان، و الذي لو استطاع التغلب عليه لاهتدى إلى الحق، و سقط الحجاب بينه و بين الآخرة، ألا- و هو حبّ العاجله (الدنيا) على حساب الآخرة، و البحث عن النتائج الآنيه و إنكار الجزاء الآجل و لو كان الأفضل، بل و لو كان مصيرياً بالنسبه إليه، فهو يعيش لحظته الراهنه دون التفكير في المستقبل، و هي نظره ضيقه خطيره.

و حين يفشل الإنسان في الموازنه بين الحاضر و المستقبل، و بين الدنيا و الآخرة فإنه يخسرهما معا (الآيات ٢٠-٢١).

و الحلّ الناجع لهذه المعضله عند البشر يتم بإعاده التوازن بينهما إلى نفسه، و لأنّ العاجله شهود يعايشه بوعيه و حواسه فإنّ حاجته الملحّيه إلى رفع الغيب إلى مستوى الشهود عنده، و لذلك يضعنا القرآن أمام مشاهد حقيقه من غيب الآخرة حيث الناس فريقان: فريق السعداء الذين تجلّل وجوههم النضاره، و يصلون إلى غايه السعاده بالنظر إلى ربّهم عزّ و جلّ، و فريق البؤساء الخاسرين أصحاب الوجوه الباسره، الذين ينتظرون بأنفسهم العذاب و الذلّه (الآيات ٢٢-٢٥).

و يمضى بنا السياق شوطاً آخر يحدّثنا فيه عن لحظات الموت الرهيبه حيث تبلغ النفس التراقي فيعالج الإنسان سكرات الموت حيث يلفّ ساقاً بساق، و يقبض كفاً و يبسط أخرى، بلى. إنه أوّل مشهد من الآخرة، و النافذه على عالمها الواسع.

و كما أنّ تكذيب أحد بهذه الحقيقه لا- يدفعها عنه و لا يغير من شأنها فإنّ التكذيب بالآخره هو الآخره لا يغير قدر ذرّه من أمرها، لأنّها حقيقه واقعه و قائمه (الآيات ٢٦-٢٩).

و لأنّ مشكله الإنسان ليس إنكار الموت، و لا زعم القدره على دفعه، بل الشك فيما بعده أو الكفر به، انعطف القرآن نحو إنقاذه من حيره الشك في المستقبل و الجهل به، و كأنّه يحلّ لغزا رجع صداه في أكثر النفوس البشريه، ببيان أنّ مسيرته في الحياه لا تنتهى بالموت، و إنّما الموت جسر إلى عالم أبدىّ أوسع، هو عالم لقاء الله و الحساب و الجزاء بين يديه، و ذلك ممّا يعمّق الشعور بالمسؤوليه في النفس (الآيه ٣٠).

و غياب هذه الحقيقه من وعى الإنسان هو المسؤول عن عدم تصديقه به و صلاته له، و هو يدفعه إلى التكذيب، و ركوب مطيه الغرور. و أنّ من يكون على هذه الصفات أولى له الموت من الحياه، و العذاب من الرحمه (الآيات ٣١-٣٥).

و يرجعنا القرآن إلى الجذر الأصيل لكفر الإنسان بالبعث و الجزاء: إنّّه جهله بقدره ربه سبحانه، فليتكفّر في أصل خلقته حين كان «نُطْفَهً مِنْ مَيِّ يُمْنِيٍّ* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً» فخلقّه الله و سواه، متكاملا في ذاته، و متكاملا مع الجنس الآخر بأن خلق « مِنْهُ الرُّؤُوسِ الدُّكْرَ وَ الْمَائِثِيَّ » فهذه آيه واضحه للعقل على قدره الله « عَلِيٌّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتِيَّ »، لأنّ أصل الخلق أعجب و أدلّ على قدرته تعالى من الإيعاده (الآيات ٣٦-٤٠).

[سوره القيامه (٧٥): الآيات ١ الى ٤٠]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لا- أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَ لا- أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَكْبِرُ أَنْتَبَأُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْزُ (١٠) كَلَّا- لا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُسَبِّحُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَ لَوْ أَلْفَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) لا- تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنْ عَلِمْتَ جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلِيمًا لِيَلِيَنَّاهُ (١٩) كَلَّا- يَلِ تَحْتَبُونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْثَّرَاقِي (٢٦) وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَ اتَّفَتِ الْيَسَاقُ بِالْيَسَاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلا صَدَقَ وَ لا صَلَّى (٣١) وَ لَكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَسَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)

اللغه

٤[بنانه]:البنان الأصابع،واحدها بنانه.

١١[لا وزر]:لا ملجأ يلجأون إليه،و الوزر ما يتحصن به من جبل أو غيره.

٢٤]باسره]: كالحه متغيره، و قال الراغب فى معنى البسور: أنه إظهار العبوس قبل أوانه و فى غير وقته، و يدلّ على ذلك قوله عزّ و
جلّ: «تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ».

٢٥]فاقره]: هى الكاسره لفقار الظهر، و قيل: الفاقره الداھيه و الآبده.

٢٦]التراقى]: العظام المكتنفه بالحلق.

٢٧]راق]: طيب.

٣٣]يتمطى]: جاء فى مفردات الراغب: أى يمدّ مطاه أى ظهره، و المطيه ما يركب مطاه من البعير، و قد امتطيته ركب مطاه، و المطو
الصاحب المعتمد عليه، و تسميته بذلك كتسميته بالظهر.

ص: ١٣٢

بينات من الآيات:

[١-٢] حتى يتعمق الإيمان عند الإنسان و يتحمل مسؤولياته فى الحياه لا بد أن يستثار فيه حافزان:وعى الآخره مما تعنيه من بعث و جزاء، ثم نفسه اللوامه التى تثير فى داخله النقد الذاتى بما يعنى رده عن اقتحام الخطيئه، فالمسئوليه إذا هى الجذر الأصيل الذى تلتقى فيه فكره القيامه و حقيقه النفس اللوامه، من هنا يذكرنا القرآن بهما جنباً إلى جنب فى سياق علاجه لموضوعها.

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ و إِنَّ لِكَلِمَةِ «القيامة» تعبيراً عن الآخره هنا إحياء نفسياً خاصاً، يذكر الإنسان بالبعث فى واحد من أعظم مشاهد تلك الحياه حيث القيام من وهذه القبر للحساب و الجزاء. و القيام أظهر تجليات الحياه إذ لا يقوم الشئ حتى يستوى تماماً و يكتمل.

و لقد مضى الكلام عن كلمه «لا» فى القسم، و خلاصه القول: أنّها تفيد معنى القسم، و أنّ ما يليها من كلام فى منزله من الوضوح لا داعى معها إلى القسم (١) أو أنّ ما وراءها من حقيقه نقسم بها عظيمه نجلّها عن القسم، و هما معا يفيدان معنى التفخيم. و لا حاجة للحديث هنا عن اختلاف المفسرين فى تفسير هذه الصيغه القرآنيه لكونه نقل فى مواضع أخرى سبقت.

أمّا عن النفس اللّوامة فهناك أقوال كثيره، فعن قتاده: (أنّها النفس) الفاجر يقسام بها (٢)، و عن ابن عباس قال: المذمومه (٣)، و هما رأيان بعيدان جدّا تخالفهما النصوص التى جرى استخدام الكلمه فيها على وجه الإيجاب، كما يخالفهما المعنى اللغوى للّوامة، و عن مجاهد: تندم على ما فات و تلوم عليه (٤)، و عن الحسن قال: إنّ المؤمن لا - تراه إلاّ - يلوم نفسه، و إنّ الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه (٥).

و الذى أختره و تدلّل عليه النصوص أنّ فى الإنسان نفسين: أحدهما تختار الباطل و الفساد و هى الأماره، و الثانى تدعو إلى الحق و الصلاح و هى اللّوامة، و نعبّر عنها فى الأدب الحديث بالضمير و الوجدان، و هذه النفس تستيقظ داخل الإنسان لتعاتبه على عدم العمل بالحق، و تنهره عن اقتحام الباطل. و إنّما عبّر القرآن عنها بصيغه المبالغه (فعاله) لأنّها كثيره الملامه لصاحبها و النصيحه إليه، فإذا ما استجاب لها نمت و أخذت موقعها و دورها الإيجابى فى حياته، و إذا أدمن الصّدّ عن نداءاتها و مخالفتها تباطأت عن العمل فلا تعود تلومه على خطاياها كثيرا.

ص: ١٣٥

١- ١) راجع سوره الواقعه عند الآيتين (٧٥-٧٦) و ما يليها.

٢- ٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨٧.

٣- ٣) المصدر.

٤- ٤) المصدر.

٥- ٥) المصدر.

مبّر له أبداً، وإنما يعتمد على التمنيات الواهية، والخيال البعيد، كما توحى الآية بأن مشكله الإنسان ليست في عدم إيمانه بخطئه، إذ أنه إن لم يعترف به للناس فإنه لا يستطيع الفرار منه أمام محكمه الضمير، ولكن مشكلته كفره بالحقيقة الثانية ألا وهي القيامة، التي تعنى البعث والحساب والجزاء، وذلك أنه لا يستطيع استيعاب حقيقته العوده إلى الحياه بعد أن يموت و يصير أشلاء موزعه و عظاما باليه تستحيل ذرات تراب مع الأيام.

و جذر هذا التصور نجده حينما نبحت عنه في جهل الإنسان بقدره ربه التي لا تحدّ، و تقييم شؤون الخلائق بما فيها البعث و النشور من خلال قياساته الذاتيه و قدراته المحدوده، دون أن يعرف أنّ للكائنات العظيمة التي خلقها الله من جبال و وهاد و أراضى و بحار و سموات و مجزات.. أنّ لها مقاييس أخرى لا تقاس بذاته.

و لهذا فإنه حيث يجد نفسه عاجزه عن جمع عظام الموتى بحسب الأمر مستحيلاً، أمّا لو عرف ربّه لتغيّر تصوّره و موقفه، و آمن بالآخره مصدّقاً قول ربه:

بَلِي قَادِرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بَدَانَهُ ^(١)، و عنه قال: نجعلها كفاً ليس فيه أصابع ^(٢)، و الأقرب منه أن تكون التسويه هنا بمعنى الخلق الكامل، بإعادة البنان على خلقها و كمالها الأول بعد الموت و التحلل في التراب، و هذا ردّ على شك الإنسان في قدره الله على جمع الأَعْظَم المتفرّقه الرميّمه، أى أنه تعالى ليس قادراً على جمعها و حسب، بل هو قادر على كسوها لحما و إعادته الحياه إليها. و إذا

ص: ١٣٧

١- (١) الدر المنثور ج ٦ ص ٢٨٧.

٢- (٢) المصدر.

كانت اليدين من خصائص الحضاره البشريه فَإِنَّ الأصابع هي ميزه اليد عند الإنسان بما فيها من دقه و قوه و أناقه، و خصوصا البنان الذي يقوم بدور عظيم في حياه الإنسان.

و قد اعتبر البعض هذه الآيه سبقا في بيان حقيقه علميه يستفاد منها كثيرا في القانون الجنائي، و هي: اختلاف خطوط أطراف الأصابع من إنسان إلى آخر، و التي أصبحت بذاتها علما مستقلا يسمّى بعلم البصمات، تركز عليه الدوائر الأمنيّه في مكافحه الجريمه و معرفه المجرمين.

و تعبير الله في الآيه الثالثه «نجمع عظامه» يهدينا إلى أنّ الإنسان مهما تحلّل في التراب إلّا أنّه لا يتحوّل إلى العدم، بل يبقى أجزاء و ذرّات صغيره متفرقه هنا و هناك، و الخلق الثاني بالبعث يبدأ بجمعها إلى بعضها عبر قوانين و إرادته إلهيه تجعل ذرّات كلّ فرد و عضو و جزئياته تجتمع و تلتحم مع بعضها، و الله العالم.

[٥-٦] أمّا سبب كفر الإنسان بالآخره فهو أنّه لا يريد الالتزام بالشرائع و الحدود، بل يريد أن يطلق العنان لأهوائه و شهواته و من ثمّ لا يتحمّل مسئوليّه في الحياه.

بَيْلٌ يُرِيدُ الْإِنْسَانَ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ قَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَيُّ يَكْذِبُهُ» (١)، و على هذا أجمع جلّ المفسرين، قال العلامة الطبرسي: فالفجور هو التكذيب (٢). و قال الفخر الرازي: أي يكذب بما أمامه من البعث و الحساب، لأنّ من كذب حقّا كان فاجرا (٣). و الذي يبدو لي

ص: ١٣٨

١-١) البرهان ج ٤ ص ٤٠٦.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٥.

٣-٣) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٣١٨.

أنَّ الكلمه بمعناها الأصلي و هو الشق و التحطيم، و إنما سمى الفجر فجرا لأنه يشق الظلام و يحطمه، و الفجور فى الأخلاق و السلوك مثل ذلك، حيث أنَّ الفاجر لا يلتزم بقيمه و لا قانون، بل يشق عصا المجتمع و الشرع باقتحام اللذات و الخطايا، و لا يريد أمامه شيئا يعيقه أبدا، و هذا التفسير لا يعارض حديث الامام و لا أقوال المفسرين لأنَّ التكذيب مقدمه و مصداق للفجور. و لم أجد من المفسرين من قال ذلك، إلاَّ إشاره عند الرازى إذ قال: من أنكر المعاد بناء على الشهوه فهو الذى حكاه الله تعالى بقوله «الآيه»، و معناه: أنَّ الإنسان الذى يميل طبعه إلى الاسترسال فى الشهوات، و الاستكثار من اللذات، لا يكاد يقرّ بالحشر و النشر، و بعث الأموات، لئلا تنغص عليه اللذات الجسمانيه، فيكون أبدا منكرا لذلك (١).

و الضمير فى «أمامه» إمَّا أن يعود إلى يوم القيامة، أو إلى الله عزَّ و جلَّ، حيث أنَّ الفاجر يمارس فجوره فى حضور و شهاده الله، أو يكون عائدا على الإنسان نفسه باعتباره يفجر أمام ضميره و بشهاده من جوارحه التى تدلى بشهادتها عليه عند الحساب. و الأصح أنَّ الضمير يرجع إلى الإنسان، لأنَّ الحديث حوله و سائر الضمائر ترجع إليه، و لعل هذا جعل ذلك مستساغا بينما يقال عادة: أمام نفسه.

يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ الْكُفْرَ بِالْقِيَامَةِ هُوَ الَّذِي يَبْزُرُ لَهُ التَّحَلُّلُ مِنَ الْمَسْئُولِيَّةِ، فَهُوَ فِي سَعْيِ حَيْثُ وَ جَدَلٍ دَائِمٍ مِنْ أَجْلِ إِنْكَارِهَا، وَ صِنَاعَةِ قِنَاعِهِ وَ لُو دَاهِيَةِ لِنَفْسِهِ وَ لِلآخَرِينَ بِذَلِكَ، فَسْؤَالُهُ لَيْسَ سْؤَالِ اسْتِهْزَاءٍ وَ سَخْرِيَةٍ فَقَطْ، بَلْ هُوَ سْؤَالٌ تَبْرِيرٍ وَ جَدَلٍ أَيْضًا. وَ إِنَّهَا لَصَفْهُ كُلِّ مَنْ يَتْرَكَ الْعَمَلَ بِالْحَقِّ وَ يَخَالِفُ الْقِيَمَ، إِذْ لَا بَدَّ مِنْ تَبْرِيرٍ لِمَوْقِفِهِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ فَجُورًا؟

ص: ١٣٩

و لصيغه السؤال هذه استبعاد و تسويف بالتوبه، قال الزجاج: و يجوز أنه يريد أن يسوّف التوبه، و يقدم الأعمال السيئه (١)، و قيل معناه: أنه يتعجل المعصيه ثم يسوّف التوبه، و يقول: أعمل ثم أتوب (٢).

[٧-١٣] و يبقى المكذب بالآخره مسترسلا مع أهوائه و شهواته، في فجور بعد فجور، لأنه لا يحسب حسابا للقاء ربه، و وقائع القيامه التي تطبع آثارها المذهله و الرهيبه عليه و على الطبيعه من حوله، فهناك لا يجد مفرا من حكمه الله و جزائه، لأنّ الوضع يختلف في الآخره عن الدنيا، حيث تنتهي فرصه الامتحان و الحريره.

فَإِذَا بَرِقَ الْبُصَيْرُ قَالَ فِي التَّبْيَانِ: يُقَالُ بَرِقَ الْبُرُقُ إِذَا لَمَعَ، وَ أَمَا بَرِقَ بِالْكَسْرِ فَمَعْنَاهُ تَحْيَرٌ، وَ قَالَ الزَّجَّاجُ: بَرِقَ إِذَا فَزِعَ، وَ بَرِقَ إِذَا حَارَ (٣)، وَ فِي الْمَجْمَعِ قَالَ أَبُو عَيْبَةَ: بَرِقَ الْبَصَرُ:

إِذَا شَقَّ وَ انشَدَ (٤)، وَ قَالَ الْعَلَّامَةُ الطَّبْرَسِيُّ: أَى شَخْصٍ الْبَصْرُ عِنْدَ مَعَايِنِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَلَا يَطْرَفُ مِنْ شَدَةِ الْفَزَعِ، وَ قِيلَ: إِذَا فَزِعَ وَ تَحْيَرٌ مِنْ شَدَةِ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ (٥)، وَ قَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ أَنْ نَقَلَ رَأْيَ الزَّجَّاجِ: وَ الْأَصْلُ فِيهِ أَنْ يَكْثُرَ الْإِنْسَانُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى لَمَعَانِ الْبُرُقِ، فَيُؤَثِّرُ ذَلِكَ فِي نَظَرِهِ، ثُمَّ يَسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ حَيْرَةٍ، وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَظَرٌ إِلَى الْبُرُقِ (٦). وَ مَا أَخْتَارَهُ أَنْ بَرِقَ الْبَصَرُ يَحْمِلُ مَعْنَى الْحَيْرَةِ وَ الدَّهْشَةِ لِحَالِهِ الدَّهْوَلِ وَ الْخَوْفِ الَّتِي تَصِيبُ الْإِنْسَانَ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ. وَ إِنَّهُ يَحْدُثُ بَعْضَ الْأَحْيَانِ نَتِيجَةَ الْإِرْهَاقِ أَوْ الصَّدَمَاتِ الرُّوحِيَةِ وَ الْمَادِيَةِ أَنْ يَرَى الْوَاحِدَ

ص: ١٤٠

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٥.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) التبيان ج ١٠ ص ١٩٢.

٤-٤) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٤.

٥-٥) المصدر/ص ٣٩٥.

٦-٦) المنجد/ماده برق.

أمام ناظره ما يشبه النجوم الصغيره، و لعلّ هذه الظاهره لون من بروق البصر. و فى المنجد: برق برقا تحير و دهش فلم يبصر، البرقه: الدهشه و الخوف (١). و بصر الإنسان يبرق يوم القيامة.. و مع أنّه يبرق عند الموت إلا أنّ حمل المعنى على القيامة أقرب إلى السياق فالحديث عنها، و المشاهد التاليه متصله بها لا بالموت.

وَ حَسَفَ الْقَمَرَ قال الزمخشري: ذهب ضوءه، أو ذهب نفسه (٢)، و جاء الفعل معلوما بينما يقال عاده خسف ببناء الفعل للمجهول، و لعله للدلاله على أنّه فى الحالات الطبيعیه يحجب نوره بعوامل خارجيه كوقوع الأرض بينه و بين الشمس فى حركتها السنويه، ممّا يتسبب فى حجب شعاعها عنه و وقوع ظل الأرض عليه. أمّا فى الآخره فإنّ القمر نفسه يخسف و لا- يخسف بشيء خارجي، فهو فاعل الخسف و ليس غيره.

و مشهد مربع آخر يلفت القرآن نظرنا إليه، و هو اختلال النظام الكونى فى الحياه، و من مظاهره جمع الشمس و القمر، و هذه النتيجة حتميه و طبيعیه فى ذلك اليوم، فالكون و النظام إنّما أوجدهما الله للإنسان، و حيث ينتهى دوره فى الدنيا ينتهى معه كلّ متعلّق به.

وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ و علماء الفلك يدركون الآثار التى يخلفها مثل هذا الأمر على الكائنات، و ما هو أعظم و أرهب بالنسبه للإنسان من هذه الأحداث الكونيه تلك الحقائق التى يمثّلها يوم القيامة و يكشف عنها، و أهمّها حقيقه الجزاء و المسؤليه، التى طالما كذب بها

ص: ١٤١

١- ١) المنجد/ماده برق.

٢- ٢) الكشاف/ ج ٤ ص ٦٦٠.

و سعى للفرار منها بشتى الحيل و الذرائع، فهناك يجد نفسه وجها لوجه أمامها و لا سبيل له للهرب منها.

يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ و إنما يكشف القرآن للإنسان مشاهد الآخرة حتى يزرع التقوى فى نفسه فيضع بذلك حدا لفجوره و غروره، و لأن المعرفة بالمستقبل و الإيمان بحقائقه يخلف توازنا فى مسيرته الدنيوية الحاضرة، فهو إنما يفجر زعما منه بأن سيجد مهربا من المسؤولىه.

كَلَّا لَا وَزَرَ أَي ملجأ و مأوى. قال المبرد و الزجاج: أصل الوزر الجبل المنيع، ثم يقال لكل ما التجأت إليه و تحصّنت به وزر (١)، و منه الوزير الذى يلجأ إليه فى الأمور (٢)، يقال وزرت الحائط، إذا قويت بأساس يعتمد عليه، و قال الحسن: لا جبل، لأن العرب إذا دهمتهم الخيل بغته قالوا: الوزر، يعنون الجبل (٣).

و فى الآخرة لا- يجد أحد مفرا و لا ملجأ من جزائه، و عذاب ربه، بلى. هناك مفر واحد فقط ينفع الإنسان، و هو أن يفر إلى ربه الذى منه العذاب، و إليه المصير، و لا يكون ذلك فجأه، إنما يحتاج الأمر إلى تمهيد فى الدنيا قبل الآخرة.

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ قال صاحب المجمع: أى ينتهى الخلق يومئذ إلى حكمه و أمره، و قيل «المستقر»:

ص: ١٤٢

١- (١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٢١.

٢- (٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٥.

٣- (٣) التبيان ج ١٠ ص ١٩٤.

المكان الذى يستقرّ فيه المؤمن و الكافر، و ذلك إلى الله لا إلى العباد (١). و الأصح إطلاق الكلمه كى تتسع إلى كل المعانى الموحيه بها هذه العبارة، كالقرار، و المصير، و المقر، و الحكم، و الأمر.. إلخ، و فى ذلك تنبيه للإنسان على أن الدنيا ليست محلاً للخلود و الاستقرار، و لا - محطه أخيره، فيجب أن يكتيف نفسه مع هذه الحقيقه الهامه، و ليس معنى الآيه أن المستقر دون ذلك اليوم ليس لله «فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولَىٰ» (٢)، و لكن حكمته اقتضت أن تكون لنا الحريه فى الدنيا، و يومئذ يكشف لنا الغطاء بصوره أوضح و أجلى عن هيمنته و سلطانه المطلقين، و نكتشف فيما نكتشف علمه و إحاطته التامين حينما يعرضنا للحساب و الجزاء فنجد أنه أحصى كل صغيره و كبيره لنا و علينا.

يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ فى التبيان و مثله المجمع: أى يخبر الإنسان يوم القيامه بأول عمله و آخره فيجازى به، و قيل: بما قدّم من العمل فى حياته، و ما سنّه فعمل به بعد موته من خير أو شر، و قيل: بما قدّم من المعاصى (على الطاعات) و آخر من الطاعات (٣) (على المعاصى).

قال الإمام الباقر عليه السلام: «بما قدّم من خير و شر، و ما أخر ممّا سنّ من سنّه، ليستنّ بها من بعده، فإن كان شرا كان عليه مثل وزرهم، و لا ينقص من وزرهم شىء، و إن كان خيرا كان له مثل أجورهم، و لا ينقص من أجورهم شىء» (٤).

و حضور مشهد الحساب الأخرى فى وعى الإنسان فى الدنيا له دور كبير فى

ص: ١٤٣

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٥.

٢-٢) النجم ٢٥.

٣-٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٥.

٤-٤) تفسير القمى ج ٢ ص ٣٩٧.

بعثه على التقوى والطاعة، وممارسه النقد الذاتى البناء. وإنَّ الله قادر أن يجازى الناس مباشرة بعد بعثهم ولا أحد يسأله عمَّا يفعل، ولكنَّه يأبى إلا أن يجعل علمه و عدالته لخلقته.

[١٥-١٤] و السياق مهَّد السبيل للحديث عن البصيره الأساسيه التى تعتبر محورا هاما في السوره، وهى وعى الإنسان بمسؤوليته عبر استثاره نفسه اللوامة، التى تجعله عليها شاهدا و رقيبا ممَّا يصلح مسيرته و يوجَّهه إلى تحمُّل المسؤليه بتمام المعنى، فلا يمارس الخطيئه لأنها تحتاج إلى التبريرات و الأعذار، وهى لا تنفع شيئا عند الله و لا عند محكمه نفسه.

بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ* وَ لَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ وَ هُنَا نَهْتَدِي إِلَىٰ عَدَّةِ بَصَائِرٍ:

١/ يهدف الإسلام عبر منهجه التربوى تنمية وازع الضمير عند الإنسان كضمانه أساسيه لالتزامه بالشرائع. من هنا فإنَّ القرآن يذكِّره بالحقائق الوجدانيه المره بعد الأخرى.

٢/ كما أنَّ الإنسان لا يجد مفرا من حكمه الله يوم القيامة و لا تنفعه الأعذار، فإنَّه حين يراجع ذاته (ضميره و عقله) يواجه نفس الموقف، حيث يعلم بأنَّ الأعذار التى يقدمها لا واقع لها، فهى قد تخدع غيره و لكن لن تخدع وجدانه.

٣/ إنَّ الأعذار التى يلقىها الإنسان أكثرها كاذبه، يلجأ إليها لتبرير أخطائه و سلوكياته المنحرفه، وهى لا تعيِّر من الواقع شيئا لا عند الله و لا عنده. و ورود الكلمه بالجمع «معاذيره» فيه دلالة على أنه يتقن فنَّ صناعه التبرير، و أنه حينما يريد تبرير موقف أو عمل ما متصل به لا يكتفى بعذر واحد بل يخلق أعدارا كثيره.

و هذه البصائر تنسف الثقافه التبريريه التى هى أهم أسباب التخلف و الاجرام، ذلك لأنّ الإنسان الذى خلق فى أحسن تقويم، و أنشأت نفسه على فطره الاستقامه، ثم زوّد بالنفس اللّوامة التى تراقب انحرافه بمقياس دقيق، إنّه لا يقفز -مره واحده- من قمه الحق إلى حضيض الباطل، إنّما يهبط إليه عبر سلّم التبرير و تقديم الأعذار، فإذا بنفسه الأماره بالسوء تسوّل له الخطيئه، تقول له مثلاً: أنى لك النقاء الكامل، أنت طيّب أكثر من اللازم، و لا يمكنك أن تعيش من دون ظلم أحد، كل الناس يظلمون بعضهم.. و هكذا يقدّم الأعذار لانحرافه حتى يبتعد كلياً عن طريق الحق و يتسافل إلى الحضيض.

و إذا عرف الإنسان الدور السلبي للأعذار و أنّها غطاء رقيق لارتكاب الجرائم الخطيره و أنّها لا تعنى شيئاً، فإنّ ذلك يساهم فى استقامته على الحق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا و يسرّ سيئاً، أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك؟ و الله سبحانه يقول: «الآيه» إنّ السريره إذا صلحت قويت العلانيه (١)، و

قال عليه السلام: «ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس خلاف ما يعلم الله منه، إنّ رسول الله صلى الله عليه و آله كان يقول من أسرّ سريره ردّاه الله رداءها، إن خيراً فخير، و إنّ شراً فشر» (٢). و اختلف فى تاء «بصيره» فقيل أنّها للتأنيث و تعود على الجوارح، فكأنّ الآيه تقول: إنّ جوارح الإنسان على نفسه بصيره، و قيل: هى للمبالغه فإنّ العرب تقول: فلانه علامه، و فلان علامه.

و الذى يبدو لى إضافه إلى ذلك أنّها راجعه إلى النفس، فنفس الإنسان عليه بصيره، و لم أجد من المفسرين من قال ذلك.

و قد اعتمد الفقه الإسلامى هذه البصيره القرآنيه فى تحديد بعض التشريعات

ص: ١٤٥

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٦.

٢-٢) المصدر.

و التكليف، بإيكال تشخيص موضوعها و حكمها إلى الإنسان نفسه من دون حاجه إلى مراجعه الفقيه أو المختص،

قال زراره: سألت أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام): «ما حدّ المرض الذى يفتقر صاحبه؟» قال: «بل الإنسان على نفسه بصيره، هو أعلم بما يطيق» (١)، و

فى روايه أخرى: «هو أعلم بنفسه، ذاك إليه» (٢)، و قد ذهب بعض الفقهاء فى فهمه لهذه الآية إلى حدّ القول: بأنّ كلام المختص ليس حجّه ملزمه دائماً، فلو أمره بالصيام على أساس أنّ المرض لا يضره و لكنّه ارتأى الضرر فله الحق فى مخالفته، و العكس كذلك صحيح.

[١٩-١٦] لكى تبلور نظره الإنسان إلى نفسه، و تتميّز فى وعيه حوافز الخير و الصلاح عن شهوات الشر و الفساد، لا بد أن يعى الآخره و أهوالها، و ينتبه إلى نفسه اللوامة، و يستضىء بالقرآن الذى هو حججه ظاهره فيما العقل حججه باطنه، و هما يلتقيان فى الحق و فى إعطاء الإنسان مقياساً سليماً فيه. من هنا ينعطف السياق إلى الحديث عن تبليغ الرساله داعياً النبى صلى الله عليه و آله إلى عدم الاستعجال بالقرآن.

و قد تحيّر المفسرون فى علاقه بين الآيات (١٦-١٩) و بين السياق العام للسوره، حتى قاد الجهل بعضهم إلى آراء بعيدة كلّ البعد عن حقيقه الرساله، فزعم بأنّ القرآن تعرّض إلى التغيير عن مواضعه، إذ لا ينبغى أن ترد الآيات المذكوره فى مثل سوره القيامه، و قال آخرون بأنّ الحديث هنا ليس عن القرآن و إنّما هو عن كتاب الإنسان الذى يلقاه يوم القيامه منشوراً، فقال القفال: و أنّ قوله:

«الآيه ١٦» ليس خطاب مع الرسول صلى الله عليه و آله بل هو خطاب مع الإنسان المذكور فى قوله: «يُتَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ» فكان ذلك للإنسان حالماً يتّياً بقبائح أفعاله، و ذلك بأن يعرض عليه كتابه، فيقال له: «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»

ص: ١٤٦

١-١) المصدر.

٢-٢) المصدر.

فإذا أخذ في القرآن تلجج لسانه من شدة الخوف، و سرعه القراءة فيقال له: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ» فإنه يجب علينا بحكم الوعد و بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك، و نقرأها عليك، فإذا قرأناه عليك «فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ» بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال (١). و مثل ذلك قال العلامة البلخي و نصّ كلامه: و إنما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، يدلّ على ذلك ما قبله و ما بعده، و ليس منه شيء يدل على أنه القرآن، و لا شيء من أحكام الدنيا (٢).

و الذى يبدو لى فى الصلة بين الآيات ما سبق من أنّ القرآن- إلى جانب يوم القيامة و النفس اللوامة- حجه على الإنسان و محكمه لعمله، يكشف للإنسان الحق عند ما يرجع إلى آياته، و يعرض نفسه عليها، و ينبغى للرسول أن لا يستعجل به بهدف إكمال الحجة على الناس، بل يجب أن يتبع ما يقضى إليه بشأنه، فإنّ ذلك يكفى لهدايه من يريد الهدايه و يبحث عنها، أمّا الذين لا يريدون تحمل المسؤولية، و يسعون دائما للإلقاء الاعذار و التبريرات (فلا يخافون يوم القيامة، و لا يسمعون ملامه أنفسهم) فإنّ الاستعجال بالقرآن و عرضه كله عليهم مره واحده لا يغيّر فى حياتهم شيئا أبدا، و السبب أنّ مشكلتهم ليست قلّه الآيات، بل كونهم لا يريدون الإيمان و تحمل المسؤولية، فلما ذا العجله إذا؟ كما أنّ علاج الإنسان المشتمل على كثير من الصفات السلبية، كالجدل، و حب الراحة، و التبرير، و إرادته الفجور، و من ثمّ التكذيب بالقيامه و بما تعنيه من مسؤوليه فى الدنيا، و بعث و حساب و جزاء فى الآخرة، إنّ علاجه من كلّ هذه الأدواء لا يتم مره واحده، بل لا بد من منهجيه تربويه مخططة و متدرجه، تنتشله من حضيض الباطل إلى قمّه الحق لتسمو به فى آفاق الكمال و الهدى. و هذا يقتضى

ص: ١٤٧

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٢٢.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٧.

التدرج فى طرح الإسلام عليه.

لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ

قال ابن عباس: كان النبى صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه، وحرصه على أخذه و ضبطه مخافه أن ينساه، فنهاه الله عن ذلك (١)، و

فى الدر المنثور عن مجاهد قال: كان الرسول صلى الله عليه وآله يستذكر القرآن مخافه النسيان، فقيل له: كفييناك يا محمد (٢)، و على هذا رأى مؤاخذات عدّه:

أولها: أنّ نهى الرسول صلى الله عليه وآله عن فعل شىء ما لا يعنى إتيانه له منذ قبل، فليس صحيحا أنّه كان يخشى النسيان و هو على يقين بأنّ الله يلهمه القرآن و يثبتة فى قلبه، و قد نهى الله نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله عن أمور كثيرة من قبيل إطاعه الكفار و المنافقين فهل نفهم من ذلك أنّه خضع لهم؟ حاشا لحبيب الله. و من ذلك قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » (٣).

ثانيها: أنّه تعالى بين لنبيه صلى الله عليه وآله بأنه لا ينسى فقال: « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » (٤)، و الزعم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد خشى النسيان يعنى (و العياذ بالله) أنّه شك فى وعد الله و كلامه هذا له.

ثالثها: أنّ القرآن يشير بوضوح إلى باعث النبى على التفكير فى الاستعجال بالقرآن، و هو خشيته من أن تحول الظروف دون أن يجمع القرآن و يقرأ على الناس و تبين معانيه لهم. أو كان شديد الاهتمام بهدايه الناس بالقرآن حتى كاد

ص: ١٤٨

١-١) المصدر

٢-٢) الدر المنثور/ج ٦ ص ٢٨٩.

٣-٣) الأحزاب/١.

٤-٤) الأعلى/٦.

يهلك نفسه، حتى قال ربنا سبحانه: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» (١).

و يبدو أنّ الذين اخطؤوا في فهم الآيه قادهم إلى ذلك التصوير الفنّي في تعبير القرآن: «لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ»، و الذى هو أسلوب شائع في آياته الكريمه.

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ أَى جمع آياته فلا- يضع شىء منها، و الكلمه تتسع إلى معنى التأليف و النظم ممّا يهديننا إلى أنّه تعالى حفظ القرآن عن التحريف بزياده أو نقيصه، و تكفل هو بتأليف آياته سورا سورا، فليس ترتيبه على هذه الطريقه التى بين أيدينا من فعل المسلمين، بل من فعل رسول الله صلى الله عليه و آله بأمر الله عزّ و جلّ، الذى تكفل إضافه إلى ذلك بقراءته للناس بالكيفيه الصحيحه التى يريدّها هو أن يقرأ بها كتابه. و لعل في ذلك إشاره إلى بطلان فكره القراءات السبع، و أنّها من عند القراء أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان. بلى هناك قراءه صحيحه علّمها الله لئيه فعلمها بدوره المسلمين.

و قول الله تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا» لا يعنى أنّه بذاته يجمعه و يقرأه، كلاً.. بل أنّه سبحانه قد هيأ الأشخاص الذين يقومون بهذا الدور و الظروف التى تساعد على تحقّق هذه الغايه، فلم يتوفّ نبيّه حتى بلغ كامل رسالته و قرأها للناس، بل و كتبت بأمره مبيناً ترتيب السور و الآيات.

و تجدر الإشاره هنا إلى أنّ الإمام على عليه السلام كان أوّل من كتب كامل القرآن و جمعه في حياه الرسول صلى الله عليه و آله و بعده، و هذا من أهمّ الأدوار الحضاريه التى قام بها

ص: ١٤٩

-عليه السلام-، لأنّ اندثار القيم الحضاريه لأى أمّه يعنى نهايه الأّمّه، فقد تنحرف مسيرتها و مسيره قيادتها لفترة من الزمن فتبقى القيم ضمانه العوده، أمّا لو خرقت القيم نفسها فلا ضمانه لعودتها.. وهذا ما يجعل تعهّد الله بجمع القرآن و بقرآنه و بيانه ضروره حكميه تقتضيها حكمته البالغه باعتبار الإسلام دين الإنسان إلى يوم القيامة، لا يجوز له أن يبتغى غيره، فكيف يسمح ربنا اللطيف أن تضيع على البشريه فرصه الهدايه بتحريف القرآن؟ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: أَيْ قَرَأَهُ جِبْرِئِيلُ عَلَيْكَ بِأَمْرِنَا « فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » أَيْ قَرَأْتَهُ، وَ الْمَعْنَى: اقْرَأْهُ إِذَا فَرَّغَ جِبْرِئِيلُ عَنْ قِرَاءَتِهِ، وَقِيلَ: أَيْ فَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَ الْحَلَالِ وَ الْحَرَامِ (1)، وَ فِي النُّصُوصِ أَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ جَمَلَهُ وَاحِدَهُ عَلَى الرَّسُولِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَكَانَ يَأْمُرُهُ اللَّهُ حَسْبَ حِكْمَتِهِ بِقِرَاءَتِهِ عَلَى النَّاسِ فِي الْمُنَاسِبَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ. وَ كَانَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَفْرُضُ عَلَى الرَّسُولِ التَّحَرُّكَ فِي الْمَجْتَمَعِ عَلَى ضَوْءِ مَا يَقْضِي إِلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَ بِقَدْرِهِ، لِيُنَبِّئَ الْمَجْتَمَعَ الْإِسْلَامِي النَّقِيَّ، وَ مِنْ ثَمَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْحَنِيفَةَ عَلَى ضَوْءِ آيَاتِ الْوَحْيِ، وَ يَتِمُّ -بِالتَّالِي- تَثْبِيْتُ فُؤَادِ النَّبِيِّ وَ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ عِبْرَ الْقُرْآنِ، وَ هَكَذَا لَمْ يَنْزَلِ الْقُرْآنَ لِمَجْرَدِ قِرَاءَتِهِ وَ حَفْظِهِ، بَلْ حَتَّى يَطْبُقَهُ النَّاسُ وَ يَتَّبِعُوا هِدَاةَ فِي الْحَيَاةِ.

و هذا يهدينا إلى أنّ الله يوفّق الإنسان لفهم آيات الذكر بما يتم عليه حجته البالغه، فإن آمن و اتبع هداه نور قلبه بالمزيد من المعرفة، و إن كفر جعل قلبه قاسيا، و طبع عليه بكفره.

و لعل في ذلك بصيره يحتاجها كل داعيه رسالي ألا و هي ضروره تحدى انفعالاته

ص: ١٥٠

و ردود فعله، بل يجب أن يتبع خططه الحكيمه، و ينتظر بكل خطوه و موقف الإذن و الأوان المناسب.

قال الإمام الصادق-عليه السلام -: يا مفضل! إن القرآن نزل في ثلاث و عشرين سنه، و الله يقول: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»، و قال: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ»، و قال: «لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»، قال المفضل: يا مولاي! فهذا تنزيله الذي ذكره الله، و كيف ظهر الوحي في ثلاث و عشرين سنه؟ قال: نعم يا مفضل! أعطاه القرآن في شهر رمضان، و كان لا يبلغه إلا في وقت استحقاق الخطاب، و لا يؤديه إلا في وقت أمر أو نهى (1).

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ إِبْصَاحَ مَعَانِيهِ، و بيان حقائقه و تأويلاته، حتى لا تبقى للإنسان حجه على الله، و لكي تكون لله الحجه البالغه عليه في الدنيا و الآخرة. أمّا كيف بيّن ربنا قرآنه الكريم لكأفّه الناس فلعن من أسبابه: أنه يقيض الدعاه إليه، و الأدلاء عليه، و أهل البصائر النافذه لتفسيره و بيانه، ثم أنّ لله حجّتين على الإنسان واحده باطنه هي عقله، و أخرى ظاهره هي رساله الله و رسله، و هما يلتقيان في وجدان كلّ إنسان سوى، فما يأمر به القرآن من قيم الصدق و العدل و الإحسان يأمر به العقل أيضا، و هذا من سبل بيان القرآن لأنّه يتطابق و وجدان الإنسان و فطرته و عقله و العرف العام عند العقلاء.

و هناك سبب آخر لبيان القرآن: أنّه يفسر بعضه بعضا، فلا تكاد كلمه تذكر

ص: ١٥١

فى سىاق إلا و يفسرها ذات السىاق قبله و بعده، ببيان مصاديقها و أمثلتها التاريخيه و شواهدا الواقعيه، فلا يدع الناس فى حيره من أمرها، و أبرز مثل لذلك سوره الإخلاص حيث تأتى كل كلمه فيها تفسيراً لما سبقتها، فتفسير «قل» يأتى بما بعده من قوله: «هو الله»، و تأويل «هو»: «الله»، و تفسير الصمد هو أنه لم يلد و لم يولد، كما أن مجملات القرآن فى سوره تفسرها مفصلاتها فى سور أخرى، و هكذا جعل الله القرآن ميسراً للذكر بسبل شتى.

[٢٥-٢٠] و لكن هل يقتنع الإنسان بذلك البيان و يلزم نفسه بالحجج؟ كلاً لأنه يريد أن يفجر أمامه، و من ثم لا يتبع عقله باعتباره يحدّد سلوكه و أفعاله، و إنما يتبع هواه، و تابع الهوى لا يعرف حدّاً و لا قيمه. و عنوان اتباع الهوى هو حبّ الدنيا الذى يترتب عليه ترك الآخرة.

بَلْ تُحِوُّنَ الْعَاجِلَةَ * وَ تَذُرُونَ الْآخِرَةَ وَ هَذَا هُوَ جَذْرُ كُلِّ خَطِيئَةٍ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، كَمَا

بيّن رسول الله صلى الله عليه و آله فى حديثه المشهور: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئه». و قد قال الله: «العاجله» و لم يقل:

(الدنيا) لأنه يريد الحديث عن صفه عند البشر هى التى تدعوه للهث وراء حطام الدنيا و ترك الآخرة، و هى كونه يحب كلّ مقدّم معجّل، و يقدمه على كلّ مؤخر مؤجّل، دون النظر إلى المصلحه العامه و الأساسيه فى أيهما تكون، فقد يختار دينارا معجّلا على ألف مؤجّله، مع أنه قد لا يجد دليلاً ينفى ما فى المستقبل.

و علاج هذه المعضله البشريه يتم بإيجاد التوازن فى وعيه بين الحاضر و المستقبل، و ينتهج القرآن من أجل ذلك نهج التذكيره و التصوير لمشاهد الآخرة ممّا يزيدا

حضوراً في وعيه، وهذا ما نقرأه في الآيات التالية.

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ و الكلمه تتسع لجميع معانى الحسن و الجمال و البشر التى تعبّر عن نفس مطمئنّه راضيه تفيض سرورا و أملا برحمه الله. قال فى المنجد: نضر الوجه نعم و حسن و كان جميلا، فهو ناضر و نضر و نضير، و النضر جمع نضار، و أنضر: الذهب و الفضة، يقال:

« تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » أى بريقه و رونقه (1). و وجوه المؤمنين يوم القيامة ناضره فرحا و سرورا بلقاء ربهم، و رضوانه، و جزائه الحسن، و غايه ذلك نظرهم إلى ربهم حيث يعرفون من أسماء ربهم الحسنى، و يرون من آيات بهائه و جلاله، و ينتظرون من آلائه و نعمائه ما يجعلهم فى بحبوحه الرجاء، و عنفوان الرضا، و مهرجان الحبّ و القرب، و شلال لا ينقطع من نور الله البهى.

إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ قال العلامة الطبرسى: اختلف فيه على وجهين:

الأول: أنّ معناه نظر العين، و اختلف من حمله على نظر العين على قولين:

أحدهما: أنّ المراد إلى ثواب ربها «ناظره» أى هى ناظره إلى نعيم الجنة حالا بعد حال فيزداد بذلك سرورها.

الآخر: أنّ النظر بمعنى الرؤيه، و المعنى تنظر إلى الله معانيه، و روا ذلك عن الكلبى و مقاتل و عطاء و غيرهم، و عموم رأى أهل السنه، (وردّ على هذا الرأى فقال:) و هذا لا يجوز، لأنّ كلّ منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقه و اللحاظ،

ص: ١٥٣

و الله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجلّ سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع.

الثاني: أنه الانتظار، و اختلف من حمله على هذا المحمل على أقوال:

ألف:

أنّ المعنى منتظره إلى ثواب ربها، و روى ذلك عن مجاهد و الحسن و سعيد بين جبير و الضحّاك و هو المروى عن علي عليه السلام ، و ساق ما قاله شيخ الطائفة من الردّ على من اعترض على إمكان تعدّي النظر بإلى.

باء: أنّ معناه مؤمله لتجديد الكرامه، كما يقال: عيني ممدوده إلى الله تعالى، و إلى فلان، و أنا شاخص الطرف إلى فلان.

جيم: المعنى أنّهم قطعوا آمالهم و أطماعهم عن كلّ شيء سوى الله تعالى (١).

و ما يبدو لي أنّ النظر هنا بكلا المعنيين المجازي و الحقيقي، فأما المجازي فإنّ المؤمنين يوم القيامة يتأملون من ربهم الثواب و الكرامه، و يقطعون أملهم إلاّ منه، و..و. و أمّا الحقيقي فإنّهم ينظرون إلى ربهم ببصائرهم لا بأبصارهم من خلال آياته و نوره الذي يتجلّى لهم إكراما منه تعالى لعباده المتقين.

أمّا النظر إلى ذات الله فهو مستحيل، و القول بذلك يستدعي التجسيد، و هو من الثقافه الشركيه التي تسرّبت إلى بعض المسلمين من الثقافات الدخيله.

و كيف يجوز النظر إلى الله و العين لا- تستوعب بعض آياته؟ هل نظرت إلى عين الشمس لحظات؟ هل تفكّر في أن تحدد في الشمس من قرب أو لا تحترق عينك؟ و الشمس آيه صغيره متناهيه في الصغر إذا قيست بأنوار قدس الرب! لقد تجلّى الله للجبل فجعله دكّا، فكيف يتحمّل هذا البشر الضعيف تجلّيات الرب إلاّ بقدر ما

ص: ١٥٤

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٩٨ مع تصرف ترتيبا و تنقيطا و اختصارا.

يشاء الله سبحانه و تعالى عن وصف الواصفين.

جاء في الحديث عن صفوان عن ابن حميد قال: ذاكرت أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) فيما يروون من الرؤيه (لذات الله عزّ و جلّ) فقال: «الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، و الكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، و العرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب، و الحجاب جزء من سبعين جزء من نور السر، فإن كانوا صادقين فليملئوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب!!» (١).

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ وَ هِيَ وَجُوهُ الْمُجْرِمِينَ حَيْثُ الْقِيَامَةُ مَوْعِدُهُمْ مَعَ الْفُضِيحَةِ وَ الْعَذَابِ وَ الذَّلِّ، وَ بَسُورٌ وَجُوهُهُمْ يَحْكِي بَاطِنَ نَفُوسِهِمُ الْمَنْطُويَةَ عَلَى الْيَأْسِ وَ التَّشَاؤْمِ وَ الْخَوْفِ مِمَّا سَتَلَفِيهِ.

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ قَالَ فِي الْمُنْجِدِ: الْفَاقِرَةُ جَمْعُهَا فَوَاقِرٌ: الدَاهِيَةُ الشَّدِيدَةُ، فَكَأَنَّهَا تَكْسِرُ فِقْرَ الظَّهْرِ، وَ الْفَقْرَةُ: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ (٢)، وَ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَا وَرَهُمْ هَاجِسٌ وَ رَعِبٌ يَنْتَظِرُهُمُ مِنَ الدَّوَاهِي، وَ هَذَا الْهَاجِسُ يَعَدُّ عَذَابًا عَظِيمًا بِذَاتِهِ.

[٢٦-٣٠] تلك هي حقائق يوم القيامة التي يجب على الإنسان أن يتذكرها دائما، باعتبار الإيمان بها يجعله متوازنا في التفكير، و يسوقه نحو التسليم للحق و العمل به، و لكنّ الحجب تحول بينه و بين الإيمان بذلك المستقبل فيكذب به، و لكن هل

ص: ١٥٥

١- ١) موسوعه بحار الأنوار/ ج ٤ ص ٤٤.

٢- ٢) المنجد/ مادة فقر.

يغيّر تكذيبه من الحقائق شيئاً؟ كلاً.. فليكذب بالموت فهل يمكنه أن يبلغه، أو يجد مفراً من ملاقه؟ بالطبع كلاً.. فحركته نحونا و حركتنا نحوه سنّه حتميه، وكذلك بالنسبه لمواقف القيامه. و عند ما يواجه الإنسان المحنه الفاقره فى الدنيا تتساقط الحجب من عينيه فيرى الحقائق بوضوح و يعترف بها بصراحه، و يندم حتى الأعماق على ما كذب به، و لا محنه أعظم من الموت، و لا ساعه أشدّ على الإنسان فى الدنيا من ساعه السكرات.

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَ هِيَ عَظْمٌ وَصَلَ بَيْنَ ثَغْرِ النُّحْرِ وَ الْعَاتِقِ مِنَ الْجَانِبِينَ (١)، و قال صاحب المجمع: التراقي جمع الترقوه، و هو مقدّم الحلق من أعلى الصدر، تترقى إليه النفس عند الموت، و هناك تقع الحشرجه (٢)، و يقال: بلغت الروح التراقي كناية عن صعودها و قرب خروجها من البدن و مفارقتها له، و لعلها حقيقه يعانيتها الميت عند سكرات الموت.

وَ قِيلَ مَنْ رَاقٍ أَى وَ قَالَ أَهْلُهُ: مَنْ رَاقٍ؟ أَى طَبِيبٍ شَافٍ يَرْقِيهِ وَ يَدَاوِيهِ، وَ قِيلَ: تَخْتَصِمُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ أَيُّهُمْ يَرْقِي بَرُوحَهُ (٣)، و به قال الرازى و الزمخشرى و صاحب تفسير فتح القدير. و لعل المعنى من الرقيه (الأدعيه و التعويذات التى تكتب فى قرطاس للتشافى بها) و كأنّ المعنى أنّ أهله أو هو نفسه يسألون عمّن يكتب له ذلك طمعا فى الشفاء.

ص: ١٥٦

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٣٠.

٢-٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٠٠.

٣-٣) المصدر/ص ٤٠١.

وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ظَنَّ يَقِينٌ يَصِلُ إِلَى حَدِّ التَّصَوُّرِ وَشَبَّهَ الرَّؤْيِيَّ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَعَايِنُ حَقِيقَةَ الْمَوْتِ وَالْآخِرَةَ فَإِذَا بِهِ يَقْبِضُ يَدًا وَيَبْسُطُ أُخْرَى، وَهَكَذَا يَعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ بِرُوحِهِ وَحَرَكَاتِهِ الْيَائِسَةَ.

وَالتَّفْتُّ السَّاقُ بِالسَّاقِ عَنِ قِتَادِهِ: هُمَا سَاقَاهُ عِنْدَ التَّرَعِّ، أَمَا رَأَيْتَهُ كَيْفَ يَضْرِبُ بِأَحَدِي رَجْلِيهِ عَلَى الْآخَرِي؟ وَ قَالَ الْحَسَنُ: هُمَا سَاقَاهُ إِذَا التَّفْتُّ فِي الْكَفَنِ، وَقِيلَ: إِذَا مَاتَ يَبْسُطُ سَاقَاهُ وَالتَّصَقَّتْ إِحْدَاهُمَا بِالْآخَرِي (١)، وَ عَنِ الشَّعْبِيِّ وَ أَبِي مَالِكٍ: لِأَنَّهُ يَذْهَبُ بِالْقُوَّةِ فَيَصِيرُ كَجُلْدِهِ يَلْتَفُّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَقِيلَ: يَضْطَرِبُ فَلَا يَزُلُ يَمَدُّ إِحْدَى رَجْلِيهِ وَ يَرْسِلُ الْآخَرِي. وَ لَعَلَّ الْآيَةَ كُنَايَةً عَنِ الشَّدَائِدِ وَ الصَّعَابِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَ قَدْ وَجَدْتُ إِشَارَةً إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ قَالَ: أَيُّ فَاتَصَلَّتْ الشَّدَّةُ بِالشَّدَّةِ، شَدَّهَ آخِرَ الدُّنْيَا بِشَدَّةِ أَوَّلِ الْآخِرَةِ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ وَ الْحَسَنُ وَ غَيْرُهُمَا.. وَ قَالَ الضَّحَّاكُ: اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ شَدِيدَانِ.. وَ الْعَرَبُ لَا تَذْكَرُ السَّاقَ إِلَّا فِي الْمَحْنِ وَ الشَّدَائِدِ الْعِظَامِ، وَ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: قَامَتِ الدُّنْيَا عَلَى سَاقٍ، وَ قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ (٢).

وَ حِينَئِذٍ يَفَارِقُ الْإِنْسَانَ هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا وَ مِنْ فِيهَا فَإِنَّهُ لَا يَصِيرُ إِلَى الْعَدَمِ، وَ إِنَّمَا يَنْتَقِلُ مِنْ فِرَاقِهَا إِلَى لِقَاءِ عَظِيمِ رَبِّهِ.

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ

ص: ١٥٧

١-١) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٣٢.

٢-٢) الجامع لأحكام القرآن/ج ١٩ ص ١١٢.

قيل: يعنى إليه المنتهى أو غايه سوق الملائكه لكل نفس، و هو صحيح، و لكن يبدو لى أن «المساق» هنا يعنى المصير، حيث أن الأنفس بعد الحساب تسوقها الملائكه إلى مأواها و مصيرها، فأمّا تسوق الإنسان ملائكه الرحمه إلى الجنه، و أمّا تسوقه ملائكه العذاب إلى النار، و إلى الله وحده و بيده الأمر بكلا المساقين، فما أحوجه إلى معرفه هذه الحقيقه و الإيمان بها، فإنّ ذلك يبعث فيه روح التسليم إليه و السعى إلى القرب منه.

[٣١-٣٥] و حين لا يؤمن الإنسان بقاء ربه ينحرف عن الصراط المستقيم و يترك الواجبات التى عليه.

فَلَا صِدْقَ وَلَا صِلَىٰ * وَ لَكِن كَذَّبَ وَ تَوَلَّى قِيل: لا صدق بما له ذخرا عند الله، و لا صلّى الصلوات التى أمره الله بها (١)، و الأصح حمل التصديق هنا على معناه الأصلي، و هو تصديق الإيمان بالعمل و الباطن بالظاهر و العكس، و هذا الفهم يجعل الكلمه تتسع لكثير من المفردات و المصاديق و من بينها الإنفاق. كما أنّ الصلاه رمز الصله و القرب مع الخالق و رمز التواصل مع الخلق، و هكذا الآيتان تفسّران بعضهما، فالتكذيب نقيض التصديق، و التولى نقيض التواصل، و المكذب بالحق يرتكب ذننين: أحدهما عدم التصديق و الصلاه، و الآخر التكذيب و التولى، و ابتعاد الإنسان عن الحق ليس يقطع علاقته بالله و برسوله فقط، و إنّما يفسد علاقته بالناس أيضا، فهو يركب مطيه الغرور و التكبر بينهم.

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى

ص: ١٥٨

أصل التَمْطَى تمدد البدن من الكسل، وهو من لوى مطاه أى ظهره. قالوا:

إنه إشارة إلى التبخر على نهج القرآن في ذكر الصفات بالتصوير الظاهر. ولعله أعم من ذلك حيث يدل على حاله اللامسؤولية والإشغال باللهو واللعب عن الجد والاجتهاد.

ثم يتوعد الله من تكون صفاته التي مر ذكرها بالعذاب بعد العذاب فيقول:

أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَئِكَ * ثُمَّ أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَئِكَ

قال عبد العظيم بن عبد الله الحسني: سألت محمد بن علي الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «الآيتين» قال: «يقول الله عزّ وجلّ: بعدا لك من خير الدنيا، و بعدا لك من خير الآخرة» (١).

و أصل الكلمه وعيد و تهديد، ومعناه: أنّ المكروه يقترب منك و أنت صاحبه و

جاءت الروايه: أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله أخذ بيد أبي جهل ثم قال له: «أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَئِكَ ثُمَّ أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَئِكَ» فقال أبو جهل: بأى شيء تهددني؟ لا تستطيع أنت و لا ربك أن تفعل بي شيئاً، وإني لأعزّ أهل الوادي، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله، و قال القرطبي: وقيل: معناه الويل لك.

[٣٦-٤٠] و يستنكر القرآن على الإنسان شذوذه عن الحق و كفره به؟ أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سَيْدِي كُلِّ شَيْءٍ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ يَهْدِيهِ إِلَى إِحَاطَةِ تَدْبِيرِ اللَّهِ بِهِ، و شمول رعايته

ص: ١٥٩

لحياته، وإلا لأعدمت أو تحوّلت جحيماً لا يطاق، وأبرز ذلك خلقته: كيف حملته يد اللطف من صلب أبيه حيث كان حيواناً منوياً لا يرى إلى رحم أمه، وأجرى له من الطعام والشراب، وضمن له من السلامه والأمن حتى أصبح علقه، ثم رعاه وحماه ورباه حتى جعله خلقاً سوياً.. فهل يعقل أن يترك في المستقبل سدى وهو لم يترك كذلك سلفاً، بل لا شيء في كيانه ترك بلا هدف أو غايه؟ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنِيٌّ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * و كما أنّ هذه المراحل حتميه بالنسبه للإنسان فإن الآخره هي الأخرى حتميه، و الفكره هذه تفسّر ربط القرآن الدائم بين الحديث عن الآخره و الحديث عن مراحل خلقه الإنسان و أطواره، التي يهتدى المتدبر فيها إلى معرفه ربه حيث هي آيات لطفه و حكمته و قدرته. و بعد تفكّر البشر في نفسه و خلقه يجب أن يطرح على نفسه هذا السؤال الحاسم:

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى * و لن يجد أحدنا جواباً لهذا السؤال إلا أن يقول: بلى. و حينئذ سيؤمن بيوم القيامه و حقائق الآخره، لأنّ الشك في فكره الآخره منبعث من الجهل بقدره الله النافذه التي لا تحدّ.

سوره الإنسان

اشاره

ص: ۱۶۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

روى عن أبى جعفر (الإمام الباقر) -عليه السلام- قال: من قرأ سورة «هل أتى» فى كلِّ غداه خميس زوجه الله من الحور العين مأه عذراء و أربعة آلاف ثيب، و كان مع محمد -صلّى الله عليه و آله-.

نور الثقلين / ج ٥ ص ٤٦٧

ص: ١٦٣

تفكر حين لم تكن شيئاً مذكوراً ثم خلقك الله الحكيم المقتدر من نطفه أمشاج. تفكر في هدف ذلك هل هو سوى الابتلاء؟ هكذا تفتتح سورة الإنسان التي تزرع في النفس خشية الآخرة، وتجعلها معراجاً للشخصية إلى التكامل و السمو حتى تبلغ درجه الأبرار، الذين تصبغ شخصيتهم الفذّه صفه الوفاء بالنذر، والخوف من يوم القيامة، والإيثار، والترفع عن شهوه المدح و حب التسلط على الآخرين.

و تمضى آيات السوره المباركه التي نزلت في شأن أهل الرسول -عليهم الصلاه و السلام- تمضى في بيان نعيم الجنه التي تختمها بوصفها بالملك الكبير، و بأنّ ربهم الرحمن يسقيهم شراباً طهوراً.

و لكي لا- يعيش الإنسان في أحلام التمني و التظني يذكره السياق بأنّ ثمن الجنه الصبر لحكم الله، و الاستقامه ضد ضغوط الآثمين و الكفار، و ذكر الله بالليل

و النهار.

و يبين أنّ الضالين و الظالمين انتهوا إلى هذه العاقبه السوأى بسبب تركهم ذكر يوم القيامه ذلك اليوم الثقيل. و فى خاتمه السوره يذكرنا الربّ بأنّ الإنسان حرّ فى اتخاذ سبيل اللّهُ بتلك المشيئه التى منحه اللّهُ إيّاها، و أنّ مشيئته باللّهُ العظيم الحكيم فى عطائه و جزائه.

ص: ١٦٥

[سوره الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ٣١]

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَ سَعِيراً (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَاهُمْ نَصْرَهُ وَ سُورًا (١١) وَ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (١٢) مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَ لَا زَمْهَرِيراً (١٣) وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَ ذُلُكٌ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا (١٤) وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِنْ فَضِّهِ وَ أَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا (١٩) وَ إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيراً (٢٠) عَلَيْهِمْ نِيَابٌ سِنْدُسٍ خَضِرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُوعًا أُسَاوِرٌ مِنْ فَضِّهِ وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوراً (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَافُوراً (٢٤) وَ اذْكُرْ إِسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أُصِيلاً (٢٥) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْكُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ يُذَرُّونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَهًا رَبًّا سَبِيلًا (٢٩) وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١)

اللغة

٢[أمشاج]:مختلطه،و مشجت هذا بهذا أى خلطته، و واحد الأمشاج مشيج.

٧[مستطيراً]:أى فاشيا منتشرا ذاهبا فى الجهات بلغ أقصى المبالغ.

١٠ [قمطيرى]: الشديء فى الشر، و قد اقمطر اليوم اقمطراراً و يوم قمطير و قماطر كأنه قد التفّ شره بعضه على بعض. قال الحسن البصرى فى هذا اليوم:

ما أشدّ اسمه و هو من اسمه أشدّ.

١٣ [زمهيرى]: هو أشدّ ما يكون من البرد.

١٥ [قواريرى]: زجاجيه.

ص: ١٤٨

٢٨] وشدنا أسرهم]: أى أحكمنا خلقهم بتنظيم الأجهزة، فإنّ الأسر أصله الشد، و منه سمى الأسير أسيرا لأنه يشدّ بالحبال.

ص: ١٦٩

بينات من الآيات:

[١-٤] إذا عرف الإنسان ربه عرفه الله بنفسه. كذلك إذا عرف نفسه عرف ربه، حيث أنه حين يتفكر فيها لا يجد فيها إلا آيات الصنع و شواهد التدبير.

و أهم آثاره علميه يلقيها القرآن على الإنسان: حقيقه حدوثه بعد العدم، و أنه أصبح شيئاً مذكوراً بعد أن كان خاملاً مجهولاً.

هَيْلٌ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً و هذه الآثار التي تنفذ في أغوار الإنسان، و التي تعبر عنها صيغته الاستفهام، إنها تجعلنا عند ما نتفكر في أبعادها نعيش وعى الصيروره الزمنيه في نشأتنا، هذا الوعي الذي يزيد العقل، و يقضى على الغرور، و يرفع الإنسان إلى مستوى الحكمة.

و قد اختلفوا فى حرف «هل»، فقال بعضهم: أنه هنا بمعنى (قد)، و قال آخرون: بل هو استفهام تقريرى، يعرف السائل الجواب سلفاً، و إنما يطرح الكلام لأخذ الإقرار من الطرف الآخر.

و يبدو لى أنّ الكلمات تبقى بمعناها اللغوى عند الاستعمالات الأدبيه المختلفه، إلاّ- أنّ هدف الاستخدام يختلف حسب السياق، فهل هنا-مثلاً- جاء بمعنى الاستفهام، أمّا لما ذا جاء الاستفهام؟ فهو ليس شأن الكلمات إنّما هو شأن الذى استخدمها. و يكون مثل ذلك فى عالم الماديات: السياره التى تقوم بحمل الإنسان. أمّا إلى أين و لما ذا يتحرك الإنسان؟ فهذا ليس شأنها إنّما هو شأنه.

و لقد فسر أئمه الهدى هذه الآيه عده تفاسير ممّا كشف عن أبعادها المتنوّعه،

فعن مالك الجهنى قال: سألت أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام عن قوله: «الآيه» فقال: «كان مقدّراً غير مذكور» (١)، و

عن زراره قال سألت أبا جعفر (الإمام الباقر)- عليه السلام- عن قوله: «الآيه» فقال: «كان شيئاً و لم يكن مذكوراً» (٢)، و

عن الباقر عليه السلام قال: «كان مذكوراً فى العلم، و لم يكن مذكوراً فى الخلق» (٣). و هكذا روايات أخرى كثيره تهدينا إلى أنّ الإنسان يمرّ قبل وجوده المادى فى الحياه بمرحلتين هما:

الأولى: عالم التقدير فى علم الله.

الثانيه: عوالم النشأه، مثل عالم الأشباح (الأرواح)، عالم الذرّ، عالم

ص: ١٧١

١- ١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٦٨.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر.

الأصلاب، ثم عالم الأرحام، فعالم الدنيا، و في تلك العوالم و قبل عالم الدنيا كان الإنسان شيئاً- في علم الله- و لم يكن مذكوراً عند الخلق لصلآته المتناهيه.

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ أَى مختلطه،

قال الإمام الباقر عليه السلام: «ماء الرجل و المرأه اختلطا جميعا» (١)، كما أنها مختلطه من الناحيه المعنويه إذ تحمل الصفات الوراثيه و النفسيه و الشكليه من الطرفين بما يمثّلانه من امتداد في التاريخ و المجتمع كالأجداد و الآباء و الأخوال، و

قد أشار الإمام على عليه السلام إلى هذا المعنى إذ وصف الإنسان بقوله: «و محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب» (٢)، و من ناحيه ثالثه يعيش الإنسان ثنائيه هامه، فهو في البدايه خليط من تطلّعات الفطره و العقل و الإيمان، و شهوات الهوى و الجهل و الجحود، بين جنود الرحمن، و أعوان الشيطان.

و هكذا كلّ شىء في الإنسان يحتمل نزعيتين، و صبغتين، و منهجين، و وجهتين: الحق و الباطل، اللّهمه أو الشيطان، العقل أو الجهل، الإيمان أو الجحود، الجنه أو النار، و يبدو أنّ هذه الثنائيه أقرب إلى كلمه الأمشاج لأنّ شأن الثنائيات (الاختلاط بين ماء الرجل و ماء المرأه، أو بين مختلف العوامل الوراثيه من الآباء و الأمهات) مقدمه لهذه الثنائيه، و يدلّ على ذلك بيان حكمه الابتلاء بعد بيان الثنائيه.

نَبْتَلِيهِ و لا يصدق الابتلاء في حياه الإنسان حتى يكون مختاراً، و ذلك بأن تكون

ص: ١٧٢

١-١) المصدر/ص ٤٦٩.

٢-٢) المصدر نقلا عن نهج البلاغه.

خلقته خليطاً من نزعتين وتطلعين: أحدهما الخير والآخر الشر. ومن الضروري للإنسان وهو يمارس الحياه ونعمه الوجود أن يعرف بأن الابتلاء جزء من وجوده، من دونه تصيح حياته بلا معنى بلا روح و بلا هدف..تماما كتفاحه فاسده لا طعم لها ولا رائحه،أو كماء آسن لا ينفع سقيا ولا طهورا.

و إطلاق كلمه الابتلاء يدلنا على أنّ الإنسان ممتحن بكلّ شيء يتصل به خيرا كان أو شرا،و أوّل ما يبتلى به نعمه الخلق،فهل يشكر ربه عليها حيث خلقه و أوجده و لم يكن شيئا مذكورا أم يقابله بالجحود و الكفران؟

قال الإمام الباقر عليه السلام :

«إنّ النبيّ قال لعلّي عليه السلام: قل: ما أوّل نعمه أبلاك الله عزّ وجلّ و أنعم عليك بها؟ قال: أن خلقني جلّ ثناؤه و لم أك شيئا مذكورا، قال: صدقت » (١) و حيث أراد ربنا امتحان الإنسان و فرّ من جهته الشروط و المستلزمات التي تجعل البشر مسئولا عن الامتحان فتكون حجه عليه عند ما يكفر، و وسيله لصالحه عند ما يريد الإيمان و الشكر.

فَجَعَلْنَاهُ سَيِّعًا بَصِيرًا و السمع و البصر نافذتان لعقل الإنسان على الخلقه، و هما أهمّ أدوات المعرفه عنده، و بالتالي أبرز وسائل الإختيار، فبسمعه يتلقّى نصائح الآخريين و تجاربهم، و ببصره و بصيرته يرى و يقبّل وجوه الأمور ثم يختار لنفسه الموقف و الطريق، و ذلك يكفي دافعا يحمله المسؤوليه و يقيم عليه الحجه، و لكنّ الله أبى إلا أن تكون له الحجه البالغه عليه فهداه السبيل مبينا له الحق و الباطل و الصواب و الخطأ.

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ

ص: ١٧٣

(١ - ١) المصدر.

رقابهم (١). و لعل السلاسل ما يشد بها المجرمون إلى بعضهم و يسحبون بها، بينما الأغلال ما يقيد بها الواحد من يديه و رجليه و رقبته. و هذا جزاء مناسب للكافرين، لأنهم يسيئون الاستفادة من الحرية المعطاه إليهم في الدنيا فيقتيدون في الآخرة.

و سلاسل الآخرة و أغلالها تجسيدات لمثلها في الدنيا، لأن من يخالف قيم الحق و سبيل الهدى و يتبع المناهج البشرية يتورط في أغلال العبودية و العقد و المشاكل المختلفه.

[٥] أمّا الشاكرون الذين يهبهم ربهم و سام الأبرار فإنهم يتحررون من سلاسل الضلال و أغلاله و سعيره في الدنيا فقط، بل و يكسبون الحرية الكامله في الآخرة و الثواب الجزيل جزاء شكرهم و اتباعهم رساله الله عزّ و جلّ.

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا قِيلَ: هُوَ جَمْعُ بَرٍّ، وَ فِي الصَّحَاحِ: وَ جَمْعُ الْبَرِّ الْأَبْرَارُ، وَ فُلَانٌ يَبْرُ خَالِقَهُ وَ يَتَبَرَّرُهُ أَي يَطْبِيعُهُ (٢). و القرآن يفسّر معنى «الأبرار» من خلال بيانه لصفاتهم، و هذا يقرب المعنى و يرسّخه في الأذهان بصورة أوضح و أفضل.

و ما يشربه الأبرار في الجنة مختلط طعمه و مزاجه بصفات الكافور الحسنه، و هو اسم عين ماء في الجنة عن ابن عباس (٣)، و قال سعيد عن قتاده: تمزج لهم بالكافور، و تختم بالمسك، و قيل: أراد كالكافور في بياضه و طيب رائحته و برده، لأن الكافور لا يشرب (٤)، و قال مقاتل: ليس بكافور الدنيا، و لكن سمى الله

ص: ١٧٥

١-١) التفسير الكبير/ ج ٣٠ ص ٢٤٠.

٢-٢) الجامع لأحكام القرآن/ ج ١٩ ص ١٢٥.

٣-٣) المصدر.

٤-٤) المصدر.

ما عنده بما عندكم حتى تهتدى لها القلوب (١). و من فوائد الكافور طبعه البارد، و تسكينه للعطش، و حين يمتزج بشراب يكون أنفع للجسم. و قوله «من كأس» كناية عمّا في الكأس من الشراب.

[٦] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ لَمَّا ذَا اسْتخدمت هنا كلمه «بها» أ و ليس الإنسان يشرب من العين و ليس بالعين؟ قالوا: إنّ الكلمه قد أشربت معنى الارتواء أى يشربون منها و يرتوون بها.. أمّا عن هذه العين

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: قال: «هى عين فى دار النبى صلى الله عليه و آله تفجر إلى دور الأنبياء و المؤمنين» (٢).

يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا فمتى ما أرادوا توجهوا تلقاء العين التى لا تزال مختومه ففجروها-ياذن الله- و شربوا من باكوره رفدها الطاهر ما شاؤوا.

و فى تفسير القرطبي: إنّ الرجل منهم ليمشى فى بويتاته و يصعد إلى قصوره، و بيده قضيب يشير به إلى الماء فيجرى معه حيثما دار فى منازل على مستوى الأرض فى غير أهدود (٣). و إلى مثل هذا الجزء تتطلع النفوس بصوره فطريه، من هنا يوجهنا القرآن إلى حقيقه هامه و هى أنّ ذلك النعيم لم يصل إليه الأبرار عبثا و من دون سعى، و إنّما لما جسدوا فى حياتهم من صفات الخير، فإنّ ما عند الله لا ينال بالتمنى و التظنى بل بالسعى و الاجتهاد.

ص: ١٧٦

١-١) المصدر/ص ١٢٦.

٢-٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٧٧.

٣-٣) الجامع لأحكام القرآن/ص ١٢٦.

[٧] يُوفُونَ بِالنَّذْرِ أى نذر و عهد يقطعونه على أنفسهم، و أظهر مصاديق النذر فى حياة الإنسان عهده الذى أخذه الله منه، و تعهد هو بالوفاء به فى الميثاق الأول فى عالم النذر، حيث قطع على نفسه بتوحيد ربه و طاعته و تولّى أوليائه، و قد بين أئمة الهدى هذا المعنى،

قال الإمام الرضا عليه السلام: «يوفون بالنذر» الذى أخذ عليهم من ولايتنا (١)، و

عنه قال: «يوفون لله بالنذر الذى أخذ عليهم فى الميثاق من ولايتنا» (٢)، و حينما تنبنى شخصيه المجتمع على أساس الوفاء بالتعهدات فذلك ممّا يزيد الثقة و الاطمئنان بينهم، و يجعل المجتمع مهياً للتقدم و التحضّر، لأنّ الحضاره فى حقيقتها مجموعه من القيم التى يؤمن بها المجتمع و يتعهد الوفاء بها، و أصل الحضاره تكاثف الجهود، و تراكم الإنجازات، و تركّز الخبرات، و كلّ أولئك رهين الثقة المتبادل و التى يزرعها الوفاء بالعهد.

أمّا لما ذا يلتزم الأبرار بالعهد و يوفون بالنذر فلاّتهم يعيشون أهوال القيامه فيخشونها، و يرتفعون إلى الحاله الجدّيّه التى يتطلّبها مثل ذلك اليوم! و يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا

قال الإمام الصادق عليه السلام: «عابسا كلوحا» (٣)، و عن على بن إبراهيم قال:

«المستطير العظيم» (٤). فالخوف الحقيقى من الآخره إذا هو الذى يتحوّل إلى إيمان يردع الإنسان عن الخيانه و نقض العهد و الكذب و كلّ خطيئه، و يدفعه إلى كلّ

ص: ١٧٧

١- (١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٧٧.

٢- (٢) المصدر/ص ٤٧٨.

٣- (٣) المصدر/ص ٤٧٧.

٤- (٤) المصدر/ص ٤٧٨.

فضيله و صفه حسنه فى الدنيا، و بتعبير آخر: إنَّ الخوف من الآخرة و قود الإنسان فى مسيرته الصاعده نحو الكمال. و هكذا تجد القرآن يذكّرنا بها المره بعد الأخرى لتصبح جزء من كياننا الثقافى، و مزيجه مع شخصياتنا، و صبغه أساسيه لحياتنا.

[٨] و صفه أخرى تقرب الأبرار إلى ربهم و إلى ذلك النعيم الكبير هى تحمّل المسؤوليه الاجتماعيه تجاه الضعفاء و أهل الحاجه بالرغم من حاجتهم الماسّه إلى الطعام.

وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَ أَسِيرًا قِيلَ: «على حبه» أى على حبّ الله، و هذا صحيح من ناحيه المعنى، أما سياق الكلام فيدلّ على حبّ الطعام (لأنه أقرب إلى الضمير، و لأنّ حبّ الله (و وجهه) ذكر فى الآيه التاليه بصوره مستقله لأهميته فلا داعى للتكرار..).

و هذا يعنى أنّ المراد من حبّ الطعام هنا: أنّ الأبرار لا يطعمون الآخرين من فاضل طعامهم، بل ممّا يطعمونه أنفسهم و إلى حدّ الإيثار، بحيث يتصدّقون بما عندهم و ينفقونه مع حاجه و حبّ إليه، و هذه من أرفع مراحل التضحيه و العطاء، و يؤكّد ذلك أنّ الإنفاق ممّا تحبه النفس من شروط القرآن لبلوغ درجه البر، كما قال سبحانه: «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ».

[٩] قد يكون الإنفاق بهدف الاستكبار و التعالى على الآخرين و بسط السلطه عليهم. إنّه إنفاق المنّ و الرياء، و لكنّ الأبرار يخلصون فى إنفاقهم.

إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُورًا إِنَّ الْأَبْرَارَ لَا يَتَطَلَّعُونَ إِلَىٰ شَيْءٍ و راء إنفاقهم و خدماتهم للآخرين إلاّ رضى الله

و ثوابه، ممّا يعكس تمخّض التوحيد فى أنفسهم، فلا يطالبون حتى بكلمه الشكر (شكرا و أحسستم) و ما إلى ذلك،

قال الإمام الصادق عليه السلام: «و الله ما قالوا هذا، و لكنهم أضمروه فى أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم، يقولون: لا نريد جزاء تكافوننا به، و لا شكورا تثنون علينا به، و لكننا إنّما نطعمكم لوجه الله و طلب ثوابه « (1)، و هذا ما يجعلهم فى عطاء دائم، لأنّه لا ينقطع بسبب عدم مجازات الآخرين لهم أو حتى و قوفهم من إحسانهم موقفا سلبيا.

[١٠] كيف يتجرّد الأبرار من حبّ الذات إلى هذه الدرجه الساميه؟ كيف ينتزعون من أنفسهم حبّ الأموال التى يحتاجونها لطعامهم و قد فطرت الأنفس على حبّ المال، و بالذات حينما يكون ثمن أهمّ حاجه عند الإنسان حاجه الطعام؟ و أعظم من هذا كيف يسيطرون على غريزه حبّ السلطه و العلوّ فى الأرض التى هى أعظم غريزه عند الإنسان، و كانت وراء خروج آدم (عليه السلام) من الجنه، حتى تراهم لا- يبحثون عن كلمه شكر تقال لهم، أو أىّ جزاء من أىّ نوع يكافؤون به؟ الجواب: إنّهم يعيشون أهوال القيامه، و كلّ همّهم النجاه منها. إنّهم يعيشون -إذا- عالما آخر له همومه و تطلّعاته المختلفه عن هذا العالم المادىّ المحدود، و هم يعرفون أنّ ثمن النجاه فى ذلك اليوم الرعب الرهيب الفظيع إنّما هو باتقاء شحّ الذات و إيثار الضعفاء و المحتاجين، إذ أنّ المسؤوليه الاجتماعيه تجاه المحرومين و البؤساء ليست اختياريه يتحمّلها الإنسان أو لا- يتحمّلها، و إنّما هى واجب دينى يتصل بمصيره فى الآخره، و عاقبته عند الله، و إذا ما دخلت هذ الحقيقه إلى وعى الإنسان فسوف لن يتوانى فى أدائها.

ص: ١٧٩

١- (١) المصدر نقلا عن أمالى الصدوق.

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا أَى شديداً و عسيراً، قال الأَخفش القمطيرير: أشد ما يكون من الأيام و أطوله فى البلاء (١)، و قال الكسائى: يوم مقمطر إذا كان صعباً شديداً (٢).

و يجدر بنا أن ننقل هنا شأن نزول السوره حسب الرواه و المفسرين من كل الفرق الإسلاميه، لكى نعرف أنّ هذه الصفات المذكوره فى القرآن قد جسدها فعلاً بشر أمثالنا، قد خلقوا من لحم و دم و كانت فيهم الحاجات و الغرائز فتغلبوا عليها بحول الله و قوته و بفضل و عى الآخره. إنهم ذريّه رسول الله فاطمه و بعلها و بنوها و خادمتهم فضّه عليهم السلام.

قال العلامة الطبرسى: نزلت فى علىّ و فاطمه و الحسن و الحسين -عليهم السلام- و جاريه لهم تسمى فضّه، و

هو المروى عن ابن عباس و مجاهد و أبى صالح، و القصه طويله جملتها أنّهم قالوا: مرض الحسن و الحسين فعادهما جدّهما و وجوه العرب، و قالوا: يا أبا الحسن لو نذرت علىّ ولديك نذراً؟ فنذر صوم ثلاثه أيام إن شفاهما الله سبحانه، و نذرت فاطمه (عليها السلام) و كذلك فضّه، فبرء و ليس عندهم شىء، فاستقرض علىّ -عليه السلام- ثلاثه أصوع من شعير من يهودى، و روى: أنّه أخذها ليغزل له صوفاً، و جاء به إلى فاطمه فطحنت صاعاً منها فاخبزته و صلّى علىّ عليه السلام المغرب و قرّبته إليهم فأتاهم مسكين يدعوهم و سألهم فأعطوه و لم يذوقوا إلاّ الماء، فلما كان اليوم الثانى أخذت صاعاً و طحنته و اخبزته و قدّمته إلى علىّ عليه السلام فإذا يتيم بالبواب يستطعم فأعطوه و لم يذوقوا إلاّ الماء، فلما كان اليوم الثالث عمدت الباقى فطحنته و اخبزته و قدّمته إلى علىّ عليه السلام فإذا أسير بالبواب يستطعم فأعطوه و لم يذوقوا إلاّ الماء، فلما كان اليوم الرابع و قد قضا

ص: ١٨٠

١-١) الجامع لأحكام القرآن/ج ١٩ ص ١٣٥.

٢-٢) المصدر.

نذورهم أتى على و معه الحسن و الحسين-عليهم السلام-إلى النبي -صلى الله عليه و آله-و بهما ضعف فبكى رسول الله صلى الله عليه و آله و نزل جبرئيل بسوره:

«هل أتى» (١).

[١١] فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا قَالَ الْحَسَنُ وَ مَجَاهِدٌ: نَضْرَهُ فِي وَجُوهِهِمْ وَ سُرُورًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَ قَوْلُهُ «فَوْقَهُمْ» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّجَاهَ مِنْ عَذَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ الْفَوْزَ بِجَنَّةِ اللَّهِ وَ رِضْوَانَهُ نَتِيجَةً لِأَمْرَيْنِ هُمَا: الْخَوْفُ مِنَ الْآخِرَةِ وَ الْعَمَلُ الْخَالِصُ لَوَجْهِ اللَّهِ: وَ

فِي الرَّوَايَةِ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: احْتِجْ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ خَلَقْتَنِي وَ هَدَيْتَنِي فَأَوْسَعْتَ عَلَيَّ، فَلَمْ أَزَلْ أَوْسَعْ عَلَيَّ خَلْقَكَ وَ أَيَسَّرَ عَلَيَّ هَذَا الْيَوْمَ رَحِمْتَكَ وَ تَيْسَّرَهُ؟ فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: صَدَقَ عَبْدِي أَدْخَلُوهُ الْجَنَّةَ» (٢).

[١٢] وَ هَكَذَا يُؤَكِّدُ رَبَّنَا-سُبْحَانَهُ-عَلَى أَنَّ ثَمَنَ نَعِيمِ الْآخِرَةِ الصَّبْرُ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ:

وَ جَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا عَلَى الطَّاعَةِ، وَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَ النُّوَائِبِ.

جَنَّتَهُ وَ حَرِيرًا وَ لَعَلَّ فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ إِخْلَاصَ الْإِنْسَانِ فِي عَمَلِهِ، وَ خُرُوجَهُ مِنْ حَبِّ

ص: ١٨١

١- (١) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤٠٥ بنقل صاحب نور الثقلين.

٢- (٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٧٩.

الذات (حبّ التظاهر و الإطراء) عند الإنفاق بالذات، بحاجه إلى إرادته عاليه و صبر عظيم يقاوم بهما تحدّيات النفس و الشيطان.

[١٩-١٣] و يفصل القرآن في بيان نعيم جنه الأبرار تشويقاً لنا في الرغبه إليها و العمل على الفوز بها.

مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ جمع أريكه، و هي الأسره المحشوه على أفضل وجه.

لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا و الشمس كناية عن الحرّ، أمّا الزمهير فهو البرد الشديد،

قال الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ الشمس و القمر آيتان من آيات الله، يجريان بأمره، مطيعان له، و ضوءهما من نور عرشه، و حرّهما من جهنم، فإذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما، و عاد إلى النار حرّهما، فلا يكون شمس و لا قمر» (١)، فالجنه إذا مكيفه أجواؤها بر بيع دائم.

و دَائِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهُمْ ليس لأنّ فيها شمساً و حرّاً، بل هي كناية عن تناسب أشجار الجنه و حاله الرفاه المهيأه لأهلها بحيث تغطّي فوقهم. و لكنّها في نفس الوقت قريبه ثمارها إليهم، ميسره عليهم تناولها.

و ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا

ص: ١٨٢

و المفعول المطلق «تذليلاً» يفيد التأكيد و المبالغه، أى أنها مذللّه أيّما تذليل،

قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذى يشتهيهِ من الثمار بفيه و هو متكى، و إنّ الأنواع من الفاكهه ليقلن لولّى الله: يا ولّى الله كلنى قبل أن تأكل هذه قبلى» (١).

و حيث تغمر الأبرار فرحه الفوز و البهجه بما فى حياتهم من النعيم يتقدّم إليهم خدمهم من الولدان بأوانى و أكواب فى غايه الروعه معدنا و منظرا و شرابا.

وَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِنْ فِضِّهِ وَ أَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا و لعلّ الآنيه المطاف بها هى التى يستقلّ الولدان فيها أكواب الشراب، أو التى يكون فيها الشراب الذى يصبّ فى الأكواب بعدئذ، أو هى أوانى الأكل و الفواكه التى يحملها الولدان إلى أولياء الله عزّ و جل. بينما الأكواب هى الكؤوس التى لها مقبض و عروه، و فى صنعتها الرائعه تتجلّى قدره الله و كرامته لأوليائه.

قَوَارِيرًا مِنْ فِضِّهِ

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ينفذ البصر فى فضّه الجنه كما ينفذ فى الزجاج» (٢)، و عن قتاده قال: صفاء القوارير فى بياض الفضة (٣) و قال ابن عيّاس: لو أخذت فضه فضربتّها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، و لكنّ قوارير الجنه بياض الفضة فى صفاء القوارير (٤) و لن يستطيع بشر تصوّر شىء من نعيم الجنه على حقيقتها أبداً.

ص: ١٨٣

١-١ (١) المصدر ٤٨١.

٢-٢ (٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٠.

٣-٣ (٣) الدر المنثور/ج ٦ ص ٣٠٠.

٤-٤ (٤) المصدر.

ثم يشير القرآن إلى صفه أخرى في الأكواب التي يطاف بها على المؤمنين فيقول:

قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتَوْا بِهَا عَلَى قَدْرِهِمْ، لَا يَفْضَلُونَ شَيْئًا، وَلَا يَشْتَهُونَ شَيْئًا بَعْدَهَا، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: أَنَّهَا لَيْسَتْ بِالْمَلَأَى الَّتِي تَفِيضُ، وَلَا نَاقِصَةٌ بِقَدْرِهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَدَّرْتُهَا السَّقَاهُ (١)، وَقِيلَ: قَدَّرُوهَا فِي أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ مَجِيئِهَا عَلَى صِفَةِ فَجَاءَتْ عَلَى مَا قَدَّرُوا، وَالضَّمِيرُ فِي قَدَّرُوهَا لِلشَّارِبِينَ (٢). وَالَّذِي يَبْدُو لِي أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ هُنَا أَنَّ الْأَكْوَابَ الَّتِي يَطَافُ بِهَا مَقْدَرُهُ وَمَحْكَمُهُ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِهَا، فِي شَكْلِهَا وَحَجْمِهَا وَشَرَابِهَا وَعَدَدِهَا وَكُلِّ شَيْءٍ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: فَإِنْ قُلْتَ مَا مَعْنَى كَانَتْ فِي قَوْلِهِ: «كَانَتْ قَوَارِيرًا»؟ قُلْتَ: هُوَ مَنْ يَكُونُ فِي قَوْلِهِ: «كُنْ فَيَكُونُ» أَيْ تَكُونُ قَوَارِيرًا بِتَكْوِينِ اللَّهِ، تَفْخِيمًا لِتِلْكَ الْخَلْقَةِ الْعَجِيبَةِ الشَّانِ، الْجَامِعَةِ بَيْنَ صِفَتَيْ الْجَوْهَرِينَ الْمُتَبَايِنِينَ (٣).

وَ يُشَقُّونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا. وَالزَنْجَبِيلُ يُعْطَى مَا يَمِزُجُ إِلَيْهِ نَكْهَهُ طَيِّبُهُ، كَمَا أَنَّ بَدَائِعَهُ فِيهِ فَوَائِدُ كَثِيرَةٌ، قَالَ فِي التَّبْيَانِ: الزَنْجَبِيلُ ضَرْبٌ مِنَ الْقَرْفَةِ، طَيِّبُ الطَّعَامِ، يَلْدَعُ اللِّسَانَ، يَرْبِي بِالْعَسَلِ، يَسْتَدْفَعُ بِهِ الْمَضَارَ، إِذَا مِزَجَ بِهِ الشَّرَابَ فَاقَ فِي الْإِلْدَادِ، وَالْعَرَبُ تَسْتَطِيبُ الزَنْجَبِيلَ جَدًّا (٤). وَ رَبَّنَا يَقُولُ:

ص: ١٨٤

١-١) المصدر ٣٠١.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٠.

٣-٣) الكشاف/ج ٤ ص ٦٧٠.

٤-٤) التبيان/ج ١٠ ص ٢١٤.

عَيْنًا فِيهَا قِيلَ: «فيها» عائدته إلى الكأس، وقيل: يعنى فى الجنه.

تَسِيْمَى سِلْسِيْلًا قَالَ فِى الْمَجْمَعِ: وَ السِّلْسِيْلُ الشَّرَابُ السَّهْلُ اللَّذِيذُ، يُقَالُ: شَرِبْتُ سِلْسِلًا وَ سِلْسَالًا وَ سِلْسِيْلًا، قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: لَمْ أَسْمَعْ السِّلْسِيْلَ إِلَّا فِى الْقُرْآنِ، وَ قَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ صِفَةٌ لِمَا كَانَ فِى غَايَةِ السَّلَاسَةِ (١)، وَ فِى الْكَشَّافِ: يَعْنَى أَنَّهَا فِى طَعْمِ الزَّنْجَبِيلِ، وَ فِيهِ لِدَعُهُ، وَ لَكِنْ نَقِيضُ اللَّذَعِ وَ هُوَ السَّلَاسَةُ (٢).

وَ يَطْوِفُ عَلَيْهِمْ وَ لِدَانٌ مُخَلَّدُونَ قِيلَ: يَعْنَى مَلْبَسُونَ الْخُلْدَةَ وَ هِيَ ضَرْبٌ مِنَ الْقُرْطِ مِنَ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ، وَ يَبْدُو لِي أَنَّ «مُخَلَّدُونَ» بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَبْقَوْنَ عَلَى نَضَارَةِ الْغُلَامِ دَائِمًا لَا يَتَدَارَكُهُمْ شَبَابٌ وَ لَا هَرَمٌ، وَ إِنَّمَا يَبْقِيَهُمُ اللَّهُ كَذَلِكَ لِأَنَّ خِدْمَةَ الصِّغَارِ عَلَى هَذَا السِّنِّ أَلَدُّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مِنْ خِدْمَةِ غَيْرِهِمْ، وَ الْوَلْدَانُ فِى تَطَوُّفٍ دَائِمٍ يَتَرَقَّبُونَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ، عَلَى اسْتِعْدَادِ تَامِّ لَخِدْمَتِهِمْ، بَلْ أَنَّ مَجْرَدَ تَطَوُّفِهِمْ أَمَامَهُمْ يَبْعَثُ فِيهِمُ الْبَهْجَةَ وَ السَّرُورَ، لِمَا يَمَثِّلُهُ الْوَلْدَانُ مِنْ نِعْمَةِ الْخِدْمَةِ، وَ لِمَنْظَرِهِمُ الْأَنْيَقَ وَ الْجَمِيلَ.

إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤًا مَنُثُورًا قَالَ الْعَلَامَةُ الطَّبْرَسِيُّ: إِنَّمَا شَبَّهَهُمُ بِالْمَنْثُورِ لِانْتِثَارِهِمْ (وَ تَوَزَّعِهِمْ) فِى الْخِدْمَةِ، فَلَوْ كَانُوا صَفًّا لَشَبَّهُوا بِالْمَنْظُومِ (٣). كَمَا أَنَّ لِلْوَلُؤِ حِينَمَا يَنْثُرُ مَنْظَرًا رَائِعًا فِى الْجَمَالِ

ص: ١٨٥

١-١) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٠.

٢-٢) الكشاف/ج ٤ ص ٦٧٢.

٣-٣) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١١.

و الجاذبيه خصوصا في المروج الخضراء، و تنقل الولدان للخدمه من موقع لآخر يعطى المنظر روعه جديده كما يتجلى اللؤلؤ بتحريكه.

[٢٢-٢٠] و لا ينتهى نعيم الأبرار إلى هذا الحدّ فهو كبير جدّاء، و واسع بحيث لا يستطيع بشر أن يستوعب تعداده و بيانه، و إلى هذه الحقيقه يهدينا القرآن الكريم.

وَ إِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا وَ حَتَّى نَفْهَمَ مَعْنَى كَلِمِهِ «كَبِيرًا» يَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَيْهَا عَلَى أُسَاسِ أَنَّهَا تَعْبِيرٌ عَنْ أَرْبَعَةِ أُمُورٍ، هِيَ: الْكَثْرَةُ، وَ الْحَجْمُ، وَ التَّنَوُّعُ، وَ الْعِظَمَةُ. وَ تَكَرَّرَ كَلِمَةُ «رَأَيْتَ» يَأْتِي لِبَيَانِ أَنَّكَ مَهْمَا تَكَرَّرَ بِنَظَرِكَ وَ تَعْيِدَ الرَّؤْيِيَةَ فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصِلَ إِلَى حَدِّ مَلِكِ الْأَبْرَارِ مِنَ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ، وَ إِنَّمَا تَعْلَمُ بِصُورِهِ مَجْمَلُهُ أَنَّهُ نَعِيمٌ وَ مَلِكٌ كَبِيرٌ.

و كفى به عظمه وسعه أنّه يزداد مع الزمن بفضل الله و كرمه المتتابع على أهل الجنة.

قد أشار الإمام الصادق عليه السلام فى حديث له الى تفسير الكبير بالعظمه،

قال عباس بن يزيد: قلت لأبى عبد الله -عليه السلام- و كنت عنده ذات يوم: أخبرنى عن قول الله عزّ و جلّ: «الآيه» ما هذا الملك الذى كبر الله عزّ و جلّ حتى سمّاه «كبيراً»؟ قال: إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة أرسل رسولا إلى ولى من أوليائه، فيجد الحجب على بابه، فتقول له: قف حتى نستأذن لك، فما يصل إليه رسول ربه إلا بإذن، فهو قوله عزّ و جلّ: «الآيه» (١)، و

قال -عليه السلام- مبيّنا معنى الآيه: «لا يزول و لا يفنى» (٢)، و قيل: هو أنّهم:

لا يريدون شيئا إلا قدروا عليه (٣)، و

عن الحسن البصرى عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنّه

ص: ١٨٦

١-١ (١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٨١.

٢-٢ (٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١١.

٣-٣ (٣) المصدر.

قال: «أدنى أهل الجنة منزله الذى يركب فى ألف ألف من الخدمه من الولدان المخلدين على خيل من ياقوته حمراء لها أجنحه من ذهب» (١).

و عن أبى جعفر (الإمام الباقر) - عليه السلام - قال: إن رسول الله صلى الله عليه و آله سئل عن قول الله عزّ و جلّ: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفِدًا» فقال: يا على إن الوفد لا يكون إلا ركباناً إلى قوله: فقال على - عليه السلام - يا رسول الله أخبرنا عن قول الله عزّ و جلّ: «عُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَبِيَّتُهُ» بما ذا بنيت يا رسول الله؟ فقال: يا على تلك غرف بناها الله عزّ و جلّ لأولياته بالدر و الياقوت و الزبرجد، سقوفها الذهب محبوبه بالفضه، لكل غرفه منها ألف باب من ذهب. على كل باب منها ملك موكل به، فيها فرش مرفوعه بعضها فوق بعض من الحرير و الديباج بألوان مختلفه و حشوها الكافور و العنبر، و ذلك قول الله عزّ و جلّ: «و فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ». إذا أدخل المؤمن إلى منزله فى الجنة، و وضع على رأسه تاج الملك و الكرامه، ألبس حلل الذهب و الفضه و الياقوت و الدر منظومه فى الإكليل تحت التاج، قال: فألبس سبعين حله حرير بألوان مختلفه و ضروب مختلفه منسوجه بالذهب و الفضه و اللؤلؤ و الياقوت الأحمر، فذلك قوله عزّ و جلّ:

«يُحَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ»، فإذا جلس المؤمن على سريريه اهتزّ سريريه فرحاً، فإذا استقرّ لولّى الله عزّ و جلّ منزله فى الجنان استأذن عليه الموكل بجنانه ليهنئه بكرامه الله عزّ و جلّ إياه، فيقول له خدام المؤمن من الوصفاء و الوصائف: مكانك فإنّ ولّى الله قد أتكى على أريكته، و زوجته الحوراء تهتأ له فاصبر لولّى الله (٢).

عَالِيَهُمْ لِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ

ص: ١٨٧

١- (١) الدر المنثور/ج ٦ ص ٣٠١.

٢- (٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٨٢.

قال شيخ الطائفة:السندس السدياج(الحرير)الرقيق الفاخر الحسن، و الإستبرق:السدياج الغليظ الذى له بريق (١).و فى «عاليهم»اختلفوا،فمنهم من جعلها ظرفا بمنزله قولك:فوقهم ثياب سندس،و منهم من جعلها حالا فهو بمنزله قولك:يعلوهم ثياب سندس،و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام:«تعلوهم الثياب فيلبسونها» (٢).

وَ حُلُّوا أَلْبَاسًا وَأَوْرَ مِنْ فَضِّهِ وَ التَحْلِيهِ بِمَعْنَى الزِينَةِ،أى زَيَّنُوا يَلْبَسُهُمْ حَلَالًا- أساور من فضه،و يعلم الله كم هو جمال تلك الأساور التى صنعتها يد القدره الإلهيه و أبدعتها،و كم هو الرونق و الجمال الذى تعطيه للباسها حينما يتزين بها.

وَ سَيَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا قَالَ فى المجمع:أى طاهرا من الأقداء،لم تدنّسها الأيدي،و لم تدسها الأرجل كخمر الدنيا،و قيل:طهورا لا يصير بولا نجسا،و لكنّه يصير رشحا فى أبدانهم كريح المسك،و إنّ الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوه مائه رجل من أهل الدنيا،و أكلهم و نهمتهم،فإذا أكل ما شاء سقى شرابا طهورا فيطهر بطنه، و يصير ما أكل رشحا يخرج من جلده،أطيب ريحا من المسك الأذفر،و يضم بطنه،و تعود شهوته.رواه أبو قلابه.و قيل:

«يطهرهم من كلّ شىء سوى الله، إذ لا طاهر من تدنّس بشىء من الأكوان إلا الله» عن الصادق عليه السلام (٣).و قد يكون هو شراب نهر الكوثر الذى يعطيه الله لأهل الجنة بيد رسوله صلى الله عليه و آله و وليه

ص: ١٨٨

١-١) التبيان/ج ١٠ ص ٢١٧-٢١٨.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١١.

٣-٣) المصدر.

أمير المؤمنين عليه السلام قبل دخولهم إلى الجنة فيطهرهم من كل عيب و دنس. و قال الرازي: و إنه المطهر (١).

و يبدو لى أنّ الله سبحانه و تعالى هو الذى يسقى الأبرار ذلك الشراب بصورة غيبية، لا عن طريق الولدان، إكراما لهم منه عزّ و جلّ. و لكن ما هذا الشراب الطهور الذى يسقيهم الربّ بيده؟ هل شراب سائل كالماء و الخمر و العسل و اللبن، أم هو شراب الودّ و القرب و الحبّ و النجوى؟ لأنّ الأدب القرآنى أدب تصويرى يهدينا من ظاهر الأحداث إلى غيب الحقائق فإنّ لنا أن نتصوّر أنّ الشراب الربّانى ليس مجرد شراب مادى، و حتى لو كان كذلك فإنّه حين يكون الساقى هو الربّ الباقي فإنّه يتحول من نعمه ماديه إلى درجه معنويه دونها كلّ درجه، فأىّ كرامه أعظم من إقامه صله قريبه بين العبد هذا المخلوق المتضائل المتناهى فى الضعف و العجز و بين الربّ العظيم المتعال، و أىّ نشاط يسرى فى نفس العبد هذا، و أىّ جمال يغمر فؤاده، و أىّ سكينه تغشى نفسه، و أىّ عزّه تحيط كيانه.. سبحان الله! لا علم لنا، و لا ندرى ما نقول.

إنّ مثل الإمام زين العابدين -عليه السلام- حرّى بوصف تلك اللحظات التى يقترب العبد فيها من الربّ حين يقول:

«فقد انقطعت إليك همّتى، و انصرفت نحوك رغبتى، فأنت لا غيرك مرادى، و لك لا لسواك سهرى و سهادى، و لقاءك قرّه عيني، و وصلك منى نفسى، و إليك شوقى، و فى محبتك و لهي، و إلى هواك صبايتى، و رضاك بغيتى، و رؤيتك حاجتى، و جوارك طلبى، و قربك غايه سؤلى، و فى مناجاتك روحى و راحتى، و عندك دواء علّتى، و شفاء غلّتى، و برد لوعتى، فكن أنيسى فى

ص: ١٨٩

وحشتى... ولا تقطعنى عنك، ولا تبعدنى منك، يا نعيمى و جنتى، و يا دنياى و آخرتى « (١).

و

فى مناجاه كريمه اخرى يقول- عليه السلام :-«...و غلّتى لا- بيّردها إلا وصلك، و لوعتى لا يطفئها إلا لقاءك، و شوقى إليك لا يبلى إلا النظر إلى وجهك، و قرارى لا يقترّ دون دنوى منك، و لهفتى لا يردّها إلا روحك، و سقمى لا يشفيه إلا طبك، و غمى لا يزيله إلا قربك... فى منتهى أمل الآملين، و يا غايه سؤال السائلين، و يا أقصى طلبه الطالبين، و يا أعلى رغبه الراغبين...

أسألك أن تيلنى من روح رضوانك، و تديم علىّ نعم امتنانك « (٢).

و نلاحظ أنّ إحياء الآيات ينتهى إلى هدف واحد هو بيان أنّ الأبرار فى راحه تامه عند ربّهم فى الآخره، «متكئين، دانيه، ذلّت، يسقون، يطوف عليهم، و سقاهم ربّهم» و ذلك لأنّهم فى الدنيا يتعبون أنفسهم فى خدمه الناس و بالأعمال الصالحه لوجه الله، و يمسيهم من ذلك الكثير من التعب، و ليس أنسب لتسكين أنفسهم و إشباع تطلعاتهم من بيان ما يصيرون إليه من الراحه فى الآخره.

إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَ كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا وَ هَذَا جَوَابُ نِيَّتِهِمُ الْخَالِصَهُ لَوَجْهِ تَعَالَى وَ قَوْلِهِمْ: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكُورًا»، فحيث ترفعوا عن أى رياء و مطمع مادى من وراء عملهم الصالح و إنفاقهم فى سبيل الله جازاهم ربّهم على ذلك خير الجزاء و شكر سعيهم بأفضل الشكر.

ص: ١٩٠

١- ١) مناجاه المرّدين / الامام السجاد / مفاتيح الجنان.

٢- ٢) مناجاه المفتقرين / المصدر.

وإنّ تحسيس المؤمن في الجنة بأنّ كلّ تلك النعم العريضة الواسعة هي شكر لأعماله وجزاء إخلاصه إنّ هذا التحسيس بذاته كرامه جديده لأهل الجنة و نعمه كبيره، إذ يجعلهم في نهايه الراحة النفسيه أنّ اختيارهم في الدنيا كان صائبًا و أعمالهم كانت مقبوله.

[٢٦-٢٣] و حيث حدّثنا ربّنا عن نعيم الأبرار فإنّ نفوسنا لا ريب ستوق إليه، و القرآن يستجيب لهذه الصفه الفطريه بتوجيه تمنيات الإنسان و تطلعاته ضمن قناتها الصحيحه حيث العمل بالمنهج الحق الموصل إلى ذلك النعيم، و من هذا المنطلق تأتي الإشاره إلى القرآن الكريم.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا أَي مَنْجْمًا و ليس دفعه واحده، و ذلك يتمشى مع هدف القرآن، و هو بناء شخصيه الأبرار في كلّ الأبعاد، حتى يرتقى إلى قمه ذلك الرضوان و النعيم الإلهي السامقه درجه درجه. و من أراد الوصول إليها فإنّ الطريق واحد، و هو أن يترك الأمانى و الظنون المجرده إلى السعى و الاجتهاد على هدى كتاب الأبرار و السمو عبر معراج آياته. و هذا بحاجه إلى الصبر على العقبات، فإنّ طريق الجنة عموما محفوف بالمكاره فكيف إذا كان الهدف هو أعلى درجاتها و أفضلها (درجه الأبرار)؟ إنّ بلوغ هذا الهدف العظيم يستدعى الحقائق التاليه:

أولاً: التسليم المطلق لقضاء الله و قدره، و سننه في الخليقه و شرائعه.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ حَكَمَ اللَّهُ هُوَ تَدْبِيرُهُ لِحُلُقِهِ وَ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ، وَ الْمُؤْمِنُ بِحَاجِهِ إِلَى الْاِسْتِقَامَةِ

و التحمل كى يجنى ثمار التوكّل على ربه و التسليم لأمره و رسالته، فقد نطبّق رساله الله و لكن ليس بالضرورة أن نحصل على النتائج مباشرة؛ إذن يجب أن ندع الاستعجال و نفوّض أمرنا إلى الله سبحانه دون أن نتأفّف على ما يقدره الرب أو نضجر من طول الانتظار. ثم إنّ تطبيق القرآن يستلزم روح الصبر، لأنّه يضع الإنسان أمام قرارات صعبه و تحديات كثيره فى ذاته و فى المحيط، و تجرّع مراره الصبر على كلّ ذلك ضروره أساسيه لبلوغ أهداف الرساله و تطلّعاتها.

ثانياً: الاستقامه أمام الضغوط، لأنّ الإنسان حينما يقرّر العمل بالقرآن و تغيير نفسه و واقعه على هدى آياته فسوف تتوالى عليه الضغوط المختلفه من قبل الآخرين الذين لا يريدون الإصلاح و لا التغيير اجتماعياً و سياسياً، و بالذات أولئك الذين تقوم مصالحهم على أساس الواقع المتخلف و الفاسد كالمترفين و أصحاب السلطه، أو الذين تتعارض أفكارهم و ثقافتهم المبدئيه مع خط الرساله و قيمها.

أمّا وسائلهم فى الضغط فهى تختلف فقد تكون مباشره، كما يفعل الحكّام و الطغاه ضد المؤمنين تاره بالترغيب و تاره بالترهيب، و قد تكون عبر الاعلام و المواقف الاجتماعيه و الاقتصاديه و.. و.. و لا بد لكلّ مؤمن يختار طريق الحق أن تكون هذه الصوره الواقعيه حاضره فى وعيه، حتى لا يتفاجأ من جهه، و لكى يستعدّ نفسياً و عملياً لمواجهةها.

□ وَ لَا تُطْعِ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا قَالَ الزمخشري: معناه: و لا تطع منهم راكبا لما هو إثم داعيا لك إليه، أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه، لأنهم إما أن يدعوه لمساعدتهم على فعل ما هو إثم أو كفر، أو غير إثم و لا كفر، فنهى أن يساعدهم على الإثنين دون الثالث (١).

ص: ١٩٢

و الذى يظهر لى أنّ الآيه تشمل المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام و لكنهم يرتكبون الإثم و يريدون الباطل، كما تشمل الكفار الذين يبالغون فى الكفر و يعادون الحقّ بصوره صريحه و ظاهره.

ثالثاً: الروحانيه العاليه، و ذلك لأنّ هزيمه الإنسان و انتصاره و استقامته و تراجعته كلّ أولئك يرتكز على قوه إرادته و صلابه شخصيته، فعلى المؤمنين أن يشحذوا عزائمهم، و يوفّروا إرادتهم، و ينمّوا قوه شخصياتهم، حتى يرتفعوا إلى مستوى الالتزام بالرساله و مقاومه التحديات فى الدنيا، و إلى مستوى الأبرار و نعيمهم فى الآخرة. و ذكر الله الدائم و صلاتهم بالليل هما معراج المؤمنين إلى تلك الفضيله و المنزله، لذا يدعو القرآن رسول الله و كلّ فرد مؤمن إلى الذكر و الصلاه.

وَ اذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ آصِيلاً* وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَجِدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلاً وَ الْبُكُورِ هُوَ أَوَّلُ الصَّبَاحِ، وَ الْأَصِيلُ هُوَ أَوَّلُ اللَّيْلِ وَ أَصْلُهُ، وَ الْمَرَادُ هُوَ الْمَدَاوِمَةُ عَلَى الذِّكْرِ نَهَارًا وَ لَيْلًا. وَقِيلَ: «بُكْرَةً» يَعْنِي صَلَاةَ الصَّبْحِ، وَ «أَصِيلاً» يَعْنِي صَلَاتِي الظُّهْرِ وَ الْعَصْرِ، وَ مِنْ اللَّيْلِ» إشاره إلى صلاتي المغرب و العشاء اللتان تقعان فى بعض الليل من أوله،

« وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلاً » يعنى «صلاه الليل» (١) روى ذلك عن الإمام الرضا عليه السلام . و تأكيد الله على مفردات معينه فى الآيتين لحكمه، فقد قال الله: (اذكر، اسجد، و سبح) و كلّها تتمحور حول قيمه التوحيد و تأكيد العبوديه لله، و ذلك هو سر الفضيله و التسامى على الضغوط و التحديات التى تدعو الإنسان إلى الشرك.

[٢٧-٣١] و بعد أن فصل لنا القرآن الحديث عن الأبرار الذين يختارون

ص: ١٩٣

سبيل الشكر و الهدى، و أنّ إيمانهم باليوم الآخر و خوفهم منه عامل رئيس فى اختيارهم طريق الحق و سلوكهم السليم فى الحياه، يؤكد لنا بأنّ مشكله الكفار التى دعتهم إلى الإثم و الضلال تتمثل فى حبهم الشديد للدينا و كفرهم بالآخره.

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا و من الآيه نفهم أنّ حبّ الدنيا هو الحجاب الذى يحول بين الإنسان و بين الإيمان بالآخره، و أنّ الطريق لخرق هذا الحجاب هو حضور يوم القيامه العصيب فى وعيه بتذكّر مواقفه الرهيبه و مشاهدته الثقيله.

نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ قال صاحب المجمع: الأسر أصله الشدّ، و منه قتب مأسور: أى مشدود، و منه الأسير: لأنّهم كانوا يشدونه بالقيد، و قولهم: خذ بأسره بشده (١)، « وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ » أى قوينا و أحكمتنا خلقهم عن قتاده و مجاهد، و قيل: أسرههم: أى مفاصلهم عن الربيع، و قيل: أوصلهم بعضها إلى بعض بالعروق و العصب، و لو لا إحكامه إياها على هذا الترتيب لما أمكن العمل بها و الانتفاع منها، و قيل:

جعلناهم أقوياء عن الجبائى، و قيل معناه: كلّفناهم و شددناهم بالأمر و النهى كيلا يجاوزوا حدود الله، كما يشدّ الأسير بالقيد لئلا يهرب (٢).

و لعل المعنى هو ظاهر الأسر، فإنّ ذلك يتناسب مع الشطر الثانى للآيه، و ينسجم مع السياق، فحيث بين الله حبّ الكفار للعاجله، و من ثم تركهم الآخره و الالتزام بأوامر الله و نواهيه، و إطلاقهم العنان لأنفسهم فى الأهواء و الشهوات، أراد

ص: ١٩٤

١-١) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٢.

٢-٢) المصدر/ص ٤١٣.

أن يؤكد بأنه لا يعصى عن غلبه أبداً. وهذا ما يستدعي التأكيد على حاكميه الله في الإنسان و هيمنته عليه، وأن حوله منه وقوته به، وأنه لا حول ولا قوة له ذاته.

ولعل استخدام كلمه الأسر هنا للإيحاء بأن الإنسان مقيد بقدره الله وقوته حيث أن شد أسره بيده (و بهذا تجتمع معانى الأسر فى الآيه).

والذى يتفكر فى وجود الإنسان يجد أنه أسير لله تكويته وعملياً، فهو من جهة محكوم بقوانين تكوينيه كالنمو والتنقل من مرحله إلى أخرى قسراً عنه، والدوره الدمويه ودقات القلب وحركة الجهاز الهضمي والكبد و..و..، ومن جهة أخرى هو أسير تدبير الله وسننه فى الحياه، فلا يستطيع أن يقاوم الموت مثلاً. وقد وجدت إشاره إلى هذا التفسير لدى العلامة الطباطبائي إذ قال: والآيه فى معنى دفع الدخول، كأن متوهمًا يتوهم أنهم بحبهم للدنيا وإعراضهم عن الآخرة يعجزونه تعالى، ويفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا ويطيعوا، فأجيب بأنهم مخلوقون لله، خلقهم وشد أسرهم إذا شاء أذهبهم وجاء بآخرين، فكيف يعجزونه وخلقهم وأمرهم وحياتهم وقوتهم بيده؟! (١). وأظهر آيات أسر الله للبشر هو الموت الذى قهرهم به، فهو يميتهم حيثما شاء وكيفما أراد، ويأتى بغيرهم دون أن يقدر أحد على رد إرادته، إذ توحد بالبقاء

«وقهر عباده بالموت والفناء» (٢).

وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا أَى جِئْنَا بآخرين أمثالهم بديلاً عنهم، ياهلاكهم، أو بجعلهم الحاكمين.

و إنما ذكرت كلمه الأمثال هنا- فى موارد متشابهه- للإشاره إلى صفاتهم و أن من كان بصفه العجز والضعف والمحدوديه- أمثال هؤلاء- لا يعجزون الله شيئاً،

ص: ١٩٥

١-١) الميزان/ ج ٢٠ ص ١٢٣.

٢-٢) دعاء الصباح (مفاتيح الجنان).

لأنَّ بيده أسرهم و هو قادر على تبديلهم.

علما بأنَّ كلمه المثل تدلُّ على الشبيه و لكن بلحاظ مواصفاته و طبائعه، و الله العالم.

و حرىَّ بالإنسان الذى يأتى عليه الموت أن يفكر فيما بعده من مستقبل، و يستعدُّ له، باتباع الحق و الصراط المستقيم الذى هو السبيل إلى رضوان الله، الذى بيده الأمر و الحكم و إليه المصير.

إِنَّ هَذِهِ تَذَكْرَةٌ أَى التى طرحتها الآيه السابقه و كلَّ آيات السوره. و الموقف السليم منها أن يهتدى بها البشر إلى الإيمان بربه، و اتباع سبيله المتمثل فى رسالته و أوليائه و حزبه.

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَهًا رَبًّا سَبِيلًا و تأكيد مشيئه الإنسان هنا هو تقرير لحرية الإختيار عنده، و مسئوليته عن مصيره، فالاختبار بيده يتبع أَى سبيل شاء، سبيل الشكر أو سبيل الكفر، و له الغنم و عليه الغرم.

وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ لَأَنَّ المخلوقين لا يمكنهم أن يملكوا إرادته ذاتيه أبدا، فهم حيث يشاءون فوسائل مشيئتهم من عقل و إرادته و جوارح كلِّها من عند الله، و لا تنشأ لمخلوق مشيئه بدون إذنه، فيسلب البعض توفيق الهدايه و يهبه لآخرين. و لكن ليس اعتبارا، بل على أساس علمه بحال المخلوق و حكمته البالغه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا فتعليقه لمشيئه المخلوق على مشيئته لا يعنى الجبر، لأن ذلك يلغى دور الإنسان و مسؤوليته، كما ينفى حكمه الله حين خلقه و ابتلاه، فتعالى الله عما يصفون.

و لكن إعطاءه المشيئه لهم لا يعنى استطالتهم على ربهم و استقلالهم عنه، فإن هذا من التفويض الباطل، إنما أعطاهم المشيئه و هو المدبّر المحيط بهم علما و قدره.

يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ و لكنّه حين علّق مشيئته بعلمه و حكمته فلن يدخل في رحمته من ليس أهلها إنما الذى سعى و عمل صالحا. و هذا ما يبرر عدم ذكر النقيض للظالمين، و اقتصار القرآن على ذكرهم، لأنّه لا يدخل رحمه الله إلا من كان مؤمنا و طاهرا من دنس الضلال و الظلم.

وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا جزاء لظلمهم، كما أنّ النعيم و الملك الكبير كان للأبرار جزاء و كان سعيهم مشكورا.

سوره المرسلات

اشاره

ص: ۱۹۹

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال: «من قرأ»و المرسلات عرفا«عرّف الله بينه و بين محمّد صلّى الله عليه و آله».

نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٨٧

ص: ٢٠١

بتكرار آيه: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» يظهر أنّها المحور الرئيس للسوره الكريمه، و التي تهدف-فيما يبدو-تأكيد وعد الله الواقع في أنّ الويل للمكذّبين به، فبعد القسم بالمرسلات و الناشرات يؤكد ربنا بأنّ الحصر باللام أنّ وعده تعالى واقع لا محاله (الآيات ١-٧).

و مع أنّ قول الله: «ما توعدون» شامل لكلّ ما يعد الله به أن يقع، إلا أنّ يوم القيامة و ما يجلى من الحقائق و ما يعنيه من (بعث و حساب و جزاء) هو أظهر مصاديق الوعود الإلهيه الواقعه، و حيث يحلّ أجل ذلك الوعد يشهد الوجود حوادث كونه رهيبه، فتطمس النجوم، و تشقّ السماء، و تنسف الجبال، و أعظم من ذلك شهادته الرسل على أممها عند الحساب و الفصل بين الناس و في مصائرهم، إذ أجّلها الله «لِيَوْمِ الْفَصْلِ* وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ». إنه يوم رهيب و مهول لأنّه يوم الفصل في مصائر العباد، فويل لأولئك الذين كذبوا رسل الله من شهادتهم ضدّهم عنده و ما يتلو ذلك من عذاب شديد يصبّه عليهم ربهم صبا (الآيات ٨-١٥).

و بالرغم من أنّ القرآن يوجّهنا إلى مشاهد ذلك اليوم الأخرى و مصير المكذّبين فيه، كعلاج لموقف التكذيب بحقائق المستقبل عند الإنسان، إلاّ أنّه لا يكتفى بذلك بل يدعونا إلى الإعتبار بعاقبه المجرمين الآخرين بعد الأولين، فإنّ المتفكر فى هذا الأمر يهتدى إلى واقعه سنّه الجزاء، و ذلك بدوره يهديه إلى واقعه الآخره باعتبارها التجلّى الأعظم و الأشمل لها فى واقع الحياه «وَيْلٌ لِّيَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» (الآيات ١٦-١٩).

و يربط القرآن بين خلقه الإنسان و بين حقيقه الآخره، و ذلك أنّ خلقته بما فيها من أطوار و تقديرات تكشف عن حكمه الخالق (و أنّه لم يخلق الخلق عبثاً، و لن يتركهم سدى) و التى لا تكتمل من دون الإيمان بالآخره التى هى عنوان الحكمه الإلهيه، و منتهى الإنسان و غايته التى تقتضيه تلك الحكمه، كما تقتضى العذاب الأليم للمكذّبين بالحق (الآيات ٢٠-٢٤).

و من رحله الإنسان فى آفاق نفسه ينطلق به السياق إلى آفاق الكون من حوله بموجوداته و ظواهره، حيث جعل الله الأرض كفاتا تضمّه حيّاً و ميتاً، و جعل فيها جبالا- راسيه بأصولها فى الأرض شامخه بقممها فى آفاق السماء، و سقانا منها ماء فاراتا سائغا للشاربين، و كلّ ذلك آيات لحكمه الله، و علامات تهدي إلى ذلك اليوم، فالويل للمكذّبين به (الآيات ٢٥-٢٨).

و لقطع دابر التبرير و الكيد، اللذين يتخذهما الكاذبون و سيله لكذبهم، و يصوّر السياق عاقبه الكذب، إذ يأتى النداء الإلهى إلى المكذّبين فى حال تكاد الحسره تهلكهم لو لا مشيئته تعالى؛ يقال لهم: «إِنظَلُّوا إِلَيَّ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» يعنى جهنم و عذابها «إِنظَلُّوا إِلَيَّ ظِلٌّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ* لَا ظَلِيلٍ وَ لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» و حيث النار «تَزْمِي بِشَرَرِ كَالْقَصِيرِ* كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ» فويل يومئذ للمكذّبين من

و هنالك تنطق الحجج البالغة لله، ولا ينطق المكذبون باعتبارهم تلجمهم الحجج من جهه، «و لا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» و كفى بهذا عذابا مهينا لهم بين يدي جبار السموات و الأرض، و أمام الخلائق في محشر يوم القيامة (الآيات ٣٥-٣٧).

و يتحدّى السياق المكذّبين من الأولين و الآخرين، بهدف إذلالهم و إظهار صغارهم أمام الناس حيث كانوا يتكبرون في الدنيا بما عندهم من السلطه و المال؛ يقول لهم: «هَذَا يَوْمُ الْفَضِيلِ» الذى طالما كذّبتهم و استهزأتم به، و أنتم مجموعون إلى بعضكم (أولين و آخرين) «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ» و ذلك جزاء كيدهم و محاربتهم لله و لأولياته في الدنيا، فالويل لهم من ذلك الموقف و عذابه (الآيات ٣٨-٤٠).

و يبيّن القرآن سبيل النجاه من مصير المكذّبين السيء، ألا و هو تقوى الله، و هذا البيان يملأ قلوب المتقين أملا في رحمه الله، و اطمئنانا إلى لطفه، بالذات و الآيه ظلال لغضب الله و وعيده بكل آياتها و مفرداتها عدا الآيات (٤١-٤٤).. فالمتقون في مأمن من العذاب، «فِي ظِلَالٍ وَ عُيُونٍ* وَ فُؤَادِكُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ» يدعوهم ربهم إلى مائده فضله و رحمته «كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» و إنه لجزاء كل تقى محسن عنده تعالى (الآيات ٤١-٤٤).

و يعود السياق موصولا بما سبق من الوعيد للمكذّبين، و هو يهدّدهم بالعذاب، و يحذّرهم من عواقب انتهاجهم سبيل التكذيب و الجريمة، مؤكّدا بأنهم لن يطول بهم المقام في متعهم الإجراميه حتى يقع بهم غضبه الذى لا تقوم له السموات و الأرض (الآيات ٤٥-٤٧).

و كيف لا يلحق بهم الويل و الثبور و هم يتمردون على أوامر الله و أحكامه، فلا يتبعون رسله و لا يصدقون آياته « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ارْكَعُوا لَا يَزَكُّوْنَ »؟! بلى. سوف يلحقهم العذاب (الآيات ٤٨-٤٩).

و يختتم ربنا سورة المرسلات متسائلا سؤال استنكار: « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ »؟! و ذلك مما يؤكد القول بأن الإيمان بالآخره
و حديثها حجر الأساس فى صرح الإيمان بكل المبادئ و الحقائق الأخرى، و هذا ما يجعل حديثها مذكورا على الدوام فى آيات
الوحي و بصوره مفصّله (الآيه ٥٠).

ص: ٢٠٥

[سوره المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ٥٠]

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عِذْرًا أَوْ نَذْرًا (٦) إِنَّهَا تُوَعَّدُونَ لِقَائِهِ (٧) فإِذَا النُّجُومُ طُمَسَتْ (٨) وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسْفَتْ (١٠) وَ إِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصِيلِ (١٣) وَ مِمَّا أَذْرَاكَ (١٤) يَوْمَ الْفَصِيلِ (١٤) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْبَارِضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَ أَمْوَاتًا (٢٦) وَ جَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامِخَاتٍ وَ أَشْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظِلِيلٍ وَ لَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَاصِرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ (٣٩) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَ عُيُونٍ (٤١) وَ قَوَارِكِهِمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُّوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا - إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَ يَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

اللغة

٨[طمست]:قال البعض: أى أنّ النجوم يذهب ضياؤها حتى تصير بلا ضياء أو نور، والأصح: أنّ ذات النجوم تطمس فلا يبقى منها شيء أو أثر، جاء في مفردات الراغب:

الطمس إزالة الأثر بالمحو، قال- تبارك و تعالى-: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ» أى أزل صورتها، «وَ لَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَيْنَا أَعْيُنَهُمْ» أى أزلنا ضوءها و صورتها كما يطمس الأثر.

٢١]مكنين]:مستحكم،و قال القرطبي:اي فى مكان حرىز و هو الرعم.

٣٢]كالقصر]:قيل:هو البنان الضخم،وقيل:أصل الشجر،و قال البعض:أنّ الأوّل أظهر و الثانى أنسب.

٣٣]جمالت صفر]:جمل أصفى،قال البعض:شزر النار كالجمل الأصفر فى لونه،بعد ما كان بقدر القصر فى حجمه،و تشبىه الشرر بالجماله لأنّه لتتابعه و تطايرها كالجملات التى ترتع هنا و هناك.

ص:٢٠٨

بينات من الآيات:

[١٠-١] رأيت الذى يكذب بوعد الله يلغيه؟ كلاً..إنه يرتكب أكبر جريمه بتكذيبه بالحق،فله الويل ثم له الويل.

و أنى له التكذيب بما تواترت شواهدة،وظافت آياته،بوعد الله الواقع الذى تكثرت مصاديقه على امتداد التاريخ،و هذه الرياح التى يرسلها ربها بالعذاب حيناً وبالخيرات أحياناً؛إنها بعض آيات الوعد الإلهى.قسما بها و بالملائكة الموكلين بها و بما تقدمته لنا من الإعدار و الإنذار:إن وعد الله لواقع.

هكذا ترى كلمات القسم التى اختلف فى تفسيرها و تأويلها،إلا أنها تتصل-أنى كان تأويلها-بتلك الحقيقه العظمى:وقوع وعد الله،كاتصال الشاهد الحضار بالغائب المنتظر،و كاتصال الحجج بالحقائق،و الإرهاصات بالوقائع..و هكذا سائر ما فى الذكر الحكيم من قسم يتصل بما يقسم عليه اتصالاً

واقعيًا. بلى. قد نجهل علاقه بعضه ببعض، و لكننا نعرفها عند التدبر العميق فيها.

□
[وَ الْمُرْسَلَاتِ عُزْفًا] اختلفوا في تأويل «المرسلات» إلى رأيين أساسيين:

الأول: أنها الرياح، قال في المجمع: و المرسلات يعنى الرياح، أرسلت متتابعه كعرف الفرس عن ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد و قتاده و أبى صالح، فعلى هذا يكون «عرفا» نصباً على الحال من قولهم: جاؤوا إليه عرفاً واحداً، أى متتابعين (١). و قد استدل أصحاب هذا الرأى

بقول رسول الله صلى الله عليه و آله: «الرياح ثمان: أربع منها عذاب، و أربع منها رحمه، فالعذاب منها: العاصف، و الصرصر، و العقيم، و القاصف، و الرحمه منها: الناشرات، و المبشّرات، و المرسلات، و الذّاريات. فيرسل الله المرسلات فتثير السحاب، ثم يرسل المبشّرات فتقلع السحاب، ثم يرسل الذّاريات فتحمل السحاب فتدرّ كما تدرّ اللقحه، ثم تمطر و هى اللواقح، ثم يرسل الناشرات فتتشر ما أراد» (٢)، و

في نفس المصدر: قام رجل إلى علىّ عليه السلام فقال: ما العاصفات عصفاً؟ قال: «الرياح» (٣).

الثانى: أنها الملائكه، و فسّرت «عرفاً» على أنها أرسلت بالمعروف من أمر الله و نهيه (٤)، و قيل: إنهم الأنبياء و الرسل، الذين أرسلوا بالوحي المشتمل على كلّ خير و معروف، فإنّه لا شك أنّهم أرسلوا بلا إله إلاّ الله، و هو مفتاح كلّ خير و معروف (٥).

ص: ٢١١

١-١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤١٥.

٢-٢) الدر المنثور ج ٦ ص ٣٠٣.

٣-٣) المصدر.

٤-٤) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤١٥.

٥-٥) التفسير الكبير ج ٣٠ ص ٢٤٧.

و الذى يبدو لى إمكانيه الجمع بين القولين، إذا عرفنا أنّ للرياح ملائكه موكله بها ترسلها و تزجرها بأمر الله، بالذات و أنّ الصيغه جاءت للمبنى للمجهول. و من هذا المنطلق نستطيع القول بأنّ الآيات ظاهرها الرياح و باطنها الملائكه، أمّا عن إلقاء الذكر الذى نتلوه فى السياق فيمكن تأويله بالرياح و الملائكه معا، فإذا أولنا «المرسلات» بالملائكه فإنّها تلقى وحي الله و آياته إلى الأنبياء ثم إلى الناس. و إذا أولناها بالرياح فإنّها الأخرى تلقى الغيث الذى يعدّ تذكره للناس.

و يمكن أن يقال بأنّ «المرسلات عرفا» تعنى الرياح التى تكون فى صالح الناس و خيرهم، أى المرسلات بما يعرفه الناس و يستسيغونه من غيث و بشاره.

و أتى كان فإنّ إجمال مثل هذه الكلمات يجعلنا نوصل الحقائق ببعضها، فلا نميّز بين الرياح المرسلات بالغيث و البركه و بين الملائكه الموكّلين بها أو المرسلين بالوحي و الرساله، فإنّ فائده القسم تتحقّق بهما، كما أنّهما معا من شواهد وعد الله، و يصحّ القسم بهما، و هذا من روائع النهج القرآنى فى الأدب.

فَالْعَاصِفَاتِ عَصِيفًا فِي التَّبْيَانِ: يعنى الرياح الهابّه بشدّه، و العصوف مرور الريح بشده، و عصفت الريح تعصف عصفًا و عصفوا إذا اشتدّ هبوبها (١)، و إذا صرفنا المعنى إلى الملائكه فللعصف وجهان: أحدهما: السرعه، فإنّ العرب تقول: فرس عصف أى سريع الحركة، قال العلامة الطباطبائي: و المراد بالعصف سرعه السير، استعاره من عصف الرياح أى سرعه هبوبها، إشاره إلى سرعه سيرها إلى ما أرسلت إليه (٢)، و الوجه الآخر: الإهلاك و التدمير، قال الرازي: يعنى أنّ الله لما أرسل أولئك

ص: ٢١٢

١- (١) التبيان/ج ١٠ ص ٢٢٣.

٢- (٢) الميزان/ج ٢٠ ص ١٤٦.

الملائكة فهم يعصفون بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء إذا أباده و أهلكه (١)، و عصفت الحرب بالقوم أى ذهبت بهم و أهلكتهم، و يقال: عصف الدهر بهم أى أبادهم (٢).

و يبدو أنّ الأقرب إلى السياق تأويل العصف بسرعه الرياح فى حمل الغيث، و ليس فى سرعتها فى الإهلاك.

و النَّاشِرَاتِ نَشْرًا إِذَا قَلْنَا أَنَّهَا رِيَّاحٌ فَهِيَ تَنْشُرُ السَّحَابَ فِى الْآفَاقِ، و تَنْشُرُ الْغَيْثَ و الرَّحْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ مِنْ زَرْعٍ وَ غَيْرِهِ، كَمَا أَنَّهَا تَنْشُرُ الْحَبُوبَ وَ اللَّقَاحَ فِى بَقَاعِ الْأَرْضِ الْمَخْتَلِفَةِ، كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَنْشُرْنَ أَجْنَحَتَهُنَّ فِى الْجَوِّ عِنْدَ انْحِطَاطِهِنَّ بِالْوَحْيِ (٣)، و تَنْشُرُ الْكُتُبَ عَنِ اللَّهِ (٤)، أو تَنْشُرُ الرَّحْمَةَ وَ الْعَذَابَ، أو تَنْشُرُ الْكُتُبَ يَوْمَ الْحِسَابِ (٥).

فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا قِيلَ: أَنَّهَا رِيَّاحٌ تَتَفَرَّقُ بَيْنَ السَّحَابِ فَتَبَدِّدُهُ (بعد اجتماع، ليقف المطر، و تطلع الشمس، و يظهر وجه السماء بعد الغيب) عن مجاهد (٦)، كما تفرّق الملائكة بين الحقّ و الباطل بما تنزل به من الآيات و الوحي عن الله على رسله. هكذا فى التبيان (٧) و التفسير الكبير (٨).

ص: ٢١٣

- ١-١) التفسير الكبير/ج ٣٠ ص ٢٦٤.
- ٢-٢) المنجد/ماده عصف.
- ٣-٣) الكشاف/ج ٤ ص ٤١٠.
- ٤-٤) التبيان/ج ١٠ ص ٢٢٣.
- ٥-٥) التفسير الكبير/ج ٣٠ ص ٢٦٤.
- ٦-٦) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٢٦٦.
- ٧-٧) التبيان/ج ١٠ ص ٢٢٤.
- ٨-٨) التفسير الكبير/ج ٣٠ ص ٢٦٦.

فَأَمْلَيْتُمْ أَنْ تَقْرَأَ الْمَلَائِكَةُ تَلْقَى رِسَالَاتِ اللَّهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَلَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيْسَتْ وَحدهَا الَّتِي تَذَكِّرُنَا بِاللَّهِ إِذَارًا وَإِعْذَارًا فَإِنَّ الرِّيحَ تَفْعَلُ ذَلِكَ أَيْضًا، لَا فَرْقَ إِنْ كَانَتْ رِيحَ عَذَابٍ أَوْ رِيحَ رَحْمَةٍ، وَالغَيْثُ النَّازِلُ مِنْهَا هُوَ الْآخِرُ ذَكَرَ عَظِيمٌ بِاعْتِبَارِهِ يَذَكِّرُنَا بِالْبَعْثِ وَالْخُرُوجِ عِنْدَ مَا يُسْقَى الْأَرْضَ فَتَرَاهَا اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ، وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ تَفَسِّرُ لَنَا اقْتِرَانَ الْكَلَامِ عَنِ الْقُرْآنِ وَرِسَالَاتِ اللَّهِ كَثِيرًا بِالْحَدِيثِ عَنِ مَنَظَرِ الْغَيْثِ وَمَا يَتْلُوهُ مِنْ ظَوَاهِرِ طَبِيعِيهِ عَلَى الْأَرْضِ.

عُذْرًا عَذْرًا بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ حَيْثُ أَلْقَى اللَّهُ الذِّكْرَ عِبْرَ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ حَذَّرَهُمْ وَذَكَرَهُمْ بِالرِّيحِ الْعَاصِفِ.. كُلُّ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ.

أَوْ نُذْرًا وَالْإِنذَارَ مَعْرُوفٌ، وَلَكِنْ نَتَسَاءَلُ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِعْذَارِ، وَلَعَلَّ الْجَوَابَ:

أَنَّ الْإِعْذَارَ يَأْتِي عِنْدَ مَا لَا يَسْتَجِيبُ الْإِنْسَانُ لِلْإِنذَارِ، بَيْنَمَا الْإِنذَارُ أَعْمٌ، وَرَبَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْاسْتِجَابَةِ إِذَا قُورِنَ بِالْإِعْذَارِ، وَقَدْ قِيلَ: لَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ، وَرَبَّمَا يَعُودُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى جَمَلُهُ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسِّرُونَ، قَالَ شَيْخُ الطَّائِفَةِ: وَقِيلَ: إِعْذَارًا مِنَ اللَّهِ، وَإِنذَارًا إِلَى خَلْقِهِ مَا أَلْقَتْهُ الْمَلَائِكَةُ مِنَ الذِّكْرِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ، وَأَضَافَ: فَالْعِقَابُ عَلَى الْقَبِيحِ بَعْدَ الْإِنذَارِ يُوْجِبُ الْعِذْرَ فِي وَقُوعِهِ، وَإِنْ كَانَ بِخِلَافِ مَرَادِ الْعَبْدِ الَّذِي اسْتَحَقَّهُ (١).

وَقِيلَ: عَذْرًا يَعْتَذِرُ اللَّهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ فِي الْعِقَابِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْحُكْمِ، وَنَذْرًا: أَيْ إِعْلَامًا بِمَوْضُوعِ الْمَخَافَةِ، عَنِ الْحَسَنِ (٢).

ص: ٢١٤

١-١) التبيان/ج ١٠ ص ٢٢٤.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٥.

وإنَّ أهم ما تلقيه المرسلات ملائكه ورياحا تذكيها بالآخِره و بأنَّ وعد الله صادق. أ و ليس تتلاحق الظواهر الطبيعيه في الكائنات فتأتي الرياح مرسلات عاصفات ناشرات فارقات، و تأتي بعدها المواسم الخيره و السنين المباركه، أو تأتي العواصف الهوج و يأتي من بعدها الدمار؟ أ وليست هذه الظواهر يشهد أولها على آخرها؟ كذلك شواهد العذاب تنذرنا بوعد الله الواقع به، كما شواهد الرحمه تبشّرنا بوعد الله الواقع بها.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ و هذا جواب القسم المتقدم في الآيات السابقه، و هو مدعوم بثلاثه تأكيدات:

إنَّ، و الحصر، و اللام في: «لواقِع». و مع أنَّ البعض حصر الوعد في القيامه و احتجَّ: بأنَّه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات علامات يوم القيامه (١)، إلاَّ- أننى أختار الإطلاق الشامل لكلِّ وعد إلهي، كوعده بنصر المؤمنين و دحر الظلمه، و إحياء الأرض بعد موتها بالمؤمنين، و غلبه دينه و رسله و المؤمنين على الدّين كلّه في آخر الزمان بظهور منقذ البشريه الإمام الحجه المنتظر-عجل الله فرجه- و الذى يهدينا إلى هذا التفسير الشامل هو أنَّ القرآن حمّال ذو وجوه، و تفسيره يكون أصحًا كلّما كان أشمل، و قد وجدت من قال بإطلاق الوعد من المتقدمين الكلبى الذى قال:

المراد أنَّ كلّ ما توعدون به من الخير و الشر لواقع. و حيث أنَّ وعد الله بالبعث و الحساب و الجزاء هو أظهر مصاديق الوعد و أقربها إلى الأذهان كما إلى دلالة السياق فإنَّه الأظهر تأويلا من أى مصاديق آخر.

و إنَّ اطمئنان الإنسان لوعد ربه- و بالذات الآخِره- أمر فى غايه الأهميه، باعتباره يبعث روح التسليم لله فى كلّ أبعاد الحياه، و يبعث فاعليه العمل و تقوى

ص: ٢١٥

الالتزام بشرائعه و مناهجه.. فلو يؤس المؤمنون من الإنتصار و التغيير لما أكملوا مسيره الجهاد و الإصلاح، و لو كفر الإنسان بالآخره (البعث و الحساب و الجزاء) لما التزم بالنظم و الشرائع الإلهيه، ذلك أنّ الإيمان بسنّه الجزاء الممتده من الدنيا إلى الآخره هو الذى يحرك فيه روح الانضباط و المسؤوليه.

و الذى يتدبر آيات القران فى موضوع الآخره يلاحظ أنّها أصبحت من الكثره و التفصيل و التأكيد من أبرز خصائص هذا الكتاب ممّا يبعث السؤال عن سبب ذلك و خلفياته.

لعلّ أهم الأسباب هى التاليه:

أولاً: أهميه موضوع الآخره، فإنّ الآخره - كما سبق و أن قلنا فى مواضع كثيره - تعتبر حجر الأساس فى تفكير الإنسان المؤمن و إيمانه.

ثانياً: إنّ الآخره غيب فى المستقبل و الإسلام يريد لها حاضره فى وعى المؤمنين، من هنا يفصل الحديث فيها و ينوعه و يكرره حتى يوصل ذلك الغيب إلى مستوى الشهود عندهم، لذا نجد القرآن بعد الإشاره إلى الآخره يبيّن الأمر و يفصل فى توجيهنا إلى مشاهدتها العظيمة.

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ قَالَ الْقَمِي: يذهب نورها و تسقط (١)، و قال العلامة الطوسى: و الطمس محو الأثر الدال على الشىء، و الطمس على النجوم كالطمس على الكتاب، لأنّه يذهب نورها و العلامات التى كانت تعرف بها (٢)، و قال الفخر الرازى: يحتمل أن يكون

ص: ٢١٤

١-١) تفسير القمى/ ج ٢ ص ٤٠٠.

٢-٢) التبيان/ ج ١٠ ص ٢٢٥.

المراد محقت ذاتها، و هو موافق لقوله «انتشرت» و«انكدرت» و أن يكون المراد:

محقت أنوارها، و الأوّل أولى لأنّه لا حاجة فيه إلى الإضمام (1). و الأقرب عندي ما قاله الرازى لأنّ أصل الطمس من المحو و غياب المطموس.

كما يظهر من ملاحظه الآيات القرآنيه التي تناولت موضوع القيامه من زاويه حال النجوم يومئذ أنّها كما الجبال تمرّ بمراحل حتى تنتهى و تزول، فهى تنشر عن بعضها و نسقها بسبب اختلال نظامها الكونى أوّلا، ثم تنكدر واحده واحده، ثم تطمس تماما فلا يبقى منها شعاع يدلّ عليها.

وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ

فى تفسير القمى: «تنفرج و تنشق» هكذا جاء فى روايه عن أبى الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام (2)، و فى مجمع البيان: أى صارت فيها فروج (3)، بعد أن كانت محبوبه محكمه لا ثغره فى نظامها و لا منفذ فى بنائها أبدا (لا تفاوت و لا فطورا)، و لعل هذه مرحله أوليه تعقبها مراحل متتاليه أخرى. و حسبما يظهر من آيات كريمه أخرى:

أنّ مراد القرآن من ذكر تبدل نظام الخلقه سلب اعتماد الإنسان عليه، ليصبح وجهها لوجه أمام مسئولياته، فالسمااء التي كانت سقفا محفوظا تصبح يومئذ واهيه، و الجبال التي كانت ملاذا و كهفا تصبح كثيبا مهيبا، و الأرض التي كانت مهدا مطمئنا تميد بزلازل عظيم، و هكذا.

وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ قَالُوا: نَسَفَ الْبِنَاء: قلعه من أصله، و الجبال: دكّها.. و نحن ندرک ما ذا يعنى

ص: ٢١٧

١-١) التفسير الكبير/ ج ٣٠ ص ٢٦٩.

٢-٢) تفسير القمى/ ج ٢ ص ٤٠٠.

٣-٣) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٤١٥ بتصرف.

نسف الجبال التي جعلها الله أوتاد الأرض، فلا تستقرّ و تميد بأهلها و يتحطم نظامها بحيث لا تصلح للعيش.

و تلك كلّها بعض مشاهد القيامة الرهيبة، و لك أن تتصوّر هذا المخلوق الضعيف كيف يعاصر تلك الأهوال الكونيّة، و أنّي له بركن يأوى إليه منها؟! إلا أن يكون قد سعى سعيًا صالحًا يخلّصه منها.

[١٩-١١] و يبقى المشهد الأهم من ذلك و الموقف العصيب حينما يحين ميعاد الشهادة فيأتي الرسل شهداء على المكذّبين من أممهم.

وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتَتْ جَعَلَ لَهَا مِيعَادٌ مُّحَدَّدٌ فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ لِلإِبْتِعَاثِ وَ فِي أَرْضٍ مَعْلُومَةٍ وَ لَهُمْ وَقْتٌ مَعْلُومٌ لِلشَّهَادَةِ، وَ ذَلِكَ يَهْدِينَا إِلَى أَنَّ حَرَكَةَ الأنبياء وَ بَعْثَهُمْ لَيْسَتْ إعتبَاطِيَةً بَلْ هُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ يَسِيرُونَ عَلَى أُسَاسِ حُكْمِهِ الإِلهِيِّ، فَلَوْ أَنَّنا دَرَسْنَا حَرَكَتَهُمُ التَّارِيخِيَّةَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا وَ حَيْثِيَّاتِهَا لَوَجَدْنَا أَنَّ بَعْثَهُمْ قَائِمٌ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ القَوَانِينِ الإِجْتِمَاعِيَّةِ وَ الحَضَارِيَّةِ، بِحَيْثُ أَنَّ زَمَنَ بَعْثِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ مَكَانَ بَعْثِهِ مِثْلًا كَانَا مُنَاسِبِينَ تَمَامًا لِرِسَالَتِهِ وَ دَوْرِهِ، وَ رَبْمَا

أشار إلى ذلك الإمام الباقر عليه السلام في روايه أبي الجارود عنه قال: «بعثت في أوقات مختلفة» (١). كما أنّ شهاداتهم في الآخرة لا تبدأ في أيّ وقت أو بمجرد أن تقوم القيامة بالبعث، كلاً.. بل للرسل ميقات معلوم لا تؤدّي دورها المناسب إلا فيه.

لَأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ قَالَ العَلَّامَةُ الطَّبَّاطِبَائِيُّ: الأَجَلُ المَدَّةُ المَضْرُوبَةُ للشَّيْءِ، وَ التَّأْجِيلُ جَعَلَ

ص: ٢١٨

الأجل للشئ، و يستعمل فى لازمه و هو التأخير، كقولهم: دين مؤجل أى له مدّه بخلاف الحال، و هذا المعنى هو الأنسب للآيه (١). و قد اختلف فى الشئ الذى يعود عليه الضمير من «أجلت»، فقال صاحب الميزان أنه: للأمر المذكور قبالاً من طمس النجوم، و فرج السماء، و نسف الجبال، و تأقيت الرسل، و المعنى:

لأى يوم أخرت يوم أخرت هذه الأمور (٢)، و قيل: هو عائد إلى الرسل فقط. و مع أنّ لرأى صاحب الميزان محمل فى الآيات حيث تفيد «إذا» الواردة فى الآيات كلها معنى التأجيل، إلا أنّ الأقرب هو عوده الضمير إلى الرسل باعتبار التصاق كلمه «أقتت» بهم دون النجوم و السماء و الجبال، و لأنّهم أصحاب الشهاده و ميزان الفصل بين الناس عند ربّ العزّه، الذى جعل لهم شهادتين متكاملتين: إحداهما فى الدنيا بقيامهم شهداء لله بالقسط و قد تقدّمت، و الأخرى فى الآخرة، بجعلهم الحجّه و المعيار فى محكمه القيامة، و قد أجلها ربنا لذلك اليوم.

ليوم الفصل بين الناس فى اختلافهم من كلّ الجهات، و بين أهل الجنه و أهل النار، و سمّيت القيامة بيوم الفصل لأنّها اليوم الذى يفصل فيه الخطاب و يحكم للناس فى مصائرهم. و إذا كانت الآخرة مقسّمه أياماً و مراحل فإنّ الرسل يدلون بشهاداتهم ليس فى يوم البعث عموماً - حسبما يبدو - بل فى ساعات الفصل عند الميزان.

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ إِنَّهُ يَوْمٌ رَهيبٌ لَا يُمْكِنُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْتَوْعِبَ أَحْدَاثَهُ وَ وَقَائِعَهُ عَلَى طَبِيعَتِهَا وَ بِحَجْمِهَا

ص: ٢١٩

١-١) تفسير الميزان/ ج ٢٠ ص ١٤٩.

٢-٢) المصدر.

أبدا مهما عرّف له، و ذلك لأنّ تلك الحقائق كبيره ليست بحجم معارفنا، فهل نقدر أن نستوعب-مثلا-معنى انفجار ألف قبله نوويه فى لحظه واحده؟ كلاً.. من هنا يؤكّد ربّنا فى مواضع كثيره بعد الحديث عن الآخره القول: «و ما أدراك» تاره و ما يدريك تاره أخرى.

و لا يفصل السياق فى بيان أحوال الناس و مصائرهم يومئذ، بل يكتفى بإشاره تتضمّن الوعيد و الإنذار بمصير أولئك المكذّبين بالآخره، الذين أبعدها عن أفكارهم مشاهد الحساب و حقائق الجزاء الأكبر فيها، فأطلقوا لأنفسهم عنان الهوى و الشهوه، و تخبّطوا فى الجريمة و الفاحشه خبط عشواء، دون أدنى حساب أو إحساس بالمسؤوليه.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و كلمه «ويل» كما تكرّر القول مطلقه تشمل ألوان العذاب المادى و المعنوى، و التى تتجسّد فى واد من أشدّ أوديه جهنم خزيا و عذابا، و لهذا تخصّص الويل بقوله تعالى: «يومئذ» حيث لا يعنى أنّهم لا ويل لهم هنا فى الدنيا، و لكنّه يحمل على أشدّ ألوان الويل هناك، باعتبار ذلك اليوم أظهر مصاديق ورطتهم فى الويلات و الثبور.

و أى ويل هذا الذى يهدّد به القرآن المكذّبين؟ لكى نعرفه دعنا نتذكّر نموذجا صغيرا منه يتمثّل فى عذاب المكذّبين فى الدنيا.

و هكذا يذكّرنا القرآن بعاقبه المكذّبين فى الدنيا عبر أرقام و حقائق ماديه محسوسه لا تقلّ حقيقه الآخره عنها وضوحا لدى العقلاء إن لم تكن أشدّ و أصفى، فيتساءل السياق سؤال مستثير لأولى الألباب نحو التفكير فى مصائر المكذّبين من خلال دراسته

التجارب التي خلفها الآخرون.

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأُولِينَ * ثُمَّ نُثَبِّهُمُ الْآخِرِينَ وَ يُمْكِنُنَا حَمْلَ الْهَلَاكِ عَلَى مَحْمَلِينَ:

الأول: أنه الهلاك بالموت، ونحن لا نكاد نقرأ آيات تحدّثنا عن سنّه الجزاء و حقيقه الآخره إلا و نقرأ إلى جانبها حديثا عن سنّه الموت، و السبب أنه تعالى يريد هدايتنا إلى أن الآخره و الجزاء حقّ كما الموت حق، و أنّ تكذيب أحد بهما لا يمكن أن يغيّر من واقعهما شيئا، كما لا يغيّر تكذيبه بوعد الله الواقع بالموت ذلك الحق، و الدليل واضح في مسيره البشريه حيث أهلك الله الأولين و أتبعهم بالآخرين و الحبل على الجرار حتى لا يبقى أحد إلا وجهه عزّ و جلّ.

الثاني: الهلاك بالأخذ و العذاب المتأسيّس على سنّه الجزاء الإلهي في الحياه، و هذا أقرب إلى السياق الذي يتوعّد بالمكذّبين و لا يزال بالويل و يؤكّد على الجزاء، كما تؤيده الآيه التاليه:

كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ فَهِيَ إِذْنٌ سَنَّهُ جَارِيَهُ فِي الْحَيَاةِ لَا تَتَغَيَّرُ مَعَ الزَّمَنِ، وَ هَكَذَا تَضَعُ الْآيَةُ الْإِنْسَانَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَ مَكَانٍ أَمَامَ تِلْكَ السَّنَةِ لَكِي لَا يَتَصَوَّرُ أَنَّهَا مَحْدُودَةٌ فِي الْمَجْرِمِينَ التَّارِيخِيِّينَ وَ حُدُودَهُمْ. وَ يَعُودُ السِّيَاقُ يُوَصِّلُ حَقَائِقَ الْمَاضِي بِالْمُسْتَقْبَلِ مِنْ خِلَالِ سَنَةِ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ، إِذْ أَنَّهَا أَشَدُّ وَقَعًا عَلَى الْمَجْرِمِينَ مِنْ أَخْذِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

وَيُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ وَ كَفَى بِأَهْلَاكِ الْمَجْرِمِينَ فِي الدُّنْيَا دَلِيلًا إِلَى عَذَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ. وَ إِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَى

الويل كنتيجة طبيعيه لتكذيبهم بقياده الحق و نهجه فى الحياه، و انصرفهم عنهما إلى قياده ضاله و منهج خاطئ يقودان الإنسان إلى الويل بعد الويل.

[٢٤-٢٠] و لما ذا يكذب الإنسان بآيات ربه و بالذات حقيقه الآخريه؟ لما ذا يكذب بالبعث و النشور بعد الموت؟ هل لأن الآيات الهاديه إلى ذلك غير قائمه، و لأن معرفته بربه و بقدرته الواسعه التى لا تحد ناقصه؟ كلاً.. فلنتفكر فى أصل خلقتنا، و كيف أنها آيه بينه تهدى إلى الإيمان بقدرته تعالى على كل شىء، فلقد انطلقنا فى الحياه الدنيا من حويمن صغير و حقير و مستقذر لا يرى إلا بالمجاهر المكبره، استقر ليس بإرادتنا بل بمشيئه الله فى رحم أمهاتنا، ثم نمّاه الله ضمن ملايين القوانين و السنن التى نجعل أكثرها فضلاً عن ادعاء التحكم فيها، حتى خلقنا بشراً سوياً ذكراً أو أنثى. و ربنا يضعنا أمام هذه الحقائق الفطريه التى لا سبيل لأحد إلى إنكارها.

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ قَالَ الْقَمِي: منتن (١)، و قيل: حقير، و عليه أكثر المفسرين، و إنَّ المتأمل ليرى كل أسباب الهوان فى ذلك الماء، فحجمه صغير، و رائحته منتنه، و هو مستقذر عند الإنسان نفسه فلا يقيم له وزناً، و لك أن تعجب إذا عجبت من البشر حينما يتكبر و يركب مطيه الغرور، ليس فى مقابل بنى جنسه و حسب، بل فى مقابل ربه العظيم أيضاً!! و حقّ لأمر المؤمنين على عليه السلام أن يعجب

فيقول: «و عجبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفه، و يكون غدا جيفه» (إلى أن يقول:): و عجبت لمن أنكر النشأ الأخرى و هو يرى النشأ الأولى « (٢)، و إنّه لعجب حقاً أن ينسى الإنسان فضل ربه عليه و إكرامه له بعد أن كان مهيناً، فإذا به و هو المخلوق الضعيف يكذب ربّ

ص: ٢٢٢

١- (١) تفسير القمى / ج ٢ ص ٤٠٠.

٢- (٢) نهج البلاغه / حكمه ١٢٤.

العزّه جيّار السموات و الأرض!! ثم إنّه تعالى جعل ذلك الماء المهين في رحم الأم يحفظه و ينشأ فيه ناميا صفه بعد صفه و مرحله بعد الأخرى، تحوطه و ترعاه يد الغيب بما يعجز الإنسان نفسه عن إحصائه من السنن و القوانين المحكمه التي تثبتته في الرحم، و تمكّنه من العيش و النموّ فيه، دون أن يكون للأبوين شأن في ذلك الحمل.

فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ فِي التّبيان:القرار:المكان الذى يمكن أن يطول مكث الشىء فيه، و منه قولهم:قرّ في المكان إذا ثبت على طول المكث فيه (١) و استقر. و غصّ أكثر المفسرين الطرف عن المكين، بينما ذكر صاحب المنجد أنّه المتمكّن: و المكين ذو المكانه، و استمكن استولى، و تمكّن من الشىء قدر عليه (٢)، و وجدت في الميزان هذا النص: و المكين: المتمكّن، و صفت به الرحم لتمكّنها في حفظ النطفه من الضيعة و الفساد، أو لكون النطفه مستقره متمكّنه فيها، و المعنى: ثم جعلنا الإنسان نطفه في مستقرّ متمكّن و هى الرحم (٣). و قوله تعالى: «فجعلنا» تأكيد على الفعل الإلهي في الأمر إذ هو بعيد عن كلّ فاعل و مرید سواه سبحانه، و ذلك

ما يؤكّده الإمام على عليه السلام في واحده من خطبه التي تطرّق فيها إلى هذا الأمر، قال: «أيّها المخلوق السويّ، و المنشأ المرعى في ظلمات الأرحام، و مضاعفات الأستار، بدئت من سلاله من طين، و وضعت «فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ»، و أجل مقسوم، تمور في بطن أمّيك جنينا لا- تحير دعاء، و لا تسمع نداء، ثم أخرجت من مقرّك إلى دار لم تشهدا، و لم تعرف سبل منافعها، فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدى أمك،

ص: ٢٢٣

١-١) التبيان/ج ١٠ ص ٢٢٨.

٢-٢) المنجد/ماده مكن.

٣-٣) الميزان/ج ١٥ ص ٢٠.

و عرّفك عند الحاجة مواضع طلبك و إرادتك؟ « (١) ، و الملاحظ استخدام الإمام في الأفعال صيغه البناء للمجهول (المنشأ، بدئت، وضعت، أخرجت) و كذلك هداك و عرفك، و الهدف هو التأكيد على الإرادة الإلهية في الخلق.

ثم أنّ خلقه الإنسان لا- تتحرّك في الفراغ و لا- على أساس الصدفة، إنّما هي قائمه على الحكمة الدقيقه، و التدبير الإلهيّ المتين، حيث القوانين التي تجلّي إرادته الله و حكمته للمتدبر، فالجنين لا ينمو و لا يمكث بلا قدر و لا قانون في بطن أمه، بل كما وصف الله تعالى:

إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ و حيث يخرج يكون مهينًا لممارسه الحياه خارج الرحم، و تكون أمه مستعدة نفسيًا و بدنيًا لاستقباله و هكذا عائلته. قال الزمخشري: إلى مقدار معلوم، قد علمه الله و حكم به و هو تسعه أشهر أو ما دونها أو ما فوقها (٢)، و قال القمي: منتهى الأجل (٣). و حين يحلّ الأجل فإنّ الأم لا تستطيع أن توقف التحول النفسي و البيولوجي الذي يحدث في كيانها و توقف حركه الجنين باتجاه الخروج، كما لا يملك الجنين نفسه من أمره شيئًا، بل هي الإرادة الإلهية وحدها تصنع ما تشاء و تتسع كلمه القدر إلى معاني عدّه نجمها في إثنين:

الأول: المقدار و الحدّ، فيكون المعنى أنّ الجنين من الناحية النفسية و العضويه و هكذا الزمنيه محدّد بمقادير و مقاييس إلهيه حكيمه يعلمها عزّ و جلّ.

الثاني: القدر و المصير، فقد جعل الماء في قرار مكين لكي ينتهي إلى قدر إلهي

ص: ٢٢٤

١- (١) نهج البلاغه/خ ١٦٣.

٢- (٢) الكشاف/ج ٤ ص ٦٧٩.

٣- (٣) تفسير القمي/ج ٢ ص ٤٠٠.

يعلمه تعالى، فقد يكون قدره أن يصبح ذكرا أو أنثى أو بينهما، أو يخرج تامًا أو معيبًا، أو حيًا أو ميتًا، ثم إذا خرج إلى الحياه الدنيا فإنه يتحرّك وفق أقدار يعلمها الله، و إلى مصير محدّد، ربما يكون السعاده و الجنه، و ربما يكون الشقاء و النار، أو يكون الفقر و الصحه، أو الغنى و المرض، أو.. أو..، و لا تعنى الآيه أنّ كلّ إنسان يأتي إلى الحياه الدنيا ليعيش ضمن أقدار محدّده يجبر عليها، بل هي تكشف عن علم الله المطلق بما يؤول إليه من خير أو شر. و قوله: «معلوم» يفيد التحديد من جهه، و الإطلاق من جهه ثانيه، فأما التحديد فإنّ مسيره الإنسان في وضعها الطبيعي و النسبي محكوم به بمعطيات و أقدار محدّده يمكن لنا معرفتها عبر العلم و التجربه، كميعاد الولاده و ما أشبه..، و أمّا الإطلاق فإنّ العلم اليقين بكلّ شيء و بالذات بعض الأمور فهو لله وحده يقدره و يعلمه، بحيث لا يستطيع بشر تحديده و معرفته.

فَقَدَرْنَا فَنَعْمَ الْقَادِرُونَ قَالَ ابْن جَرِيرٍ: فَمَلَكْنَا فَنَعْمَ الْمَالِكُونَ، و عن الضحّاك قال: فخلقنا فنعمة المالكون (1)، و في التبيان: معناه فقدّرنا من القدره فنعمة القادرون على تدبيره (2)، و في مجمع البيان: أي قدرنا خلقه كيف يكون قصيرا أو طويلا، ذكرا أم أنثى، فنعمة المقدّرون نحن، و يجوز أن يكون المعنى إذا خفّف (لأنّ المفسرين قرءوها بالتخفيف و التثليل) من القدره، أي قدرنا على جميع ذلك فنعمة القادرون على تدبير ذلك، و على ما لا يقدر عليه أحد إلّا نحن، فحذف المخصوص بالمدح (3)، و هذا ما احتمله العلامة الطباطبائي في الميزان و قال: من القدره مقابل العجز، و المراد فقدّرنا على جميع ذلك (4).

ص: ٢٢٥

١-١) الدر المنثور/ج ٦ ص ٣٠٦.

٢-٢) التبيان/ج ١٠ ص ٢٢٨.

٣-٣) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٧.

٤-٤) الميزان/ج ٢٠ ص ١٥٣.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا* أَحْيَاءَ وَ أَمْوَاتًا وَ الكفات السكن و الوعاء،

ففى الخبر نظر أمير المؤمنين عليه السلام فى رجوعه من صفين إلى المقابر فقال: «هذه كفات الأموات» أى مساكنهم، ثم نظر إلى بيوت الكوفة و الذى أختاره أن الكلمتين: «فقدرنا» و «القادرون» مشربتين اثنين من المعانى فى آن واحد: أحدهما التقدير بالحكمة و العلم، و الآخر قدره بالقوه و المشيئة، و لعمري إن المتفكر فى خلقه البشر يجد اسمى الحكيم و القادر متجلىين فيها بما لا يقبل ذره من الشك، لولا أن الإنسان يجعل بينه و بين الحقيقة حجاب التكذيب بالحق للهروب من المسئولية، فله الويل من الله إذا فعل ذلك.

وَيُلِّئُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و فى الآيه ملاحظه لطيفه عند قوله «يومئذ» فتلك ينبغى أن تكون إشاره إلى يوم الفصل الذى أشار إليه السياق فى السوره، و هو كذلك، بالإضافة إلى إحياء الكلمه بمعنى آخر، هو أن تلك الآيات الإلهيه المتجليه فى الخلقه تهدينا إلى أن الويل للمكذبين، فأى جريمه كبرى هى التكذيب بحقيقه عظمى كحقيقه الغيب و قدرته و حكمته! و الإشاره إلى ذلك ب «يومئذ» هو ترتيب على تلك النتيجة الحاصله، إذ لا يعقل أن الخالق الحكيم لا يقدر آخره بعد الدنيا و ذلك من مسلمات الحكمة الأوليه.

[٣٧-٢٥] من التفكر فى آفاق النفس الذى يقود الإنسان إلى التسليم لله و الإيمان بيوم الفصل تنطلق الآيات موجهه أبصارنا إلى آفاق الطبيعه من حولنا، فهى الأخرى تعكس أسماء الله و آياته الهاديه الى الحقائق.

فقال: «هذه كفات الأحياء» ثم تلا قوله: «الآيتين» (١)، و في مجمع البيان:

كفت الشيء يكفته كفتا و كفاتا إذا ضمّه، و منه

الحديث: «اكتفوا صبيانكم» أي ضمّوهم إلى أنفسكم، و يقال للوعاء: كفت و كفيت، و قال أبو عبيده كفاتا:

أي أوعيه (٢)، و عن قتاده و مجاهد و الشعبي: أي تحوزهم و تضمّمهم (٣)، و الأرض و عاء و سكن للخلائق تضمّم الناس الأحياء و الأموات، سواء بالمعنى الظاهر أو بالمعنى المجازى للكلمه حيث المؤمنين و الكفّار، و العلماء و الجهله.

وَ جَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ قال القمي: جبال مرتفعه (٤)، و لعلّ الآية تبيّن حقيقه جيولوجيه و هي أنّ للجبال قمّتين: قمّه راسيه في أعماق الأرض كقاعده البناء، و قمّه صاعده شامخه في آفاق السماء.

وَ أَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا و هناك علاقة بين الحديث عن الجبال و بين الحديث عن الماء الفرات، فإنّ أفضل المياه و أعذبها ما تتفجّر به ينابيع الجبال، و ما ينحدر منها إلى جوف الأرض و سفوحها و أنهارها.

قال الإمام علي-عليه السلام- يصف الأرض: «فلمّا سكن هيج الماء من تحت أكتافها، و حمل شواهد الجبال الشمخ البذخ (الطاغيه في الارتفاع) على أكتافها، فجّر ينابيع العيون من عرائن أنوفها (العرنين: ما صلب من عظم

ص: ٢٢٧

١-١) تفسير القمي/ج ٢ ص ٤٠٠.

٢-٢) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٦.

٣-٣) المصدر/ص ٤١٧.

٤-٤) تفسير القمي/ج ٢ ص ١٣٢.

الأنف، و المراد أعالي الجبال)، و فزّقتها في سهوب بيدها (جمع يبداء و هي الصحارى) و أخذ يدها، و عدّل حركاتها (يعنى الأرض) بالرّاسيات من جلاميدها و ذوات الشناخيب (القمم) الشّم من صياخيدها، فسكنت من الميدان لرسوب الجبال في قطع أديمها، و تغلغلها متسرّبه في جوبات خياشيمها (الجواب: الحفر، و الخياشيم:

منفذ التنفّس)، و ركوبها أعناق سهول الأرضين و جرائمها (المنحدرات)، و فسح بين الجوّ و بينها، ثم لم يدع جرز الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها، و لا تجد جداول الأنهار ذريعه إلى بلوغها، حتى أنشأ لها ناشئه سحب تحيي مواتها، و تستخرج نباتها.. « (١) و

قال الإمام الصادق عليه السلام: «انظر يا مفضّل إلى هذه الجبال المركومه من الطين و الحجاره، التي يحسبها الغافلون فاضلا لا حاجه إليها، و المنافع فيها كثيره، فمن ذلك أن يسقط عليها الثلوج فيبقى في قلالها لمن يحتاج إليه، و يذوب ما ذاب منه فتجرى منه العيون الغزيره التي تجتمع منها الأنهار العظام.. « (٢).

و جعل الله الأرض كفاتا، و جعله فيها الجبال الراسيه الشامخه، و سقينا بها الماء الفرات من ينابيع مخازنها، و ذو بان ما تقله من الثلوج، كلّها نعم إلهيه تستوجب الشكر و الحمد له، و من شكره اتباع رسله و رسالاته، إلا أنّ الإنسان غالبا ما لا يفعل ذلك، بل تراه كفورا مكذّبا، و ييل له يوم القيامة من شديد العذاب على قلّه حمده، و مقابلته إحسان ربه بالتكذيب.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَ عَذَابِهِ، فَإِنَّ غَضَبَهُ عَلَيْهِمْ وَ تَكْذِيبَهُمْ لِرَسُولِهِ وَ كَتْبَهُ يَسْتَحِيلَانِ فِي الْآخِرَةِ أَلْوَانًا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي لَا يَطَاقُ، يَنْطَلِقُونَ إِلَيْهِ بِزَجَرِ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَ مَقَامِعٍ مِنْ

ص: ٢٢٨

١-١) نهج البلاغه/خ ٩١ ص ١٣٢.

٢-٢) موسوعه بحار الأنوار/ج ٣ ص ١٢٦.

نار تُلظي، ولسان الحال قولاً و فعلاً ما حكى ربّ العزّه:

إِنطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ قَالَ الْعَلَامَةُ الطَّبْرَسِيُّ: يعنى من العقاب على الكفر، و دخول النار جزاء على المعاصى (١)، و علق الرازى بالقول: و الظاهر أنّ القائلين هم خزنة النار (٢)، و الذين يكذبون به هو الجزاء و النار، و التكذيب بذلك يعنى إنكاره، و إنكار الحقائق الأخرى بسبب هذا التكذيب.

إِنطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ و لعلّ الظلّ بسبب الدخان الذى يحجب النور، أو هو الظلام الحالِك، و قد اختلف المفسرون فى معنى «ثلاث شعَب» ، فقليل معناه: يتشعب من النار ثلاث شعَب: شعبه فوقه، و شعبه عن يمينه، و شعبه عن شماله فتحيط بالكافر (٣)، و قيل:

يخرج من النار لسان فيحيط بالكافر كالسرادق، فينشعب ثلاث شعَب فيكون فيها حتى يفرغ من الحساب (٤)، و فى اللغة: الشعبه جمعها شعَب و شعاب: الفرقه و الطائفه من الشىء، يقال: أشعب لى شعبه من المال أى أعطنى قطعه من مالك، و يسمّى الغصن من الشجره شعبه (٥)، و نفهم من ذلك أنّ الظل ينشعب إلى ثلاثه أقسام، و لعلّ المكذب يلقى فى كلّ شعبه ألوانا من العذاب تختلف عمّا فى الشعبتين الأخرين شده و نوعا.

ص: ٢٢٩

١-١) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٢٣٠.

٢-٢) التفسير الكبير/ج ٣٠ ص ٢٧٤.

٣-٣) التبيان/ج ١٠ ص ٢٣٠.

٤-٤) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٨.

٥-٥) المنجد/ماده شعَب بتصرف.

و يختلف ذلك الظل عن ظلّ الدنيا بصوره تامه، فإننا نأوى إلى الضلال فيها طلبا للراحه، و هربا من حرّ الشمس و لفحها، أمّا الظل المقصود في الآيه فإنه قطعه من عذاب جهنم.

□ لا- ظليلٍ معناه: غير مانع من الأذى يستر عنه.. فالظليل من الظلّه و هي الستره (١)، و سمى الظلال بذلك لأنه يحجب الشمس و يسترها و يمنع الحر. و ليس الظلال المشار إليه في الآيه يسبب الراحة لأهله.

□ وَ لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ وَ اللَّهَبِ مَا يعلو من ألسنه النار و حرّ لفحها، و ليس ذلك الظل يدفع عنهم حرّ لهب جهنم.

□ إنها ترمي بشررٍ كالقصرِ قيل: مثل القصور و الجبال (٢)، و

في حديث طويل عن النبي صلى الله عليه و آله في شأن النار: قال: «تزفر النار بمثل الجبال شررا» (٣)، و قيل: مثل أصول الأشجار المتشعبه الجذور، قال ابن عباس: كجذور الشجره، و عن مجاهد قال: حزم الشجر، و عن الضحاك قال: أصول الشجر العظام (٤). و العرب تشبه الإبل بالقصور (٥)، و المهم أنّ التشبيه بالقصر كناية عن الضخامه و التشعب معا و هما

ص: ٢٣٠

١- (١) التبيان/ج ١٠ ص ٢٣٠.

٢- (٢) في القمي و التبيان و مجمع البيان و الكشاف و التبيان و الدر المنثور و التفسير الكبير.

٣- (٣) نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٩٠.

٤- (٤) الدر المنثور/ج ٦ ص ٣٠٤.

٥- (٥) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤١٨.

كَأَنَّهُ جَمَالَتْ صُفْرًا وَ قَدْ ذَهَبَ أَغْلَبُ الْمَفْسِرِينَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهَا الْجَمَالُ، وَ

قِيلَ: هِيَ قَطْعُ النَّحَاسِ، وَ هُوَ مَرْوَى عَنِ الْإِمَامِ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (١)، وَ النَّحَاسُ يَسْمَى صَفْرًا عِنْدَ الْعَرَبِ، وَ بِنَاءٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَنْبَغِي حَمْلُ الْجَمَالِ عَلَى أَنَّهَا جَمْعُ جَمَلٍ وَ هُوَ الْحَبْلُ وَ السَّلْكُ الْعَظِيمُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «حَتَّى يَلْجِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْحِيَاطِ» (٢).
وَ هَذِهِ الْأَلْوَانُ مِنَ الْعَذَابِ هِيَ بَعْضُ مَا يَلْقَاهُ الْمَكْذُوبُونَ مِنَ الْوَيْلِ فِي الْآخِرَةِ، وَ الَّذِي يَشِيرُ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ بِتَكَرُّرِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

وَيْلٌ لِّیَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ وَ مِنْ وَیْلَاتِهِمْ یَوْمَ الْفَصْلِ أَنَّهُمْ تَسَلَّبَ حَزَّیَاتِهِمْ الَّتِی طَالَمَا أَسَاءُوا اسْتِخْدَامَهَا وَ فَهَمَهَا فِي الدُّنْيَا، إِلَى حَدِّ لَا یَسْتَطِيعُونَ النُّطْقَ، وَ لَا یُؤْذَنُ لَهُمْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ. وَ لَعَلَّ ذَلِكَ جَزَاءُ إِطْلَاقِهِمُ الْعِنَانَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الْأَهْوَاءِ وَ الشَّهَوَاتِ، وَ عَدَمِ التَّزَامِهِمْ بِحُدُودِ اللَّهِ وَ شَرَائِعِهِ.

هَذَا یَوْمٌ لَا یَنْطِقُونَ وَ

فِي الْأَحَادِيثِ: أَنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ یَلْجَمُونَ بِلْجَمٍ مِنْ نَارٍ، وَ تَحْبَسُ أَلْسِنَتُهُمُ الَّتِی سَخَّرَهَا لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ وَ حَزْبِهِ، بَلْ لَا یَسْتَطِيعُونَ النُّطْقَ لِلْحَجَجِ الْإِلَهِيِّ الْبَالِغَةِ الَّتِی لَا تَدْعُ لَهُمْ مَجَالًا لِلتَّبْرِيرِ وَ لَا قَدْرَهُ عَلَى الْكَلَامِ فِي مُحَضَّرِ رَبِّ الْعِزَّةِ.

ص: ٢٣١

١-١) التفسير الكبير/ ج ٣٠ ص ٢٧٦.

٢-٢) الأعراف ٤٠.

إنَّ النفس اللّوامة توخز ضمير الكاذب المنحرف، و إنَّ عقله يهديه إلى الإعتبار بمصير الغابرين، و لكنَّ نفسه الأمارة بالسوء تلحّ عليه باتباع الشهوات و امتطاء مركب الغرور و الجحود، و هنا يقدم الشيطان بالحلّ الوسط، هو التسويل و التزيين، فيؤوّل آيات الذكر، و يعتذر للدعاه إليها، و يبزّر للناصحين، و يخادع نفسه..

و هكذا تجد أكثر المكذّبين و المجرمين يعدّون تبريرات و أعذار لأنفسهم كما للآخرين بما يزعمون أنّها سبب انحرافهم و فسادهم، و لكن في يوم القيامة ليس لا تقبل منهم تلك المعاذير الباطله بل و لا يسمح لهم بسردها لأنّها محكومها سلفا بالسفاهه و الدجل، ممّا يدعوننا إلى إعاده النظر و بصوره جدّيه فيما نعتذر به للآخرين أو نخدع به أنفسنا انطلاقا من الثقة بأنّها لا تغنى عنّا شيئا في يوم القيامة.

□ وَ لا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ لَأَنَّ الاعْتذارَ النافع هو اعتذار الإنسان لربه في الدنيا عن الخطيئات بالتوبه الخالصه، أمّا الآخره فهى للفصل و الجزاء فقط، من هنا لا يؤذن لهم للاعتذار، و

الإمام الصادق عليه السلام يهدينا إلى فكره دقيقه فى الآيه فيقول: «اللّه أجلّ و أعدل و أعظم من أن يكون لعبده عذر و لا يدعه يعتذر به، و لكنه فليح فلم يكن له عذر» (١)، بلى. إنهم لا يريدون الجدل عن حقهم بالمنطق السليم، و إنّما يريدون التوسيل بالأعذار الواهيه، و لذلك لا يؤذن لهم. و هذا من حكمه اللّه عزّ و جلّ إذ لو كان يترك الإنسان يفعل ما يشاء فى الحياه الدنيا، ثم يفتح له يوم الفصل باب التبرير لفسدت حكمه الخلق، كالأبلى لهم الويل بعد الويل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و من هذه الآيه نكتشف أنّ الأعذار الواهيه هى بدورها كذب و لصاحبها

ص: ٢٣٢

[٣٨-٤٤] و بعد أن عرض القرآن مشاهد من يوم الفصل يضع النفوس المكذبة في موقف الشاهد لذلك المستقبل بزمانه، و لكنّه حاضر بحقائقه و شواهد و مواقف و لحظاته الحرجه، لعلّها ترجع عن غيها و ضلالها.

□□ هذا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ وَ لِلْجَمْعِ هُنَا مَعْنَيَانِ:

الأول: هو البعث بجمع الأوصال و العظام و جمعها مع الروح ليكون بشرا سوياً بعد الموت، و قد أشار القرآن إلى هذا المعنى في آيات عديده منها قوله في سورة القيامة: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ» (١). و إنّما ذكر الأولين لأنّ المشركين عادة ما كانوا يستبعدون البعث، و بالذات بعث أولئك الأولين الذين اضمحلّت أبدانهم و تبدّدت أوصالهم.

الثاني: أن يكون الجمع بالمعنى الظاهر للكلمه، فإنّ الناس (أوليين و آخرين) يجمعون في عرصه القيامة للفصل بينهم و في مصائرهم. و إنّما ذكر الأولين و الآخريين من المكذّبين تمهيدا لتحديدهم في الآيه اللاّحقه، إذ لا- يريد الله أن يتحدّى بعض المكذّبين و حسب بل كلهم مجموعين إلى بعضهم عددا و عدّه.

□□ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ تَدْعُونَ الْغَلْبَةَ بِهِ وَ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ.

فَكَيْدُونَ وَ هَذَا رَدٌّ عَلَى مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ وَ تَوَارَثُوهُ مِنَ الْخَبْرَةِ فِي الْكَيْدِ ضِدَّ الْحَقِّ (قِيَمًا وَ قِيَادَةً وَ حِزْبًا) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. وَ مَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ كَيْدَ هَذَا الْإِنْسَانَ الضَّعِيفِ وَ الْجَاهِلِ حَتَّى يَبَارِزَ رَبَّهُ عِزًّا وَ جَلًّا؟! وَ لَكِنَّهُ يَتَكَبَّرُ وَ يَأْخُذُهُ الْغُرُورُ فَيَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي مَهْلِكِهِ الْمَكَائِدَةَ مَعَ اللَّهِ، فَالْوَيْلُ لِلْمَكْدِيِّينَ مِمَّا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ نَتِيجَةً حَرْبِهِمْ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ.

وَإِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ وَ هَلْ ثَمَّةٌ وَ يَلِ أَعْظَمُ مِنَ كَيْدِ اللَّهِ الْعَظِيمِ بِأَحَدٍ؟! كَلَّا.. فَهُوَ حَقٌّ بِكُلِّ مَا تَتَّسَعُ لَهُ الْكَلِمَةُ مِنْ مَعْنَى. وَ هَكَذَا يَسْفُهُ السِّيَاقُ الْقُرْآنِيُّ الظَّنَّ الَّذِي يَبْعَثُهُمْ نَحْوَ التَّكْذِيبِ وَ هُوَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى مَقَاوِمِهِ جِزَاءَ أَعْمَالِهِمْ بِكَيْدِهِمْ وَ مَا يَسْتَعْمِدُونَ مِنْ خَطِّطٍ وَ أُسَالِيبٍ. أَمَّا الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَ صَدَّقُوا رِسَالَاتِهِ، وَ اتَّبَعُوا رِسْلَهُ وَ أَوْلِيَاءَهُ، فَمَصِيرُهُمْ إِلَى رِضْوَانِهِ وَ جِزَائِهِ الْحَسَنِ.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّهِ وَ عُيُونٍ وَ لَيْسَ الظَّلَامُ كَالظِّلِّ «ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ* لَا ظَلِيلٍ وَ لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» بَلْ هُوَ ظِلَالٌ رِضْوَانِ اللَّهِ الَّذِي يَلْقَى فِيهِ الْمُتَّقُونَ غَايَةَ الْأَمْنِ وَ السَّعَادَةِ، حَيْثُ اللَّذَّةُ بِبُرْدِ لُطْفِ اللَّهِ وَ رَحْمَتِهِ، وَ حَيْثُ التَّمَتُّعُ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ كَالْمُنَاطَرِ الْبَدِيعَةِ لِلْعَيْونِ الَّتِي تَسْتَرِيحُ الْعَيْنُ لِرُؤْيِهِ مَائِهَا الْمُتَفَجِّرِ.

وَ قَوْلُكَ مِمَّا يَشْتَهُونَ بِكُلِّ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ كَلِمَةَ الْإِشْتِهَاءِ مِنْ مَعْنَى، فَفِي الْجَنَّةِ يَطْلُقُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ

و مشيئته عنان الشهوه لأولئك الذين عقلوها بعقال أحكام الله و حدوده، فالمتقون هناك يجدون ما يحبونه من الفواكه في كل مكان و زمان، إذ تسقط معادله الفصول و المواسم، كما يبلغون شهوتهم كيفما يريدون، إذ تأتي الفواكه بالحجم و اللون و الطعم و الشكل الذى يتخيله واحدهم و أحسن منه.

و العلاقة واضحه بين هذه النعم الثلاث، فإنّ الظل و العيون و الفواكه المتنوّعه هى أبرز معالم الجنه، و إنّما ذكرها الله كناية عن الجنه، و تفصيلا فى المعنى للمزيد من التشويق و الترغيب للمتقين فى نعيمها.

و من سمات المنهج الإسلامى أنّه يوصل بين السعى و الجزاء، و ذلك لكى لا يتحوّل الشوق إلى جنّات الله و رضوانه إلى مجرد أمانى و ظنون، و إنّما تكون الرغبه لبلوغها نهج عمل و سعيا حثيث من أجل الوصول إليها و تحقيقها فى الواقع. هذا على صعيد الدنيا، أما على صعيد الآخرة فإنّ بيان الله للمتقين علاقته عملهم بجزائهم نوع من الإكرام لهم، و إلاّ فإنّ ما يلقاه المتقون فى جنّات الله من الناحيه الماديه و الموضوعيه أعظم من أن يبلغه بشر بسعيه، إنّما هو فضل من الله و رحمته. و من هذا المنطلق يخاطب المتقون فى الآخرة:

كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئًا خَالِيًا مِنْ كُلِّ سَبَابِ النُّكْدِ وَ النُّغْصِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ.

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الذين يحسنون الصنع (الالتزام بالقيم، و التعامل مع الآخرين، و الاستفاده من نعم الله عليهم)، و قد ذكر الله صفه الإحسان فى المتقين كسبب لاستحقاقهم الفضيله و الرضوان عنده تأكيدا على أنّها أرفع درجه يبلغها أحد فى القرب من الله،

و العروج فى آفاق الإيمان و العمل الصالح، و ذلك لما يشتمل عليه الإحسان:

الأول: أنه من أعظم صفات الله و أخلاقه.

الثانى: أنه مرتبه رفيعه فى الكمال البشرى، إذ يعنى خروج الإنسان من شح النفس إلى حب الآخرين و إثارةهم.

[٥٠-٤٥] و فى ختام السوره التى تهدف علاج موقف التكذيب عند الإنسان من خلال توجيهه إلى آيات الله، و تخويله من عذابه، يؤكد القرآن عاقبه الويل لكل مكذب، مبيّنًا لهم بأنّ متعتهم لن تمتدّ إلا قليلا ثم يعقبا مصير سىء نتيجة إجرامهم و عدم استجابتهم لداعيه الحق.

وَيَلِ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و كفى بتكرار هذه الآيه عشر مرّات فى السوره تأكيدًا للحقيقه الهاديه إليها (أنّ الويل للمكذّبين). و المكذّبون يختلفون عن المتقين فى المصير يوم الفصل، فبينما يصير هؤلاء فى ظلّ و عيون و فواكه ممّا يشتهون، يصير أولئك إلى الويل و الثبور «ظلّ ذى ثلاث شعب لا ظليلٍ و لا يُغنى من اللهب»

، كما يتهنأ المتقون بأكلهم و شربهم حيث لا يساورهم خوف انقطاعه أو انقطاعهم عنه، أمّا المكذّبون المجرمون فلا تطول بهم المتعه إلا قليلا ثم تنتهى راحتهم إلى عذاب مقيم.

كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا - إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ و إذا كان المكذّبون مترفين، و فى أيديهم نعم الله و ألوان المتع، فإنّه لا- يعنى حظوتهم برضوان الله، لأنّهم مجرمون، فلا- جريمه أكبر من تكذيب الإنسان بالحق و ممارسته الباطل فى الحياه، سواء فعل ذلك الفقير أو صاحب الثروه و الأتباع.

و الآيه تهدينا من جهه أخرى إلى أنّ لهث البشر وراء حطام الدنيا و متعها هو العامل الرئيسي في ضلاله و اقتحامه كلّ جريمه..و ليس لهذا الأمر من علاج في نفس المكذّب المجرم إلاّ بالتفكير في العاقبه يوم الفصل، لأنّ ذلك مدعاه للعقل أن يترك المتع القليله في ذاتها و مدّتها و الموجه للويل المقيم يومذاك، و هذا ما يفسّر علاقه الآيه (٤٦) بقول الله بعدها:

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ و حينما يستحضر الإنسان في وعيه و تصوّره حقائق ذلك اليوم فسوف يجد نفسه مدفوعا لترك الجريمه و كلّ أكله و متاعه لا- ترضى الله، و من ثم ترك التكذيب إلى الإحسان، و الطمع في نعيم الآخره، و التسليم لله و لرسله و رسالاته، لأنّ جاذبيه شهوات الدنيا لا تقاوم إلاّ بمثل جاذبيه الجنه و خشيه مصير المكذبين و المجرمين، و وعى العذاب الشديد الذي ينتظر المكذبين.

و يبين القرآن صفه أخرى للمكذّبين إضافه إلى لهتهم وراء حطام الدنيا و متعها، و إضافه إلى كونهم مجرمين، ألا و هي عدم تسليمهم لأوامر الله و عدم خضوعهم لها.

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَزْكَعُونَ [□] قَالَ مَقَاتِل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه و آله بالصلاه فقالوا:

لا ننحنى، و أضاف العلامه الطبرسي: و الروايه لا ننحنى فإنّ ذلك سبّه علينا،

فقال رسول الله: «لا- خير في دين ليس فيه ركوع و سجود» (١)، ذكر ذلك أغلب المفسرين. و قد ذكر الركوع بالذات لأمرين رئيسين:

ص: ٢٣٧

١-١) مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٤١٩.

الأول: أنه ذكر كنايه عن الصلاة، لأنَّ الركوع أبرز ما فيها، ولذلك تسمّى وحدات الصلاة بالركعات، و الصلاة تمثّل عمود الدين، و ذكر مخالفتهم و عصيانهم لله في أبلغ أوامره و شرائعه أوضح دلالة على عصيانهم و تكذيبهم.

الثاني: لأنَّ الصلاة هي مظهر العبودية لله، و الركوع منها رمز الخضوع و التسليم و مظهره العملي، و بيان تكذيب المكذّبين و تمردهم عن التسليم لله و للقياده الرساليه يكون أجلى عند التمثيل له بالركوع و السجود من التمثيل له بأيّ شيء آخر، و على هذا الأساس نستطيع حمل الركوع هنا على أنه رمز للتسليم بكلّ مفرداته لا كونه محصورا في ركوع الصلاة فقط، و لذلك فإنّ رفض التسليم -بجميع معانيه- يستلزم الويل للمكذّبين.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِالْحَقِّاقِ، و من أبرزها و أهمّها:

أولا: الآخره، فإنّ الإيمان بها أساس إيمان الإنسان بسائر القيم و الحقائق الإلهيه، و أساس التزامه بكلّ مفردات الدّين في الحياه.

ثانيا: القرآن الكريم و هو حديث الله للناس، و الذى لا يصلحه حديث ربه، و لا تداوى أدواء آياته، فلن تجد له علاجا أبدا، و هكذا فإنّ من لا يؤمن به و يسلم له على ظهور حججه و دلائله فيما ذا يؤمن بعده؟! فَبَأَيِّ حَيْدِثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ لأنّ الأحاديث غيره كلّها لا تصل إلى مستواه فى الصدع بالحق، و اشتمالها عليه، و لا فى بيانها و هدايتها له، و كيف يرتفع حديث مخلوق إلى صحه حديث

ص: ٢٣٨

الخالق و بلاغته؟! و من الآيه نهتدى إلى أنّ من لا يؤمن بحديث القرآن، و منه بالذات حديث الآخرة، فإنّه يبقى فى شك من كلّ شىء و حديث، بل يبقى فى التباس من وجوده و وجود أوضح الموجودات كالشمس الساطعه فى الآفاق! أمّا عن رأى المفسرين فى الآيه الكريمه فقد اتفقوا على أنّ الحديث هو القرآن، و يمكن حمله على أنّه حديث الآخرة، و بتعبير أصح نقول: هو القرآن الذى من أبرز أحاديثه بعد تعريف الإنسان بربه حديثه عن الآخرة، التى يحتل موضوعها أهميه كبيره فى القرآن كما و كيفاً، و فى الثقافه الإسلاميه بصورة عامه.

سوره النبأ

اشاره

ص: ۲۴۱

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

روى عن النبى-صلى الله عليه وآله وسلم-أنه قال: «من قرأ هذه السوره و حفظها لم يكن حسابه يوم القيامة إلا بمقدار سوره مكتوبه حتى يدخل الجنة» البرهان فى تفسير القرآن/ج ٤ ص ٤١٩

ص: ٢٤٣

الحقائق الكبرى تحيط بلبّ البشر إحاطه السوار بالمعصم، كلّما أراد منها هروبا وجدها أمامه، ولا ريب أنّ النشور للحساب، والولايه من تلك الحقائق، وبالرغم من محاولات الفرار منها تراهم يتساءلون عنها، لأنّها من النّبأ العظيم، والنّبأ العظيم يجده الإنسان أمامه أنّى اتجه، ولأهميته يختلفون فيه، فى تفاصيله مرّه و فى محاولات التهرب منه أحيانا.

كلّا..إنّه يفرض نفسه عليهم حتى يعلموه علم اليقين، ثم كلاً سيعلّمونه حين يرون عواقب تكذيبهم به.

بعد هذه الفاتحه الصاعقه تمضى السوره تذكّرنا بآيات الله فى الخليقه و التى تهدينا إلى أنّه عليم حكيم، و أنّه لم يخلق العباد سدى، و إنّما بحكمه بالغه تتجلّى فى المسؤوليه. لقد خلق ما فى الأرض للإنسان فلائى شىء خلق الإنسان نفسه؟ أ لم يجعل الأرض مهادا، و الجبال أوتادا، بل و جعل فى ذات الإنسان ما يدل على بديع

الصنع، وبالغ الحكمة؟ لقد خلقنا أزواجاً، وجعل لنا النوم استراحة عن العمل، وجعل الليل لنا سترًا والنهار معاشًا للنشاط والحركة، أما السماء فقد جعلها سقفا محفوظا بسبع طبقات شداد، وعلق فيها لأهل الأرض سراجا وهاجا، ثم أنزل منها ماء متواصلا مندفعاً، ثم جعل هذا النظام مترابطاً ببعضه فأثبت من الأرض حبا ونباتا، وجنات ألفافا، كل ذلك من أجل الإنسان، والإنسان من أجل المسؤولين، ولكي يقدم للمحاكمة غدا في يوم الفصل الذي كان ميقاتا للحساب، يوم ينفخ في الصور فيتوافد الخلائق أفواجا أفواجا. أما السماء فإنها تتحول إلى أبواب لتنزل الملائكة بالعذاب أو الثواب. أما الجبال التي أكنت البشر فتكون سرايا.

هنالك الحساب، فبينما يساق الطغاه إلى جهنم ليقوا فيها أحقابا بلا برد ولا شراب تجد المتقين في مفاز، حيث يدخلون الجنة ليتمتعوا بنعيمها وأمنها وخلودها، وهذا وذاك يكون تجسيدا لمسؤوليتهم في الدنيا، وجزاء وفاقا لأعمالهم.

وتختتم السورة بتصوير مشهد من مشاهد القيامة حيث يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون، ويذكرنا ربنا بأن فرصه الاختيار السليم لا تزال قائمه فقد أندرنا عذابا قريبا، يوم يرى المرء أعماله التي قدمها متجسده أمامه. أما المؤمن فيفرح بها، وأما الكافر فيقول: يا ليتني كنت ترابا ولم أقدم مثل هذه الأعمال أو أتحمل تلك المسؤوليات.

[سوره النبأ (٧٨): الآيات ١ الى ٢٠]

إشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)

اللغة

١[عم]: أصلها: عن ما، مركبه من عن الجارّه و ما الاستفهاميه، ثم أدغمت النون في الميم لقرب مخرجها، وحذفت الألف من ما على ما هي عليه القاعده من حذفها مطلقا إذا دخل على ما حرف الجر.

٢[مهادا]: وطاء و قرارا مهيتا للتصرف، كالمهد الذي يتصرف فيه الطفل من غير أدبه.

٧[أوتادا]: جمع وتد و هو المسمار إلا أنه أغلظ منه، فالجبال هي مسامير للأرض تحفظها من التشقق و التبعر في الهواء من جزاء الحركه و الجاذبيات.

٩[سباتا]:قاطعا للعمل لأجل الاستراحة، و منه سبت أنفه إذا قطعه.

١٣[وهّاجا]:الوهّاج الوقّاد المشتعل بالنور العظيم، من وهج بمعنى أثار و أضاء.

١٤[المعصرات]:السحاب تعتصر بالمطر كأنّ السحاب يحمل الماء ثمّ تعصره الرياح و ترسله كإرسال الماء بعصر الثوب، و عصر القوم:مطروا..و قال البعض:إنّها أودع فيها من الطاقات العاصره حتى تمطر.

[ثجّاجا]:الثجّاج الدفّاع فى انصبابه كثنجّ دماء البدن، من ثجّ بمعنى انصبّ بكثره.

١٦[ألفافا]:الألفاف الأخلاط المتداخله يدور بعضها على بعض، و هكذا الجنّات فأشجارها يلتفّ بعضها على بعض.

ص:٢٤٨

هدى من الآيات:

أتراهم يتساءلون عن النبأ العظيم، عن يوم الجزاء (عن مسئوليه الولايه) و يختلفون فيه (ثم لا يبحثون بجدّ عن الإجابة الصحيحة)؟ كلاً.. (دعهم في غيهم) فسوف يعلمون، ثم كلاً.. (ليس الأمر بهذه البساطه) فسيعلمون.

أفلا يبصرون شواهد التدبير و الحكمة: في الأرض التي مهّدت لهم و وّدت بالراسيات، في خلقهم أزواجا تتكامل أبعاد وجودهم ببعضهم، في حياتهم كيف نظّمت فجعل الليل لهم سكنا و جعل النهار لمعاشهم مبصرا، و في السموات التي تحفظهم عن الطوارق، و كيف جعل الله فيها سراجا وهاجا، و في تدبير رزقهم بالغيث الذي ينزل عليهم ماء ثجاجا فيخرج الله به حبا و نباتا و جنّات ألفافا؟! بلى. لو أنّهم أبصروا شواهد الخلقه و آيات الحكمة لعلموا أنّ يوم الفصل آت و أنّهم لمجموعون إليه عند ما ينفخ في الصور فيتوافدون على ربّهم أفواجا.. و يومئذ

تفتح أبواب السماء فتنزل الملائكة بالجزء. أما الجبال فتسير ثم تتلاشى كما السراب!

بينات من الآيات:

[١] يعرض البشر عادته عن التفكير الجدى فى الحقائق الكبرى التى ترسم الخطوط العريضة فى حياته، لما ذا؟ هل لأنها غامضة؟ كلاً.. بل لأنّ فى نفسه نزوعاً عنها، أ و ليست معرفتها تحمّله مسؤوليات كبيرة. إذا لما ذا يكلف نفسه عناء ذلك؟ دعه يمرّ على آياتها غافلاً- عساه يتهرب من مسؤولياتها. و لكن هل الإعراض عنها يغنيه شيئاً؟ كلاً.. إنّه بالغها فمواقعها شاء أم أبى، آمن أم عاند و كفر.

من تلك الحقائق يوم الفصل و ميقاته، و ما فيه من أهوال عظيمه تدع الولدان شيباً، و ما يفرضه علينا من مسؤوليه التسليم للحق و لقيادته، فهل يمكن الإعراض عن كلّ ذلك؟ كلاً.. لأنّ آياته ملأت آفاق حياتنا، و إنّنا لا زلنا نتساءل عنها و نختلف فيها و لكن ليس بصوره جدّيه، و غدا حين نواجهه نعلم مدى الخساره فى هذا التساهل، و لا يسعفنا الندم يومئذ شيئاً.

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ [٢] و إذا كان الإنسان يعرض عن النبأ العظيم فلما ذا يتساءل عنه؟ ربما لأنّ شواهد تفرض عليه التساؤل، فهو من جهه يتهرب من التسليم له لأنّه يحمّله مسؤوليه التسليم للحق و لقيادته، و من جهه ثانيه لا- يستطيع الفرار من آياته التى تحيط به، فيظل يتساءل عنه: كيف و متى و أين و لما ذا!!؟ و مراده من كلّ ذلك الفرار منه، و فى الذكر الحكيم بيان لتساؤلاتهم عن يوم الفصل: أنى هو، و متى هو، و كيف يحيى الله فيه الأموات، و ما أشبه.

عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ فما هو ذا النبأ العظيم؟ هل هو مجمل الحقائق العظيمه كالتوحيد و الرسائل و البعث و الجزاء، أم أنه يوم الفصل الذى يذكره السياق لا حقاً، أم أنه ولايه الإمام على-عليه السلام-حسبما ذكر فى روايه مأثوره عن النبي-صلى الله عليه و آله-؟ كل ذلك محتمل، لا-سيما و نحن نعرف أن الحديث عن موضوعات الرساله متواصل بعضها مع بعض، فمن تساءل عن يوم الفصل فإنما يتساءل عنه ليعرف هل عليه أن يسلم للذير به و هو الرسول و لمن يأمره الرسول باتباعه.

و إذا كان الفرار من المسؤوليه هو الباعث نحو جحد يوم الفصل فإن أعظم المسؤوليات التسليم للقياده الشرعيه و التى تمثلت فى ولايه أئمه الهدى و فى طليعتهم الإمام على عليه السلام.

و هكذا

روى عن الحافظ أبى بكر محمد بن المؤمن الشيرازى عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- فى تفسير هذه الآيه أنه قال: «المراد ولايه على الذى يسأل عنها فى القبر» (١).

و روى عن الإمام الصادق-عليه السلام-أنه قال: «النبأ العظيم الولاية» (٢).

و قال الإمام على بن موسى الرضا-عليه السلام-: «قال أمير المؤمنين

ص: ٢٥١

١-١) عن رساله الاعتقاد للحافظ أبو بكر محمد بن المؤمن الشيرازى فى تفسير نمونه ج ٢٦ ص ١٠.

٢-٢) المصدر/ص ١١.

-عليه السلام:- ما لله نأ أعظم منى، و ما لله آيه أكبر منى « (١).

و روى عن الإمام الحسين بن على-عليه السلام- أنه قال: «قال رسول الله-صلى الله عليه و آله-لعلى-عليه السلام:- يا على! أنت حجة الله، و أنت باب الله، و أنت الطريق إلى الله، و أنت النبأ العظيم، و أنت الصراط المستقيم، و أنت المثل الأعلى « (٢).

[٣] و اختلافهم فى النبأ العظيم دليل على أنهم لا يملكون حجه دامغه لنفيه فإذا بهم يترددون فى أمره، تدعوهم آياته للإيمان به بينما تدعوهم أهواؤهم إلى الجحود.

الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ و لعل اختلافهم يكون أيضا فى تفسير دلائله و كيف يتهربون منها. أ لا تجد كيف ضربوا للرسول الأمثال فضلوا فلا- يستطيعون سيلا- فقالوا إنه مجنون بل هو شاعر بل افتراه، و هكذا يكون الاختلاف دليل عجزهم عن تفسير آيات الحقيقه التى ينكرونها.

[٤] و هل إنكارهم للحقيقه يلغيها أو اختلافهم فيها يخفف عنهم و وطأتها حين تنزل بهم؟! كَلَّا سَيَعْلَمُونَ يوم يساقون إلى الجزاء فلا يجدون عنه محيصا.

[٥] بل إنهم سيجدون الجزاء فى الدنيا قبل الآخرة.

ص: ٢٥٢

١- ١) نور الثقلين/ ج ٥ ص ٤٩١.

٢- ٢) المصدر.

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ و قال بعضهم: إن هذه الآيه تشير إلى أنهم سيعلمون الحق في الآخره بينما الآيه السابقه تشير إلى ما يعلمونه في الدنيا. و يحتمل أن يكون الإتيان بمفهوم واحد للتأكيد.

[٦] أو لا يبصرون آيات الله في الخلق فيعرفون حكمته و أنه لم يخلقهم عبثا و لن يتركهم سدى؟ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا أ و لا تراها كيف ذللت لمعاشك تذليلا؟ انبسطت عليها طبقه من التراب تستخدمه للسكنى و الزراعه، و تسويه لحركتك، و يحتضن أجسادنا بعد الموت، و يستوعب سائر أنشطتنا في الحياه.

و إذا أمعنا النظر رأينا أن سائر ما في الأرض هيء لحياء الإنسان، و لا نعرف مدى أهميه الأنظمه التي أجراها الرب في الأرض إلا بعد قياسها بسائر الكرات القريبه التي لم نعهد في أي منها أثرا للحياء و لا فرصه للعيش. أ و ليس في كل ذلك دليل على التدبير و الحكمه؟ أ و لا- نهتدى بها إلى أن الله لم يخلقنا عبثا؟ [٧] و لكي تستقر الأرض و ما فيها، و لا تتعرض لأعاصير التي تحيط بها، و لا- لتناوب المدّ و الجزر الناشئين من جاذبيه القمر كما البحر، و لكي تتحصن قشره الأرض من أخطار الزلازل و البراكين و الانهيارات بسبب الغازات التي تتفاعل في نواتها الداخليه، لكل ذلك و لأسباب أخرى عديده نعرف بعضها و نجهد الكثير جعل الله للأرض أوتادا هي الجبال.

وَ الْجِبَالُ أَوْتَادًا

ص: ٢٥٣

هذه القمم السامقه، و تلك السفوح المنبسطة، و هذه الشبكه من الصخور التي تتصل ببعضها من فوق الأرض و من تحتها. إنها تحصن الأرض كما الدروع السابغه. أفلا نبصر آثار القدره و لمسات الحكمه على الطبيعه من حولنا؟ فسبحان الله و تعالى عن العبث و اللغو.

[8] و إذا عدنا إلى الأنظمه التي تسود حياتنا أبصرنا المزيد من آثار القدره و الحكمه فيها، فهذه سنّه الزوجيه التي تكشف من جهه مدى حاجتنا إلى بعضنا، كما تعكس من جهه ثانيه حسن تدبير الخالق، و دقه تنظيمه.

وَ خَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا لَوْ كُنَّا قَدْ خَلَقْنَا أَنْفُسَنَا لَكُنَّا جَعَلْنَاهَا أَكْمَلًا وَ أَقْوَى مِنْهَا الْآنَ، مثلاً ربما لم نوجد فيها حاجه إلى الجنس الآخر أو إلى الطعام و الشراب و الراحة و السكن و ما أشبهه. و لو أوجدتنا الصدفه لم نجد فيها هذا التكامل مما نجد مثلاً بين الزوجين، تكاملاً في الروح و الجسد، في الغرائز و الشهوات و الحاجات حتى اغتدى كل جنس سكناً للجنس الآخر يجد فيه ما يفترق إليه، قال سبحانه: « وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً » (١).

[9] و بمناسبه الحديث عن الزوجه و عن السكن الذي توفره يذكّرنا الرب بنعمه النوم الذي هو نوع من السكن، يهيمن على ذرأت وجودنا و يقطعها عن التفاعل المجهد مع المحيط، و يبسط على أرجاء الجسد غلاله من الهدوء و الراحة.

وَ جَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَ يَبْدُو أَنَّ مَعْنَى السبات هو الفراغ الموقت أو التعطيل و قطع تيار النشاط.

ص: ٢٥٤

ما هو النوم، وكيف يحدث، وما أسرارها؟ إنَّ العلم الحديث لا يزال يتوغَّل في رحاب هذه الظاهره العامه من حياه الإنسان و يكشف المزيد من أسرارها، إلاّ- أنّ الثابت أهميه دور النوم في تهدئه أعصاب البشر، و مساعدته مخه على تنظيم المعلومات و تخزينها، و عوده الجسم إلى أنظمتها الذاتيه بعد تعرّضه للمؤثرات الخارجيه، و بسط قدر من الهدوء إلى مختلف الأعضاء، و بكلمه: النوم استراحه الجسم بعد جهد متواصل.

[١٠] و يتمّ النوم عادة في الليل حيث يسدل أستاره على الطبيعه، و يطفى عليها جوّ الهدوء و السكينه.

وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتِ الْأَرْضُ بَمَن فِيهَا وَ مَا فِيهَا تَتَعَرَّضُ لِأَشْعَةِ الشَّمْسِ بِاسْتِمْرَارٍ أَلَمْ تَكُنْ تَتَوَثَّرُ بِأَشْعَةِ فِيهَا وَ تَجْهَدُهَا؟ هَكَذَا نَظَّمَ اللَّهُ الْأَرْضَ بِحَيْثُ يَتَنَاوَبُ عَلَيْهَا اللَّيْلُ وَ النَّهَارُ لِحِمَاةِ الْحَيَاةِ فِيهَا.

و التعبير ب(لباس) بالغ في الروعه و الدقه. أ و ليس اللباس يستر الشئ عما يشينه و يضره، كذلك ظلام الليل يستر الطبيعه و الأحياء عن استمرار تعرضهما للأشعه.

[١١] و بعد أن تسترخي الطبيعه فوق فراش الظلام، يستنهضها النهار لمسيره متجدده، فها هي خيوط أشعه الشمس توقظ الروابي و السهول، و تبعث في النبات و الأحياء النشاط و الحيويه لتجديد نفسها، و تواصل حركتها.

وَ جَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا

ص: ٢٥٥

أى ميعادا للعيش، و وقتا مناسباً للاسترزاق، وهكذا جعل الله في كلِّ حيٍّ حاجه إلى النمو و الاستمرار، و أودع فيه إحساساً بهذه الحاجه لكي يسعى إليها، و وفرَّ له فرص تحقيقها. أفلا يهدينا ذلك إلى أنَّه المدبِّر العليم، و أنَّه قادر على نشرهم إلى يوم الفصل و محاسبتهم؟ [١٢] و هكذا جعل الله الأرض داراً مهيباً لحياتنا و بنى فوقها سقفا محفوظاً، لكي لا تتساقط علينا النيازك و الأحجار السابحه في الفضاء و لا ينزل علينا ما يضرنا من أشعه النجوم الضاره و من حراره الشمس المهلكه.

وَ بَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا مَا هِيَ هَذِهِ السَّبْعُ الشِدَادُ؟ هل هي المجرات المحيطه بمجرتنا أو المنظومات الشمسيه القريبه منا، أم هي السموات التي زينت واحده منها بالنجوم و هي التي نعرف عنها شيئاً قليلاً أمَّ الست الباقيات فعلمها عند الله... أم ما ذا؟ لعلَّ أقرب المعانى هو ذلك الغلاف الجوى المحيط بالأرض ذو الطبقات المختلفه التي تمتد في عمق مائه كيلومتر، و تشكل سقفا متيناً للأرض، يحفظها من الأجرام التائهه في رحب الفضاء و من الأشعه الضاره.

[١٣] من أين تستقى الأرض قدراتها؟ إنها أمنا فمن هي أمها التي تغدق عليها بالطاقه؟ إنها الشمس التي ترضعها عبر مسافه مائه و خمسين مليون كيلومترا تقريبا بالنور و الحراره، و من خلال أشعه الشمس تتغذى النباتات و الأحياء و تتكون في الأرض المعادن المختلفه.

وَ جَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا وَ يَبْدُو أَنَّ الْمَرَادَ مِنَ الْوَهْجِ هُوَ الْأَشْعَةُ حَسَبَ الرَّاغِبِ فِي مَفْرَدَاتِهِ.

أفلا- نهتدى إلى أسماء ربنا الحسنى من خلال آياته التى ذكرنا بها القرآن، فإذا لم نتعرف على قدره ربنا و حكمته و علمه و تدبيره من خلال آيه الشمس فيما ذا نهتدى؟ لقد سخر الله الشمس لحياء البشر، و أشعل هذه الكره الملتهبه فى الفضاء.

إنّ درجة حراره الشمس تناهز سته آلاف درجة فهرنهايت. هذا عن سطحها، أمّا العمق فإنّ درجة حرارتها تبلغ الملايين، و هكذا تنفث هذه الكره اللاهبه أشعه قد تمتد أكثر من مائه ألف كيلومتر و ذلك بسبب التفاعلات الذريه التى تلتهم من جرمها فى كلّ ثانيه زهاء أربعه ملايين طن. (١)

و قد جعل الله بين الشمس و الأرض هذه المسافه المحدوده لكى تستفيد منها الأرض دون أن تضربها، و لو كانت المسافه أبعد لتجمدت أو أقرب لاحتقرت.

[١٤] و إذا كانت الأرض تتغذى بأشعه الشمس ككل فإنّ حياه البشر تعتمد عليها أيضا، و أقرب مثل لذلك دوره الماء. أ و ليست أشعه الشمس التى تشرق على المحيطات هى التى تسبب فى تصاعد الغيوم عنها، ثم إنّها تكوّن الرياح التى تحملها، ثم تتمخض السحب عن الغيث الذى يرزقنا الله به كلّ خير؟ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِمَا ذَا سَمَّيْتَ السَّحْبَ مَعْصِرَاتٍ؟ هل لأنها تتراكم على بعضها فتسبب الأمطار، أم لأنّ نظاما طبيعيا يسودها حين هطول المطر بسبب اعتصارها (كما قالوا) أم أنّ ذلك إشاره إلى حاله نزول الغيث الشبيهه بعصر الثياب؟ كلّ ذلك محتمل.

أمّا الثَّجَّاج فقد قالوا أنّه المتتالى فى السقوط.

ص: ٢٥٧

[١٥-١٦] هكذا يرفع الله مياه البحر بعد تحليتها إلى عنان السماء، و يبسطها في صورته السحب المتراكمة فوق مساحات شاسعه، ثم يسوقها إلى حيث يشاء من الأرض فيسقيها، لكي لا يبقى سهل أو جبل إلا و تشمله بركاتها.. ثم إنها تصفى الجو من الأدران و الغبار، و تساعد في قتل الجراثيم. أمّا على الأرض فینبت الله بها ألوانا من المواد الغذائية كالحبوب التي تشكل أهم مصدر للغذاء عند البشر فالخضروات ثم الثمار.

لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ لَبَنًا وَ جَنَاتٍ أَلْفَافًا أَرَأَيْتَ الْبَسَاتِينَ وَ الْغَابَاتِ كَيْفَ تَلْتَفِ أَشْجَارُهَا بَعْضُهَا؟ إِنَّهَا مِنْ بَرَكَاتِ الْغَيْثِ.

إنّ هذا النظام الذى لا نجد فيه ثغره أو فراغا، و يمتد من أعماق الفضاء حيث تشع الشمس بوجهها، إلى كَفِّ المحيطات حيث تتبخّر بفعل الحرارة، و إلى الصحارى المترامية حيث تنبت الأرض زرعاً و شجراً. أليس يهديننا هذا النظام إلى وحده التدبير و حكمه المدبّر؟! فلا تؤمن بقدرته على أن يعيدنا للحساب؟ و هل من المعقول أن يترك ربنا الحكيم خلقه سدى؟ [١٧] لا نجد فى أى بقعه من أطراف الخليقة ثغره أو تفاوتاً إلاّ فيما يتصل بهذا الإنسان الذى سلّطه الله على الطبيعه، و أكرمه بالعقل و الحرية، فقد أخذ يعيث فى الأرض فساداً، فهل يعقل أن يكون ذلك من عجز؟ و هل يعجز ربّ السموات و الأرض شىء؟ أم سوء تدبير؟ و لا نجد فى تدبيره شيناً أو نقصاً. أم ما ذا؟ يهديننا التفكير فى كلّ ذلك إلى أنّ هذا الإنسان الذى هو محور حكمه الخلق و هدف سائر ما فى العالم لم يكن ليخلق بلا حكمه، فما هى حكمه خلقه؟ فإذا لا نجد ذلك فى الدنيا نهتدى (بنور العقل) إلى أنّها تتحقق فى يوم الفصل.

إِنَّ يَوْمَ الْفُضَيْلِ كَأَنَّ مِيقَاتًا عِنْدَ مَا يَلْتَقَى الْإِنْسَانَ بِجَزَائِهِ، وَيَجْتَمِعُ الْأَوْلُونَ بِالْآخِرِينَ، وَتَنْصَبُ مَوَازِينُ الْقِسْطِ، وَيَحَاكِمُ الظَّالِمَهُ وَ الْمَجْرُمُونَ، وَيَقُومُ الْأَشْهَادُ بِالْحَقِّ، عِنْدَئِذٍ تَتَجَلَّى حُكْمَهُ خَلْقَهُ.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَزَيَّلُ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْمَجْرُمِينَ، وَتَتَمَيَّزُ الْأَعْمَالُ الْخَالِصَةُ لِلَّهِ عَنِ أَعْمَالِ الرِّيَاءِ وَ النِّفَاقِ، وَتَنْفَصِمُ عَرَى الْأَرْحَامِ وَ وِشَائِحِ الصَّدَاقَاتِ وَ الْوَلَاءَاتِ، وَ لَا تَنْفَعُ شَفَاعَةُ الْأَحْبَةِ وَ الْأَوْلِيَاءِ.

[١٨] وَ يَتَقَاطِرُ النَّاسُ عَلَى صَحْرَاءِ الْمَحْشَرِ زَمْرًا، كُلٌّ وَفَدٍ يَقُودُهُمْ إِمَامُهُمُ الَّذِي اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا.

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ تِلْكَ النِّفْخَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَحْيِي بِهَا اللَّهُ الْعِبَادَ جَمِيعًا.

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا كُلُّ فَوْجٍ يَأْتُونَ تَحْتَ رَايَةِ إِمَامِهِمْ.

وَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: كَانَ مَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ جَالِسًا قَرِيبًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فَقَالَ مَعَاذُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا... الْآيَاتِ» فَقَالَ: «يَا مَعَاذُ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ مِنَ الْأَمْرِ، ثُمَّ أَرْسَلَ عَيْنِيهِ، ثُمَّ قَالَ: يَحْشُرُ عَشْرَةَ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي أَشْتَاتًا قَدْ مَيَّزَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ بَدَّلَ صُورَهُمْ: بَعْضَهُمْ عَلَى صُورِهِ الْقَرْدَةِ، وَ بَعْضَهُمْ عَلَى صُورِهِ الْخَنَازِيرِ، وَ بَعْضَهُمْ مَنْكَسُونَ، أَرْجُلُهُمْ مِنْ فَوْقٍ، وَ وَجُوهُهُمْ

من تحت، ثم يسحبون عليها، وبعضهم عمى يترددون، وبعضهم صم و بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فيسيل القيح من أفواههم لعابا يتقذره أهل الجمع، وبعضهم مقطّعه أيديهم و أرجلهم، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ نتنا من الجيف، وبعضهم يلبسون جبابا سابغه من قطران لازقه بجلودهم، فأما الذين بصورة القردة فالقتات من الناس (أى النّمّامون) و أما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت، و أما المنكّسون على رؤوسهم فأكله الربا، و العمى الجائرون فى الحكم، و الصمّ البكم المعجبون بأعمالهم، و الذين يمضغون بألسنتهم العلماء و القضاء الذين خالف أعمالهم أقوالهم، و المقطّعه أيديهم و أرجلهم الذين يؤذون الجيران، و المصلّبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان، و الذين أشدّ نتنا من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات و اللذات، و يمنعون حق الله تعالى فى أموالهم، و الذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر و الخيلاء « (١).

[١٩] و لأنّ الإنسان محور خلق عالما فإنّ سائر ما فى الخليقة يتصل به و يتغيّر معه، فترى الأرض و السماء المحيطة بها تخضع لتطورات هائلة.

وَ فُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا فَتَلَكَ السَّمَاءَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ سَقْفًا مَحْفُوظًا غَدَتِ مِنْفَطْرُهُ مَنْشَقَهُ، وَ لَعَلَّ تِلْكَ الْأَبْوَابُ تَكُونُ مَهْبَطًا ظَاهِرًا لِلْمَلَائِكَةِ، وَ مَعْرَاجًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَ مَخْرَجًا لِلْكَفَّارِ إِلَى النَّارِ.

[٢٠] أما الجبال التى كانت تحافظ على توازن الأرض فإنّها تفقد وزنها، و تسير، و تنبثّ كما الهباء فى الفضاء الأرحب، ثم تتلاشى و تصبح سرايا.

ص: ٢٦٠

وَسَيَّرَتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سِرَابًا وَ هَكَذَا يَنْهَارُ نِظَامُ عَالَمِنَا، ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْخَلِيقَةُ قَدْ نَظَّمَتْ لِمَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِ وَ سَخَّرَتْ لِحَيَاتِهِ وَ فَرَضَتْ عَلَيْهَا السَّنَنَ إِكْرَامًا لَهُ فَهِيَ هِيَ يَسْحَبُ إِلَى قَاعِهِ الْمَحَاكِمَةَ لِلْحِسَابِ وَ الْجَزَاءِ، فَلَمْ يَعُدْ هُنَاكَ سَبَبٌ لِاسْتِمْرَارِ النِّظَامِ السَّائِدِ فِي الطَّبِيعَةِ.

ص: ٢٤١

إشارة

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاءً (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صِيْفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَابًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

اللغة

٢٠[سرابا]:السراب هو خيال الماء فى الصحراء وقت الظهيره.

٢١[مرصادا]:هو مكان على صراط جهنم ترصد فيه الملائكه الناس،فعن الإمام الصادق-عليه السلام:-

(المرصاد قنطره على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمه عبد).

٢٣[أحقبا]:جمع حقب و المراد الزمان الطويل و الدهور المتتاليه.

٢٥[غساقا]:هو صديد أهل النار و قبحهم.

٢٦[وفاقا]:الوفاق الجارى على مقدار الأعمال فى الاستحقاق.

٣٣]و كواعب]:جمع الكاعب،و هى الجاريه التى نهى ثدياها و استدارا لكونها فى أول زمان رشدها.

[أترابا]:جمع ترب،و هنّ المستويات فى السن،وقيل:

على مقدار أزواجهنّ فى الحسن و الصوره و السن.

٣٤]دهاقا]:الدهاق الكأس الممتلئ الذى لا مجال فيها للماء أو الشراب و أصل الدهق شدّه الضغط،و أدهقت الكأس ملاءتها.

ص:٢٦٣

هدى من الآيات:

هل وراء ذلك اليوم الرهيب أمر آخر؟ بلى. ما هو أخطر منه النار أو الجنة.

أ و ليست جهنم مرصاد الطاغين، و الجنة مغازه كريمه للمؤمنين؟ و لكن لما ذا يلبث الطغاه فى جهنم أحقابا متماديه قد تصل إلى درجه الخلود؟ لأنها سنّه إلهيه كما هى سنّه أنّ النار تحرق و الماء يتبخّر، و حيث أنّهم لم يعوا هذه السنّه، بل و كذبوا بها و بآيات الله التى حدّرتهم منها، فإنّهم انتهوا إليها، بينما المتقون (الذين وعوا هذه السنه فاتقوا النار و تجنّبوا ما يؤدى بهم إليها) فإنّهم فازوا بالجنة التى استقبلتهم بحداثتها و فواكهها و كواعبها و أمنها و سلامها. إنّها أيضا الجزاء المناسب الذى أعدّه الله لهم.

و يمضى السياق فى تحذير الإنسان من يوم النشور، و يصوّر بعض مواقفه بعد أن يذكّرنا بالله سبحانه ربّ السموات و الأرض و ما بينهما، ففى ذلك اليوم تخشع أصوات العباد و أصوات الروح و الملائكه الذين يقفون صفّا لا يتكلّمون إلّا من أذن له

فى ذلك اليوم يتساقط زيف الباطل، و يتجلى الحق بكلّ أبعاده، و لا تزال فرصه الإختيار للإنسان فى هذه الدنيا قائمه، فمن شاء عاد إلى ربه تائباً خشيته ذلك اليوم. أما من يكفر فإنّ الله ينذره بعذاب قريب (بالرغم من أنّ الشيطان يبعدة عن ذهن البشر) يقع فى ذلك اليوم الرهيب الذى يرى الإنسان ما قدّمت يده من خير و شر (متجسدين فى جزاء حسن أو عذاب شديد)، و حين يرى الكافر حقائق أعماله يتمنى لو بقى تراباً و لم يحشر لمثل ذلك الجزاء.

بينات من الآيات:

[٢١] يتعامل الإنسان مع سنن الله العاجله فى الطبيعه من حوله، فتراه يتجنّب النار أن يحترق بها، و الحيات أن تلدغه، و الجراثيم أن تغزوا جسده فتهلكه، فلما ذا يا ترى لا- يتجنّب تلك السنن الآجله، و ما الفرق بين نار تحرقه اليوم و أخرى تحرقه غداً، أو حيه تلدغه من جحر فى الصحراء و أخرى يصنعها بعمله لتلدغه غدا فى الآخره، و من ميكروب يتكاثر فى جسمه اليوم و آخر يزرعه فى حياته الدنيا ليحصده فى تلك الدار الحق؟! إنّ سنن الله فى الدنيا تذكر بما يماثلها فى الآخره و لكنّ الإنسان يؤمن بواحد و يترك أخرى. لما ذا؟ يبدو من آيات القرآن عموماً، و هذا السياق بالذات، أنّ الجزاء يوم النشور نوعان: الأول: هو ذات العمل الذى يرتكبه اليوم و يتجسد له جزاء وفاقاً فى الآخره، كمثل نار يوقدها الإنسان فى بيته فتحرقه، أو ثمره يغرسها فى أرضه فيتمتع بثمراتها. النوع الثانى: الجزاء الذى يقدره الربّ للصالحين فى الجنه من فضله

و يحسب الحسنه بعشره. و الآيه التاليه تشير إلى النوع الأول:

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا فَهَذِهِ كَانَتْ مَرْكَزَ رِصْدٍ وَ مَرْتَعَ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ. إِنَّهَا سَنَّةُ إِلَهِيهِ وَ نِظَامُ مَقْدَرٍ لَنْ يَفْلِتَ مِنْهَا مَنْ يَكْذِبُ بِهَا،

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه وآله السلام:-

«و لئن أمهل (الله) الظالم فلن يفوت أخذه، و هو له بالمرصاد على مجاز طريقه، و بموضع الشجا من مساع ريقه» (١) [٢٢] و الطغاه الذين يتجاوزون حدّهم، و لا يتجنّبون ما يقربهم إلى النار، سوف يعودون إلى النار التي صنعوها بأفعالهم.

لِلظَّالِمِينَ مَأْبَأٌ وَ لَعَلَّ كَلِمَةَ مَأْبٍ تُوْحَى بِأَنَّهُمْ سَبَبُ إِيقَادِ النَّارِ الَّتِي عَادُوا إِلَيْهَا، لِأَنَّهَا مَنْزِلُهُمُ الَّذِي بَنَوْهُ وَ وَطَنُهُمُ الَّذِي اخْتَارُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ.

[٢٣] كم يبقون في هذه النار؟ لا يبين فيها أحقاباً

جاء في روايات أهل البيت أنّ الآيه تخصّ المذنبين الذين يقضون في النار فتره من الوقت بقدر ذنوبهم، و على هذا فمعنى الأحقاب الدهور المتتاليه أو السنين المتلاحقه.

ص: ٢٦٦

وقال بعض المفسرين: معنى الآية أنهم يلبثون في النار أحقاباً متتالية لا تنقطع، فكلما مضى حقب أدر كهم حقب آخر. قالوا: وإنما استعاضت الآية بالأحقاب عن السنين لأنها أهول في القلوب و أدل على الخلود، وإنما كان الحقب أبعد شيء عندهم، وقالوا: الحقب ثمانون سنة. وإذا كانت السنه ثلاثمائة و خمسه و ستين يوماً و كان اليوم في الآخرة كألف سنة مما نعدّه من سنّي الدنيا فلك أن تتصوّر أيام الطغاه في جهنم!

و جاء في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنه قال: «لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً، و الحقب بضع و ستون سنة، و السنه ثلاثمائة و ستون يوماً، كلّ يوم ألف سنة ممّا تعدّون، فلا- يتكلنّ أحد على أن يخرج من النار» [\(١\)](#)[٢٤] خلال هذه الأحقاب المتتالية و الدهور المتطاولة لا يجد الطغاه هنالك سوى العذاب الذي لا يفتر عنهم أبداً.

لا يَدُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَ لَا شَرَابًا فَلَاحِدُونَ طعم البرد و برد الشراب، و لا لحظه واحده و لا بقدر بسيط.

قالوا: البرد هنا بمعنى النوم، و استشهدوا بما تقوله العرب: منع البرد البرد، أى منع النوم البرد، و قال بعضهم: بل هو عام يشمل برد ريح أو ظل أو نوم، و أنشدوا:

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه و لا الفىء أوقات العشى تذوق [\(٢\)](#)[٢٥] إنما يتواصل لهم شراب يغلى و ماء نتن.

ص: ٢٤٧

١-١) مجمع البيان/ج ١٠ ص ٤٢٤.

٢-٢) راجع القرطبي/ج ١٩ ص ١٨٠.

إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا الْحَمِيمِ: الماء الحار. أَمَا الْغَسَّاقُ فَهُوَ مَاءٌ نَتْنٌ، وَقِيلَ: صَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ وَفِيهِمْ.

[٢٦] أ ترى هل ظلمهم ربهم حين أوقعهم فى النار؟ كلاً.. لقد ظلموا أنفسهم. أ و ليس قد واطر عليهم رسله؟ إن هذا جزاء أعمالهم، و نهايه مسيرتهم.

جَزَاءٌ وَفَقَاءٌ أَى جَزَاءٌ مُوَاظِقًا لِأَعْمَالِهِمْ بِلَا زِيَادَةٍ أَوْ تَغْيِيرٍ.

[٢٧] لما ذا انتهى بهم المطاف إلى هذه العاقبه السوئى؟ لأنهم لم يتوقعوا الحساب فأفراطوا فى السيئات، كما المجرم حين لا يفكر فى العدالة يتوغل فى اقتراف الموبقات.

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزُجُونَ حِسَابًا [٢٨] وَإِذَا أَنْذَرَهُمُ الرِّسْلَ وَالدَّعَاةَ بِالحِسَابِ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَاتُ النُّشُورِ تَتْرَى، كَذَّبُوا بِهِ وَبِآيَاتِهِ.

وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا [٢٩] بلى. كان الحساب قائماً، و كانت أعمالهم و أنفاسهم و لحظات حياتهم و هواجس نياتهم كل أولئك كانت محسوبة عليهم.

وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَلَمْ يَغَادِرْ كِتَابَ رَبِّنَا صَغِيرَهُ وَ لَا كَبِيرَهُ إِلَّا أَحْصَاهَا.

[٣٠] و اليوم جاء يوم الجزاء بعد الإحصاء الشامل.

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا إِنَّهَا النِّهَايَةُ المَرِيعَةُ، و معرفه الإنسان فى الدنيا بهذه الحقيقه: أَنَّ عَذَابَ جَهَنَّمَ يَزِيدُ كَمَا أَنَّ نَعِيمَ الْجَنَّةِ فِي اضْطِرَادِ، هَذِهِ المَعْرِفَةُ تَجْعَلُ هَذِهِ الزِّيَادَةَ حَكِيمَةً وَ عَادِلَةً لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِاخْتِيَارِهِ الحَرِّ بَلَغَ هَذِهِ العَاقِبَةَ.

حَقًّا: إِنَّ تَصَوُّرَ هَذِهِ الحَقِيقَةِ يَجْعَلُنَا أَكْثَرَ حَذَرًا مِنْ جَهَنَّمَ وَ أَشَدَّ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ،

وَ قَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ-: «هَذِهِ الْآيَةُ أَشَدُّ مَا فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ» (١).

[٣١] بِإِزَاءِ ذَلِكَ نَجِدُ المَتَّقِينَ الَّذِينَ تَحَذَّرُوا مَوْجِبَاتِ النَّارِ فِي الدُّنْيَا، وَ تَجَنَّبُوا السَّيِّئَاتِ الَّتِي تَدْخُلُهُمْ جَهَنَّمَ، نَجِدُهُمْ بِعِيدِينَ عَنْهَا بَعْدَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا وَ أعْظَمَ فَوْزٍ لَهُمْ نَجَاتِهِمْ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. أَوْ لَا تَرَى قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: «فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ»؟ [٣٢] وَ بِالإِضَافَةِ إِلَى النِّجَاحِ مِنَ النَّارِ فَإِنَّهُمْ يَحْظُونَ بِنَعِيمِ الأَبَدِ.

حَدَائِقَ وَ أَعْتَابًا وَ لَعْلَ ذَكَرَ العَنبَ بَيْنَ سَائِرِ الثَّمَارِ لِأَنَّهُ طَعَامٌ وَ فَاكِهِهِ وَ فِيهِ مِنَ الفَوَائِدِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، حَتَّى

جاء فى الحديث: «خير فواكهكم العنب» (٢).

ص: ٢٦٩

١- ١) عن تفسير الكشاف/ ج ٤ ص ٦٩٠.

٢- ٢) تفسير نمونه/ ج ٢٦ ص ٤٨.

[٣٣]الزوجه الموافقه تكمل السعاده،ليس لأنها فقط للتمتع الجنسى،و إنما أيضا لحاجه الروح إلى تفاعل مع روح أخرى،تكون لها كالمراه تنظر فيها نفسها و العكس،و قد وفرّ الله لعباده الصالحين الحور العين فى الجنه،بأفضل ما يتصوره البشر،بل و أفضل مما قد يتصوره جمال قمه فى الروعه و الجمال الظاهرى،و مثل أعلى لجمال الروح،و الخلق الفاضل و الأدب الرفيع حتى يصلحن للمؤمنين و مستواهم السامى.

وَ كَوَاعِبَ أَتْرَابًا الْكَاعِبِ:البنيت عند استداره صدرها،و تفتّح أنوثتها مما تكون ألد للرجل و أشهى،فهنّ كواعب،ثم هنّ أتراب موافقات لروح الرجل خلقا و عقلا و شهوات.

و يملك المؤمن أكثر من واحده منهنّ حسب أعماله الصالحه ممّا يستحيل مثل ذلك فى الحياه الدنيا.

[٣٤]جلسات الأنس لا تصفوا بدون شراب منشط،و قد وفرّ الله للصالحين بأحسن ما يشتهون.

وَ كَأْسًا دِهَاقًا قَالُوا:الدهاق ما امتلأت من الشراب،و قيل:ما تواصلت،و قيل:ما صفت.

و كلّها تصدق فى شراب الجنه.

[٣٥]و لا- تكتمل نعم الحياه بسوى الأمن،و الجنه دار السلام فلا اعتداء و لا ظلم و لا مرض و لا سبات و لا خشيه فناء النعم و زوالها..و حتى الكلمات الجارحه التى تبعث الرعب و القلق و الألم فى النفس لا وجود لها.

لَا يَسْتَمْعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا وَإِنَّمَا يَتبادلون العلم والمحبّة و ذكريات الماضي و يحمدون ربهم على النعم. و لما ذا قول اللغو من غيبه و تهمه و فحش ما دامت نفوسهم طيبة و الخيرات متوافره لهم؟ و لما ذا الكذب و هو لا- يكون إلا لخيبث أو خوف أو طمع و أهل الجنة مبرّأون من كلّ ذلك؟ [٣٦] كل هذه النعم ترى عليهم بفضل الله لأنهم اختاروا الصراط المستقيم و العمل الصالح.

جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا يَبْدُو أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الْعَطَاءَ الْعَظِيمَ يَكُونُ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ حَيْثُ أَنَّ دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ تَخْتَلِفُ هُنَاكَ حَسَبَ دَرَجَاتِهِمْ هُنَا.

و قيل: «حساباً» بمعنى الجزاء الوافى بحيث يقول المجزى: حسبي، يقال:

أَحْسَبْتُ فَلَانًا أَيْ كَثَّرْتُ لَهُ الْعَطَاءَ حَتَّى قَالَ حَسْبِي.

و قيل: «حساباً» لما عملوا، فالحساب بمعنى العد أى بقدر ما وجب له فى وعد الرب، فإنه وعد للحسنه عشرًا، و وعد لقوم بسبعمائه ضعف، و قد وعد لقوم جزاء لا نهايه له و لا مقدار، كما قال تعالى: «إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

و تعود الأقوال جميعاً إلى حقيقه واحده هى العطاء الجزيل.

[٣٧] و لكى لا يستكثر الإنسان هذه النعم بين الله أنّها من عند الربّ العظيم، الذى له ملك السموات و الأرض و هو الرحمن.

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ وَمَا ظَنُّكَ بِالرَّحْمَنِ الَّذِي وَسَعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ إِذَا شَاءَ أَنْ يَجْزِلَ الْعَطَاءَ؟ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا إِنَّهُ عَظِيمٌ إِلَىٰ دَرَجَةِ تَعَالِيهِ عَنِ تَخَاطُبِ خَلْقِهِ، لَوْلَا رَحْمَانِيَّتُهُ الَّتِي يَنْزِلُ بِهَا وَحْيَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ عِبْرَ رَسُولٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ.

و لو لا أنّ الله سبحانه أذن لعباده بدعائه، وألقى في قلوب مريديه أنوار محبته و مناجاته، لما استطاع الإنسان- أيّ إنسان- أن يسمو إلى درجه مخاطبته. أليس الخطاب بحاجه إلى توافق طرفين، أو فرض طرف على آخر؟ والله ليس بمستوى خلقه حتى يتوافق معه، و لن يفرض عليه شيء. وهكذا تشير الآية إلى أنّ البشر و سائر الخلق ليسوا بمستواه، و أنّهم لا يملكون منه شيئاً فلا يفرضون عليه شيئاً، و هو يملكهم، و برحمته يتفضل عليهم بمخاطبتهم، و قد يأذن لبعضهم إذنا تكويتياً و تشريعياً بمخاطبته، و ذلك حين يعرّفهم نفسه و يلهمهم مناجاته.

و قد اختلفوا فيمن لا- يملك الخطاب، هل المؤمنون الذين ذكروا آنفاً، أم الكفار باعتبارهم المطرودون عن باب رحمته، أم كلا الفريقين؟ يبدو أنّ الضمير ليس يعم المؤمنين و الكفار فحسب بل و يشمل سائر الخلائق (الجن و الملك و الروح) بشهاده الآية التاليه التي جاءت تفصيلاً لهذه الآية، و مثلاً ظاهراً.. بالرغم من أنّ هذه الآية- فيما يبدو لي- لا تخص يوم القيامة، بلى. يوم القيامة تتجلى هذه الحقيقه بوضوح أكبر.

[٣٨] تتجلى عظمه ربنا لعباده يوم البعث الأكبر حين يقوم الروح بكلّ عظمته و جلاله بين يديه، و الملائكه صفّاً لا يتكلمون، و قد خشعت أصوات الخلائق

لعظمه الرب. ثم يأذن الله برحمانيته لبعضهم بالكلام شريطه ألا يتكلم إلا صوابا.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ و ما الروح؟ اختلفوا في ذلك، فقال البعض: إنه خلق أكبر من سائر الخلق حتى من الملائكة المقربين جبرائيل و ميكائيل،

جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام-: «ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل» (١).

و على هذا فإن الروح هو روح القدس الذي يؤيد به الله أنبياءه، قال سبحانه:

« نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » (٢)، و هو حسب تفسيرنا المراد بقوله سبحانه: « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » (٣)، و قوله سبحانه: « تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ » (٤).

و قال البعض: إنه جند من جنود الرحمن كما الملائكة،

و روى عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنه قال:

«الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس و أيدي و أرجل، ثم قرأ:

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلَائِكَةُ صَفًّا »، قال: هؤلاء جند و هؤلاء جند. « (٥) و قال بعضهم: إنه جبرئيل أليس يقول ربنا عنه: « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » (٦)

ص: ٢٧٣

١- ١) عن تفسير مجمع البيان/ ج ١٠ ص ٤٢٧ راجع تفسير نمونه/ ج ٢٦ ص ٥٨.

٢- ٢) النحل ١٠٢/.

٣- ٣) الإسراء/

٤- ٤) القدر ٤/.

٥- ٥) عن الدر المنثور/ ج ٦ ص ٣٠٩ تفسير نمونه/ ج ٢٦ ص ٥٨ و مثله القرطبي/ ج ١٩ ص ١٨٧.

٦- ٦) الشعراء ١٩٣/.

وقال بعضهم: المراد أرواح الخلائق، وقال آخرون: المراد القرآن، وقالوا:

أشراف الملائكة، وقالوا: بنو آدم والمعنى ذووا الروح (١).

ويبدو لى أنّ الروح فى الأصل خلق نورانى أعظم من الملائكة و له جنود و امتدادات، فمنه تستمد أرواح الناس قوتهم و حياتهم، و به يؤيد الله أنبياءه و أوليائه، و هو الذى يتنزل فى ليله القدر، و هو الذى يقوم بين يدى الله يوم القيامة مع صفوف الملائكة.

وَ الْمَلَائِكَةُ صِيْفًا لَا يَتَكَلَّمُونَ لِأَنَّ هَيْبَةَ اللَّهِ تَغْفِلُ أَلْسِنَهُمْ، وَلِأَنَّهُمْ مَحْكُومُونَ مَرْبُوبُونَ، فَمَنْ السَّفَهَ أَنْ يَتَّخِذَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَهًا لِأَنَّ كُلَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ حَتَّى الشَّفَاعَةَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُمْ بِهَا، وَ اللَّهُ لَا يَأْذَنُ بِهَا إِلَّا لِمَنْ يَشَاءُ وَ بِحُكْمِهِ أَى بِحِسَابِ دَقِيقٍ.

إِلَّا مَنْ أٰذَنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ قَالَ صَوَابًا وَ هَذِهِ الْآيَةُ تَذَكِّرُنَا بِقَوْلِهِ سُبْحٰنَهُ: «يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أٰذَنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا» وَ الَّتِي قَلْنَا فِيهَا: إِنَّ لِلشَّفَاعَةِ شَرْطَيْنِ: إِذْنُ اللَّهِ، وَ أَنْ تَكُونَ مَرْضِيَّةً أَى عِبْرَ مَقْيَاسِ الثَّوَابِ وَ الْعِقَابِ وَ لَيْسَ بَلَا أَى مِيزَانَ مَقْيَاسٍ، وَ يَبْدُو أَنَّ قَوْلَهُ سُبْحٰنَهُ هُنَا: «وَ قَالَ صَوَابًا» يَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ.

[٣٩] كما تتجلى عظمه الله فى ذلك اليوم، يتجلى كذلك الحق، فلا شفاعه بالباطل و لا كذب و لا دجل و لا أحكام جائره.

ص: ٢٧٤

(١- ١) تفصيل هذه الأقوال مذكور فى تفسير القرطبي/ج ١٩ ص ١٨٦-١٨٧ فراجع.

ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَيِّقُ فَهُوَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَلِأَنَّهُ رَهيبٌ بِأَحْدَاثِهِ الَّتِي تَنْوِءُ بِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ فَكَيْفَ بِهَذَا الْإِنْسَانَ الْمَسْكِينِ؟! لِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى بِالْحَقِّ.

و فيه لا ينفع إلا الحق، و هو ابتغاء مرضاه الرب.

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ أَيُّ طَرِيقًا لِلْعُودَةِ إِلَيْهِ. أ و لسنا قد فطرنا على الايمان ثم انحرفت بنا الدنيا و شهواتها؟ تعالوا نعود إلى الطريق الأول، إلى سبيل الله، إلى الرب الودود.

[٤٠] و قبل يوم القيامة عذاب قريب يقع قبل الموت و بعد الموت، فإذا مات ابن آدم قامت قيامته الصغرى فيرى عمله إن خيرا فخير و إن شرا فشر.

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَرَادُ الْحِسَابُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَالَ الْبَعْضُ: إِنَّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ذَاتَهُ بِاعْتِبَارِهِ حَقًّا لَا رَيْبَ فِيهِ وَ أَنَّهُ يَأْتِي وَ أَنَّ كُلَّ آتٍ قَرِيبٌ، أَوْ بِاعْتِبَارِ الْإِنْسَانِ إِذَا مَاتَ انْعَدَمَ إِحْسَاسُهُ حَتَّىٰ يَبْعَثُ لِلْحِسَابِ فِي حِسَابِهِ يَتَّصِلُ يَوْمَ مَوْتِهِ بِيَوْمِ بَعْثِهِ، إِلَّا إِذَا مَحُضَ الْإِيمَانَ أَوْ مَحُضَ الْكُفْرَ فَإِنَّهُ يَحْسُ بِالْثَوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ.

و سواء بعد الموت أو بعد النشور فإن أعمال الإنسان تتجسد ثوابا أو عقابا ينظر إليها.

يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَ الْمَرَادُ مِنَ الْيَدِ مَجْمَلٌ مَا يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ. وَ حِينَ يَرَى الْمُؤْمِنُ

عمله يفرح كثيراً، و لكن حين يرى الكافر عمله يتمنى لو كان تراباً و لم يرتكب ذلك العمل السيء.

و يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً مَا أَشَدَّ هَذَا الْإِنْسَانَ نَدماً أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ فَيَتَمَنَّى لَوْ كَانَ تُرَاباً وَ لَمْ يَقْتَرِفْ تِلْكَ الْجَرَائِمَ! هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لِيَكُونَ ضَيْفًا عِنْدَهُ فِي جَنَاتِ الْخُلْدِ بَلِغَ بِهِ الْحَالُ أَنْ يَكُونَ أَرْدَلًا مِنَ التُّرَابِ. فَكَيْفَ وَ التُّرَابُ يَنْتَفِعُ بِهِ وَ هُوَ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ؟! بَلِ يَسْتَحِقُّ الْمَزِيدَ مِنَ الْهَوَانِ وَ الْأَذَى.

ص: ٢٧٤

سوره النَّازِعَات

اشاره

ص: ۲۷۷

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال: «من قرأ و النازعات لم يمت إلا رياناً، و لم يبعثه الله إلا رياناً»

نور الثقلين/ج ٥ ص ٤٩٧

ص: ٢٧٩

يبدو أنّ سورة النازعات تنزع من نفس المهتمدين بها طغيانها، ولكن كيف؟ أولاً: بتلاحق كلمات القسم الصاعقه، وبما هو مجهول عندنا، من ملائكه لموت أو حاله الموت أو خيل الغزاه.

ثانياً: تنذر بيوم الراجفه و يوم الرادفه حيث تكون القلوب واجفه، أبصارها خاشعه. من هم أولئك؟ إنهم الذين يقولون فى الدنيا: أينا لمرودون إلى الحياه كما نحن الآن حتى و لو كُنّا عظاما نخره؟! فيقول لهم القران: بلى و بزجره واحده تخرجكم الأرض إلى ظهرها المستوى، لا يرون فيها أمّتا و لا عوجا.

ثالثاً: تقص علينا حديث موسى و فرعون، و كيف أنّ فرعون طغى و لم يستمع إلى إنذار رسول الله إليه فأخذه الله نكال الآخره و الدنيا.

رابعاً: ترينا آيات الله فى السموات و الأرض، و حكمته البالغه التى تتجلّى فى

نظام الخلقه. كيف مسك السماء و سواها كيف أغطش ليلها و أخرج ضحاها، و كيف دحى الأرض و أخرج منها ماءها و مرعاها، و كيف أرسى جنباتها. كل ذلك لحياء الإنسان و البهائم التي تساعد الإنسان.

خامسا: بعد ذلك يذكّرنا بالطامه الكبرى حيث يتذكّر الإنسان ما سعى، و يبيّن أنّ حكمه الخلق تتجلّى في الجزاء النهائي، عند ما يلقى في الجحيم من طغي، بينما تكون الجنه مأوى الخائفين مقام ربهم.

و في خاتمه السوره يذكّرنا السياق بتبرير يتشبث به الجاحدون عبثا حيث يتساءلون عن الساعه: أيا نمرساها؟ و لكن أين أنت و الساعه؟ إنّ علمها عند الله و إليه منتهاها. إنّما أنت منذر. دعنا نخشاها، ففي ذلك اليوم تعمّ الحسره كلّ أبعاد وجودنا لأننا نحتسب عمرنا في الدنيا عشيه أو ضحاها.

و هكذا تحقّق آيات السوره هدفها لمن يشاء، و هو معالجه طغيان النفس و غرورها

[سوره النازعات (٧٩): الآيات ١ الى ٢٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَ النَّازِعَاتِ غَرَقًا (١) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعُنَّ الْمُرَادِفُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِذَا لَمَرُّوْدُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى (١٨) وَ أَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَ عَصَى (٢١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَةِ وَ الْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦)

اللغة

١[و النازعات غرقا]: قيل: هم الملائكة ينزعون أرواح الكفار عن أبدانهم بالشده كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غايه المدى، وقيل: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق أى تطلع و تغيب، قال البعض: تنزع من مطالعها و تغرق في مغاربها.. و هناك معان أخرى للآيه.

٦[الراجفه]: قيل هي النفخه الأولى التي يموت فيها جميع الخلائق، و الراجفه صيحه عظيمه فيها تردد و اضطراب كالرعد إذا تمخض.

٧[الرادفه]:قيل هى النفخه الثانيه تعقب النفخه الأولى و هى التى يبعث معها الخلق.

٨[واجفه]:شديده الاضطراب،و الوجيف:سرعه السير، و أوجف فى السير:أسرع و أزعج الركاب فيه.

١٠[الحافره]:الطريق التى مرّ فيها الإنسان،تسمى بذلك لأنه حفرها بتأثير أقدامه فيها،فالكافرون يتساءلون:هل نحن نعود إلى الحياه بعد الموت كالسابق؟ ١١[نخره]:باليه،و فى مفردات الراغب:نخرت الشجره أى بليت فهتت بها نخره الريح أى هبوبها،و النخير:صوت من الأنف.و هذا يوافق ما قيل من أنّ الناخره من العظم ما فرغت و خرج منها صوت بسبب هبوب الرياح.

١٣[زجره]:هى صيحه الصور،و سميت بذلك لأنها تزجر و تردع المخاطب عن سيره الأول إلى نحو السير الثانى.

١٤[بالساهره]:هى وجه الأرض،و العرب تسمى وجه الأرض من الفلاه ساهره أى ذات سهر لأن من يريد النوم عليها يسهر خوفا مما فيها من العدو و الحيوانات الوحشيه.و هنا إشاره:

أنّ المحشر يكون فى أرض مستويه كالفلات لا- اعوجاج فيها و لا بناء و لا شجر و لا كهوفا و لا مغارات يفتون إليها من يد العداله، يقول ربّنا:«يوم هم بارزون».

١٦[طوى]:اسم للوادي الذى كلم الله فيه موسى.

و قيل:طوى بالتقديس مرّتين.

ص:٢٨٥

هدى من الآيات:

لكى لا تغمر النفس الغفلة عن ذكر الله يذكّرنا السياق بما ينتظرنا من حالات النزع و النشاط و السبح و السبق، ثم بيوم القيامة حيث الصيحة التى تفنى بها الخلائق، و الصيحة التى تحيى بها. فى ذلك اليوم تتسارع نبضات القلوب، و تخشع الأبصار، لما ذا؟ لأنهم كانوا لا يرجونه، و كانوا يقولون: هل نعود كما نحن اليوم، أو بعد أن نصبح عظاما نخره؟! ثم قالوا: تَلَكَّ إِذَا كَرَّهَ خَاسِرَةٌ. بلى. إنهم يعودون و بصيحه واحده تنقلهم من رحم قبورهم إلى ظاهر الأرض المستويه.

ثم ينقلنا السياق إلى حديث موسى الذى ناداه ربه و أمره بإنذار فرعون الطاغية لعله يتذكر أو يخشى، و لكنّه أبى و تحدّى حين حشر الناس و نادى فيهم: أنا ربكم الأعلى، فأهلكه الله فى الدنيا بعذاب و ألحقه بعذاب الآخرة. كل ذلك ليبقى عبره لمن يخشى.

و هكذا تواصلت رسالات الله لإنذار البشر بذلك اليوم الرهيب الذى ينتظر الجميع.

بينات من الآيات:

[١] فى حياه المرء لحظات حاسمه لو وعاهها و نظم مسيرته وفقها تجاوز خطرهما، و من أبرزها عند نزع الروح، عند ما يودع حياه طالما عمل لها، و يدخل فى حياه مجهوله تماما لديه، و عند ما يقسم القرآن بمثل هذه اللحظات فلكى نعيد النظر فى تصوراتنا عن أنفسنا، و نكبح منها جماح الغرور و الطيش.

و النَّازِعَاتِ غَرْقًا قسما بتلك القوى التى تنزع الأرواح من أبداننا بقوه كما ينزع القوس فيغرق فيه حتى يبلغ غايه مداه.

و يبدو أنّ المراد منها الملائكه الذين يقومون بهذا الدور.

[٢] ثم قسما بالقوى التى تنشط فى هذا الأمر نشطا.

و النَّاشِطَاتِ نَشْطًا قالوا: النشط هو الجذب بسهولة و يسر، فالمعنى هنا أنّ الملائكه تنشط أرواح المؤمنين، كما ينشط العقال من يد البعير إذا حلّ عنها. من هنا يعتقد أنّ القسمين هما بملك الموت و أعوانه فى حالتين: عند نزع أرواح الكفار غرقا أى بقوه و شده، و عند نزع أرواح المؤمنين بنشط و رفق.

و قد روى عن الإمام على -عليه السلام- معنى معا كسا فى هذه الآيه حيث

قال أنّها: «الملائكة تنشط أرواح الكفّار بين الجلد و الأظفار حتى تخرجها من أجوافهم بالكرب و الغم» (١).

[٣] ثمّ تحمل الملائكة أرواح المؤمنين إلى السماء فتسبح فيها سبحاً.. كما تسبح النجوم في أفلاكها.

وَ السَّابِقَاتِ سَبْحاً [٤] ثمّ تتسابق بسرعه لتبلغ غايه الروح النار أو الجنة.. فقسما بأولئك الكرام.

فَالْمُدَبَّرَاتِ سَبْقاً [٥] و قسما بأولئك الملائكة الذين يدبّرون أمر الأرواح و غيرها من أمور عالمنا بإذن ربّهم.

فَالْمُدَبَّرَاتِ أَمْراً قسما بهم جميعاً: إنّ يوم الفصل آت، و إنّ الجزاء واقع لا ريب فيه.

كان هذا أحد التفاسير في معنى هذه الآيات، و هناك تفسيرات أخرى:

١/ أنّ المراد بالنازعات فإنّها تنزع من أفق لآخر، و تنشط في سيرها، و تسبح في الفضاء، و تساءلوا عن معنى تدبيرها الأمر فقالوا معناه أنّ الله يدبّر الأمر بها.

٢/ أنّ النازعات هي الأرواح التي تنزع كما يقال لابن و تامر لمن يملك اللبن و التمر، و هي أيضا التي تنشط أي تخرج ثمّ تسبح في الفضاء، و تساءلوا مرّه أخرى عن تفسير المدبّرات أمرا فقالوا: إنّ أرواح بني آدم تدبّر عبر الأحلام لبعض الأمور بعد

ص: ٢٨٨

فراقها من الدنيا، وهذا تفسير غريب.

٣/ وقال بعضهم: أنها صفة خيل الغزاه أو الغزاه أنفسهم، لأنها تنزع في أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب، وهي ناشطات لأنها تخرج من دار الأمان إلى جبهات الحرب، وهي سابحات لأن العرب تشبه الخيل الأصيل بالسفينه التي تجرى بيسر و سرعه، وقالوا: إنها تدبر أمر الغلبه و النصر.

و إن هذا التفسير يبدو مقبولا- إذا لاحظنا أن ربنا أقسم بخيل الغزاه أو عموما بالخيل في قوله سبحانه: « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا » (١)، وكانت للعرب علاقه حميمه مع الخيل، كما أنه كان رمزا للشجاعه و الفروسية.

إلا- أن تفسير «المدبرات أمرا» بها يبقى غريبا، لذلك قال بعضهم: إنه لا خلاف في تفسير هذه الآيه بالملائكه أنى فسروا سائر الآيات، بينما يبدو أن المراد بكل هذه الكلمات نوعا واحدا من الخلائق، والله العالم.

[٦] و أنى كان تفسير هذه الكلمات الصاعقه فإنها تهزّ الضمير، بل و يزداد المرء هلعا حين لا يعلم المراد منها بالضبط، و هنا يقول الرب:

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ حِينَ تَزُولُ الْأَرْضُ زَلزَالِهَا، حِينَ تَعْمُ الصَّيْحَةُ أَرْجَاءَ الْكُونِ، حِينَ تَهْتَزُّ كُلُّ الثَّوَابِتِ فَلَا يَبْقَى مَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ سِوَى الْحَقِّ. و سواء كانت الرجفه بمعنى الحركة كقوله سبحانه: « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ »، أم بمعنى الصيحه كما قال سبحانه: « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ »، فإنها تخلع القلوب هلعا، و تبعثنا نحو التفكير الجدى فيما يفعل بنا غدا.

ص: ٢٨٩

[٧] و بعد الرجفه هناك صاعقه أخرى يدعها السياق مجهوله.

تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ الشَّيْءَ يَقَعُ بَعْدَ شَيْءٍ آخَرَ، فَهَلْ هِيَ الصَّيْحَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَحْيِي بِهَا اللَّهُ النَّاسَ بَعْدَ أَنْ يَمِيتَهُمُ بِالْأُولَى، أَمْ أَنْ عِنْدَ الْأُولَى يَمُوتُ أَهْلُ الْأَرْضِ بَيْنَمَا يَمُوتُ عِنْدَ الثَّانِيَةِ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ؟! أَتَى كَانَتْ فَإِنَّهَا صَاعِقُهُ فَظِيْعُهُ تَبِعَتْ الْهَيْبَةَ فِي أَنْفُسِنَا.

[٨-٩] تتسارع نبضات قلوب الفخّار فأنى لهم الفرار من أهوال الساعه و قد ضيعوا فرصهم في الدنيا فلم يدّخروا لأنفسهم ما ينجيهم منها؟ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ، لِأَنَّهُمْ قَدْ وَقَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ مَا يَبْعَثُ فِي أَنْفُسِهِمُ السَّكِينَةَ.

[١٠] طالما كفروا بالنشور، و بنوا كل مواقفهم على أساس هذا الكفر، فإذا بهم يكتشفون خطأهم.

يَقُولُونَ أَإِذَا كَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِيَةِ قَالُوا: رَجِعْ فَلَانَ فِي حَافِرَتِهِ أَى فِي طَرِيقَتِهِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا فَحْفَرَهَا أَى أَثَرَ فِيهَا بِمَشْيِهِ. وَ هَكَذَا يَبْعَدُونَ الْبَعْثَ لِأَنْفُسِهِمْ حَتَّى لَا يَتَحْمَلُوا مَسْئُولِيَاتِهِ.

[١١] و يحاولون تبرير استبعادهم للبعث بأنه كيف يمكن إعادته هذه الأعظم الباليه التي تنخر فيها الرياح لما فيها من ثقوب كثيره.

أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً

حكى عن كتاب الخليل: نخرت الخشبه إذا بليت فاسترخت حتى تفتت إذا مسّت، وكذلك العظم الناخر (1) و قيل: الناخره من العظم ما فرغت و خرج منها صوت بسبب هبوب الرياح.

[١٢] ثم عادوا إلى الواقع و قيموا موقفهم الجاحد فقالوا إذا كانت القيامة حقاً فإنهم الخاسرون لكفرهم بها.

قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ و لعل هذا القول كان اعترافاً منهم يدانون به يوم القيامة، أو جحوداً بعد اليقين و عنادا بعد الإذعان. و قيل: إنما هو استهزاء و سخرية.

[١٣] دعهم يقولوا ما يشاءون فإنّ القيامة واقعه، و بزجره واحده تراهم قياما فى الساهره.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ زجر البعير إذا صاح عليه، و يبدو أنّ المراد منها النفخة الثانيه التى يحيى بها الله من فى القبور.

[١٤] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ الساهره الأرض المستويه سميت بذلك لأنّ سالكها لا ينام فيها خوفا منها.

و يبدو أنّ الساهره هى وجه الأرض فى مقابل باطنها حيث أنّهم كانوا فى باطن الأرض فتحوّلوا إلى ظاهرها.

ص: ٢٩١

١-١) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج ١٩ ص ١٩٨.

[١٥] حقيقه كيوم القيامة، عند ما تدق ساعه الحساب الرهيب، جديره بأن نتذكرها، بل نجعلها نصب أعيننا أبدا حتى نكيف على أساسها كل أبعاد سلوكنا و كل جوانب تفكيرنا، و من أجل هذا بعث الله الرسل لكي ينذروا الطغاه لعلهم يخشون من تلك العاقبه، و لكنهم تماردوا في غيهم حتى أهلكتهم الله و عجل بهم إلى النار، فهل لنا أن نعتبر بتاريخهم المأساوي؟ هل أتاك حديث موسى بلى. و لكن هل اعتبرت بهذا الحديث؟ فإن لم تكن اعتبرت به فكأنك لم تسمعه أبدا.

[١٦] لقد بدأت قصته بدعاء ربه، عند ما صار في الواد المقدس طوى.

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى لَقَدْ تَقَدَّسَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ بِالْوَحْيِ. و لعل اسمها كان طوى أو أن هذه صفه الأرض من الطى كأنها طويت بالقداسه أو طويت بموسى حيث قرّبه إلى الرساله. و لعل طوى صفه لكل أرض مباركه حيث أن سالكها يتمتع بالسير فيها حتى و كأنها تطوى له.

[١٧] ثم أمره الرب بأن يذهب إلى رأس الطغيان و الفساد فرعون.

إِذْ هَبَّ إِلَيْهِ فِرْعَوْنُ إِنَّهُ طَغَى و بالرغم من طغيانه لم يدعه الله بلا نذر، و لم يهلكه قبل أن يبعث إليه رسولا، ليتم الحجه عليه.

ص: ٢٩٢

[١٨] وتلخصت رساله الوحي إليه في دعوته إلى التزكية وإصلاح نفسه، وعدم هلاكها بالاستمرار في الطغيان. سبحانك يا رب ما أرحمك بعبادك، وكيف تريد لهم الفلاح و يابون إلا التمادي في الفساد.

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى [١٩] فإذا تزكَّى المرء، وتطهر من العناد والغرور والكبر، كانت نفسه مهيباً لاستقبال نور الإيمان عبر رسول الله، فإذا هداه الله إليه بالرسول خشعت نفسه وتخلص جذرياً من حاله الطغيان.

وَ أَهْدِيكَ إِلَهِي رَبُّكَ فَتَخْشَى [٢٠] و طالب فرعون موسى بالآية، لعله يتهزّب عن الهدايه عند ما لا يأتيه بها لحكمه بالغه، ولكن الله أظهر له الآيه على يد نبيه إتماماً لحجته.

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ممتثله في العصا و اليد البيضاء.

[٢١] و إذا نزلت الآيه الواضحه ثم كفر المرء فإنّ العقوبه تعجّل له، لأنّ الكفر آئذ يكون تحدياً صارخاً لسلطان الرب، و لعله يكون أيضاً سبباً لضلّاله سائر الناس، و هكذا تتابعت حلقات النهايه.

فَكَذَّبَ وَ عَصَى كَذَّبَ بِالْآيَةِ، و عصى الرب تعالى حين عصى موسى نبيه عليه السلام.

[٢٢] و تمادي في التكذيب و العصيان حين راح يسعى في الأرض فساداً.

ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى [٢٣] وَأَخَذَ يَضَلُّ النَّاسَ، وَيَجْنِدُ الضَّالِّينَ ضِدَّ رِسَالَةِ اللَّهِ.

فَحَشَرَ فَنَادَى أَي جَمَعَ النَّاسَ وَ نَادَى فِيهِمْ بِضَلَالَاتِهِ.

[٢٤] وَأَعْظَمَ تِلْكَ الضَّلَالَاتِ دَعْوَتَهُ بِأَنَّهُ الرَّبُّ الْأَعْلَى، وَاسْتِكْبَارَهُ فِي الْأَرْضِ، وَفَرْضَ قَانُونِهِ الْوَضْعَى عَلَى النَّاسِ فِي مِقَابِلِ شَرِيْعِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

روى عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنه قال: «قال جبرئيل -عليه السلام-: نازلت ربِّي في فرعون منازلَه شديدَه فقلت: يا ربِّ تدعه و قد قال:

أنا ربكم الأعلى؟! فقال: إنما يقول هذا عبد مثلك» (١)، و في روايه أخرى قال ربنا: «إنما يقول هذا مثلك من يخاف الفوت» (٢).

فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى

جاء عن ابن عباس أنّ جبرئيل قال لرسول الله -صلى الله عليه و آله-:

يا محمد لو رأيتنى و فرعون يدعو بكلمه الإخلاص: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» و أنا أرسه في الماء و الطين لشده غضبى عليه مخافه أن يتوب فيتوب الله عزّ و جل عليه! قال رسول الله: ما كان شده غضبك عليه يا جبرئيل؟ قال: لقوله «أنا ربُّكم الأعلى»، و هى كلمته الأخرى منهما قالها حين انتهى إلى البحر و كلمته الأولى: «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي»

ص: ٢٩٤

١-١) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٠٠.

٢-٢) المصدر.

فكان بين الأولى والآخرة أربعون سنه، وإنما قال ذلك لقومه «أنا ربكم الأعلى» حين انتهى إلى البحر فرآه قد يبست فيه الطريق فقال لقومه: ترون البحر قد يبس من فرقى، فصدقوه لما رأوا، وذلك قوله عز وجل: «وَ أَصَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ» (١).

[٢٥] وجاءت النهايه المريعه حيث أخذه الله أخذًا وبيلا، وألزمه عذاب الدنيا فالآخرة.

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ قَالُوا: النَّكَالُ مِنَ النَّكْلِ وَأَصْلُهُ الْامْتِنَاعُ، وَمِنْهُ النَّكُولُ عَنِ الْيَمِينِ، وَالنَّكْلُ:

القيد، ومعناه هنا: العقابه السيئه للعمل و التي تبقى عبره لمن بعده، لأن النكال اسم لما جعل نكالا للغير أى عقوبه له حتى يعتبر به. ثم قالوا: إنه بمعنى أخذه الله أخذًا وبيلا فجعل النكال محل «أخذ وبيلا»، وهذا كثير فى العرييه حيث يوضع مصدر آخر قريب من مصدر الكلمه محل مصدرها، وقال بعضهم: إنه بمعنى: أخذه بنكال الآخرة والأولى. و يبقى السؤال: ما هو معنى نكال الآخرة؟ يبدو لى أن معناه نكالا (أى عقوبه على عمل سىء) يوجد فى الحياه الآخرة، وعقوبه وجدت فى الحياه الدنيا.

[٢٦] وهذا النكال-عاقبه العمل السىء و جزاؤه-بقى عبره لكل معتبر، فمن هو المعتبر؟ الذى يخشى، ولا يخشى إلا من اهتدى، ولا يهتدى إلا من تزكى.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى

ص: ٢٩٥

(١-١) المصدر.

إشاره

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَ أَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً هَرَاءً وَ مَرْعَاهَا (٣١) وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَمَاذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْأِنْسَانُ لِمَا سَعَى (٣٥) وَ بُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَمَا مِنْ طَغْيٍ (٣٧) وَ آثَرِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَ أَمَا مِنْ خَافٍ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَ أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يُخَشَاهَا (٤٥) كَذَّبَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوُّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيرَةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)

اللغة

٢٨[سمكها]:سقفها،و السمك هو الارتفاع،و هو مقابل العمق لأنه ذهب الجسم بالتأليف إلى جهه العلو و بالعكس العمق،و المسموكات السماوات لارتفاعها.

٢٩[أغطش]:أظلم،و الغطش الظلمه،و الأغطش الذى فى عينيه شبه العمش،و فلاه غطشاء لا يهتدى فيها.

٣٠[دحاهها]:بسطها،من الدحو و هو البسط.

٣٤[الطامة]:العاليه الغالبه،يقال هذا أطم من هذا أى أعلى منه،و طم الطائر الشجره:علاها،و تسمى الداهيه التى لا يستطاع دفعها طامه.

٤٢]أَيان مرساها]:أى متى يكون قيامها،من الإرساء و هو الثبوت و الاستقرار.

٤٣]فيم أنت من ذكراها]:أى فيما ذا أنت يا رسول الله من تذكر الساعه فإنك لا تعلم وقت قيامها،كأنّ الإنسان إذا كان داخلا فى شىء علم مزاياه،أمّيا إذا كان خارجا لا- يعلم خصوصياته.و«فيم أنت»للإنكار أى لست من ذكراها فى شىء حتى تعلمها.و قيل:معناه ليس هذا ممّا يتصل بما بعثت لأجله،و قيل:أنها من حكاية قولهم و المعنى أنّك قد أكثرت من ذكراها متى تكون.

ص:٢٩٧

هدى من الآيات:

لكى نتقى طغيان النفس ننظر مره إلى تاريخ الغابرين، و نتساءل: ما الذى أرداهم؟ أ ليس طغيان فرعون على موسى أوجب له تلك العاقبه السوئى؟ و ننظر مره أخرى إلى الخليقه فنرى السماء كيف بناها ربنا المقتدر الحكيم، و كيف رفع سمكها فسوّاها، و كيف ألزمها قوانينها من اختلاف الليل و النهار، و الغطش و الضحى، ثم ننظر إلى الأرض كيف سوّاها، و أجرى فيها روافد الماء العذب، و أودعها مواد الزراعة، و وّدد ميدانها بالجبال الراسيات، لتتهياً لحياء البشر و الأنعام، أ فليس الله بقادر على أن يعيدنا؟ بلى. و هو حكيم لم يخلق كل هذا سدى، فلا بد إذا من يوم الحساب، فى ذلك اليوم الرهيب يتذكر الإنسان سعيه، و يرى كل ذى عين الجحيم تلتهب، و تدعو الطغاه الذين آثروا الحياه الدنيا، بينما الخائفون مقام ربهم يؤويهم ربهم فى الجنه لأنهم خالفوا أهواءهم.

و فى نهايه السوره يعالج القرآن الكريم التشكيك فى وقت الساعه، بأن وقتها عند

اللّٰه، و أنّ المهمّ تذكّرها، و ليس معرفه وقتها.

بينات من الآيات:

[٢٧] لما ذا يطغى الإنسان؟ أو ليس لأنّه لم يستوعب أو يعترف بالنشور و الحساب؟ و لكن كيف يؤمن بذلك و وساوس الشيطان تبعده عنه و تطرح فى روحه التساؤلات المتلاحقه: كيف و متى و أنى؟ من أجل أن يتجاوز الإنسان هذه الوسوس و لا يقع فى شرك الشيطان يذكّره الرب سبحانه بما يحيط به من خلق السموات و الأرض، و ذلك لأمرين:

أولاً: لكى تؤمن بعظيم قدره اللّٰه التى تتجلى فى هذا الخلق مما يهدينا إلى أنّه لا يعجزه شىء.

ثانياً: لكى نزداد وعياً بحكمه الخلق، و أنّ له هدفاً محدداً، و أنّ الإنسان لن يشذ عن هذه السنّه العامه.

و إذا وعى الإنسان هاتين البصيرتين فإنّه يستطيع مقاومه وساوس الشيطان.

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاوَاتُ بَنَاهَا فَقَدَرَهُ الرَّبُّ الَّتِي بَنَتْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الَّتِي لَا يَبْلُغُ حَتَّى خِيَالِ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ مَدَاهَا لَا تَعْجِزُهُ إِعَادَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةٍ أُخْرَى، و قال اللّٰه سبحانه: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

[٢٨] و إذا كان خلق السموات شاهداً على قدره الرب فإنّ نظامها الدقيق شاهد

ص: ٢٩٩

على حكمته. أنظر إلى السماء كيف ارتفعت بلا عمد نراها، وكيف استوت ضمن سلسله لا تحصى من السنن و الأنظمه الحكيمه.

رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا قَالُوا: إذا نظرت من فوق الجبل إلى الوادى قلت عمق الوادى، وإذا نظرت من الوادى إلى قمه الجبل قلت سمك السماء، هكذا رفع الله السماء و جعلها عاليه، و ألزم أجرامها و غازاتها و أشعتها قوانين لا تحيد عنها قيد شعره، و لعل هذا معنى التسويه.

[٢٩] و تهيئه نظام الطبيعه للحياه بدوره شاهد على مدى القدره و الحكمه فى الخلق، فاختلاف الليل و النهار، و بالتالى الظلام و النور و السبات و الحرکه يهدينا إلى مدى عمق الحكمه التى وراء الخلق.

وَ أَغَطَّسَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا قَالُوا: الغطش: الظلام. و الضحى: وقت انتشار نور الشمس، هكذا دبّر القدير الحكيم أمر الأرض و السماء لتتوفر فرصه الحياه على الأرض بما لا نجد مثيلا لها فى الكرات القريبه منا. أو كان كل ذلك بلا هدف؟ [٣٠] و بعد خلق السماء و الأرض تم دحو الأرض و تمهيدها و تسويتها..

وَ الْمَأْرُضَ بَعِيدَ ذَلِكَ دَحَاهَا قَالُوا: إن ذلك إشاره إلى العوامل الطبيعیه التى تتابعت على الأرض حتى تهيأت للعيش، ثم تعرضها للأمطار الغزيره و السيول العظيمه، ثم انحسار المياه عن بعض المناطق دون غيرها.

[٣١] ثم أعدَّ الله الأرض بما أودع فيها من مواد تساعد على زراعتها، و بما جعل في باطنها و ظاهرها من مخازن و مجارى للمياه لسقيها طوال العام.

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً مَرْمَرًا وَمِنْهَا مَاءً حَمِيمًا وَ لَذَلِكَ فَإِنَّ الْمَنَاطِقَ الْقَاحِلَةَ لَا تَصْلِحُ لِلزَّرْعِ، إِمَّا بِسَبَبِ فَقْرِ التُّرْبَةِ أَوْ قَلَّةِ الْمَاءِ.

[٣٢] ولأنَّ الزلازل و البراكين و جاذبيه القمر و العواصف الهوج التي قد تعترض الأرض كانت تهدد حياة الإنسان فوق البسيطة خلق الله الجبال و أرسى بها دعائم الأرض.

وَ الْجِبَالُ أَرْسَالُهَا أَيْ أَثْبَتَهَا بِقُدْرَتِهِ، وَ جَعَلَهَا دَرَعًا حَصِينَةً لِلْأَرْضِ،

يقول الإمام علي -عليه السلام- «بعد أن تحدّث عن السماوات و الأرض و كيف أنّهما دليل على اقتدار جبروت ربّنا و بديع لطف صنّعه»: «و جبل جلاميدها» أي الأرض» و نشوز متونها و أطواها فأرساها في مراسيها، و ألزمها قراراتها، فمضت رؤوسها في الهواء، و رست أصولها في الماء، فأنهت جبالها عن سهولها، و أساخ قواعدها في متون أقطارها و مواضع أنصابها، فأشبهت قلالها، و أطال أنشازها، و جعلها للأرض عمادا، و أرزها فيها أو تادا، فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها «(١).

[٣٣] كل ذلك لكي تتوفر فرص الحياة للإنسان و البهائم التي تخدم الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ص: ٣٠١

مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْفُسِكُمْ أ و ليس كل ذلك دليلاً على أن لوجودنا حكمه بالغه، فلما ذا ننكر المسؤوليه؟ [٣٤] إنَّ للكفر يوم المعاد سبياً نفسياً هو التماهى فى الغفله، و القرآن يخرق بآياته الصاعقه حجب الغفله لمن تدبر فيها.

فَإِذَا جَاءَتْ الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى فِى شَيْءٍ يَنْقُذُنَا مِنْ تِلْكَ الطَّامَةِ؟ هل الغفله تبرر عدم الإعداد لها؟ و الطامه من الظم بمعنى ردم الفجوه، و تسمى المآسى المروعه بها لأنها تملأ النفس رعباً أو لأنها قد بلغت منتهى المأساه. و القرآن يضيف كلمه «الكبرى» لعلنا نتصور تلك الساعه التى ثقلت فى السموات و الأرض و نحن عنها غافلون.

[٣٥] فى ذلك اليوم يمرّ شريط أعمال المرء أمام عينيه. أ و ليس يرى جزاء كل صغيره و كبيره من أعماله؟ أ و لا يقرؤها فى طائره الذى علّق فى رقبتة، فلا أحد يستطيع التكذيب أو الفرار من مغتبه أعماله؟ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى و فى يوم القيامه تتساقط الحجب من عين الإنسان و عقله فإذا هو يتذكر و باستمرار كل مساعيه.

[٣٦] كما أن الجحيم التى هى معتقل الطغاه و المجرمين تبرز أمام الجميع بما فيها من نيران تكاد تتميز من الغيظ، و من عقارب و حيات تتربص بالقادمين، و من شياطين و عفاريت ينتظرون الفتك بقرنائهم.

و بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى

فكل ذى عين بصيره يرى الجحيم بلا حجاب، فيكون المذنبون فى حسره عظمى و خوف لا يوصف.

[٣٧] هنالك الجزاء الأوفى للطغاه، الذين كفروا بالنشور، و أغرقوا فى شهوات الدنيا، و لم يخافوا ربهم.

فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ و أعظم الطغيان مخالفه القيادة الشرعيه،

فقد جاء فى الحديث المأثور عن الإمام على -عليه السلام:-

«و من طغى ضل على عمل بلا حجه» (١).

و إنما تطغى النفس باتباع الهوى لأنه يصد الإنسان عن الحق،

قال الإمام أمير المؤمنين -عليه السلام:-

«إنَّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، و طول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، و أما طول الأمل فينسى الآخره» (٢).

[٣٨] وَ آثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَقَدَّمَهَا عَلَى الْآخِرَةِ.

[٣٩] فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ إِنَّهَا النِّهَايَةُ الَّتِي اخْتَارَهَا بِنَفْسِهِ، وَ يَبْدُو أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ هِيَ جَوَابُ إِذَا الشَّرْطِيَّةِ

ص: ٣٠٣

١- ١) تفسير نمونه/ج ٢٦-ص ١٠٧ عن نور الثقلين/ج ٥-ص ٥٠٦.

٢- ٢) نهج البلاغه/الخطبه ٤٢.

فى قوله: «فإذا جاءت» كما هى جواب لقوله: «فَأَمَّا مَنْ طَغَى» فىكون الأمر مركبا على شرطين، كما لو قال أحدهم: إذا كان رمضان و كنت حاضرا صمت.

[٤٠] كيف نتقى طغيان النفس و غرورها؟ بمخافه الله، و يبدو أنّ السوره تعالج هذه الحاله المتجذره فى نفس البشر. و لكن من ذا الذى يخشى ربه؟ الذى يعرف مقامه. أ و لم يقل ربنا: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» إنّ معرفه أسماء الله، و أنّه أحاط بنا علما و قدره، و أنّه ملك السموات و الأرض، و أنّه الجبار المقتدر.. إنّها تجعل أقسى القلوب خاشعه، و من هنا تزيع وساوس الشيطان بنا عن معرفه ربنا سبحانه.

وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ لِيَتَّقِيَ طَغْيَانَ نَفْسِهِ.

وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى لِكَيْ لَا يُوْثِرَ عَلَى الْآخِرَةِ شَهْوَاتِ الدُّنْيَا الزَّائِلَةَ، وَ لَا يَذْهَبَ طَبِيبَاتِهِ فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى، وَ لِكَيْ يَنْظُرَ لِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ لِعَدُوِّهِ وَ لِدَارِ إِقَامَتِهِ الَّتِي هِيَ الْحَيَاةُ حَقًّا.

[٤١] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى يَعُودُ إِلَيْهَا، لِأَنَّهُ أَصْبَحَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِهَا، وَ كُلُّ امْرَأٍ يَعُودُ إِلَى مَأْوَاهِ الْأَصِيلِ وَ وَطْنِهِ الدَّائِمِ. فالميزان إذا تمّه ليس الانتماءات الظاهره فى الدنيا، و ليس التسجيل فى حفيظه التقوى إنّما مخالفة الهوى، و اتباع الحق، أ رأيت كيف أصبح مصعب بن عمير-الذى قيل أنّ الآيه نزلت فيه-من صفوه أهل الجنة، بينما كان أخوه عامر بن عمير فى الدرك الأسفل من النار؟ بما ذا؟ أ ليس لأنّ

عامر طغى و خالف الحق و اتبع هواه، بينما اتبع مصعب رسول الله، و جاهد بين يديه، و قيل أنه قتل أخاه فى أحد، و وقى الرسول بنفسه حتى نفذت المشاقص فى جوفه؟ [٤٢] أو حين يقرر الإنسان الكفر بشيء يبرر ذلك لنفسه بالتشكيك فيه و بأنه لا يعرف كيف يقع و بأيه صورته و متى.. و هكذا طفق الكفار يرتابون فى الآخرة، و يتساءلون: كيف يعث الله العظام الباليه، و متى، و لما ذا تأجلت هذه المده الطويله؟ لما ذا لم يعث حتى الآن الذين ماتوا فى أول الزمان؟ و هكذا..

و لكن كل هذه التساؤلات لا تنفى حقيقه الساعه، و أنها واقعته لا ريب فيها.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۚ مَتَى تَسْتَقِرُّ كَمَا تَسْتَقِرُّ السَّفِينَةُ فِي النَّهْيَةِ عَلَى شَاطِئِهَا؟ [٤٣] و لكن الله أخفى علمها عن العالمين، بل لم يحدد لها وقتا إنما يقررهما متى ما شاء، و حسب

حديث مروي عن رسول الله صلى الله عليه و آله أنه قال: «لا تقوم الساعه إلا بغضبه يغضبها ربك» (١).

و لكن معرفه ميعاد الساعه أو الجهل بها لا يغير من واقعها شيئا. إنها عظيمه إلى درجه تشفق السموات من وقعها! فلا نتذكرها و نعد لها عدّه؟ فيم أنت من ذكرها يبدو لى أن معنى هذه الآية: أين أنت من قصتها و حديثها، و لما ذا لا نتذكرها، و ليس معناها كما قالوا: ليس لك السؤال عنها، أو فيم أنت من ذلك حتى يسألونك

ص: ٣٠٥

بيانه، و لست ممّن يعلم.

و قال بعضهم: يحتمل أن يكون الوقف عند «فيم» و كأنه قيل فيم تسأل و أنت من ذكرها أى أنّ رسول الله، من أشرط الساعه (١).

بيد أنّ تفسيرنا أقرب إلى السياق الذى يهدف التذكّره بالساعه و أهوالها.

[٤٤] الله سبحانه الذى يأمر بها متى شاء و كيف شاء. إنّها ممّا لم يطلع عليه الرب أحدا من خلقه.

إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۖ فَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ فِي أَمْرهَا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: «إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ»، وَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ».

[٤٥] بلى. حرى بنا أن نترك السؤال عن الساعه إلى العمل من أجلها، و إلى تذكّرها لحظه بلحظه لأنّها آتية لا- ريب فيها، و قد توفّرت أشرطها، و من أشرطها النذير المبين رسول الله.

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا فَبَدَلْ أَنْ نَعَاوِدَ السُّؤَالَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ تَعَالَوْا نَخْشَاهَا بَعْدَ أَنْ جَاءَنَا النَّذِيرُ.

[٤٦] و ما ذا ينفع المجرمين لو تأخّرت الساعه عنهم، هل يخفّف عنهم شيئا من عذاب ربهم؟ كلا..

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا

ص: ٣٠٦

ما قيمه سبعين عاما من العمر جلّها سبات النوم و غفله الجهل و الانشغال بالدنيا و ضروراتها، ما قيمتها إذا قيست بخمسين ألف عام مدّه اليوم الأول من أيام الآخرة؟! هناك يتذكّر الإنسان أنّ عمره في الدنيا كان يوما أو بعض يوم، و أنّه قصير فيه تقصيرا كبيرا حيث لم يستعد ليوم الأهوال.

و لعلّ معنى «عشيه أو ضحاها»: النهار الذي يتصل بالعشيه أو ينصرم بالضحي، و ذلك على عاده العرب في قولهم: آتيك العشيه أو غداتها.. فأهل القيامه قالوا في البدء: كأننا عشنا في الدنيا نهارا كاملا، ثم أكثروا النهار فقالوا: بل نصف نهار، كما قال ربنا سبحانه: «إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا» و قوله: «يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَهُ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا» و قال: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ».

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا ممن وعى رساله النذير، و استعد للرحيل و لم ينس الساعه و أهوالها.

سوره عبس

اشاره

ص: ۳۰۹

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فضل السوره

في كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال:

«من قرأ «عبس و توّلّى» و «إذا الشمس كوّرت» كان تحت جناح الله من الجنان، و في ظلّ الله و كرامته، و في جناحه، و لا يعظم ذلك على الله».

نور الثقلين / ج ٥ ص ٥٠٨.

ص: ٣١١

لكي تصلح نظره الإنسان إلى نفسه جاءت رسالات الله، قبل أن يكون الإنسان غتياً أو فقيراً، شريفاً في النسب أو وضيعاً، عربياً في اللغة والعنصر أو أعجمياً، أبيضاً أو أحمر أو أسوداً.. قبل كل ذلك فهو إنسان، ومن نظر إليه من خلال ملبساته المادية فقد كفر بلبته وجوهرته الساميه.

و هنا تتميز الجاهليه عن الإسلام دين الفطره السليمه و العقل المستنير، فالجاهليه تقيّم الناس على أساس الملبسات الماديه، بينما الدين الحق يقيّمهم على أساس درجات إيمانهم ممّا يتصل بكلّ واحد منهم كإنسان، أ و ليس أصل الإنسان عقله؟ و حامل رسالات الله لا- يجوز أن يتنازل عن هذه الميزه الهامه فإذا به يميّز الناس على أسس ماديه، فما قيمه الرساله إذا، و كيف يمكنه إصلاحهم يومئذ و تغيير مفاهيمه الخاطئه و هو الذى يخضع لها؟!

و يبدو أنّ هذه السوره الكريمه تبصّرنا بهذه الحقيقه فإذا بفاتحتها عتاب شديد، لمن عبس و بسر في وجه الأعمى و تولّى بينما تصدى لمن استغنى. ثم يبيّن السياق سموّ قيمه الإيمان، و قيمه القرآن، و يهدينا إلى صفات حملته بحق، و هم الكرام البرره الذين ينبغي أن يصبحوا محور التجمع الإيماني (لا أصحاب الغنى و الجاه و الشرف الزائف).

ثم يعطف السياق نحو التذكرة بالإيمان عبر تعداد نعم الله على الإنسان و تقلباته منذ أن كان نطفه إلى أن أصبح بشرا سويا و تيسّر لسبل الخير و السلام و حتى يموت فيدفن، و يذكرنا بواحد من أعظم نعم الله علينا و هي نعمه الطعام، و يدعونا إلى النظر فيها، و كيف يوفّرنا الله لنا بالغيث؟ كل ذلك لأنّ الإيمان بالله و نبذ الكفر بكلّ ألوانه هو السبيل لبناء مجتمع القيم الذي يسمو عن الخضوع لأصحاب المال و الجاه.

و في الختام يندرنا الربّ بيوم الصّاحه، و يذكرنا بأنّه في ذلك اليوم لا تنفع هذه العلاقات الماديه فحتى الأرحام تنقطع، إنّما قيمه الحق يومئذ هي العمل الصالح. ألا نجعله أيضا قيمه تجمّعنا اليوم؟

[سوره عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۱۶]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . عَبَسَ وَ تَوَلَّى (۱) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (۲) وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (۳) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (۴) أَمَّا
مَنْ اسْتَغْنَى (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (۶) وَ مَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَّكَّى (۷) وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (۸) وَ هُوَ يَخْشَى (۹) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (۱۰)
كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (۱۲) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (۱۵) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (۱۶)

اللغه

۱[سفره]:الكتبه لأسفار الحكمه،و الواحد منها سافر،و الاسفار الصحف المقدسه،و أصلها الكشف من قولهم:

سفرت المرأه إذا كشفت عن وجهها.

ص: ۳۱۵

بينات من الآيات:

[١] أشارت الآيات الأولى في هذه السوره المباركه التساؤل فيمن نزلت؟ علما بأن مثل القرآن مثل الشمس، و أنه لا ينبغي البحث عن أسباب نزول آيه آيه منه، فلم يكن القرآن كتاب حقه خاصه من الزمن حتى نفتش فيها عن تطبيقاته، بل لعل تأويل آيه كريمه لا يتأتى إلا بعد قرون و قرون، بلى. كانت آيات كثيره تجد تطبيقها في حياه الرسول صلى الله عليه و آله و قد اعتقد أهل التفسير أنها نزلت في تلك الموارد بينما الحقيقه أنها تأولت فيها فقط و لم تكن سوى مصداق من مصاديق القرآن، و لعل التعبير التالى عند المفسرين الأوائل «نزلت في فلان مثلا» كان يعنى أنها طبقت عليه و اولت فيه و ليس نزولها لهذه الحادثه، و الدليل على ذلك أننا نجد آيات كثيره ذكر لها المفسرون موارد متأخره عن نزولها أو متقدمه، مثلا: نجد آيات مكّيه يذكر المفسرون من الجيل الأول انها نزلت في اشخاص لم يكونوا في مكه (و لعل الآيات الاولي من سوره عبس منها) أو بالعكس أو حتى أنهم يؤولونها فيمن لم يكن في

عهد الرسول صلى الله عليه وآله . (١).

بلى. عند الأجيال التالية من المفسرين أصبح التعبير «نزلت في كذا» يوحى بان الآية نزلت بتلك المناسبة.

و فيما يتصل بالآيات فى هذه السوره فقد قال القرطبي: روى أهل التفسير أجمع: أنّ قوما من أشرف قريش كانوا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد طمع فى إسلامهم فأقبل عبد الله بن أمّ مكتوم، فكره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت الآية (٢).

و قال الشيخ المكارم فى تفسيره «نمونه» ما يلى: المشهور بين المفسرين (السنة و الشيعة) ذلك، و لكنه

روى حديثا عن الامام الصادق -عليه السلام- يقول:

«أنها نزلت فى شخص من بنى أمية» و أضاف: انه ليس من شأن الرسول ان يعبس فى وجه أحد من الناس، كيف و هو الذى قال عنه ربنا سبحانه: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٣).

و يبدو لى أن الآية لم تنزل فى شأن النبي، و أن المفسرين ذهبوا إلى ذلك بسبب ما توهموه من دلالة الآية، و من بعض الروايات المتشابهة المختلفه، فمثلا: نجد فى بعضها: أن النبي كان مع الوليد بن المغيرة، و فى بعضها أنه كان مع أمية بن خلف، و قال مجاهد: كانوا ثلاثة: عتبه و شيبه -ابنا ربيعة- و أبي بن خلف، و قال سفيان الثوري: كان النبي مع عمه العباس.

ص: ٣١٧

١ - ١) و الى مثل هذا الرأى ذهب الدهلوى فى كتابه الفوز الكبير فى أصول التفسير ص ١٠٧/١٠٨ الطبعة الثانية دار البشائر الإسلاميه.

٢ - ٢) القرطبي ج ١٩/ ص ٢١١.

٣ - ٣) تفسير نمونه.

و على افتراض ان القصه كانت صحيحه، فمن يقول أن المراد ان النبي قد عبس، فلعل واحدا من المسلمين كان حاضرا و هو الذى فعل ذلك، و الشاهد انه لم يقل ربنا: عبست و توليت، و من ثم يكون السياق بلغه الخطاب، و لكن أليس من الممكن ان يكون ذلك من باب تحويل الكلام الى الخطاب بعد ذكر الغائب، و كأنه قد أصبح بذكره حاضرا كما نجد فى سورة الحمد، حيث يقول تحول الخطاب الى الحضور بعد ذكر الله سبحانه و قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم ان السوره مكيه بالاتفاق و كان ابن أم مكتوم فى المدينه حسبما يقول ابن العربى على حسب ما نقل القرطبى. دعنا نستمع الى نصه: اما قول علماءنا انه الوليد بن المغيره، فقد قال آخرون أنه أميّه بن خلف، و العباس و هذا كله باطل، و جهل من المفسرين الذين لم يتحققوا من الدين، ذلك أن أميّه بن خلف و الوليد كانا بمكه، و ابن أم مكتوم كان بالمدينه، ما حضر معهما و لا حضرا معه، و كان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجره، و الاخر ببدر، و لم يقصد قطّ أميّه المدينه، و لا حضر عنده منفردا و لا مع أحد. (١)

و ينبغى ان نتساءل: إذا كان ابن أم مكتوم فى المدينه فكيف نزلت السوره بمكه تروى قصته؟! و أيا كان سبب نزول الآية، فإن علينا التدبر فى كلماتها المشعه، و التعرض لأمواج نورها المتدفق.

عَبَسَ وَ تَوَلَّى لَقَدْ بَسَرَ بَوَجْهِهِ، فَانْعَكَسَتْ حَالَتُهُ النَّفْسِيَّةُ تَجَاهَ الرَّجْلِ عَلَى مَلَامِحِ وَجْهِهِ الَّتِي

ص: ٣١٨

تفضح تقلبات فؤاده أنّى حاول إخفاءها، ثم تولى بركنه عنه عملياً، وهكذا تكاملت ملامح الموقف السلبي.

[٢] أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى أَي بِسَبَبِ زِيَارَةِ الْأَعْمَى لَهُ، وَهَذَا يَتَنَافَى مَعَ مَا ذَكَرَ فِي بَعْضِ النُّصُوصِ: أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ إِنَّمَا انْتَزَعَ عِنْدَ مَا سَأَلَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَ لَيْسَ مِنْ زِيَارَتِهِ.

[٣] لَقَدْ جَاءَهُ الْأَعْمَى زَائِراً وَ رُبَّمَا سَاعِياً نَحْوَ الْهَدَايَةِ، وَ إِذَا عَوَّضَ الْأَعْمَى أَوْ أَي مَعْقُوقٍ آخَرَ نَقَصَ جَوَارِحَهُ بِتَرْكِيهِ نَفْسَهُ فَانَّهُ يَسْمُو فَوْقَ كُلِّ بَصِيرٍ وَ سَلِيمٍ.

وَ مَا يُدْرِيكُ لَعَلَّهُ يَزْكِي وَ هَكَذَا تَكُونُ تَرْكِيهِ النَّفْسِ أَهْمَ غَايِهِ يَسْعَى نَحْوَهَا الْإِنْسَانُ.

[٤] وَ قَدْ لَا يَسْمُو الْفَرْدَ إِلَى التَّرْكِيهِ وَ لَكِنَّهُ يَبْلُغُ مَسْتَوَى التَّذَكُّرِ الَّتِي تَنْفَعُهُ فِي إِصْلَاحِ بَعْضِ جَوَانِبِ سُلُوكِهِ وَ هَكَذَا الْأَعْمَى الْفَقِيرَ الَّذِي تَقْدَمُ إِلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ.

أَوْ يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الذُّكْرُ [٥] الْغِنَى مَطْلُوبٌ وَ لَكِنِ الْاسْتِغْنَاءُ مَرْفُوضٌ، فَالْغِنَى الْمَتَوَاضِعُ الَّذِي يَمْتَلِكُ الثَّرْوَةَ دُونَ أَنْ تَمْتَلِكَهُ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، وَ لَكِنِ الَّذِي تَقُودُهُ ثَرَوَتُهُ، بَلْ يَذُوبُ فِي ثَرَوَتِهِ إِلَى دَرَجَةِ الْعِبَادَةِ فَانَّهُ بَعِيدٌ عَنِ اللَّهِ، بَعِيدٌ عَنِ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ. وَ لَا بَدَانَ تَتَّخِذُ الْقِيَادَةَ الْإِلَهِيَةَ مَوْقِفاً حَازِماً مِنْهُ.

أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى وَ مَعْرُوفٌ أَنْ الْاسْتِغْنَاءَ يُوْدِي إِلَى الطَّغْيَانِ، أَوْ لَمْ يَقُلْ رَبَّنَا الْحَكِيمُ: «كَأَلَّا إِنَّ»

الْإِنْسَانَ لِيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿١﴾.

[٦] مثل هذا الإنسان ينبغي طرده لكي لا يتسلل الى قياده المجتمع عبر ثروته.

ان مثله مثل قارون الذى خرج على الناس بزينته، فانبهر الناس بها؛ فاذا خضع رجال الدعوه لهم أو مألؤوهم فمن ينقذ الناس من شرورهم و استطالتهم على الفقراء و المحرومين، و من يأخذ حق المستضعفين و البؤساء منهم؟ لذلك يعيب السياق على صاحب الدعوه ترك الفقير الأعمى و التوجه تلقاء المستغنين.

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ قَالُوا: التَّصَدَّى: الإصغاء، و يبدو ان معناه: الإقبال عليه، و الاهتمام به.

[٧] و قد يزعم حمله الدعوه و أمناء الرساله أنهم مسئولون عن الأغنياء، و ان عليهم ان يجتذبوهم بأيه و سيله ممكنه، فيقدمون لهم التنازلات، بينما يحرمون الفقراء من عطفهم و حنانهم، بينما مسئوليه الداعيه تنتهى عند إبلاغ الرساله.

وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ فَهُوَ و لست أنت المسئول عن تزكيتيه.

[١٠-٨] من الذى يتصدى له صاحب الدعوه؟ هل الذى يتولى بركنه، و كلا.. حتى و لو كان شريفا فى قومه، غتيا قويا. لما ذا؟ لأن الرساله الإلهيه جاءت لإصلاح نظره الإنسان الى نفسه من خلال مركزه أو ماله أو لغته أو ما أشبهه، فاذا تأثرت الرساله بهذه القيم الماديه فانها لا تستطيع إصلاحه، لذلك

جاء فى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام قال: «إذا رأيتم العالم محبًا للدين فاتهموه

ص: ٣٢٠

على دينكم، فان كل محب يحوط ما أحب» (١).

و الرسالة تنظر إلى الإنسان كإنسان بعيدا عن سائر الاعتبارات الماديّة، فمن سعى الى الرسول بلا تردد..

وَ أَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ نَحْوَ الْهَدَايَةِ أَوْ تَعَلَّمَ الدِّينَ.

وَ هُوَ يَخْشَىٰ وَ الْخَشْيَةُ هِيَ الَّتِي تَسَاعِدُهُ عَلَىٰ قَبُولِ الدِّينِ.

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلْهَىٰ تَشْغَلُ عَنْهُ وَ كَأَنَّهُ لَا يَهْمُكَ.

[١٢-١١] قيم الوحي، و جاهليه الماده في صراع قديم، و لا يجوز المهادنه مع الباطل لكسب المزيد من الأتباع؛ لأن حكمه الوحي ضبط الماده، فاذا خضع لها لم يبق للرسالة مبرر، و من هنا لا ينظر الرسول إلى الأشخاص إلا من زاويه رسالته.

كَلَّا فَإِنِ لِلْغَنَىٰ عِتَابٌ زَائِفٌ.

إِنَّهَا تَذَكِّرُ

ص: ٣٢١

١-١) موسوعه بحار الأنوار ج ٢/١٠٧.

آيات الله تذكره لكل الناس، ولا يختلف الناس الا بقدر استجابتهم للوحي.

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ الْعَقْلُ أَصْلَ الْإِنْسَانِ، أَوْ لَيْسَ بِهِ يَتَمَيَّزُ عَنِ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ، أَوْ لَمْ يَكْرَمْهُ اللَّهُ بِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خُلِقَ؟! إِنَّ الْعَقْلَ يَغْطِي فِي سَبَاتِ الْغَفْلَةِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ صَاحِبُهُ، وَتَأْتِي آيَاتُ الْقُرْآنِ تَوْقِضُهُ مِنْ سَبَاتِهِ. أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ بَعْضُ الدَّرَاهِمِ وَالْدَنَانِيرِ، كَلَّا.. أَنَّى كَانَتْ الثَّرْوَةُ كَبِيرَةً فَإِنَّ الْعَقْلَ أَسْمَى؛ لِأَنَّ الثَّرْوَةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعَقْلِ، وَإِذَا لَمْ يَكْتَمِلِ الْعَقْلُ فَانْثَرَتْ الثَّرْوَةُ فَتُضِرُّ صَاحِبَهَا قَبْلَ أَنْ تَنْفَعَهُ، وَتَكُونُ الثَّرْوَةُ وَسِيلَةً لِتَكْرِيسِ التَّخَلُّفِ، وَالْفَقْرِ، وَبَسْطِ الْفُسَادِ، وَنَشْرِ الرَّذِيلَةِ، بِيَدِ الْإِنْسَانِ عَلَى طَرِيقِ ثَرْوَةٍ نَافِعَةٍ كَمَا يُوفِّرُ لَهُ سَائِرَ عَوَامِلِ السَّعَادَةِ كَالْخَلْقِ الرَّفِيعِ، وَالْحَرِيَةِ، وَالسَّلَامِ.

و لا تعنى التذكرة ان الناس يهتدون بها حتى و لو لم يشاءوا ذلك كلاً. ان التذكرة لا تتم بدون ان يشاء الإنسان نفسه، وهكذا جعل الله حرية الإنسان أصلاً ثابتاً في شريعته و في سننه الحاكمة على الخليقة، و حتى الايمان به جعله منوطاً بإرادته الإنسان و لم يجعله كرهاً عليه.

[١٤-١٣] و بعد أن ينسف السياق القيم الجاهلية يرسى دعائم قيم الوحي التي ينبغي ترسيخها في المجتمع، فيشرع في بيان عظمه القرآن حتى يكون القرآن هو محور المجتمع، و ميزان التفاضل بين الناس، ثم يبين كرامه السفره الذين يحملونه، و بذلك يوحى بأن عليكم ان تعظموا القرآن و الدعاه اليه و ليس المال و الجاه و أصحابهما.

فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ

ص: ٣٢٢

قالوا: ان كتاب الله مكتوبا في ألواح تكترمت به، و تسامت مجدا، و قال البعض: بل المراد أنه كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل أن ينزل على قلب الرسول -صلى الله عليه و آله- و أتى كانت الصحف فإن الآيه تدل على أن القرآن محفوظ في صحف لا تنالها أيدي التحريف و التزوير و لا يسمو إليها الكذب و الدجل، كما تدل على أن الله أكرم هذه الصحف بأنها تكشف الحق، و أكرمها بإعلاء درجه من يتبعها في الدنيا و الآخرة، ذلك أن كرامه كل شيء بحسبه، و كرامه الصحف صدقها، و سمو مجدها، و تعاليتها عن يريدها عبثا، و لذلك قال ربنا بعدئذ:

مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ وَ هَذَا فِي الْوَاقِعِ تَفْسِيرٌ لِكِرَامَةِ الصَّحِيفَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَا مَنْ يَعْمَلُ بِهَا وَ يَحْمِلُ رِسَالَتَهَا أَوْ لَمْ يَقُلْ رَبَّنَا: «فِي بُيُوتٍ أَدَانَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَنَّ وَ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ..» (١) و قال سبحانه: «يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (٢).

ثم انها مطهره من الباطل و الكذب، و من دس الدجالين و المنافقين و قد قال سبحانه: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (٣) و قال: «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» (٤).

و هي مطهره عن نيل أصحاب الهوى و البدع، و الرياء و الشرك و حمله الدعوات

ص: ٣٢٣

١- ١) النور ٣٦.

٢- ٢) المجادلة ١١.

٣- ٣) الحجر ٩.

٤- ٤) الواقعة ٧٩.

الضالّه، و الثقافات الجاهليه. إن هؤلاء جميعا لا يبلغون فقه الكتاب و لا يحصلون على علمه و معارفه.

[١٦-١٥] و هكذا يكون حملته القرآن هم فقط السفراء الصادقون، المكرمون من الهوى و النفاق، و اتباع المصالح، و عباده الطغاه.

بأيدي سَفَرِهِ السفره هم حملته الكتاب، و الداعون اليه.

كِرَامٍ بَرَزَهُ كرام لأنهم أكرموا أنفسهم عن الإثم و الفحشاء، و اتباع اولى الثروه و القوه، و السعى وراء شهوات الدنيا الزائله. و هم برره يبزون بالناس و يؤثرون المؤمنين على أنفسهم، و يسارعون الى الخيرات.

و هذه الآيات توضح لنا الفئه التى يجب ان نرفعها و نتبع هديها، و هم حملته القرآن الصادقين، الزاهدين فى درجات الدنيا، و المكرمين من أوساخها، و من الأهواء و البدع و الثقافات الدخيله، و لا يجوز اتباع كل من يدعو بلسانه الى كتاب الله بينما تراه قد ولغ فى الشبهات، و سعى نحو الجاه و الشهره و تقرب إلى السلاطين، و قرب إليه المترفين و المستكبرين.

ص: ٣٢٤

إشاره

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْعَامِمِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)

اللغه

١٧[قتل الإنسان]: أى عذب و لعن، و هو شبيه قوله:

« قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ » أى دعاء عليهم، و كذلك قوله: « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ » و قيل: معناه قتلهم، و الصحيح أن من يتصدى لمحاربه الله و يكفر به فهو مقتول، و من غالبه فهو مغلوب.

٢٨[قضباً] قيل: هو العلف للدواب يقضب مره بعد اخرى، و فى المفردات: أى رطبه، و القضيب يستعمل من فروع الشجر، و القضب يستعمل فى البقل، و القضب قطع القضب،

و روى أن النبى صلى الله عليه و آله إذا رأى فى ثوب تصليبا قضبه، و سيف قاضب و قضيب أى قاطع، و يقال لكل ما يهدب مقتضب و منه الكلام المقتضب أى المهذب.

٣٠]غلبا]:إضافه على السياق نقول:الأصل فى الغلب فى الوصف الرقبه،فاستعير الغلب للشجر الغلاظ الضخام.

٤١]ترهتها قتره[يعلوها سواد و كسوف عند معاينه النار، و قيل:ان«الغبره»ما انحطت من السماء،و القتره ما ارتفعت من الأرض،و قيل:القدر دخان الشواء.

ص:٣٢٤

بينات من الآيات:

[١٧] نعم الله تترى على الإنسان، ولكنه لا يزال يطمع لما فى أيدى الآخرين، بدل أن يسلم وجهه لله الذى أسبغ عليه نعمه ظاهره و باطنه، تراه يروح يعبد الطغاه، أو يخضع للمترفين لما يعطونه من فتات الرزق.

لما ذالـ يطرق باب رحمه الله التى وسعت كل شىء؟! أ و غير عليه الرب عادات امتنانه و تفضله؟! أ و ليس الله بقادر على أن يغنيه عما فى أيدى العباد؟! إنه أعظم نعم الله الكتاب الذى يذكره سبيل سعادته، و يغنيه ليس فى اموال الدنيا فحسب، بل فى كل شىء من الدنيا الى الآخرة، ولكنه لا يزال يكفر، قتله الله بكفره! قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ

و كلمه «قتل» لعنه عليه، و تعبير عن منتهى الغضب، و فى نفس الوقت فيها ايحاء بأن الكفر يقتل الإنسان، يقتل مواهبه و فضائله و فرص سعادته، و حتى ينتهى بقتله تماما! ليس القتل درجات، و الكفر بأيه نعمه الهيه يؤدى الى قتل فرصه من فرص الحياه عند الإنسان، و بالتالى فهو يعتبر درجه من القتل و مستوى منه؟! رأيت الذى يملك رصيда عظيما فى البنك و لكنه لا يؤمن بذلك، و كلما قيل له عنه كذب و أبى! أليس يعدم موهبه إلهيه؟! كذلك الذى يملك رصيда عظيما فى القرآن يستطيع ان يتخذه لنفسه سعادته و فلاحا ثم يكفر به.

و التعبير ب«ما أكفره» يوحى بمدى كفره؛ انه كفر واسع المدى، متعدد الأبعاد، و من هنا قال بعضهم: الكفر هنا جاء بمعناه اللغوى الذى يعنى الستر، و يشمل الكفر بالله أو بنعمه أو حتى الكفر بنعمه واحده، و لذلك فان كلمه «الإنسان» هنا تسع كل الناس لأنه ما من إنسان إلا و يكفر بقدر ما بنعمه الله.

[١٩-١٨] ثم يعدد السياق نعم الله على الإنسان و التى يقابلها بالكفر و أولها نعمه خلقه من النطفه و يقول:

مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ هَذِهِ الْقَطْرَةُ مِنَ الْمَاءِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الصَّلْبِ وَ تَلُكُ الْقَطْرَةُ الَّتِي تَتَدَفَّقُ مِنَ التَّرَائِبِ، تَلْتَقِيَانِ فَيَخْلُقُ اللَّهُ بِهِمَا الْإِنْسَانَ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْحَامِ، حَيْثُ لَا يَعْرِفُ حَتَّى أَبْوَاهِ مَاذَا يَجْرِي هُنَاكَ، فَلَا تَزَالُ عَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاهُ، وَ يَدُهُ تَقْلِبُهُ مِنْ طُورٍ إِلَى طُورٍ، حَتَّى يَخْرُجَ إِنْسَانًا سَوِيًّا، كَيْفَ قَدَرَ اللَّهُ مَوَادَّ جِسْمِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُنَاصِرِ، وَ بَعْضُ مِنْ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ اسْتَقْدَمَهُ الرَّبُّ مِنْ نَجْمٍ تَبْعَدُ عَنْآلَافِ الْبَلَايِينِ مِنَ الْأَمْيَالِ، ثُمَّ قَدَرَ حَجْمَ كُلِّ عُنْصُرٍ وَ مَقْدَارَهُ فِي بَنِيَّتِهِ، وَ يَصُورُهُ بِأَحْسَنِ تَصْوِيرٍ، وَ قَدَرَ جَوَارِحَهُ بِأَنْظُمِهِ مَعْقَدَهُ لَا نَزَالَ نَعْرِفُ إِلَّا جَانِبًا مِنْهَا هُوَ الَّذِي نَجَدُهُ فِي الْغَدَدِ الْمُنْظَمَةِ لِنَمُو الْأَعْضَاءِ،

و قدر مجمل وزنه، فلا يصبح اطنانا و لا يبقى عند الوزن الذى أخرج من بطن أمه انما يتراوح بين الستين و التسعين غالبا، كما يحدد طوله فلا نجد من ارتفع امتارا متطاوله، كما لا نجد الاقزام إلا قليلا.

كما يقدر رغبات نفسه، و شهوات جسده، و يكتيفها وفق ظروفه، كل ذلك لا يهديه الى ربه و لا يجعله يسلم وجهه اليه! بلى ما أكفره ما أكفره!! [٢٠] و هداه الى ما ينفعه و ما يضره، و الى ما يسعده و يشقيه، و الى رزقه من اين يأتيه و كيف يصرفه. ان الإنسان مزود بفطرته و عقله، بمنظومه من الغرائز و الأفكار تهديه الى سبل العيش.

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ بلى. ألهمه فجوره و تقواه، و أرسل الأنبياء ليذكروه بتقواه، و يندروه من الفجور، و زودهم بشرائع تفصيليه تبين له سبل السلام.

[٢١] و بعد ان انقضت دورته قهره بالموت ليكون عبره لمن بعده، و ينقله الى حياه أخرى، و يسعده فيها ان عمل صالحا، و لم يدع جسمه عرضه لنهش الحشرات و الجوارح و السباع، و انما هيا له قبرا يوارى فيه كرامه له.

ثُمَّ أَمَانَتَهُ فَأَقْبَرَهُ [٢٢] و ان الله الذى قلب الإنسان بين يدي قدرته فى مختلف الأطوار قادر على أن يعيده متى شاء.

ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ

ص: ٣٢٩

[٢٣] و لكن الإنسان الذى أسبغ عليه الرب كل هذه النعم لا يزال متحديا قدرته و سلطانه، و لا يزال يتمرّد على أوامره و لا يقضيها.

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ مَاذَا تَعْنَى «كَلَّا»؟ يبدو أن معناها هنا و فى سائر مواقع استخدامها الإيدان بوقوع ما لا ينبغى، و لا يتوقع العقل بعد سرد تلك النعم إلا أن يكون الإنسان فى منتهى التسليم لربه و فاء لبعض دينه، و لكن العكس تماما هو الذى يقع.

اما كلمه «لَمَّا» فتعنى النفى مع التوقع، أو نفى ما كان متوقّعا، و كلاهما صحيح فى هذا السياق، إذ يرجى تطبيق الإنسان لأوامر الرب، كما أن عدم التطبيق خلاف ما كان منتظرا.

[٢٤] و يعود السياق الى جمله نعم الله على الإنسان التى تهديه الى قدرته و حكمته و رحمته، فهذا الماء تحمله سحب الخير الى عنان السماء ثم تصبه على الأرض بسهلها و حزنها ليسقيها، ثم تنشق الأرض عما يطعم الإنسان من ألوان الحبوب و الثمار.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ لَيْسَ فَقَطْ يَعْرِفُ كَيْفَ وَفَرَهُ اللَّهُ لَهُ، و انما أيضا ليتعلم من مدرسه الخليقه كيف يستفيد منه. أليس كل هذه الطبيعه مسخره لإطعامك، أ لا ترى فى ذلك حكمه بالغه، و قدره قاهره، أ و لا يعنى أن وراء هذه الطبيعه تقديرا و تدبيرا و حكمه، و أن مراد ربك ان يسعدك ثم يهديك ثم يعدك لجنته؟! بلى.

و صدق الامام الحسين عليه السلام حينما خاطب ربه قائلا:

«عميت عين لا تراك عليها رقيبا، و خسرت صفقه عبد لم تجعل له فى حبك

فإذا نظرت الى الطعام بهذه الرؤيه فانك تسمو من درجه التهام الطعام بشهيه حيوانيه الى مستوى التمتع به براحه نفسيه، و بشكر و امتنان، و آتئذ لا يتغذى به جسدك فقط، و إنما روحك و نفسك أيضا. أليس الشكر و الرضا غذاء النفس؟ و قد سن الإسلام آداب الطعام لهذا السبب، فانك من قبل الطعام تقول:

«الحمد لله الذى يطعم و لا- يطعم، و يجير و لا- يجار عليه، و يستغنى و يفتقر اليه، اللهم لك الحمد على ما رزقتنى من طعام و إدام، فى يسر و عافيه من غير كد مئى و لا مشقه» و بعد الانتهاء من الطعام تقول: «الحمد لله الذى أطعمنى فاشبعنى، و سقانى فأروانى، و صاننى و حمانى، الحمد لله الذى عرفنى البركه، و اليمن بما أصبته و تركته منه، اللهم اجعله هنيئا مريئا، لا ويا و لا دويئا، و أبقنى بعده سويا، قائما بشكرك، محافظا على طاعتك، و ارزقنى رزقا دارا و اعشنى عيشا قارا، و اجعلنى ناسكا بارا، و اجعل ما يتلقانى فى المعاد مبهجا سارا، برحمتك يا أرحم الراحمين « (٢) و حين ينظر الإنسان الى الطعام نظرا عميقا يعرف أن ليس كل الطعام صالحا لكل وقت، فلا بد أن يميز بين الضار منه و النافع، الجيد و الردى، و الحلال و الحرام، فلا يأكل إلا ما ينفعه و ما يحل له، و بقدر ارتفاع جسده منه، لذلك

قال رسول الله-صلى الله عليه و آله:- «لا تموتوا القلوب بكثره الطعام و الشراب، فان القلوب تموت كالزرع إذا كثر عليه الماء» (٣)

و فى الحديث عن الإمام على-عليه السلام:- «من أكل الطعام على النقاء، و أجاد تمضغا، و ترك الطعام و هو يشتهي، و لم يحبس الغائط إذا أتى لم يمرض الآ

ص: ٣٣١

١-١) مفاتيح الجنان-دعاء عرفه.

٢-٢) مكارم الأخلاق ص ١٤٢، و نقله مستدرک وسائل الشيعة ج ٣/ ص ٩٣.

٣-٣) مكارم الأخلاق ص ١٥٠.

مرض الموت « (١).

و روى عن الإمام الصادق-عليه السلام-انه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أتى بفاكهه حديثه قبلها ووضعها على عينه و يقول:اللهم أريتنا أولها في عافيه،فأرنا آخرها في عافيه « (٢).

و روى عن رسول الله-صلى الله عليه وآله-انه قال: «النفخ في الطعام يذهب بالبركه « (٣).

و هناك عشرات الآداب الأخرى للطعام يبينها الإسلام و غيرها في الكتب الفقيهيه،و إذا كان الطعام و هو غذاء البدن أولاه الدين هذا الاهتمام فكيف بالعلم، أ و ليس هو غذاء الفكر،فهل يجدر ان يأخذه من اى مصدر؟!كلا..لا بد أن ننظر ممن نتعلم،و ما هى مصادر المعلومات التى توجهنا فإن كثيرا منها خاطئه و وراءها الجناه الذين لا-هم لهم سوى تضليل الإنسان عن الصراط السوى.إن هذه المعلومات أشد ضررا على الإنسان من السم الزعاف.

كذلك

جاء فى الحديث فى تفسير هذه الآيه الكريمه: «علمه الذى يأخذه عمن يأخذه « (٤)[٢٥]كيف وفر الله لك الطعام؟ أنا صَبَّيْنَا
الماء صَبًّا

ص: ٣٣٢

١-١) المصدر ص ١٤٦.

٢-٢) المصدر.

٣-٣) المصدر.

٤-٤) تفسير البرهان ج ٤ ص ٤٢٩.

فجاء الماء أمل الحياه من فوق و بانصباب و وفره،حتى يكفينا النظر الى نظام الغيث إيماننا برَبِّنا العزيز.

[٢٦] و الأرض كيف جعلها الله صالحه للزراعه! بأن لم يجعلها صلبه قاسيه، و لا رخوه مائعه (كالرمل المتحرك) و أودع فيها مواد الزراعه.

ثُمَّ شَقَّقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا مَا أَرُوَع انْفِلاق الْأَرْضِ عَنِ النَّبْتِ التي تشق طريقها الى الظهور،ربما عبر الصخور الصلده،و قال بعضهم:الآيه تشير إلى العصور الأولى من عمر الأرض، حيث كانت قشرتها صماء لا تصلح للزراعه فذلله الرب بفعل السيول المستمره و الله العالم.

عن أبي جعفر-عليهما السلام- في حديث طويل يقول فيه: «فإن قول الله عزّ و جل: ﴿كَانَتْ رَتْقًا﴾ يقول: كانت السماء رتقا لا تنزل المطر،و كانت الأرض رتقا لا- تنبت الحبّ،فلما خلق الله تبارك و تعالى الخلق،و بث فيهما من كل دابه فتق السماء بالمطر،و الأرض بنبات الحبّ « (١) [٢٧] ثم أعد ربنا الأرض للزراعه،و أودع فيها ألوفاً من أنواع النبات التي يقوم كل نوع منها بدور عظيم في تكاملية الخلقه.

فَأَبْتَنَّا فِيهَا حَبًّا قَالَ بعضهم انها الحنطه و الشعير،و قال آخرون:بل سائر أنواع الحبوب كالذره و الفاصوليا و العدس و الحمص،و معروف أن الحب لا يزال يشكل المصدر الأول

ص: ٣٣٣

للطعام فى العالم و هو الطعام الطبيعى المناسب،الذى لا ينافسه غذاء آخر لما فيه من السلامه و التكاثر و الفائدة،و بالرغم من تضاعف سكان الأرض عدده مرات خلال القرون الأخيره فإن الأرض لا تزال تفى بواجبها فى إطعام المزيد من الأفواه الفاعره، و إذا رأينا مجاعه هنا،و نقصا فى المواد الغذائيه هناك فانما بسبب كوارث الطبيعه أو سوء فى التوزيع،أو سوء فى الاداره،و الآ فإن ما فى الأرض من القمح يكفى لأهلها و يزيد حسب الإحصاءات الدقيقه.

[٢٨] وَ عَبَّأَ وَ قَضَبًا يَشِيرُ الْقُرْآنُ إِلَى نَوْعَيْنِ آخَرَيْنِ مِنَ الطَّعَامِ مَيْسُورِينَ وَ أَسَاسِيِّينَ لِلغذاءِ يَتَدَرَّجَانِ مَعًا مِنْ فَصِيلِهِ الخَضِرَوَاتِ وَ النَبَاتَاتِ الأَرْضِيَّهِ، وَ هُمَا العنبُ وَ القَضْبُ، وَ القَضْبُ: هُوَ النَبْتَةُ الَّتِي تَجْزُرُ وَ تَقْطَعُ كَأَنْوَاعِ الخَضِرَوَاتِ وَ البَقْلِيَّاتِ كَالْبَادَنْجَانِ وَ الطَّمَاظِمِ وَ اليَقْطِينِ وَ اللَّفْتِ وَ مَا أَشْبَهَهُ، مِمَّا تَحْمَلُ إِلَيْنَا أَعْظَمَ الفَوَائِدِ وَ لَعَلَّ هَذَا التَّرْتِيبَ يَدُلُّ عَلَى التَّدْرِجِ فِي الفَائِدَةِ، وَ قَدْ كَشَفَ العِلْمُ عَمَّا فِي الخَضِرَوَاتِ مِنْ مَنَافِعِ عَظِيمَةٍ.

[٢٩] وَ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ الزَّيْتُونُ الغَنَى بِمَوَادِّ غِذَائِيَّتِهِ، وَ بِالذَّهْنِ وَ الَّذِي يَكُونُ عَادَةً صَبْغًا لِلأَكْلِينَ، وَ هَكَذَا النَّخْلُ الَّتِي يَسْتَفَادُ مِنْ جَذْعِهِ وَ سَعْفِهِ وَ لَيْفِهِ فِي مَخْتَلَفِ الصَّنَاعَاتِ، أَمَّا ثَمَرَتُهُ ففِيهِ غِذَاءٌ كَامِلٌ لَا يَدَانِيهِ طَعَامٌ.

وَ زَيْتُونًا وَ نَخْلًا [٣٠] وَ الأشجارُ الَّتِي تَلْتَفُّ إِلَى بَعْضِهَا وَ تَتَغَالَبُ لِلوَصُولِ إِلَى أشْعَةِ الشَّمْسِ وَ تَغْلُظُ سِيْقَانِهَا، وَ تَتَحَدَّى الأَعَاصِيرَ وَ الآفَاتِ. إِنَّهَا نَعْمَةٌ إِلَهِيَّةٌ أُخْرَى يَسْبِغُهَا عَلَيْنَا الرَّبُّ بِالغَيْثِ.

وَ حَدَائِقَ غُلْبًا

ص: ٣٣٤

قال البعض الأغلب ذا الرقبه الغليظه، و قيل: انه من التغالب و الالتفاف الى بعضهما، كما قال ربنا سبحانه و تعالى: « وَ جَنَّاتٍ أَلْفَافاً » (١).

ان هذه الحدائق تضيف إلى أرضنا بهجه و صفاء، و تُلطف الجو، و تصلح البيئه، و تستمطر السماء، و تساهم في تكوّن أحواض طبيعته في الأرض لحفظ المياه، و تعطى الثمرات المختلفه، و تتربى الطيور الجميله في أحضانها، و تؤوى الحيوانات الاليفه إليها، فقد جعلت ضروره لبقاء الإنسان و سعادته (٢).

[٣١] و من ثمار هذه الحدائق يتمتع الإنسان بفواكه كثيره تختلف ألوانها و احجامها و متعتها و فائدتها، و هي جميعا تنتزع من حديقته واحده يسقى بماء واحد، هل لاحظت الفرق بين الفستق و اللوز و الجوز و بين الطلح (الموز) و الأناناس و جوز الهند، ان جوزة واحده من الهند تكون بحجم مئات الحبات من الفستق، على أن كلاهما لذيذ و مفيد و رائع الجمال سبحانه الله، و بالاضافه الى الفاكهه خلق الله علف الحيوانات الآله.

وَ فَاكِهَةً وَ أَبًا قَالُوا: الأَب علف الحيوانات سمي بذلك لان الحيوان يعود اليه.

و قيل: بل الأَب هي الفواكه اليابسه و قال ابن عباس: الأَب ما تنبت الأرض مما يأكل الناس و الانعام.

ص: ٣٣٥

١-١) النبأ١٦/.

٢-٢) اكتب هذه الكلمات في يوم ربيعي متميز و في ظل أشجار بالغه الجمال، و منظر خلاب لشتيلات الازهار المنظمه، و في حديقته زاهيه تمتد على مسافه ٢٤٠ هكتارا الى جنب بحيره رائعه في مدينه بنكلور الهنديه وارى واحدا من تجليات الجمال الالهى على الأرض و أقول: سبحانهك ما أعظمك، سبحانهك ما أرحمك، غفرانك اللهم و إليك المصير.

ورد: ان أبا بكر سئل عن قوله تعالى: «وَ فَآكِهَهُ وَ أَبًّا» فلم يعرف معنى الأب من القرآن، فقال: أى سماء تظلنى، أم أى أرض تقلنى، أم كيف أصنع إن قلت فى كتاب الله بما لا أعلم، أما الفاكهه فنعرفها، و أما الأب فالله أعلم به، فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقاله فقال: يا سبحان الله! أما علم أن الأب هو الكلاء والمرعى، و أن قوله تعالى: «وَ فَآكِهَهُ وَ أَبًّا» اعتداد من الله تعالى بإنعامه على خلقه بما غذاهم به، و خلقهم لهم و لأنعامهم مما تحببى أنفسهم، و تقوم به أجسادهم (١).

و فى الدر المنثور: عن انس: أن عمر قرأ على المنبر: «فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا* وَ عَبَبًا وَ قَضَبًا* وَ زَيْتُونًا وَ نَخْلًا* وَ حَدَائِقَ غُلْبًا* وَ فَآكِهَهُ وَ أَبًّا» قال: كل هذا عرفناه فما الأب؟ ثم رفض عصا كانت فى يده، فقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدرى ما الأب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، و ما لم تعرفوا فكلوه الى ربّه (٢).

[٣٢] و الذى خلق الفاكهه خلق فى الإنسان الحاجه إليها، و التلذذ بها و الاستفاده منها، و الذى خلق الأب (على ان يكون معناه علف الحيوانات) خلق فى الانعام ما ينسجم معه، أو تدرى مثلا: ان جسد الانعام قادره على استخراج بروتين الحشائش، بينما لا يستطيعه جسم الإنسان، و لذلك ترى الحيوانات تحول ما لا ينتفع الإنسان به من قشور الفاكهه و بقايا النبات الى بروتين و لحم ليعود بالتالى طعاما للإنسان؟ مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ [٣٣] كل هذه النعم المتواصله التى أسبغها الرب على الإنسان بين سائر

ص: ٣٣٦

١- (١) الإرشاد للمفيد/ص ١٠٧.

٢- (٢) الدر المنثور ج ٣١٧/٦.

الأحياء و النبات تحمّله مسئوليّه إضافيه، فهو المسؤول الوحيد بين سائر الأحياء، و هكذا يبعث بعد موته للحساب و الجزاء فى يوم الصيحه الكبرى.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ قَالَوا: الصّاحه: الصيحه، و إنها النفخه الثانيه، تصخ الأسماع اى تصمها، و قيل: بل تصخ لها الأسماع، و هى بالتالى مأخوذه من صخّه بالحجر أى صكه، و من هذا الباب قالت العرب: صختهم الصاخه و باء تهم البائنه و هى الداھيه.

[٣٤] يومئذ تكاد تصم الصيحه آذان الخلائق بقوتها، و لكن الآذان يومئذ غيرها فى الدنيا فإن الله جعلها بحيث تستوعب المزيد من الإثاره، كما أنّ الأجسام تستوعب الآلام و أسباب الموت دون ان تعدم.

يومئذ تنقطع الأرحام، و تنفصم عرى العلاقات، و تتلاشى الأحساب و الأنساب التى كانت وسيله للتفاخر فى الدنيا، و لا يبقى أثر لهذه القيم البته.

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ و الأخ هو أقرب معين للإنسان و قد قال الشاعر:

أخاك أخاك فمن لا أخ له كساع الى الهيجاء بغير سلاح

و لكن الإنسان يهرب منه. لما ذا؟ لأنه يخشى ان يلحق به عذابه، أو يطالبه بحقّ له فى الدنيا، أو يستعين به على العذاب فلا يستطيعه.

بل انه يفر منه لأن مجرد رؤيته تشكّل له حرجا فكيف بالتعاون معه، و هذه لا- تكون إلا عند أعظم الشدائد حيث يركز فكر الإنسان فى نفسه دون أحد سواه.

وقد جاء في الروايات: إن الذى يفر من أخيه: قاييل من هايبيل، وقيل: بل هايبيل يفر من قاييل لكى لا يطلب منه الشفاعة، ولعلهما جميعا يفران من بعضهما.

[٣٥] وبعد العلاقة الأخويه تأتي علاقته الولد بالديه و التي تنفصم يومئذ الى درجه ترى المرء يهرب من والديه فكيف يستطيع الوالدان الاعتماد عليه يومئذ.

وَأُمُّهُ وَآبِيهِ أَفْلا يَنْبَغِي أَلَّا نَتْرَكَ دِينَنَا لِرِضَا آبَائِنَا الَّذِينَ قَدْ لَا يَنْفَعُونَنَا فِي الدُّنْيَا فَكَيْفَ بِالْآخِرَةِ وَ كَمْ مَنَا مِنْ تَنَازُلٍ عَنِ قِيَمِهِ وَ لَمْ يَمِيزِ الْحَلَالَ وَ الْحَرَامَ مِنْ أَجْلِ أَبَوِيهِ فَهَلْ يَنْفَعُونَهُ غَدًا شَيْئًا؟! [٣٦] أما صلته الإنسان بزوجه أو ابناؤه فهي الاخرى لا تغنيه يومئذ عن عذاب الله فلا يهلك نفسه اليوم لهذه الصلة الزائلة.

وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ قَالُوا: الَّذِي يَفِرُ مِنْ صَاحِبَتِهِ لَوْطٌ، وَ مِنْ ابْنِهِ نُوحٌ.

عن الرضا عليه السلام من قصه الشامي مع أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة قال:

وقام رجل يسأله، فقال يا أمير المؤمنين! أخبرنا عن قول الله تعالى: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ* وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ* وَ صَاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ» من هم؟ قال: قاييل و هايبيل، و الذى يفر من أمه موسى، و الذى يفر من أبيه إبراهيم- يعنى الأب المربى لا الوالد- و الذى يفر من صاحبه لوط، و الذى يفر من ابنه نوح و ابنه كنعان (١).

ص: ٣٣٨

[٣٧] لما ذا يفرون من بعضهم؟ انما لهول الحساب و خشيه العذاب، لذلك فإن كل لهتهم فى إنقاذ أنفسهم.

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ و انما يصرف الإنسان المزيد من جهده للآخرين، اما فى الآخره فلا يبقى لفكره و جهده و وقته فضل حتى يوفر لغيره حتى و لو كانوا الأقربين.

[٣٨-٣٩] و هكذا الإنسان أكرم فى الدنيا بهذه الكرامه العظيمه ليحاسب غدا بذلك الحساب العظيم، و تكون عاقبته-لو تحمل مسئوليته كامله هنا-النعيم، تنعكس على روحهم بالبشاره، و على ملامح وجوههم بالبشر و البشاشه.

وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ قَالُوا بَعْدَ مَوْجَعِهِ مَتَهَلَّلَهُ، من أسفر الصبح إذا أضاء، و يبدو لى أن معناه:

منشرحه منبسطه، و قيل: كل ذلك من صلاه الليل، بل و أيضا من سائر أعمالهم الصالحه.

ضاحِكَةٌ مُّسْتَبَشِّرَةٌ و انبساط وجوه المؤمنين انعكاس لانعدام الهم، اما ضحكهم فدلليل انبهارهم بالنعيم، بينما استبشارهم يعكس رجاءهم فى نعيم ربهم أو بشاشتهم برضوان ربهم، و هو أعلى منى يبحث عنه المؤمنون.

[٤٠] اما الذين لم يتحملوا مسئولياتهم فإنهم يصابون بإحباط شديد، تعلق وجوههم سيئاتهم فى صوره غبار الذل و الهوان.

وَأُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ [٤١] والى جانب الغبار ترى الدخان الأسود على وجوههم جزاء تقصيرهم فى تطهير أنفسهم و تزكيتها فى الدنيا.

تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ قَالَوا: «ترهقها» تدر كها عن قرب كقولك: رهقت الجملى إذا لحقته بسرعه، اما القطار فقالوا: سواد كالدخان.

[٤٢] بلى. غبار الكفر يعلو وجوههم بما ستروا من الحق، و قطار الفجور يلحقهم بما عملوه من الفواحش.

أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ فلا ينفعم المال و السلطان، ولا تشفع لهم العلاقات الحميمه.

أعاذنا الله من هذه العاقبه السوءى.

ص: ٣٤٠

سوره التّكوير

اشاره

ص: ۳۴۱

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن ابن عمر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة، فليقرأ: «إذا الشمس كورت».

تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٥١٣

و في مجمع البيان: روى ان أبا بكر سأل الرسول فقال: يا رسول الله! أسرع إليك الشيب؟ فقال: «شيبتي هود، و الواقعه، و المرسلات، و عم يتساءلون، و إذا الشمس كورت. « المصدر

ص: ٣٤٣

عند ما تغور النفوس في لجة عميقه من السبات، وعند ما تتحجر القلوب فتمسى أشدّ قسوه من الجلاميد، وحينما ينساب الإنسان بلا وعى ولا إرادته مع التقاليد الباطله لا يرضى تطويرا ولا تحويلا.. هنالك تشتد حاجه الإنسان إلى صعقات النذر، كما الرعود الهادره توقظ القلب من سباته، وتستثير العقل من تحت ركام الخرافات.

و جاء الوحي يصدع به النبي النذير-صلى الله عليه وآله-إضاءات متواصله فى محيط من الظلام الدامس، و صعقات بالغه الشده فى بيئه السكوت و الجمود، و براكين حارقه للمقدسات المزيفه، و الخرافات الجاهليه المتوارثه.

و سوره التكوير واحده من تلك الصعقات، فإذا انفتح عليها القلب كاد يتصدع هولاء، لأنها تفتح نافذه واسعه على جيشان الحقيقه، و طوفان التطورات فيها، إنها مفتاح التطوير و الإبداع فى القلب و العقل و السلوك.

و تحدثنا آياتها الفاتحة عن الشمس إذ كورت..بلى.الشمس التي هي محور منظومتنا هي الأخرى تتكور في يوم رهيب.فلما ذا الاسترسال مع السكون القاتل، و النجوم كذلك تنكدر،و العشار تتعطل،و تمضى آياتها الصاعقه ترسم صورته رهيبه لذلك اليوم لعلّ قلوبنا تتساءل:ما ذا عنا في ذلك اليوم؟فيأتي الجواب مهولاً:

«علمت نفس ما أحرصت»عظيم حقا أن نعود إلى أعمالنا التي تتجسد أماننا و نعلم بها إنها المسؤوليه بكلّ ثقلها،و تنقلنا الصوره فورا إلى النجوم إذ تخنس، و الكواكب إذ تكنس،و الليل إذ يعسعس،و الصبح إذ يتنفس.أ و ليست تلك آيات الله الأكثر إثارة لنفوسنا،و التي تهدينا الى حكمه الربّ و قدرته؟بلى.فإنّ القرآن قول رسول كريم،لأنّه و بشهادته العقل و الضمير تعبير عن تلك الآيات؛إنّه كتاب ينطق عن ربّ الكائنات، و تنطق الكائنات بحقانيته.

و في الختام يصور القرآن لنا تنزّل الوحي عبر أفق ميبين،و يتساءل:فأين تذهبون عن هذا الوحي الحق؟إنّه ذكر من الله للعالمين،لمن شاء أن يستقيم.

إنّها ثلاث صور عظيمه:صوره رهيبه عن الساعه،و صورته جذّابه عن الطبيعه، و صورته رائعه عن الوحي..سبحان الله الذي أنزل هذه السوره سبحانه سبحانه !!

[سوره التكویر (۸۱): الآيات ۱ الى ۲۹]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (۳) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (۴) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (۶) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُيِّلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (۱۱) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ (۱۴) فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (۱۶) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (۱۷) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (۱۸) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (۱۹) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (۲۰) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (۲۱) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (۲۲) وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (۲۳) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (۲۴) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (۲۵) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (۲۶) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (۲۷) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (۲۸) وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۲۹)

اللغة

۲[انكدرت]زياده على ما فى المتن،الانكدار:انقلاب الشىء حتى يصير أعلاه أسفله بما لو كان ماء لتكدر،و أصله الانصباب،و فى المفردات:و الانكدار:تغير من انتشار الشىء، و انكدر القوم على كذا إذا قصدوا متناثرين عليه،و فى المنجد: انكدر فى السير:أسرع،و انكدر عليه القوم:انصبوا،و انكدرت النجوم:تناثرت،و الكدراء:السييل الشديد.

١٥-١٦ [الخنس-الكنس] جمع كانس، وأصلها الستر، والشيطان خناس لأنه يخنس إذا ذكر الله تعالى: أي يذهب و يستتر، و كناس الطير و الوحش: بيت يتخذه و يختفي فيه، و الكواكب تكنس في بروجها كالظباء تدخل في كناسها.

و قيل: «الخنس» هي زحل و المشترى و المريخ لأنها تخنس في مجراها: أي ترجع و تستتر.

ص: ٣٤٨

بينات من الآيات:

[١] عند الساعة تحدث تغييرات رهيبه و هائله فى الطبيعه. أ ليست الطبيعه قد سخرت للإنسان؟ فها هو الإنسان يجزّ للحساب الدقيق، فلا كرامه إذا للشمس، و لا مبرر لوجودها، فما ذا يصنع بها؟ إنَّها تفقد ضياءها، و تلفّ على بعضها (كما العمامه إذ تكوّر) و يرمى بها فى نار جهنم مع من كان يعبدها من البشر.

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ قالوا: أصل التكوير من الجمع، يقال كار العمامه على رأسه يكوّرها: أى لاثها و جمعها. ما ذا يصنع بهذه الكره العملاقه التى هى أكبر من أرضنا زهاء مليون مره؟ هل إنها تفقد عمرها الطبيعى الذى هى فى منتصفه حسب ما يقول العلماء الذين يقولون: انها اليوم فى عمر الكهوله، فنحن البشر إذا فى منتصف المسافه بين أصل تكوّننا و يوم تكورها، أم أنّها تصاب بآفه كونه فيمحي ضوءها، كما الشمعه

إذا غمست في ماء المحيط أو تعرضت لإعصار شديد؟ فلا يبقى لها إلا أن تنطوي على نفسها، وتلملم امتدادات ضوئها، وزفرات شعلتها، وانسيابات أشعتها، من هنا جاء في لسان العرب: كَوَّرَت الشمس جمع ضوؤها، ولَفَّت كما تلف العمامة. أيا كان الأمر فإنها ساعه رهيبه.

[٢] هل القيامه ساعه المنظومه الشمسيه أم المجرّه أم العالم كله؟ لا أدري، ولكن الآيه تؤكّد أنّ النجوم تنكدر و تؤكّد آيه أخرى انها تنتشر فهل هي تنصبّ و تتساقط في اتجاهات متباعده، أم أنّها تعود كما كانت أول الخلق كتله واحده متراصّه، أم ما ذا؟ أم لا يكون كل ذلك، و إنّما بسبب اختلال نظام منظومتنا فإننا نرى النجوم بهذه الصوره؟ الله العالم.

وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ قالوا: يعني تهافتت و تناثرت، و قال بعضهم انصبّت كما ينصب العقاب، و حكى عن الخليل قوله: انكدر عليهم القوم: إذا جاؤوا إرسالاً فانصبوا عليهم.

[٣] و أما الجبال الراسيات التي اعتمد عليها الإنسان فإنّها تسير ثم تتبدد ثم تتلاشى فتكون سرايا.

وَ إِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ [٤] أمّا الإنسان فيلهو عمّا حوله، و حتى عن أنفـس ما يملك.

وَ إِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ قالوا: العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء، و هي الإبل التي أتى على حملها عشره أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنه، و هي أنفـس ما يكون عند

أهلها و أعزها عليهم.

أمّا تعطيلها فبمعنى الانتهاء عنها و تركها؛ لأنّ للإنسان يومئذ شأنًا آخر يغنيه عمّا حوله. إنّه يريد التخلص من أهوال الساعه المتلاحقه عليه.

و قال بعضهم: العشار هي السحب تعطلّ، و قيل: إنّها الأراضى المزروعه تترك.

[٥] فى ذلك اليوم تتجمع الوحوش من كلّ ناحيه، كأنّها تحس بالوحشه من شده الهول فتلوذ ببعضها، و تقترب من بنى آدم دون أن تنفر منهم أو ينفر بعضها من بعض. ما أعظم ذلك اليوم على قلب الكائنات! و إذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ و الحشر-حسب هذا التفسير-بمعنى الجمع، و قيل: إنّ الحشر بمعنى إعادتها إلى الحياه حتى يتم إجراء العداله عليها حسب مستواها الشعورى، فإذا كانت القرناء طعت الجمّاء أعيدتا حتى يقتص للجمّاء من القرناء ثم تموتا معا. و الله العالم.

عن أمير المؤمنين-عليه السلام-قال: «و أما الذنب الذى لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض. إن الله تبارك و تعالى إذا برز لخلقه أقسم قسما على نفسه فقال: و عزّتى و جلالى لا يجوزنى ظلم ظالم و لو كفّ بكفّ، و مسح بكفّ، أو نطحه ما بين القرناء إلى الجمّاء، فيقتص للعباد بعضهم من بعض، حتى لا يبقى لأحد على أحد مظلمه، ثم يبعثهم للحساب» (١).

[٦] و ما ذا عن البحار و هذه المحيطات العظيمه؟ هل يمكن أن يلوذ بها الناس

ص: ٣٥١

خشيه النيران؟ كلاً..إنها بدورها تسجّر كما يسجر التنور، و تشتعل ناراً لا هبه.

وَ إِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَ كَانَ الْمَفْسُرُونَ سَابِقًا يَبْحَثُونَ عَنْ تَفْسِيرِ لِهَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: تَكُونُ جَهَنَّمُ فِي قَعْرِ الْبِحَارِ فَيَأْذَنُ اللَّهُ لَهَا أَنْ تَحْرَقَ الْبِحَارُ بِنيرانها، و قال آخرون: إِنَّ اللَّهَ يَلْقَى بِالشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ سَائِرِ الْأَجْرَامِ فِي الْبِحَارِ فَتَسْجَرُ، أَوْ أَنَّهُ يَخْلُقُ فِيهَا نيراناً عَظِيمَةً فَيَحْرَقُهَا، و قال الرازى بعد نقل هذه الأقوال و غيرها: هذه الوجوه متكلفه، لا حاجة إلى شيء منها، لأنَّ القادر على تخريب الدنيا و إقامة القيامة لا بد أن يكون قادراً على أن يفعل بالبحار ما شاء، من تسخين و من قلب مياهها نيراناً، من غير حاجة منه إلى أن يلقى فيها الشمس و القمر أو أن يكون تحتها نار جهنم. (١)

بلى. و قد أثبت العلم أنّ في الماء مادتين (أو كسجين+هيدروجين) و هما شديداً الاشتعال لو انفصلا، و قد اخترعوا سيارات تعمل على الماء بعد تجزئته، فهل تعجز قدره الربّ عن فصلهما يوم القيامة بفعل ضغط جويّ هائل أو ما أشبه حتى تتسجّر؟! إنّ عدم معرفه البشر بكيفيته و وقوع الشيء قد يدعوه إلى الكفر بوقوعه رأساً، و هذا من أعظم تبريرات الكفّار بيوم القيامة، و لكن هل أحاط البشر بكلّ شيء علماً، حتى ينكر أيّ شيء لا يعلم تفصيل و وقوعه؟! أليس في هذا جهل مركّب؟! و لعلّ الكفّار بيوم البعث كانوا يسخرون من كيفية تحوّل البحار نيراناً، و يقولون: إنّ الماء يطفى النار فكيف يشعلها؟! و لكن ثبت علمياً أنّ الماء أساساً مركّب من نارين. أ و لا يهدينا ذلك إلى أنّ جهلنا بكثير من الحقائق لا يبزر كفرنا

ص: ٣٥٢

بها رأساً؟! [٧] فى ذلك اليوم لا- تترك النفوس و شأنها، بل و تقارن بأعمالها، ثم تحلق -حسب مقياس العمل- بأقرانها، فأصحاب الميمنه مع أصحاب الميمنه، و أصحاب المشأمه مع أصحاب المشأمه، و السابقون مع السابقين.

وَ إِذَا التُّنْفُوسُ زُوِّجَتْ و قيل: تقرن نفوس المؤمنين بأزواجها من الحور العين، بينما تقرن نفوس الكفّار بالشياطين و الجن، و الله العالم.

[٨] و حيث ينصب الميزان العدل يرفع المظلوم ظلّامته أمام الملاء، و يسمح الحاكم العدل بأن تتحدث المؤؤده عن نفسها حين يسألها: بأى ذنب قتلت؟! وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ أ ليس قد جعل الله للمظلوم سلطانا على الظالم فى محكمه العدل، و هو أول من يستنطق فينطق، فلذلك هى التى تسأل حتى تشرح ظلّامتها، و قرأ بعضهم (سألت) و يحتمل أن يكون ذلك نوعاً من التفسير،

و قد روى ابن عباس عن النبي -صلّى الله عليه و آله-: «إِنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَقْتُلُ وَلَدَهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا وَلَدَهَا بِشَدِيدِهَا مَلْطَخًا بِدِمَائِهِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! هَذِهِ أُمِّي وَ هَذِهِ قَتَلْتَنِي» (١).

و يبدو من هذا الحديث و من نصوص و آيات عديده و وثائق تاريخيه أنّ عاده الوأد كانت منتشره فى العرب، و قد حاربتها الرساله الإلهيه بقوه حتى أفلعوا عنها، و لعلّ الحديث الثانى يكشف جانباً من تلك العاده الخبيثه،

فقد روى: أنه جاء

ص: ٣٥٣

قيس بن عاصم إلى النبي -صلى الله عليه وآله- فقال: يا رسول الله! إنني وأدت ثمان بنات كن لي في الجاهلية، قال: «فأعتق عن كل واحد منهن رقبه» قال: يا رسول الله! إنني صاحب إبل، قال: «فاهد عن كل واحد منهن بدنه إن شئت» (١).

بأيّ ذنب قُتِلت و هذا التساؤل العريض يجعل الجاهلية كلّها في أزمة حادّة، فهب أنّها برّرت كفرها بالرسالة، أو سكوتها عن ظلم الأغنياء للفقراء، أو حروبها الداخليه، فهل لقتل البنات و بهذه الصوره البشعه أى تبرير؟! إنّ هذا العمل القبيح يكشف زيف الفلسفه التى وراءه، و بالتالى زيف كلّ القيم الجاهليه، و ذلك لأنّ فطره الإنسان قد تحجب عن معرفه بعض الحقائق الخفيه، و لكنها لا يمكنها أن تتغافل عن مثل هذه الحقيقه الواضحه أنّه لا يجوز المخاطره بحياه الطفله التى وهبها الله لوالديها، و جعلهما حماه لها، و أودع فى أنفسهما الحنان و العطف نحوها، بل جعلها حاجه نفسه ملحّه لهما، فكيف يجوز لهما دسّها فى التراب، بل كيف مسخت شخصيه هذا الأب أو تلك الأم اللذين يقومان بوأدها، و كيف يسمح المجتمع لهما بارتكاب هذه الجريمه، و أين ضمير المجتمع عنهما، أين دعاه الخير و الصلاح، أين أهل الدين و التقوى، أين الرحمه و الحب و الحنان، أين أهل الثقافه و الفكر؟! ان وقوع هذه الجريمه النكراء فى المجتمع الجاهلى كان شاهدا على أنه قد هبط الى أسفل درك، و هكذا نطقت المؤوده حين سئلت بإدانته كل المجتمع الجاهلى، و كل قيمه الزائفه.

و قصه وأد البنات من أشد قصص الجاهليه بشاعه و آلما معا، و هى كما قلنا:

ص: ٣٥٤

١-١) تفسير الدر المنثور ج ٦/ ص ٣٢٠.

تكشف عن جوانب عديده من الضعف فى الفكر الجاهلى، فقد حكى عن ابن عباس.. كانت المرأه فى الجاهليه إذا حملت حفرت حفرة، و تمخضت على رأسها، فان ولدت جاريه رمت بها فى الحفرة، و وارتها التراب، و ان ولدت غلاما حبسته، و كان بعضهم يفتخر بذلك فيقول قائلهم:

سميتها إذ ولدت تموت و القبر صهر ضامن ازमित (١)

و قد كان فى الجاهليه من يمنع الوأد، و يسعى لنجاه المؤؤدات، مثل صعصعه جد الفرزدق حيث يقال أنه كان يشتري البنات من آبائهن، و جاء الإسلام و قد أحيا سبعين موءوده، حتى افتخر حفيده الشاعر المعروف بذلك فقال:

و منّا الذى منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم يوأد

و جاء فى الدر المنثور: عن صعصعه بن ناجيه المجاشى و هو جد الفرزدق، قال:

قلت: يا رسول الله! إنى عملت أعمالا- فى الجاهليه فهل لى من أجر قال: «و ما عملت؟» قال: أحيت ثلثمائه و ستين موءوده، أشتري كل واحده منهنّ بناقتين عشراوين و جمل، فهل لى فى ذلك من أجر، فقال النبى -صلى الله عليه و سلم-:

«لك أجره إذ منّ الله عليك بالإسلام» (٢).

حقا ان تردى البشر الى هاويه الفساد و الجريمه رهيب و لو لا ان تداركه رحمه الله فانه يبلغ مستوى من الرذاله أن يدفن أبناءه أحياء، و لعل الاشاره الى البنات فى هذه الآيه ليست للحصر بل لأنهن الحلقة الأضعف و الأكثر إثاره للشفقه، إذ تدل آيات أخرى على أن الأولاد أيضا كانوا يقتلون حيث يقول ربنا: «و لا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم و إياكم» (٣).

ص: ٣٥٥

١- ١) اى سماها تموت بإزاء ما يسمى الأولاد ب(يحيى) و الزميت بمعنى: الوقور و المتمت.

٢- ٢) تفسير الدر المنثور/ ج ٦ ص ٣٢٠.

٣- ٣) الإسراء ٣١.

و إذا كنا نرى اليوم القوانين الرادعه لقتل الأولاد، بل العواطف الرقيقه التى تحوط الأولاد بسياج من الرعايه الفائقه فإنما هو بفضل تعاليم الرسالات الإلهيه، و لولاها لعادت البشريه الى سابق جاهليتها، إذ ليست عاقبه الفلاسفات الماديه التى تقيّم كلّ شىء بمنطق الفائده و الخساره إلا مثل هذه الجرائم.

و لا زال بعض الناس متورطين فى مثل هذه الجرائم و أضرب لكم ثلاثه أمثله.

أ/ما يجرى فى العالم و بشكل واسع من المتاجره بالأولاد، لاستعبادهم أو استخدامهم فى تصدير أفلام جنسيه بالغه الفحش و الخلاعه، أو حتى قتلهم و استخدام أجسادهم لصناعه مواد معينه.

و بالرغم من التستر الواسع على مثل هذه الجرائم فان العالم يطلع بين الفينه و الاخرى على بعض الأرقام المذهله.

و إليك طائفه مما تناقلته بعض الصحف و وكالات الأنباء:

نشرت كيهان العربى (الجريده الإيرانيه الصادره فى طهران) فى عددها ١٦٩١:

كشف مندوبون فى مؤتمر عن استعباد الأطفال أمس الاول النقباب عن ان أكثر من سبعة ملايين طفل يعملون كعبيد فى دول جنوب آسيا و ان بعضهم اختطفوا و تم وسمهم ليقوا عبيدا و يعيشوا حياه أسوأ من «حياه البهائم».

و قال سوامى اجنيفيش رئيس جبهه تحرير العمال الأرقاء امام المؤتمر:

«يختطف الأطفال بين سن السادسة و الثانيه عشره و ينقلون الى مصانع السجاد.

انهم يحملون علامات على أجسادهم بعد وسمهم بقضبان الحديد الملتهب».

ص: ٣٥٦

وقد رأست جبهه تحرير العمال الأرقاء المؤتمر الذى انعقد فى نيودلهى و حضره مندوبون من الهند و بنغلادش و باكستان و نيبال و سريلانكا.

و وصف ب.ن.باغواتى كبير القضاة السابق فى الهند هؤلاء الأطفال بأنهم لا يعيشون كأدميين بل يحيون حياه أسوأ من حياه البهائم،فالبهائم حره على الأقل فى ان تسوم كيف شاءت أو تسرق طعامها متى شعرت بالجوع.

و حضر المؤتمر أيضا الأطفال الذين تم تحريرهم من العبوديه.

و قال اجنيفيش ان منظمات دوليه للاغاثة تعتقد انه يوجد حوالى ٧٥ مليون طفل على الأقل تحت سن الرابعه عشر يعملون فى جنوب آسيا و ان عشره فى المائه عبيد.

و قد ألغت الهند نظام العمل العبودى فى عام ١٩٧٦.

و يعمل أكثر من ١٠٠,٠٠٠ طفل من العبيد فى صناعه السجاد وحدها و هى مصدر رئيسى للهند فى الحصول على العملات الصعبه.

يوجد فى سيريلانكا ١٤٦ منظمه تتاجر فى بيع و شراء الأطفال الأجانب و قد باعت عام ١٩٨٥ وحده ٥٣٤٣ طفلا.نقلا عن وكاله الأنباء الفرنسيه ٨٥/١١/٢٥.

و نشرت جريده الوطن الكويتيه عدد ٤١٣٨: أنه يتم المتاجره بما لا- يقل عن مليون طفلا- بعضهم فى الثالثه و الرابعه من أعمارهم،يباعون فى سوق الفن الإباحى الدوليه،و يقتل بعضهم بالمرض أو الانتحار أو تمثيل الأفلام.

و نشرت جريده السفير فى عددها ٤٧٨٢:نائب وزير الداخليه الباكستانى اتهم

بعض الآباء الباكستانيين يبيع أبنائهم إلى دول الخليج من أجل استخدامهم في سباقات الهجن (الجمال)، و يقول مربوا الهجن: ان السبب في استخدام الأطفال المربوطين على ظهور الجمال يعود الى كون صرخات الأطفال مهيجه للجمال مما يجعلها تعدو بسرعه.

و نشرت الوطن في عددها ٣١٣٧ ما مضمونه: ان امرأه سيريلانكيه تعمل عند أحد أمراء دوله الإمارات عرضت طفلها للبيع بمبلغ ١١٢٢ دولارا.

ب/سوء التغذيةه الذى يؤدى الى وفاه الأطفال بأعداد غفيره، دون أن يسعى أحد لإنقاذهم بالرغم من سهوله ذلك لعالمنا المتقدم تقنيا و ماديا.

كشف رئيس وزراء السودان (السابق) النقباب عن ان ٢٠ الف طفل قضوا جوعا فى إقليم «كردفان» وسط البلاد. حيث يعانى ٢٥٠ الف شخص من سوء التغذيةه.

و ذكرت الأمم المتحده ان نصف سكان السودان البالغ عددهم مليون نسمة ربما يتعرضون لخطر المجاعه بسبب الجفاف.

و يقول مسئولوا اغاثه غربيون ان (١٠٠) شخص معظمهم من الأطفال يموتون كل أسبوع فى معسكر يضم ٥٠ ألفا من ضحايا الجفاف فى إقليم (دارفور).

و يقول خبراء الأمم المتحده ان ١٥ مليون سودانى -ثلثا العدد من الأطفال- يطالهم الجوع، و ان الأطفال أصبحوا هياكل عظميه فى الجزء الغربى من السودان، إذ فقدوا ٨٠٪ من أوزان أجسامهم الطبيعیه.

يموت ٥٠٪ من الأطفال فى (هايتى) قبل ان يصلوا الى سن الرابعه، و الذين

عبروا مرحله الخطر يصابون بالهزال، حيث تصبح اوزانهم أقل من الحد الطبيعي بنسبه ١٠ الى ٢٠٪.

أوضح تقرير صادر من افريقيا بان ١٠ آلاف طفلا يموتون يوميا عام ١٩٨٥ م.

ذكرت منظمه اليونيسف ان اربعة ملايين طفل يموتون كل عام فى الدول الناميه.

بلغت جبال الأطمه الفائضه لدى السوق المشترکه حوالى ٥,٨ مليار دولار امريكى، منها ١٧ مليون طن من القمح، و ٢,١ مليون طن من الزبد، ٧٩/٠٠٠ طن من لحم البقر، و ٤٨٧ طن من مسحوق الحليب.

و فى الوقت الذى يتعاضم الفائض الغذائى فى أوروبا، و امريكا الشماليه، فى الوقت ذاته يخشى ان يلقى ٣٤ مليون شخصا حتفهم، أكثرهم من الأطفال من جزاء سوء التغذية فى افريقيا. هذا و قد تنبأ مدير مسئول فى هياه الأمم المتحده و يدعى (مورث) بأن ٢٠ مليون شخص معظمهم من الأطفال مهددون بالموت فى إفريقيا بسبب المجاعه.

بلغ معدل موت الأطفال فى الصومال بسبب سوء التغذية ٢٠٠ فى الألف، أى خمس المواليد، و فى الغابون ١٤٠ طفل فى الألف.

و نقلت وكاله الأنباء الفرنسيه هذه الاحصائيات الغريبه:

* ٤٠/٠٠٠ طفل فى العالم يدعون لحتميه الموت لسوء التغذية بصوره منتظمه.

* ٢٠ مليون طفل ما بين ٦-١٢ سنه يحرمون من حق التعليم لسبب أو لآخر

و أهمها الفقر المدقع.

* ٧٥ مليون طفل ما بين ٨-١٥ سنة فى العالم الثالث يعملون لتوطئه الظروف المعيشيه القاسيه.

*نسبه وفيات الأطفال فى العالم النامى تزداد عشره أضعاف عما هو عليه العالم الصناعى.

أعلى المعدلات لوفيات الأطفال فى العالم فى افريقيا، فقد هلك نحو خمسه ملايين من الأطفال عام ١٩٨٤ م، و أصيب مثلهم بعاهات مختلفه نتيجة المرض و سوء التغذية، و هذا يتوافق مع رقم نشرته وكالة الأنباء الفرنسيه بأن عدد الموتى من الأطفال ما بين عام ٨٣-٨٥ يبلغ ١٠ ملايين طفل.

قال تقرير منظمه الصحه العالميه: ان ١٥ مليون طفلا- يموتون سنويًا بسبب سوء التغذية و هم دون الخماسه، و هناك الكثير من الأطفال يصابون بأمراض مرتبطه بسوء التغذية كالحصبه و السل و الإسهال و العمى، و أضافت مجله (اطلاعات الاسبوعيه فى عددها ٢٢٢٥) يوجد فى الهند ٩ مليون مكفوف، و فى بنغلادش يفقد ٢٠٠ الف طفل بصرهم كل عام بسبب سوء التغذية و فيتامين (أ).

و عن بنغلادش أضافت كيهان فى عددها ١٢٤٣٥: يموت ٤٠٠ الف طفل بسبب الإسهال و السعال و الدفتريا و الكزاز و هى مرتبطه بسوء التغذية، و ان ٥٠٪ من أطفال بنغلادش يعانون من سوء التغذية.

و فى جريده كيهان عدد ١٢٣٢٢ قالت:

*فى كل دقيقه و ٤٢ ثانيه يموت طفل فى البرازيل بسبب الجوع.

ص: ٣٦٠

*أعلنت وزاره الصحه فى البرازيل ان ٣٠٠ الف طفل ممن هم أقل من السنه و بسبب سوء التغذيه لهم أو لأمهاتهم، و لسوء الحاله الصحيه فإنهم يواجهون الموت بحلول الشهر الأول من السنه القادمه.

*و حسب أقوال اليونيسف ان ٨٠ مليون من أصل ١٢٠ مليون من سكان البرازيل يعانون من سوء التغذيه.

ج/ما نسمعه من فضائح تهز الضمير منها ما نقل لى من مأساه شابه هنديه أحرقت مع زوجها بناء على عادات جاهليه، و قد أثار حرقها ضجه كبيره فى هذا البلد (١).

و لعل قرى كثيره لا تزال تدفن الأرملة مع زوجها الميت رضيت أم أبت.

و عن وأد البنات فى الهند إليك بعض الحقائق:

يقتل فى الهند كل عام ٦٥ الف طفله جديده فى منطقه (مادوراي) فى (تاميل نادو) جنوب الهند.

و يقوم الأهالى بإعطاء السم المأخوذ من ثمره الدفل للمواليد الإناث بعد ولادتهم مباشره، و هذه الطريقه ليست محصوره فى مجتمع (كالامر) الهندوكى، بل و تمارس عند مجموعات هندوكيه أخرى مثل (ثيغارس) فى (مدراس) و (جاتس) فى (راجبوتس) و (ليغاكاتبى باتبدراس) فى (جوجارات).

و من الطرق الشائعه فى وأد البنات ان تقوم الأم بوضع السم على حلمه ثديها، و تسد أنف طفلتها، و فى (راجبوتس) تلف الأم طفلتها بقماشه سميكه، أو تغرقها فى

ص: ٣٦١

١-١) المؤلف كان يومه فى الهند.

النهر أو البحر.

و من أسهل الطرق لوأد البنات التخلص من الطفله برميها فى أوعيه الزباله أو رميها فى الصحراء.

و الوأد هى الطريقه التى يتبعها فقراء الهند للتخلص من مهر البنت، إذ أن أقل مهر هو خمسون الف روبيه، أى ما يعادل أربعمائه و خمسه عشر دولارا،بالاضافه إلى المجوهرات حال الزواج،و فى حال كون الزوج متعلما أو موظفا حكوميا يزداد المهر على أب البنت.

و حين يعتبر الهنود الذكور موجودات ممكنه الوجود يعتبرون البنات مسئولييه، و لأن الذكور يحصلون على المهر بعد الزواج،و هذا المفهوم مقبول حتى عند المتعلمين.

الآباء يفرقون بين الذكور و الإناث فى المأكل و الملبس و العناية و التعليم، إذ يرسل ٨٤٪ من الذكور الى المدارس فى مقابل ٤٥٪ من الإناث.

المرأه التى تلد طفله أو أكثر تظل عرضه للملاحظات خاصه إذا لم تنجب ذكرا، و المرأه التى تلد طفلتين أو ثلاث يجهض حملها إذا كانت حاملا، أو تعقم إذا كانت غير حامل.

و يستعين الآباء الفقراء الطب فى وأد البنات بالإجهاض، و ان اختيارات تحديد النسل مستخدمه بشكل واسع فى معظم مدن الهند.

و هناك إعلانات فى كل مكان:فى القطارات و الجدران و السيارات تقول:

«نحن نعقم...» أو «لكى تتخلصى ادفعى ٥٠٠ روبيه بدل أن تدفعى ٥٠ ألف روبيه» و«تخلصى من هم البنت» أو «اعرفى حنس طفلك».

ص: ٣٦٢

و بسبب الإجهاض تموت ما بين ٤٠٠-٥٠٠ امرأة في المائة الف، و هي ثاني نسبة في العالم.

و بسبب الوأد و الإجهاض يموت ربع عدد مواليد الإناث سنويًا البالغ ١٢ مليونًا، و على حسب ما جاء على لسان المجلس الهندي للأبحاث الطبيه فإن عدد مواليد الإناث أقل من الإناث ففي عام-٨١- كان لكل الف ذكر ٩٩٣ أنثى و في عام-٨٦- وصل الى ٩٣٥ لكل الف ذكر.

[١٠] لكل واحد منا صحيفه منشوره يكتب فيها ملائكه الله ما تقدم أو تؤخر من عمل، و إذا مات ابن آدم طويت صحيفته ليوم الحشر حيث تنشر من جديد، فإذا بها لا تغادر صغيره و لا كبيره الا أحصاها، فتعلق في عنقه، و يقال له: «إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (١).

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَبْلُو الْخَفَايَا وَ الْجَنَائِيَا، وَ لَا أَحَدٌ قَادِرٌ عَلَىٰ إِنكَارِ مَا فَعَلَهُ، فَيَلْزِمُ كُلُّ بَمَا فِي طَائِرِهِ، وَ يُخْرَجُ لَهُ كِتَابُهُ مَنشُورًا حَسَبًا

روى عن رسول الله-صلى الله عليه و آله- عن أم سلمه أنه قال: «يحشر الناس يوم القيامة حفاه عراه» قالت: فقلت:

يا رسول الله! فكيف بالنساء؟ قال: «شغل الناس يا أم سلمه» قلت: و ما شغلهم؟ قال: «نشر الصحف، فيها مثاقيل الذر و مثاقيل الخردل» (٢).

[١١] و كما تنكشف سريره البشر، و تسقط الحجب التي وضعت عليها؛ فإن غلاف السماء يكشط عنها كما يكشط جلد البعير عن جسده.

وَ إِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ

ص: ٣٦٣

١- (٣) الإسراء ١٤.

٢- (٤) القرطبي ج ١٩ ص ٢٣٤.

قالوا: قلع عن شدة التراق، وكشطت البعير كشطاً نزعته جلده.

ما ذا يحدث ذلك اليوم؟ هل يطوى الغلاف المحيط بالأرض لتعرض لكل وارده وشارده، كما قال ربنا سبحانه: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ» (١) وعلى هذا فالسما هي السقف المباشر الذي يحفظ الأرض، أم أن الحجاب الذي لا يدعنا نرى الملائكة أو عرش الله يسقط، فإذا بأبصار الناس ترى العالم الأعلى كما ترى العالم المحيط؟ لعل التفسير الأول هو الأولى، واختار بعضهم التفسير الثاني، وقال بعضهم: إن معناه أن كل أجرام السماء تطوى، ولكن التعبير بالكشط في هذا الحال لا يبدو مناسباً، وإنى كان فإن الأمن الكونى يفقد نهائياً في ذلك اليوم الرهيب.

[١٢] إذا كشطت السماء وطويت تبينت الجنة والنار، أما النار فقد أعدت لأهلها إعداداً تاماً إذ أوقدت حتى اسودت و زمجرت و كادت تميز غيظاً.

وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ

روى عن رسول الله -صلى الله عليه وآله-: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة» (٢).

و السؤال هل هذه من سنى الدنيا أم من سنى الآخرة التى يعادل كل يوم منها ألف سنة؟ الله اعلم.

[١٣] أما الجنة فقد زينت لأهلها كما العروس حين تزف إلى زوجها، تالألات

ص: ٣٦٤

١- ١) الأنبياء ١٠٤/.

٢- ٢) تفسير القرطبي ج ١٩/ ص ٢٣٥.

أنوارها، وتهيأت الحور لأزواجهن، و استعد الغلمان و الجوارى للخدمه، و أعدت الموائد الطيبه التى هى الأشهى و الألد.

وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ اى اقتربت و دنت للمتقين، فهل تتقرب الجنة الى أرضنا كما لو كانت كره أخرى، أم أنّ أهل الجنة يقتربون منها؟ لا ندرى.

[١٤] ذلك يوم الجزاء الأكبر، حيث المحكمه العادله، و حيث السجن الكبير يتمثل فى جهنم - و الجائزه العظمى فى الجنة يمثلانه أمام كل ناظر، فيرى الإنسان أعماله ماثله أمامه، لا يستطيع من أعماله السيئه فرارا أو إنكارا، انها حقًا لمسؤوليه و عين المسؤولييه.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ قَالُوا: هذه الجملة جواب الآيات المتواصله: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ» و ما بعدها، و هى اثنا عشر آيه صنعت الإطار العام لصوره مسؤولييه الإنسان عن كل أعماله، و التعبير ب«علمت» للتأكيد على أن القضييه يقين و ليس مجرد تخمين، أما قوله «نفس» فلائن النفس مركز الشعور و الإحساس، فهو أبلغ مما لو قال: علم الإنسان، أما لو أننا قلنا: رأيت العين كان أبلغ مما لو قلنا رأى الإنسان.

و قوله «ما أحضرت» ذروه البلاغه. أ و لسنا نعمل و نكدح حتى نحضّر شيئًا لذلك اليوم الموعود، كما يدرس التلميذ ليوم الامتحان، و يتدرب الرياضى ليوم المباراه، و يستعد الجيش ليوم الحرب، و هكذا البشر يكدحون ليوم لقاء الله، حيث يقول ربنا: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» (١).

ص: ٣٦٥

[١٥]قسما بالنجوم التى تختفى و تظهر،و بالليل حيث يخيم ظلامه،و بالصبح حين يبسط نوره على الأفق..إن القرآن وحى الله الذى أنزله جبرئيل على الرسول الكريم.

هذه الحقائق تتواصل فى جو تلك الصورة المؤثره لتكون أبلغ أثرا،و أعظم وقعا.

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ يَبْدُو أَن اللّام هنا زائده لتأكيد معنى القسم.أليس معناه التهويل؟فإذا نفى القسم دل على عظمه ذلك الشىء الذى يتحرز المتحدث عن القسم به،و هذا أشد وقعا فى النفس،فما هو الخُنُس؟قالوا:خنس بالضم خنوسا:تأخر،و أخنسه، غيره:إذا خلفه و مضى عنه.

[١٦]الْجَوَارِ الْكُنُسِ و الجوار جمع جاريه،بينما الكنس جمع الكناس اى الغيب.

و روى عن الامام على-عليه السلام-: «هى النجوم تخنس بالنهار و تظهر الليل،و تكنس فى وقت غروبها»و

روى عنه-عليه السلام-: «هى الكواكب الخمسه الدرارى:زحل و المشترى و عطارد و المريخ و الزهره. » و قيل:المراد من «الخنس»البقر الوحش،و«الكنس»الطباء.

و كما ذكر فى اللغه:أن كلمه«الخنس»تشابه معنى«الكنس»و ربما يفترقان فى المعنى قليلا،و أورد الرازى الفرق بين الخنس و الكنس فقال:

روى عن على-عليه السلام-و عطاء و مقاتل و قتاده: أنها هى جميع الكواكب ،و خنوسها عباره عن غيوبتها عن البصر فى النهار،و كنوسها عباره عن ظهورها للبصر فى الليل،أى

تظهر في أماكنها كالوحش في كَنسها (١).

و يبدو لى أن الفرق: أن هناك نجوما و كواكب ثابتة على مدار السنه، و هناك نجوما و كواكب فضليه ربما تبقى ليله أو حتى جزء من ليله أو فصل كامل.

و لكن من ظاهر الآيتين: أن قوله: «الجوار الكنس» تفسير للخنس، فعلى هذا التفسير نستطيع أن نفهم لما ذا كلمه «الخنس» تشابه كلمه «الكنس».

[١٧] ألا ترى كيف تهجم جحافل الظلام جند النور فتهمزه دون أن يكون لنا سلطان به نمنع ورود الليل أو نحافظ على بقيه ضياء من نهار، أ فلا نتذكر أننا مربوبون، و أن لهذا العالم ربًا حكيمًا يدبّر أمره و أمرنا، و أنه لا بد أن قد خلقنا لأمر عظيم، و أنه باعث إلينا رسولا من عنده ينبئنا بذلك الأمر؟! وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسَيْتُمْ قَالُوا «عَسْعَسُ»: أدبر بظلامه، و قال بعضهم: إذا أقبل، و اللفظ من الأضداد، و السبب أن العسعس هو الظلام الخفيف الصادق في أول الليل و في آخره.

[١٨] فإذا استرخت الطبيعه فوق سرير الليل، و أخذت نصيبا كافيا من الراحة، و تجمعت قواها للوثبه الجديده تنفس عليها الصبح بضياؤها، كما و انبلج الفجر من رحم الأفق كما تنبلج الرساله الإلهيه في أفق الوحي.

وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ قَالُوا: امتد حتى يصير نهارا واضحا، و كذلك الموج إذا نضح الماء، و معنى

ص: ٣٦٧

التنفس: خروج النسيم من الجوف.

[١٩] حين يفتح القلب على بصائر الحقيقه فى الخلق يهتدى إلى واقع الرساله بغير حجاب: إن الرب الذى جعل الليل و النهار، و سخر بقدرته النجوم و الكواكب لن يترك عباده سادرين فى غىّ الجاهليه، يلفهم ظلام الجهل، و يسوقهم سيف البغى، و يغرقهم الفساد موجه بعد موجه. كلا.. إنه يبعث إليهم رسولا هاديا.

يهدىهم إلى ما انطوت عليه ضمائر قلوبهم، و دلهم اليه نور عقولهم. بربك أ ليست رساله القرآن كذلك؟! إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ انه قول واضح الحدود، واضح الكلمات، و ليس مجرد تموجات فى الفكر، و أحاسيس فى القلب، و الذى جاء به رسول كريم، تعالى عن الكذب و قول الزور.

[٢٠] و هل يكذب الإنسان إلاّ من احساس بالضعف، و الرسول الذى ينبئ عن الله قوى بقوه الله، لأن الله سبحانه لا يبعث سفيرا إلاّ إذا كان مقربا منه.

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ و قد تجلت قوه الملك المقرب جبرائيل عند ما حمل مدائن قوم لوط بقوادم جناحه، و حينما ضرب بجانب من ريشه إبليس فرماه من بيت المقدس الى جزيره سرنديب.

و هو مكين عند الله ذى العرش سبحانه، و أقرب منزله، و هو حاكم على كثير من ملائكه الله.

[٢١] مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

ص: ٣٤٨

وقد أوكله الله بإداره الملائكة، فهو مطاع هنالك، كما أنه أمين فلو لا أمانته لم يوكل إليه هذا الأمر العظيم، وكان من أمانته- عليه السلام- أنه لم يعص الله في شيء، كيف وهو ممن قال عنهم الرب: «لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» (١).

ولعل في هذا التأكيد ردًا على من يزعم بأن الملائكة هم بنات الله، وبالتالي ليسوا بمسؤولين عن أفعالهم، كما كان يعتقد الجاهليون العرب قبل الإسلام، ويزعمون أنهم شفعاءهم عند الله، وكان ذلك منشأ عبادتهم للأصنام التي كان بعضها يرمز إلى الملائكة.

[٢٢] وإذا كانت الرسالة من الله و عبر رسول كريم تتجلى كرامته في قوته و أمانته، فإن من يتلقاها يكون في ذروه الحكمة و المعرفة، وهذا تفسير ما يقوله الرسول مما لا- يحتمله الناس من حقائق مغيبه، فيزعمون أنه مجنون كلاً- إنه رسول عظيم، رفيع المجد، سنّى المقام، و الذين كفروا به لا يفقهون.

وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ و فرق كبير بين الرسول و المجنون، فالمجنون يترك عادات مجتمعه الى الفوضى، و الرسول يتركها لما هو أحسن منها، و المجنون يتحدى سلطات مجتمعه لغير هدف، و الرسول يتحداها لصنع مجتمع أفضل، و المجنون لا- يتبع مصالحه بغير هدى، بينما الرسول يتركها للصالح العام.

ثم أ ليس الرسول صاحبهم الذى عرفوه منذ نعومه أظفاره حكيمًا راشدًا صادقًا أمينًا، أ فلم يعلموا انه ليس بمجنون؟! بلى. و لكن الأمم جميعًا اتهمت رسلها بالجنون

ص: ٣٦٩

حسبما بين القرآن الكريم و يقول: «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ» (١).

[٢٣] و لم تكن العلاقة بين الرسول-صلى الله عليه و آله-و جبرئيل-عليه السلام-غامضه أو مشوشه. كلا.. إنه رآه و بوضوح كاف عبر الأفق المبين.

وَ لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ و ما زاغ عن البصر و ما طغى، و ما كانت وسوسات القلب، أو أحلام اليقظه أو ما أشبهه، لقد كان النبی فی قمه و عيه، و كامل عقله حين تلقى الوحي من عند الله.

قالوا: الأفق المبين بمطلع الشمس قبل المغرب، و يبدو أن المراد الوجهه الصافيه التي لا حجاب فيها و لا غبار.

و قال البعض: ان النبي-صلى الله عليه و آله-رأى جبرئيل في صورته الأصلية، قد سدّ بين المشرق و المغرب، رأسه في السماء و رجلاه في الأرض، فلم يحتمل رؤيته، فقال له جبرئيل: «كيف لو رأيت إسرافيل و رأسه من تحت العرش و رجلاه في تخوم الأرض السابعة، و أن العرش على كاهله، و أنه ليضاء أحيانا من خشيه الله حتى يصير مثل الوصع-يعنى العصفور-حتى ما يحمل عرش ربك الا عظمته» (٢).

[٢٤] و من علائم الرسل انهم واضحون مع الأمم يفصحون لهم عن علومهم و معارفهم، دون أن يطالبوهم بأجر و ليسوا كما السحرة و الكهنة ممن يبخلون عن الناس بما يعلمون حتى يتفضلوا عليهم، و ليسوا كما سائر العلماء الذين يطالبون على

ص: ٣٧٠

١-١) الذاريات ٥٢.

٢-٢) انظر القرطبي/ج ١٩-ص ٢٤١.

عملهم أجرا.

وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ قَالُوا: ضُنِنْتَ بِالشَّيْءِ أَضْنُّ: أَى بَخَلْتِ، وَ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالظَّاءِ، وَ قَالُوا مَعْنَاهُ:

بمتمهم.

[٢٥]يختلف قول الشيطان عن وحى الرحمن اختلافا كبيرا فى الأهداف و الوسائل،فبينما يدعونا الشيطان الى الفحشاء و المنكر و البغى و ينهانا عن التواؤ و التعاون،و على البرّ و التقوى،و يثير الضغائن و الأحقاد،و يدفعنا نحو الشهوات العاجله و..و..نجد وحى الرحمن المنبعث حيناً من داخل الضمير و حيناً من فم الرسول يأمر بالعدل و الإحسان،و أداء الامانه،و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغى،و يجبذ التوبه و القصد،و يدعونا الى التعاون على البر و التقوى،و هكذا يهتدى القلب الى صدق الرسول برسالته التى يحملها و التى لا يجد العاقل صعوبه فى فرزها عن الدعوات الضاله.

وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [٢٦]و حين يترك الإنسان نداء الرحمن لا بد ان يتخطفه الشيطان بغروره و أمانيه،فهل نذهب اليه؟! فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ قد يرفض الإنسان دعوه الخير دون ان يفكر فى البديل أو حتى فى العاقبه، بل لمجرد غفلته عن عواقب كفره بها،و عما يضطر إليه من الباطل حينما يرفض الحق، و يبدو أنّ هذه الكلمه إشاره إلى ذلك، كما هى صعقه عنيفه للنفوس السادره فى

ص:٣٧١

الغفله و الجهل لعلها تعود إلى ذاتها و تفكر في أمرها.

[٢٧] و في القرآن صفتان تشهدان على صدقه:

الاولى: أنه يتوافق مع نور العقل لأنه يقوم بإيقاظه من سباته، فإذا بالعقل يكتشف الحقيقه بنفسه، و يكون مثله مثل من كان يعرف شيئاً فنسيه، فإذا ذكّر به عاد يعرفه، فمعرفة آئذ تكون بذاته، و إنما دور المذكر تنبيهه و تبصيره، و إذا لا يحتاج الى حجه لكي يعرف أن الذي ذكّره كان ناصحاً له و محقاً.

و مثل آخر إذا كنت تبحث عن الهلال فلا- تجده فأشار صاحبك اليه، فلما نظرت إليه رأيتَه فهل تحتاج إلى دليل يهديك الى صدق صاحبك؟ كلا.. إن أكبر برهان على أنه حقّ هو أنه هداك إلى الحق فعرفته بنفسك، كذلك القرآن ذكر، و معنى الذكر: أنه ينبه العقل الى مكوناته فإذا به يكتشفها بنفسه، فيعرف أنه حق.

الصفه الثانيه: عالميه القرآن التي تهدينا إلى أنه من ربّ العالمين، ذلك أنّ الشيطان يفرق الناس بألوانهم و لغاتهم و قومياتهم؛ لأنه يدعو الى المصالح الماديه - و هي مختلفه و متضاربه - بينما الوحي الإلهي يساوي بين عباد الله، أ و ليسوا جميعاً خلقه، و هو يدعو إلى الحق، و هو غير مختلف من أرض لأرض أو قوم لآخر؟! هكذا قال ربنا:

إِنْ هُوَ إِلَّا - ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [٢٨] و من صفات الوحي تأكيده على حريه الإنسان في اختياره. أ و لم يقل ربنا: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» (١)؟!

ص: ٣٧٢

(١ - ١) البقره ٢٥٦.

و الحريه تبدأ من حريه العقيدة، و انه سبحانه أبى أن يفرض الحق على البشر فرضاً، و أبى لعباده أن يكرهوا بعضهم عليه، أ و لم يقل سبحانه: « وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً فَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » (١)، و انما يكرم الإنسان و يستحق الجزاء الأوفى إذا آمن بحريته أما إذا أكره على الإيمان فلا جزاء له و لا كرامه.

لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَى الطَّرِيقَةِ، اسْتِقَامَهُ تَتَحَدَى مَيُولَ النَّفْسِ، وَ ضُغُوطَ الْمَجْتَمَعِ، وَ تَضَلِيلَ الشَّيْطَانِ وَ أَبْوَابَهُ، وَ إِرْهَابَ السُّلْطَاتِ وَ إِغْرَائِهَا.

[٢٩] و المشيئه أنفس جوهره عند الإنسان، و هى موهبه إلهيه، و لو لا أن الله و هبه هذه الموهبه لم يكن البشر إلا واحدا من هذه الأحياء المتواجده على الأرض، و هكذا فلا أحد يستطيع أن يفتخر بهذه الموهبه، و يزعم أنه مقتدر من دون الله، و من جهه ثانيه: إن الإيمان نور إلهى يقذف فى القلب بعد أن يشاء الفرد ذلك، و يركى قلبه لاستقبال نور الإيمان.

وَ مَا تَشَاوُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَ هَكَذَا تَذَكَّرْنَا هَذِهِ الْآيَةَ بِأَنَّ لَا جِبْرَ وَ لَا تَفْوِيزَ، وَ إِنَّمَا أَمْرٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَالْإِنْسَانُ حَرٌّ مَخْتَارٌ بِمَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ قُوَّةِ الْمَشِيئَةِ، وَ لَكِنَّهُ لَا يَخْتَارُ الْحَقَّ بِالتَّالِيِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

ص: ٣٧٣

سوره الإنفطار

اشاره

ص: ۳۷۵

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن الإمام الصادق-عليه السلام-قال: من قرأ هاتين السورتين و جعلهما نصب عينيه في صلاه الفريضة و النافله: «إذا السماء انفطرت» و «إذا السماء انشقت» لم يحجبه من الله حاجب، و لم يحجزه من الله حاجز، و لم يزل ينظر الله إليه حتى يفرغ من حساب الناس.

تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٥٢٠

ص: ٣٧٧

لكى تنمو شجره التقوى فى النفس فتؤتى أكلها من الصالحات تذكّرنا آيات هذه السوره بالساعه و أشراطها، ثم بتضاءل البشر امام قدره الخالق الذى خلقه فسوّاه، ثم تبين أنّ سبب عذر الإنسان تكذيبه بالجزاء، بينما الجزاء واقع، و أعمال الإنسان مسجله عليه بدقه ثم يوفى أجوره عليها، باستضافه الأبرار فى النعيم الخالد و سوق الفجار إلى الجحيم.. و ينذر القرآن فى الختام بيوم الدين حيث لا تملك نفس لنفس شيئاً، و إنّما يومئذ لله الحكم العدل الذى لا بد أن نتقيه اليوم حقّ تقاته.

[سوره الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ١٩]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَّا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَّا يَوْمَ الذِّينِ (١٧) ثُمَّ مَّا أَدْرَاكَ مَّا يَوْمَ الذِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

اللغه

١[انفطرت]:انشتقت،و جاء في مفردات الراغب في معنى هذه الكلمه:أصل الفطره الشقّ طولاً،و قيل للكمأه فطر من حيث أنّها تفسر الأرض فتخرج منها.

٢[انتثرت]:الانتشار تساقط الشيء في مختلف الجهات، و قال الراغب في مفرداته:نثر الشيء نشره و تفريقه،و نثرت الشاه:طرحت من أنفها الأذى،و طعنه فأنتره:ألقاه على أنفه.

٤[بعثت]:قلب ترابها لخروج الأموات منها،و بعثرت الحوض و بعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه.

١٤ [ججيم]: الججمه شدّه تأجج النار، ججم وجهه من شدّه الغضب استعاره من ججمه النار، و ججمت الأسد عيناه لتوقدهما.

ص: ٣٨٠

بينات من الآيات:

[١] كما سوره التكوير تنساب فاتحه السوره فى بيان أشراف الساعه حيث تنهار أنظمه الخليقه، فإذا بالسماء تنفطر، والكواكب تنتشر، والبحار تتفجر، والقبور تتبعثر.. و يكفى القلب الواعى ذلك واعظا و يتساءل: لما ذا كل ذلك؟ لكى يحاسب الإنسان و يجازى، و أول من يحاكم الإنسان يومئذ نفسه حيث تعلم ما قدمت و أخرت من خير أو شر.

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ أَتَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَ نَزَّلَتْ الْمَلَائِكَةُ، كما قال ربنا العزيز: «يَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا» (١).

ص: ٣٨١

و يبدو أنّ الأمر أعظم من ذلك، فالسماء التى جعلها الله سقفا محفوظا لم تعد بناء متقنا. أ و ليس انتهى يوم الامتحان و جاء يوم الحساب؟ أ و ليس امتحان البشر هو حكمه الخلق و الآن ذهبت الحكمة فليذهب ما يتصل بنا.

و إذا انفطرت السماء تقاطرت الصخور العملاقة التى جاءت من تفتت النجوم على الأرض، فويل لمن لا يحتمى اليوم بظل التقوى حتى يكون ذلك اليوم محميا بظل العرش! [٢] حوادث عظيمه فى تاريخ العالم، كالانفجار الهائل الذى ترى بعض النظريات العلميه أنّه وقع قبل حوالى (١٥) مليار سنه، و الذى تلتقط بعض الأجهزة العلميه الحساسه صداه فى أطراف الكون.. و لا ريب أنّ هذه الحوادث تتكرر لأنّ عواملها قائمه، و لكن متى و كيف؟ لم يبلغ علمنا حتى اليوم معرفه ذلك، بيد أن الوحي يتبؤنا بأنّ نظام وجود المنظومه التى نعيشها ينهار، فهل ينهار أيضا نظام سائر المنظومات و المجزّات؟ يستوحى بعض المفسرين ذلك من هذه الآيه التى تقول:

وَ إِذَا الْكُوكَبَاتُ انْتَشَرَتْ قَالُوا: الْكُوكَبُ كُلُّ النُّجُومِ، و معنى انتشارها تبددها، لأنّ انتشرت بمعنى الانتثار و التساقط. و لكن يحتمل أن يكون الأمر خاصا بهذه المنظومه و كواكبها لأنّ الحديث يتعلّق بما فيها، و الله العالم.

[٣] و ما هى علاقته انتشار الكواكب بانفطار السماء؟ هل أنّ ضغطا هائلا- تعرّض له منظومتنا تسبّب فى تبدد السماء و انتشار النجوم، أم أنّ انعدام الجاذبيه يسبّب فقدان التوازن الدقيق الذى تعيش عليه الأرض، أم شىء آخر؟ لا نعلم، إنّما الذى يبدو لنا من خلال النصوص أنّ هزّه عنيفه تصيب صميم الخلقه، حيث

أَنَّ الْبَحَارَ تَنْفَجِرُ بَعْدَ أَنْ تَسْجِرَ نَارًا.

وَ إِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ مَعْنَى فُجِّرَتْ تَدَاخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ حَتَّى يَكُونَ بَحْرًا وَاحِدًا، كَمَا فَسَّرُوا كَلِمَةَ «سَجَّرَتْ» فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ بِالْإِمْتِلَاءِ، بَيِّنٌ أَنَّ الْمُنَاسِبَ لِانْفِطَارِ السَّمَاءِ وَ انْتِشَارِ النُّجُومِ فِيهَا تَفْجِيرُ الْبِحَارِ، وَ اللَّهُ الْعَالِمُ.

[٤] وَ تَتَمَاوَجُّ الْبَسِيطَةُ كَمَا مِيَاهُ الْبَحْرِ، وَ تَخْرُجُ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا الَّتِي فِي بَطْنِهَا، وَ مِنْهَا أَجْسَادُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تَقْذِفُ مِنْهَا بَعْدَ أَنْ يَحْيِيهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ.

وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ قَالُوا: بِمَعْنَى قَلْبَتْ وَ أَخْرَجَ مَا فِيهَا مِنْ أَهْلِهَا.

[٥] فِي مِثْلِ هَذَا الْجَوِّ يَجِدُ الْإِنْسَانُ أَعْمَالَهُ مَائِلَةً أَمَامَهُ، حَيْثُ لَا سَمَاءَ تَظَلُّهُ، وَ لَا جِبَالَ تَكْتِنُهُ، وَ لَا بَحْرًا وَ لَا بَرًّا يُمْكِنُهُ الْفِرَارُ فِيهِ.. اللَّهُ أَكْبَرُ مَا أَصْعَبَ مَوْقِفَ الْإِنْسَانِ ذَلِكَ الْيَوْمَ! عَلِمْتُ نَفْسِي مَا قَدَّمْتُ وَ أَخَّرْتُ قَالُوا: مَا قَدَّمْتُ فِي حَيَاتِهِ، وَ مَا بَقِيَتْ مِنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَالسَّنَةِ الْحَسَنَةِ الْبَاقِيَةِ أَوْ الْبَدْعَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ مِنْ بَعْدِهِ، وَ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَا تَقَدَّمَ أَوَّلَ عَمْرِهِ، وَ مَا تَأَخَّرَ فِي سِنِّي حَيَاتِهِ الْآخِرَةِ.. وَ يَبْدُو هَذَا التَّفْسِيرَ أَقْرَبَ. وَ أَنَّى كَانَ فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ الْمَسْئُولِيَّةُ الَّتِي تَتَجَسَّدُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَقَدْ يَقْدَمُ الْإِنْسَانُ بَيْنَ يَدَيْ أَعْمَالِهِ السَّيِّئَةِ بَعْضَ الْأَعْذَارِ، وَ قَدْ يَلْقِيهَا عَلَى غَيْرِهِ أَوْ يَنْسَاهَا أَوْ يَتَنَاسَاهَا وَ يَخْفِيهَا فِي الدُّنْيَا وَ لَكِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ يَجِدُهَا أَمَامَهُ بِلا نَقْصَانٍ، وَ لَا يَسْتَطِيعُ مِنْهَا فِرَارًا «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

ص: ٣٨٣

مُخْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمِيدًا بَعِيدًا» أ فليس من العقل أن يراقب الإنسان نفسه لكي لا يصدر منه عمل سيء، و أن يلغى الأعذار و التبريرات فلا يتشبث بها في الدنيا ما دامت لا تنفعه شيئاً في تلك الدار، و أن يتخذ من التقوى حجاباً بينه و بين أهوال ذلك اليوم الرهيب؟ [٦] و تنتفض النفس من أعماقها حينما يناديها الربّ بكلّ حنان و عطف و كبرياء:

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ لِمَاذَا تَتَمَرَّدُ عَلَيْهِ؟ هل لأنك استغنيت عنه فطغيت؟ أ و لم يخلقك من ماء مهين؟ أ و لم يسوّى خلقك حتى أصبحت متكاملًا متعادلاً الوجود؟ أم أنك تنكر هيمته عليك؟ أ و ليس هو الذى اختار صورتك التى أنت عليها من قصر و طول و قوّه و ضعف و بياض أو سواد أو سمره و.و؟ أم أنك اغتررت بكرمه الذى و اتر عليك به نعمه ظاهره و باطنه؟ أ فلم يهدك قلبك أن تتقى غضبه الحليم؟ أ و لم تبعثك مروءتك أن تجازى إحسانه بالإحسان أم ما ذا؟ يبدو أنّ الإجابة عن هذا السؤال متفاوتة من شخص لآخر، و لكن ليس هنالك أى تبرير مقبول، ذلك لأنّ الغرور حاله مرفوضه أساساً بأيّ سبب كان.

و قد جاء فى حديث مأثور عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- أنه قال:

«غَرَّه جَهْلُهُ» بلى. غرّهم برّبهم تواتر نعمه، و تتابع آلائه ،

قال الإمام السجاد -عليه السلام-: «أذهلنى عن شكرك تواتر نعمك.» بيد أنّ ذلك ليس من مصلحه الإنسان، إنّما عليه أن يحارب الغرور بيقظه الضمير، و سلاح التقوى. كذلك

أوصانا إمامنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب

-عليه السلام- حيث قال بعد تلاوته للآية: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ»:

«أدحض مسئول حجّه، وأقطع مغترّ معذره، لقد أبح جهاله بنفسه.

يا أيُّها الإنسان، ما جرّأك على ذنبك، و ما غرّك برّبك، و ما أنسك بهلكه نفسك؟ أما من دائك بلول، أم ليس من نومتك يقظه؟ أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك؟ فلربّما ترى الضّاحي من حرّ الشّمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يمضّ جسده فتبكي رحمة له! فما صبرك على دائك، و جأحك على مصابك، و عزّاك عن البكاء على نفسك و هي أعزّ الأنفس عليك! أو كيف لا يوقظك خوف بيات نومه، و قد تورّط بمعاصيه مدارج سطواته! فتداو من داء الفتره في قلبك بعزيمه، و من كرى الغفله في نظرك بيقظه، و كن لله مطيعا، و بذكره آنسا. و تمثّل في حال تولّيك عنه إقباله عليك، يدعوك إلى عفوه، و يتغمّدك بفضله، و أنت متولّ عنه إلى غيره. فتعالى من قوّى ما أكرمه! و تواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته! أنت في كنف ستره مقيم، و في سعه فضله متقلّب. فلم يمنعك فضله، و لم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مطرف عين في نعمه يحدثها لك، أو سيئه يسترها عليك، أو بليّه يصرفها عنك. فما ظنّك به لو أطعته! أو أيم الله لو هذه الصّيفه كانت في متفقين في القوّه، متوازيين في القدره، لكنت أول حاكم على نفسك بذيّم الأخلاق، و مساوئ الأعمال، و حقّا أقول! ما الدّنيا غرّتك، و لكن بها اغتررت. و لقد كاشفتك العظّات، و آذنتك على سواء. و لهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، و النّقص في قوّتك، أصدق و أوفى من أن تكذبك، أو تغرّك.

و لربّ ناصح لها عندك متّهم، و صادق من خبرها مكذّب. و لئن تعرّفتها في الدّيار الخاويه، و الرّبوع الخاليه، لتجدنّها من حسن تذكيرك، و بلاغ موعظتك، بمحلّه الشّفيق عليك، و الشّحيح بك! أو لنعم دار من لم يرض بها

داراً، و محلّ من يوطنها محلاً! وإنّ السعداء بالدنيا غدا هم الهاربون منها اليوم.

إذا رجفت الرّاجفه، و حقت بجلالها القيامة، و لحق بكلّ منسك أهله، و بكلّ معبود عبده، و بكلّ مطاع أهل طاعته، فلم يجز في عدله و قسطه يومئذ خرق بصر في الهواء، و لا- همس قدم في الأرض إلا- بحقه، فكم حجّه يوم ذاك داحضه، و علائق عذر منقطعه! فتحزّ من أمرك ما يقوم به عذرک، و تثبت به حجّتک، و خذ ما يبقى لك ممّا لا تبقى له؛ و تيسّر لسفرک؛ و شم برق النّجاه؛ و ارحل مطايا التّشمير « (١).

و قد نظم بعضهم بعض هذه البصائر شعرا فقال:

يا كاتم الذنب أما تستحي و الله في الخلوه ثانيكا

غزك من ربك إمهاله و ستره طول مساويكا

و قال آخر:

يا من علا في العجب و التيه و غزه طول تماديه

أملى لك الله فبارزته و لم تخف غبّ معاصيه

و للمحقّق الحلّي -رحمته الله- شعرا بديعا يقول فيه:

يا راقدا و المنايا غير راقده و غافلا و سهام الليل ترميه

ص: ٣٨٦

بم اغترارك و الأيام مرصده و الدهر قد ملأ الأسماع داعيه

أما أرتك الليالى قبح دخلتها و غدرها بالذى كانت تصافيه

رفقا بنفسك يا مغرور إن لها يوما تشيب النواصي من دوايه

[٧]حينما يعى الإنسان نفسه، و يعرف بدايته، و كيف تقلب فى يد القدره طورا فطورا، و تذكر أنه كان نطفه مهينه، يقذفها مبال فى مبال، و يستقدرها صاحبها أيما استقدار، ثم جعل الله تلك النطفه التى خلقها بعظمته رجلا سويا ذا أعضاء يكمل بعضها بعضا، و فى نظام عظيم لم يسع العلم الإحاطه به، بالرغم من الموسوعات الكبيره التى كتبت حوله.. هذا التكامل الذى يبدأ من تكامل اليد و الرجل و الأذن و سائر الجوارح و مدى تناسق أدوارها، و ينتهى بتكامل كلّ خليه فى الجسم مع سائر الخلايا، ضمن قياده حازمه من أعصاب المخ و خلاياه و من الغدد المنتشره فى أطرافه.

ثم مضافا إلى الخلق يجد الإنسان ذلك التناسق بينه و بين الخليقه من حوله، كيف يتكيف جسمه مع الحرّ و البارد، و الخشونه و اللينه، و مع مختلف الطعام و الشراب، و كيف يتعامل مع سائر الأحياء ابتداء من الوحوش الضاربه و انتهاء بالجراثيم الفتاكه.. و قد جعل الله للإنسان القدره على التكيف و التفوق ثم تسخير الطبيعه.

أقول: حينما نعى كل ذلك أ و ليس نرى كرم ربنا و حكمته؟ فلما ذا الغرور و التماذى فى معصيته؟! الذى خلّقك أ فلم نكن عدما فأنشأنا لا من شيء كان، بلا تعب و لا لغوب، و لا مثل سابق يحتذى، و خريطه تنفذ؟

فَسَوَّاكَ فَمَا يَجْعَلُ تَقْدِيرَ خَلْقِكَ نَاقِصًا، بَلْ زَوَّدَكَ بِمَا تَحْتَاجُهُ بِأَفْضَلِ مَا تَحْتَاجُهُ. أَلَمْ يَجْعَلْ لَكَ عَيْنَيْنِ وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ؟ وَ إِذَا أَنْعَمْنَا النِّظَرَ رَأَيْنَا هَذِهِ التَّسْوِيَةَ فِي الْخَلْقِ نَافِذَةً فِي كُلِّ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ، حَتَّى قَالَ رَبُّنَا عَنِ الْبِنَانِ: «بَلِّغِي قَادِرِينَ عَلَيَّ أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانَهُ»، وَ يَأْتِي الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَ يَقُولُ: إِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ بَصِمَاتٍ مُخْتَلِفَةً عَنِ أَيِّ بَشَرٍ آخَرَ فِي الْعَالَمِ، وَ يُعْتَقَدُ أَنَّ صُورَهُ بِصِمَاتِ بِنَانِهِ مَنْسُجَمَةٌ مَعَ مَجْمَلِ كِيَانِهِ، حَتَّى أَنَّهُمْ بَدَأُوا يَكْتَشِفُونَ بَعْضَ الْأَمْرَاضِ مِنْ صَفْحَةِ كَفِّ الْإِنْسَانِ أَوْ لَيْسَ ذَلِكَ دَلِيلَ الْحِكْمَةِ فِي الْخَلْقِ؟ وَ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي مَعْنَى التَّسْوِيَةِ: إِنَّهُ سَوَّى بَيْنَ طَرَفِي جَسَدِ الْإِنْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ (بِمَا يَتَنَاسَبُ وَ وَجُودِهِ).

وَ قَالَ الْبَعْضُ: إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ جَعَلَ كُلَّ عَضْوٍ يَتَعَامَلُ مَعَ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ.

وَ قَالَ آخَرٌ: إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ سَخَّرَ لَهُ الْمَكُونَاتِ، وَ مَا جَعَلَهُ مَسَخَّرًا لِشَيْءٍ، ثُمَّ أَنْطَقَ لِسَانَهُ بِالذِّكْرِ، وَ قَلْبَهُ بِالْعَقْلِ، وَ رُوحَهُ بِالْمَعْرِفَةِ، وَ سَرَّهُ بِالْإِيمَانِ، وَ شَرَّفَهُ بِالْأَمْرِ وَ النَّهْيِ، وَ فَضَّلَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا.

وَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمِنْ بَعْضِ تَجَلِّيَّاتِ الْإِسْتِوَاءِ فِي الْخَلْقِ.

وَ قَدْ بَلَغَتْ دَرَجَةُ الْإِسْتِوَاءِ مِنْهَا فِي خَلْقِهِ الْبَشَرِ فَكَانَتْ عَدَلًا لَا نَجْدَ فِيهِ ثَغْرَهُ أَوْ زِيغًا.

فَعَدَلَكْ وَ يَبْدُو لِي أَنَّ الصِّفَاتِ الثَّلَاثَ (الْخَلْقُ وَ التَّسْوِيَةُ وَ التَّعْدِيلُ) دَرَجَاتٌ فِي حَالِهِ وَاحِدَةٍ، فَالْخَلْقُ بِمَعْنَاهِ اللَّغْوِيُّ هُوَ التَّرْتِيبُ، وَ الْإِسْتِوَاءُ تَكَامُلُ التَّرْتِيبِ، وَ الْعَدْلُ تَنَاسُقُ

التكامل مع حاجات الشيء، والحكمه منه فقد سوى الإنسان بحيث يستطيع أن يقوم بالدور المحدد له تماما.

وقد قال بعضهم: المراد من التعديل: أن الله جعله معتدلا سوى الخلق، وقال آخر: إن معناه أن الله أماله و حرفه في أي صورته شاء، ويبدو أن المعنى الأول أنسب و السياق. فيكون معنى الخلق الترتيب، و معنى الإستواء التناسب بين أعضائه، و معنى العدل التناسب مع المحيط.

[٨] و بعد أن تكاملت خلقتة و استوت على أساس الحكمه و العدل اختار الرب لها الصوره حسب مشيئته، و حسب حكمه بالغه يصعب معرفه كنهها.

في أي صورته ما شاء رَبَّكَ لكل واحد منا صورته ظاهره جميله أو ذميمة أو مقبولة اختارها الله لنا حسب تقسيم الأرزاق الذي يتبع حكمته عليها، قد لا يرضى ببعض مفرداتها هذا أو ذاك لما في البشر من الحرص و الطمع و الاستثثار، و لكنّها من حيث المجموع مقبولة حسب شهاده فطره كل إنسان و عقله.

و كما الصور الظاهره هناك صورته داخلية ركبّت على الإنسان. أ و لا ترى كيف فضّل الله كل إنسان بميزه، و أودع في ضميره رغبه تختلف عن الآخرين، ممّا يجعل كل شخص يختار طريقا مختلفا في الحياه، يلتقى بالتالي في إيجاد حاله من التكامل في المجتمع، فترى البعض يختار الطب و يصلح له، و الثاني يرغب في الهندسه و تتناسب شخصيته معها، و الثالث يطمح للقياده أو الإدارة و هو لها أهل، بينما لا يرغب البعض إلا في الأعمال اليدويه.. و هكذا قال ربنا سبحانه:

« لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ».

و هذا لا يعنى أنّ هذه الرغبات حتمية، فإنّ الإنسان يستطيع تحويلها، و لكنّ أغلب الناس يرضون بها ممّا يحقّق الحكمة الإلهية من توزيعها على البشر.

[٩] ما ذا ينبغى أن تكون علاقتك برّبك؟ هل التمرد و الطغيان أم التسليم؟ حقًا: إنّ أغلب الناس ينحرفون نحو الطغيان الذى يبدأ من التكذيب بالجزاء، و هو أعظم أسباب الغرور، فمن آمن بالجزاء اتقى غضب الرب.

□
كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ و إنّ هذا التكذيب لا يتناسب أبدا و تلك النعم الإلهية التى تهدينا إلى قدره الرب و حكمته.

[١٠] و هل يتخلّص الإنسان بالتكذيب من أهوال الساعه أو مسئوليّه أفعاله؟ بتعبير آخر: هل أتى لو كذّبت بالموت لا أموت، أو كذّبت بوجود المرض أعافى منه؟ بالعكس التكذيب بذاته جريمه كبرى قدّر لها عقاب عظيم، و هو مفتاح لأبواب الشر، لأنّه يخدع الإنسان فيسترسل فى سلسله من المعاصى دون رادع من ضمير أو ناصح من عقل.. و كلّها تسجّل عليه فيحاسب عليها حسابا عسيرا.

□
وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ يَحْفَظُونَ كُلَّ عَمَلٍ يَرْتَكِبُهُ الْإِنْسَانُ أَوْ قَوْلٍ يَتَفَوَّهُ بِهِ أَوْ هَاجَسَهُ بِقَلْبِهِ، قَالَ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

هكذا قال أكثر المفسرين، و يحتمل أن يكون المراد من الحافظين الذين يحفظون البشر من المهالك حتى يأتي أمر الله، كما قال الله: «إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ»، و قال تعالى: «و يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً»، و قال: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ

يَدِيهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ «.

[١١] وهؤلاء الحفظة كرام عند ربهم، تساموا عن الكذب أو الغفلة أو السهو، وهم بالإضافة إلى ذلك يكتبون ما يصدر من الإنسان.

كِرَامًا كَاتِبِينَ [١٢] ولا يمكن للإنسان أن يخفى عنهم شيئاً من أعماله لأنهم حضور شهود.

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ

قال أمير المؤمنين علي -عليه السلام-: «اعلموا عباد الله أن عليكم رقدا من أنفسكم، و عيوننا من جوارحكم، و حقاظ صدق يحفظون أعمالكم و عدد أنفسكم، لا تستركم منهم ظلمه ليل داج، و لا يكتنكم منهم باب ذو رتاج» (١)

و روى عنه -عليه السلام- أنه مر برجل و هو يتكلم بفضول الكلام، و يخوض في أحاديث لا نفع فيها و لا طائل وراءها، فقال: «يا هذا! إنك تملئ علي كاتبيك كتابا إلى ربك فتكلم بما يعينك، و دع ما لا يعينك» (٢).

و

جاء في كتاب سعد السعود لابن طاووس:

دخل عثمان علي رسول الله -صلى الله عليه و آله و سلم- فقال: أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: ملك علي يمينك علي حسناتك، و واحد علي الشمال، فإذا عملت حسنه كتب عشرا، و إذا عملت سيئه قال الذي علي الشمال للذي علي اليمين أكتب؟ قال: لعله يستغفر و يتوب فإذا قال ثلاثا قال:

ص: ٣٩١

١- ١) بحار الأنوار/ج ٥ ص ٣٢٢.

٢- ٢) المصدر/ص ٣٢٧.

نعم أكتب، أراحنا الله منه فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله عز وجل! وما أقل استحيائه منه! يقول الله: ﴿لَمَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وملكان بين يديك و من خلفك، يقول الله سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ و ملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعتك، وإذا تجبرت على الله وضعك و فضحكك، و ملكان على شفقتك ليس يحفظان إلا الصلاة على محمد-صلى الله عليه وآله-، و ملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك، و ملكان على عينيك، فهذه عشرة أملاك على كل آدمي، و ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي (١).

و إن وعى الإنسان حضور هذا الحشد من ملائكة الله عنده أفضل وسيلة لتعميق روح المسؤولية.

و

تساءل البعض عن الحكمه فى توكيل هؤلاء الحفظة بالإنسان، فقال: ما علمه الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم و لهم و الله عالم السرّ و ما أخفى؟، فأجاب الإمام الصادق-عليهم السلام- «استعبدهم بذلك و جعلهم شهودا على خلقه، ليكون العباد لملازماتهم إيّاهم أشدّ على طاعته مواظبه، و من معصيته أشدّ انقباضا، و كم من عبد يهّم بمعصيه فذكر مكانها فارعوى و كفّ، فيقول: ربى يرانى و حفظتى علىّ بذلك تشهد، و إن الله برأفته و لطفه و كلّهم بعباده يدبّون عنهم مردة الشياطين، و هوأم الأرض، و آفات كثيره من حيث لا يرون ياذن الله إلى أن يجيء أمر الله عزّ و جلّ» (٢).

[١٣] و تتجلى المسؤولية عند ما يستقبل ربّ الرحمة عباده الصالحين فى النعيم الخالد.

ص: ٣٩٢

١-١) المصدر/ص ٣٢٤.

٢-٢) المصدر ص ٣٢٣.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [١٤-١٥] أما الذين خرقوا ستر الفضيله، و أوغلوا في الفضائح فإنهم يدخلون النار.

وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ هل هم اليوم في الجحيم أم غدا؟ عند ما يموتون أم عند ما تقوم الساعة؟ بلى.

إنهم اليوم في الجحيم. أ و لم يقل ربنا سبحانه: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ»؟ ولكنهم اليوم محبوبون عنها، و غدا عند ما يموتون و بعد الحشر يجدون أنفسهم في وسطها يصلونها مباشرة، لأن الذي سترهم عنها اليوم طبيعه الدنيا التي هي دار امتحان، فإذا نقلوا إلى دار الجزاء فما الذي يستر أجسامهم الناعمه عن النار اللاهبة؟ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ لَأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَعَلًا يَوْمَ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ، فالجحيم تحرقهم و تلهب جلودهم نارا.

و قال بعضهم: إن معنى الآية أن الفجار يدخلون الجحيم يوم الدين، و إنما ذكر ذلك بصورة قاطعه و كأنه واقع اليوم لأن الوعيد يأتي من السلطان المقتدر و الذي لا يعجزه شيء و لا يحجزه عمّا يريد أحد.

[١٦] و لا يقدر أحد منهم أن ينتقل من الجحيم أو حتى يغيب عنها ساعه.

وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ قال بعضهم: الآية تدلّ على خلودهم في جهنم فإذا معنى الفجار المعاندون.

بينما الآيه ليست صريحه فى هذا المعنى بل فى أنّهم عند دخولهم الجحيم و مده مكثهم فيه لا يغيون عنها، و الله العالم.

و

نقل الرازى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق-عليه السلام- ما يلى:

«النعم المعروفه و المشاهده، و الجحيم ظلمات الشهوات» (١) و هذا ينطبق على التفسير الأول.

[١٧] ليست قدراتنا العلميه فى مستوى الإحاطه علما بأحداث ذلك اليوم الرهيب، لأنه يوم يختلف كل شىء فيه تقريبا عن هذا اليوم.

وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ إِنَّهُ يَوْمٌ رَهيبٌ، لا بدّ أن نسعى جاهدين لتتصوّره عسانا نتقى اليوم أهواله، و حينئذ نعرف أنّ الفائزين هم الذين انخلعت قلوبهم عن شهوات الدنيا و أحداثها، و عاشوا ذلك اليوم، و عملوا له ليل نهار.

[١٨] قد يغيب علم شىء عتبا بسبب قلّه ظهوره أو عدم الالتفات إليه، بينما غياب الإنسان عن علم الآخره بسبب آخره، هو: تسامى مستواه عن مستوى إدراكنا، و لعلّ هذا هو المراد بقوله سبحانه:

ثُمَّ مَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ما بالك بيوم تهابه السموات، و تشفق منه الجبال، و تضحج من هولها الأرض، و يخشاه حتى الملائكه المقربين، و يحذره الأنبياء و الصّديقون! أو لا- ينبغى أن نتقيه؟ [١٩] فى ذلك اليوم يقف الإنسان منفردا أمام ربّ السموات و الأرض، و لا

ص: ٣٩٤

أحد بقادر على الدفاع عنه، أو الشفاعة له إلا بأنه.

□
يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا بل الإنسان مسئول عن عمله.

□
وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ فَهَنَّاكَ لَا يَخْوَلُ اللَّهُ أَحَدًا شَيْئًا كَمَا خَوَّلَهُمُ الْيَوْمَ، وَلَا يَمْلِكُ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ أَمْرًا، بل الأمر كله له ظاهرا و باطنا.
و في ذلك اليوم يظهر التوحيد الإلهي لكل إنسان، فلا أحد يستطيع أن يفكر في أن غير الله يملك من أمره شيئا كما هو يزعم ذلك في الدنيا.

روى عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنه قال لجابر بن يزيد الجعفي: «إِنَّ الْأَمْرَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ، وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ. يَا جَابِرُ! إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَادَتِ الْحُكَّامُ فَلَمْ يَبْقَ حَاكِمٌ إِلَّا اللَّهُ» (١).

ص: ٣٩٥

(١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٢٧.

سوره المطفين

اشاره

ص: ۳۹۷

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله الصادق-عليه السلام- أنه قال: «من قرأ في فرائضه «ويل للمطففين» أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار، ولم تره، ولم يرها، ولم يمرّ على جسر جهنم، ولا يحاسب يوم القيامة».

تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٥٢٧

ص: ٣٩٩

حينما تتماثل صور القيامة و أهوالها، و ميزانها الحق، و حسابها الدقيق، و جزاؤها العادل و العظيم، تتماثل كل تلك الصور و المشاهد فى القلب، يتحسس الإنسان حينئذ بالمسؤولية التى تحيط بحياته إحاطة السوار بالمعصم، و يتجلى ذلك الإحساس عنده فى إنصاف الناس من نفسه، و يكون الحق الميزان المستقيم بينهم و بينه، لا الأثره و الشح، و التطفيف.

و يبدو أن ذلك هو اطار هذه السوره التى جبهت المطففين بنذير الويل فى يوم البعث-الذى لا يتصورونه-ذلك اليوم العظيم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين، و لو انهم ظنوا ذلك و عرفوا أن حسابات أعمالهم مسجله فى كتاب مرقوم لارتدعوا و لكن لا يرتدعون.

[سوره المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ١٧]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)

بينات من الآيات:

[١] هل أنا مؤمن؟ بلى. أ و لست أصلى و أصوم و أنفق من أموالى فى سبيل الله؟ كلاً.. هذه وحدها لا تكفى، فلنحذر من خداع الذات، أ و ليس كل الناس حتى أعتى الطغاه و المجرمين يبرءون ساحه أنفسهم؟! فما الميزان إذا؟ إنه القرآن، هكذا

قال الإمام أبو جعفر (الباقر) عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفى:

«و اعلم بأنك لا- تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك و قالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، و لو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، و لكن أعرض نفسك على كتاب الله، فإن كنت سالكا سبيله، زاهدا فى تزييده، راغبا فى ترغيبه، خائفا من تخويله، فاثبت و أبشر فإنه لا يضررك ما قيل فيك، و إن كنت مبائنا للقرآن فما ذا الذى يغرك من نفسك» (١). و ها هو القرآن يصف لنا واحدا من الموازين الحق التى نستطيع أن نعرف بها أنفسنا: إنه الإنصاف.

ص: ٤٠٢

كيف ذلك؟ هناك من يرى في نفسه أنه الحق فيعامل الناس على هذا الأساس، فلذلك يغش و يسرق و يستولى على حقوق الآخرين، و علامه هذا الفريق من الناس أنهم إذا أرادوا استيفاء حق من حقوقهم من الناس أخذوه و افيا، و إذا طلب منهم أداء حق للناس انتقصوا منه، و يجرى هذا في كافة شؤون حياتهم. إن لهؤلاء الويل لأنهم ليسوا منصفين.

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ قَالُوا: الْوَيْلُ بِمَعْنَى: الشر و الحزن و العذاب أو الهلاك، و هو بمعنى اللعنه، اما المطفف فانه من الطّف أى جانب الشئ، و التطفيف تنقيص الشئ من جوانبه.

و قال بعضهم: الويل واد في جهنم يجرى فيه صديد أهل النار.

[٢] من هم هؤلاء المطففون؟ هناك مثل بارز لهم في أولئك الذين ينقصون المكيال لغيرهم، أما إذا اکتالوا لأنفسهم أخذوا حقهم و افيا.

الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ قَالُوا: «عَلَى» هنا بمعنى اللام، و يبدو لى أن على تعطى هنا أيضا ظلالها العام الذى يوحى بالضرر، إذ أنّ الإستيفاء يتم على الناس أى فى ضررهم.

و قال بعضهم: انه بمعنى إذا كالتوا ما على الناس.

[٣] و لكنهم إذا اکتالوا لغيرهم تراهم يعطونهم أقل من حقهم.

وَ إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ قَالُوا: معناه كالتوا لهم أو وزنوا لهم، ثم حذف اللام، و استشهدوا بقول

و لقد جنيتك أكماً و عساقلاً و لقد نهيتك عن بنات الأوبر

حيث كان فى الأصل جنيت لك، و يبدو لى أن حذف اللام هنا من بديع بلاغه القرآن، حيث أن اللام توحى بالفائده و النفع، بينما لا منفعه لمن يكال لهم لأنهم يخسرونهم.

و التطفيف فى المكيال و الميزان كان شائعاً-حسب التواريخ- فى يثرب قبل هجره النبى-صلى الله عليه و آله-و كانت هذه السوره أول سوره نزلت على قلب النبى صلى الله عليه و آله فى المدينه، و أثرت فيهم أثراً بالغاً فاقتلعوا عن هذه العاده و أصبحوا من أحسن الناس مكيالاً، هكذا روى عن ابن عباس، حيث أضاف: فلما نزلت هذه السوره انتهوا فهم أوفى الناس كيلاً الى يومهم هذا.

و قد حاربت رسالات الله الفساد الاقتصادى فى المجتمع بكل ألوانه، و التطفيف واحد من أسوء أنواع هذا الفساد.

و قد حكى ربنا عن شعيب-عليه السلام-قوله: «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (١).

و لكن هل الفساد الاقتصادى خاص بالتطفيف فى الوزن و المكيال أم أنهما مجرد مثلين لما هو أعم و اشمل؟ فالغش و الاحتكار و استغلال طاقات الضعفاء، و استثمار ثروات البلاد المتخلفه، و الابتزاز و سائر أساليب الكسب اللامشروع كل

تلك من ألوان الفساد الاقتصادي.

ثم أنّ التطفيف في الميزان لا يخص الجانب الاقتصادي، بل يتسع للجوانب السياسيّة والاجتماعية أيضا، فلا يجوز ان تطالب الناس بكامل حقّك، ثم إذا طالبوك بحقوقهم بخستهم

جاء في الحديث عن الصادق-عليه السلام-:

«ليس من الإنصاف مطالبه الاخوان بالانصاف» (1) لا- بد أن نتعامل مع الناس بمثل ما نحبّ ان يتعاملوا معنا. إنّ أفضل ميزان للعدل هو أن تضع نفسك دائما في موضع الآخرين و تساءل: ما ذا كنت أنتظر منهم لو كنت في موقعهم، هكذا هم ينتظرون و عليّ أن أفي بحقهم.

هكذا توالى نصوص الدين ألا فلنستمع الى بعضها:

١/

عن أبي عبد الله-عليه السلام-: «أحبّوا للناس ما تحبّون لأنفسكم» ٢/

عن الصادق-عليه السلام-قال: «قال رسول الله-صلى الله عليه و آله و سلم-: أعدل الناس من رضى للناس ما يرضى لنفسه، و كره لهم ما يكره لنفسه» ٣/

عن أمير المؤمنين-عليه السلام-فيما كتبه لمحمد بن أبي بكر:

«أحبّ لعامة رعيتك ما تحبّ لنفسك و أهل بيتك، و اكره لهم ما تكره لنفسك و أهل بيتك، فإن ذلك أوجب للحجّه، و أصلح للرعيه» ٤/

عن أبي عبد الله-عليه السلام-قال: «ما ناصح الله عبد في نفسه فأعطى الحق منها، و أخذ الحق لها إلا أعطى خصلتين: رزق من الله يسعه،

ص: ٤٠٥

و جاء فى نهج البلاغه فى وصيه أمير المؤمنين لابنه الحسن-عليهما السلام:- «يا بنى! اجعل نفسك ميزانا فيما بينك و بين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، و اكره له ما تكره لها، و لا تظلم كما لا تحب أن تظلم، و أحسن كما تحب أن يحسن إليك، و استقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، و ارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، و لا تقل ما لا تعلم، و قل ما تعلم، و لا تقل ما لا تحب أن يقال لك» (١) و نختم حديثنا بروايه

مأثوره عن النبى-صلى الله عليه و آله-انه قال:

«خمس يخمس: ما نقض قوم العهد إلا- ساط الله عليهم عدوهم، و لا- حكموا بغير ما أنزل الله إلا- فشا فيهم الفقر، و ما ظهرت الفاحشه فيهم إلا ظهر الطاعون، و ما طففوا الكيل الا منعوا النبات و أخذوا بالسنين، و لا منعوا الزكاه إلا حبس الله عنهم المطر» (٢)[٤] من الذى يطفف؟ انه الذى لا- يعترف بالقيامه، حيث يقف أمام رب العالمين للحساب، فلو كان الواحد يظن مجرد ظن بذلك لما تجاوز حقه، و اعتدى على حقوق الناس.

ألا- يظن أولئك أنهم مبعوثون قال بعضهم: ان الظن هنا بمعناه المعروف و هو ضد اليقين، ذلك أن مجرد الظن بالبعث يكفى العاقل تحرزا و اتقاء منه، ألا ترى أنك لا تسلك طريقا تظن الهلاك به، و لا تشرب ما تخشى ان يكون سماً، و تحتاط من عمل تخاف منه الهلاك؟

ص: ٤٠٦

١-١) المصدر/من ص ٢٤-٥٩.

٢-٢) القرطبي/ج ١٩ ص ٢٥٣، و سائر التفاسير المعروفه.

وقال آخرون: بل الظن هنا بمعنى اليقين، لأن أصل معنى الظن ما يحدث في ذهن الإنسان من الشواهد الخارجية، فإن كانت تامة أحدثت يقينا وإلا أثارت الظن، من هنا يعبر عن اليقين أيضا بالظن.

وقد استشهدوا بالحديث

المأثور عن الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- الذي قال في تفسير هذه الآية: «أى أليس يوقنون أنهم مبعوثون» (١).

وكذلك

بالنص المروى عنه أيضا حيث يقول -عليه السلام-: «الظن ظنّان: ظنّ شكّ، و ظنّ يقين، فما كان من أمر المعاد من الظنّ فهو ظنّ يقين، و ما كان من أمر الدنيا فهو على الشكّ» (٢).

ولعل الإمام يشير الى حقيقته بينها الامام الرضا -عليه السلام- بصيغته اخرى، حين قال: «ما خلق الله يقينا لا شك فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت» (٣).

ذلك ان كل الحقائق تشهد بأن الإنسان ميّت و لكنه لا يتصوره، لما ذا؟ لأن مثل هذا التصور يفرض عليه الحذر و الاتقاء، و هو لا يريد ذلك فيبقى حائرا بين شواهد علميه تكشف له حقيقته الموت، و أهواء نفسيه تحجب عنه هذه الحقيقه، تماما كمن منى بهزيمه فى المعركه يظل لفته مترددا بين قبولها وفقا للمعلومات الصادقه أو رفضها استرسالا مع هواه و غروره.

و يبدو أن الإيمان بالآخرة هو الآخر يصطدم بأهواء النفس و شهواتها، فتتحول إلى ظنّ لا لقله الشواهد عليها بل لصعوبه التصديق بها.. و الله العالم.

ص: ٤٠٧

١-١) تفسير نمونه عن تفسير البرهان/ج ٤ ص ٤٣٨.

٢-٢) نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٢٨.

٣-٣) الفرقان/نقلا عن الخصال للصدوق(ره).

وقد سبق أن قلنا وبتكرار ان معنى الظن -فيما يبدو- هو: التصور، وفسرنا الآية التالية بذلك حيث قال ربنا: «قَالَ الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَبْلِهِ غَلَبَتْ فِيهِ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» (١) وقوله: «الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ» (٢).

حيث ان تصور البعث و ما يعقبه من القيام للحساب أمام رب العالمين يكفي الإنسان رادعا عن كل سيئه، وربما يوحى الى ذلك قول الامام أمير المؤمنين -عليه السلام- في تفسير الإيمان حيث سئل عنه فقال: «الإيمان على أربع دعائم:... فمن اشتاق الى الجنه سلا عن الشهوات، و من أشفق من النار اجتنب المحرمات» (٣).

[٥] ثلاث حقائق متصله ببعضها لو تمثلت أمام عين العاصي ارتدع و اتقى:

البعث و الساعه، و القيامه. إن حياه الإنسان سجل، يطوى اليوم و يكتب فيه بقلم الطبيعه ما يفعله، فإذا نشر نشر معه سجله بالكامل، فيا للفضيحه الكبرى يومئذ! ثم الساعه و أشراطها يوم تبدل الأرض غير الأرض، و تطوى السموات كطى السجل للكتب، فاذا لم يعمل اليوم لبلوغ الأمان من أهوالها فيا للخساره العظمى! اما قيام الناس أمام رب العالمين فإنه رهيب عظيم، لا يسع الفكر تصور تلك اللحظه التي يتمثل هذا المخلوق المتناهي في الضعف و المسكنه أمام جبار السموات و الأرض، أ و لم تقرأ أن إسرافيل أعظم ملائكه الله يتضاءل امام هيبة الرب حتى يصبح كالوصع -كما ذكر في سوره التكوير آيه ٢٣-، فمن أنا غير هذا العبد المسكين المستكين الضعيف الحقير امام رب العزه و العظمه؟!

ص: ٤٠٨

١- (١) البقره ٢٤٩.

٢- (٢) البقره ٤٦.

٣- (٣) نهج البلاغه/خ ٣١.

هكذا يذكرنا القرآن بهذه الحقائق، فبعد أن يقول: «**أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ**» يذكرنا بالساعة فيقول:

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ عَظُمَتْ آثَارُهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى أَشْفَقْتَ مِنْهُ، فَلَوْ لَا اتَّقَاءَ أَهْوَالِهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَتَى نَحْصَلُ فِيهِ عَلَى أَمَانٍ، وَالسَّمَاوَاتُ تَنْفَطِرُ وَالْجِبَالُ تَكُونُ سَرَابًا، وَالْأَرْضُ تَزَلْزَلُ زَلْزَالَهَا؟! [٦] وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْأَهْوَالِ قِيَامُ النَّاسِ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ..

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ يَكَادُ الْقَلْبُ الْبَشَرِيَّ يَتَصَدَّعُ حِينَمَا يَحْمَلُهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ نُورِ عَطْفِهِ وَحَنَانِهِ، فَكَيْفَ يَصْمَدُ هَذَا الْقَلْبُ أَمَامَ عِقَابِ اللَّهِ وَزَجْرِهِ؟! جَاءَ فِي

الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: «**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعِرْقَ كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رِكْبَتِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ حَقْوِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ صَدْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ أُذُنِيهِ حَتَّى أَنْ أَحَدَهُمْ يَغِيبُ فِي رَشْحِهِ كَمَا يَغِيبُ الضَّفْدَعُ» (١).

بيد ان المؤمنين في أمان من أهوال القيامة، هكذا

ورد في حديث مأثور عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- «**أَنَّهُ لِيُخَفَّفَ عَنِ الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخْفَ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةِ الْمَكْتُوبِ**، يَصَلِّيَهَا فِي الدُّنْيَا» (٢).

ص: ٤٠٩

١-١ (١) القرطبي/ج ١٩ ص ٢٥٥.

٢-٢ (٢) المصدر.

و كلمه اخيره: إن المؤمن ليقوم في الدنيا لله قياما يساعده في قيامه في الآخرة، أ و لم يأمره ربنا سبحانه بذلك حين قال: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ..» وقال: «أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ».

[7] و لكن هؤلاء المجرمين لا يظنون ذلك حتى يأتيهم بغته، و لذلك فإن كتابهم محفوظ في سجين، حيث لا يمكن تغييره، و هو كتاب واضح لا لبس فيه و لا تزوير.

كَلَّا يَبْدُو أَنْ مَعْنَى «كَلَّا» فِي الْأَصْلِ النِّفْيَ الْمُؤَكَّدَ، كَأَنْ تَقُولَ: أَبَدًا لَهُ، وَ لَكِنْ تَعْطَى فِي مِثْلِ هَذَا السِّيَاقِ مَعْنَى الرَّدْعِ وَ الزَّجْرِ، كَمَا تُوْحَى بِتَأْكِيدِ الْحَقَائِقِ الَّتِي ذَكَرْتَ آنْفَاءَ، وَ كَأَنَّهُ نَفَى لِلتَّكْذِيبِ بِهَا، وَ مِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ مَعْنَى كَلَّا هُنَا حَقًّا، وَ نَقَلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ مَعْنَاهُ أَلَّا تَصْدُقُونَ.

إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ مَا هُوَ سَجِينٌ؟ يَبْدُو أَنَّهُ مَبَالِغُهُ فِي السَّجْنِ، أَى الْمَحَلِّ الَّذِي لَا تَنَالُهُ أَيْدِي السَّرْقَةِ أَوِ التَّزْوِيرِ. فَمَا هُوَ الْكِتَابُ؟ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هُنَاكَ كَتَبَا كَثِيرَهُ تَسْجَلُ فِيهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، الْأَرْضُ تَكْتُبُ، وَ السَّمَوَاتُ تَصُورُ، وَ أَشْيَاءُ الطَّبِيعَةِ تَحْفَظُ آثَارَ الْعَمَلِ، وَ حَتَّى أَعْضَاءُ الْجَسَدِ تَشْهَدُ، إِلَّا أَنَّ الظَّاهِرَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ مَا يَسْجَلُ عَلَى الْفَرْدِ مِنْ أَقْوَالِهِ وَ أَعْمَالِهِ، وَ حَتَّى نِيَاتِهِ مِمَّا ذَكَرَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (١).

ثم يطوى هذا الكتاب، و يحفظ في خزانه محكمه هي سجين، فأين تقع هذه

ص: ٤١٠

الحزانه؟ لقد حدد هذا النص التالي محلها:

روى عن النبي -صلى الله عليه وآله- أنه قال: «ان الملك يرفع العمل للعبد يرى أن في يديه منه سرورا، حتى ينتهي إلى الميقات الذى وصفه الله له، فيضع العمل فيه فيناديه الجبار من فوقه: إرم بما معك فى سجين، و سجين الأرض السابعة، فيقول الملك ما رفعت إليك إلا حقا، فيقول: صدقت، إرم بما معك فى سجين» (١)

و روى عن الامام الباقر -عليه السلام- انه قال: «السجين الأرض السابعة، و عليون السماء الرابعة» (٢).

و قال بعضهم: سجين: صخره فى الأرض السابعة،

و روى أبو هريره عن النبي -صلى الله عليه وآله- «سجين جب فى جهنم، و هو مفتوح» و قال عكرمه: سجين خسار و ضلال، كقولهم لمن سقط قدره قد زلق بالحضيض.

و يبدو لى أن أصلها السجن كما ذكرنا، و انما سائر التفاسير تحديد لموقع السجن أو ملابساته، لذلك قال أبو عبيده و غيره فى تفسير الآيه: لفى حبس و ضيق شديد، فعيل من السجن كما يقول فسّيق و شريب.

[٨] و هناك افتراض آخر: ان يكون سجين اسما لتلك السجلات التى تحفظ الكتب، و أن يكون معنى الكتاب هنا ما يكتب من أعمال، فيكون المعنى هكذا:

ان اعمال الفجار مكتوبه فى سجين و هو كتاب مرقوم، و يؤيد هذا المعنى السياق التالى:

وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ

ص: ٤١١

١-١) الفرقان عن الدر المنثور/ج ٦ ص ٣٢٥.

٢-٢) نمونه عن نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٣٠.

و هذه الكلمه تأتي للإيحاء بعظمه ذلك الكتاب-حسب هذا المعنى-بلى.

الكتاب الذى لا- يغادر صغيره و لا- كبيره إلا- أحصاها،الكتاب الذى يسجل حتى أنفاس الخلق و وساوس أفئدتهم،و نيات أفعالهم،الكتاب الذى يحيط بكل أفعال الفجار أتى كانوا،و أتى عملوا.إنه كتاب عظيم.

[٩] كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَ هَكَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ تَفْسِيرًا لِلآيَةِ السَّابِقَةِ: أَى سَجِينِ كِتَابِ مَرْقُومٍ، كَمَا قَالَ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ الْقُدْرِ* وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلُهُ الْقُدْرِ* لَيْلُهُ الْقُدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» وَ الْمَرْقُومُ بِمَعْنَى مُتَجَلِّ بِوَضُوحٍ، لِأَنَّ أَصْلَ مَعْنَى الرَّقْمِ الْكِتَابَةُ الْغَلِيظَةُ، وَ قِيلَ: مَعْنَاهُ مَخْتُومٌ، وَ قِيلَ: مَكْتُوبٌ كَالرَّقْمِ فِي الثُّوبِ لَا يَنْسَى وَ لَا يَمْحَى، كُلُّ هَذَا التَّفْسِيرِ قَائِمٌ عَلَى أُسَاسِ الْإِفْتِرَاضِ بَانَ السَّجِينِ اسْمٌ لِلْكِتَابِ الْمَسْجَلِ، وَ يُؤَيِّدُهُ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ: إِنَّ أَصْلَ سَجِينِ سَجِيلٌ.

أما فى غير هذا الافتراض فيكون تفسير هذه الآيه: أن الكتاب الذى هو فى سجين كتاب مرقوم، لا تتشابه خطوطه؛ لأنه كتاب واضح، و الله العالم.

و ينبغي أن نختم حديثنا عن السجين بحديث يفيض عبره و نصحا،

مأثور عن الإمام الصادق-عليه السلام- فى معنى السجين و الأعمال، و الأشخاص الذى يهون اليه، قال-عليه السلام-: «مرّ عيسى بن مريم على قريه قد مات أهلها و طيرها و دوابها، فقال: أما إنهم لم يموتوا إلا- بسخط، و لو ماتوا متفرقين لتدافنوا، فقال الحواريون: يا روح الله و كلمته! ادع الله ان يحييهم لنا، فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنجتنبها، فدعا عيسى ربه، فنودى من الجوى أن: نادهم، فقام عيسى بالليل على شرف من الأرض فقال: يا أهل هذه القرية! فأجابه منهم مجيب: لبيك يا روح الله و كلمته، فقال: و يحكم: ما كانت أعمالكم؟

قال:عباده الطاغوت،و حب الدنيا،مع خوف قليل،و أمل بعيد،و غفله فى لهو و لعب،قال:كيف كان حيكم للدنيا؟قال:كحب الصبى لأمه إذا أقبلت علينا فرحنا و سررنا،و إذا أدبرت بكينا و حزنا،قال:كيف كانت عبادتكم للطاغوت؟قال:الطاعه لأهل المعاصى،قال:كيف كانت عاقبه أمركم؟ قال:بتنا ليله فى عافيه،و أصبحنا فى الهاويه،فقال:و ما الهاويه؟فقال:

سجين،قال:و ما سجين؟قال:جبال من جمر توقد علينا الى يوم القيامة « (١).

[١٠]يتلقى الجاهل الموقف الصعب بتكذيبه،و يزعم أنه لو دفن رأسه فى التراب فإن الآخريين لا- يرونه،كلا- ان الشمس لا تتلاشى إذا أغلقت نافذه غرفتك عنها، كذلك حقيقه المسؤوليه لا تنمات إذا أنكرتها،بل كلما جحد الجاهل المسؤوليه بنبره أقوى و صلافه أشدّ كلما ازداد بعدا عن تحملها و قربا من العذاب،ذلك أن التكذيب جريمه،كما أنه عله لسائر الجرائم،و تبلو عاقبه التكذيب عند قيام الساعه.

وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [١١]هكذا القرآن يغلق أمام النفس أبواب التبرير لعلها تعى المسؤوليه و تتحملها،و أعظم التبرير التكذيب،و لا سيما التكذيب بيوم الدين الذى يهدم أساس الفكر.

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ لَهُمْ أَهْلَاءٌ وَيْلٌ وَاللَّعْنَةُ وَالشُّورَ لِمَجْرَدِ تَكْذِيبِهِمْ،فكيف بسائر الجرائم التى ارتكبوها؟!

ص:٤١٣

(١-١) نور الثقلين/ج ٥ ص ٥٣١.

[١٢] و لكن لما ذا يكذبون بيوم الدين؟ هل لنقص في شواهدة؟ كلا.. بل لقرار اتخذه حاليًا، و جرائم ارتكبوها سابقًا، أما قرارهم فهو الاستمرار في الاعتداء على حقوق الآخرين، و التواصل في ارتكاب الإثم.

وَ مَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ انهم الفجار الذين لم يلتزموا لا بحقوق الآخرين فاعتدوا عليها و أكلوا أموال الناس بالباطل، و لا بحق الله عليهم فأنتموا و ارتكبوا الفواحش.

[١٣] و يقارن التكذيب في ألسنه هؤلاء-البذيئه-بالاستهزاء، و محاوله حرف الآخرين عن آيات الله، فتراهم إذا تتلى عليهم آيات الله رموها بالرجعية، و زعموا بأنها: ليست سوى الخرافات السابقه.

إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا يَبْدُو أَنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ آيَاتِ هَمِ الدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ، و الآيات تهديهم الى الله و رسالاته و شرائعه، و لكنهم ينكرونها رأسا دون أن يتفكروا قليلا خشيه أن يتأثروا بها، فيفقدوا نعيمهم الزائل، و موقعهم الزائف القائم على الإثم و العدوان.

قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ و لعل مرادهم من هذا الحديث بيان أنهم لن يتأثروا بها مستقبلا، كما انهم لم ينتفعوا بها سابقا، ذلك لأنها مجرد تكرار لدعوات سابقه، و هذه الآيه نظير قولهم كما في آيه اخرى: « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا » (١).

ص: ٤١٤

[١٤]لما ذا يقف بعض الناس موقف الجاحد المعاند و بهذه الدرجه من آيات الله البينات،أ و لا يحبون أنفسهم،أ و لا يحكم العقل بضروره الاستماع الى النذير فلعله يكون صادقا فيقعون فى خطر عظيم؟!يجيب السياق عن هذا التساؤل:بأن للذنب أثرا سيئا على القلب البشرى،و كلما تراكمت الذنوب تراكمت آثارها.

□
كَلَّا لَيْسَتْ أَسَاطِيرَ الْأُولِينَ،بل إنها حقائق من عند الله.

بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ قالوا:ران بمعنى غلب،و استشهدوا على ذلك باستخدام مفرداته،مثل:رانت به الخمره،و ران عليهم النعاس،و يقال:قد رين بالرجل رينا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه،و لكن-يبدو لى-أن الأصل فى الرين الصدأ،و هو الغلامه الخفيفه التى تحيط بالحديده و ما أشبه و تدل على فسادها.و لعل الفارق بينه و بين الصدأ أن الصدأ قد يكون فى جزء،بينما الرين يستخدم إذا أحاط الصدأ بالقلب تماما،لذلك قال بعضهم:الرين ان يسود القلب من الذنوب،و نقل عن ابن عباس:ران على قلوبهم أى غطى عليها.

و لكن كيف يرين الذنب على القلب؟إن فى قلب الإنسان قوى تتنازعه، و إرادته الإنسان فوقها،فإذا استسلم الإنسان لقوه الشهوات ضعفت إرادته، و كسف نور عقله،فلا-يزال كذلك حتى يخبو عقله،و تنمات إرادته فيسترسل كليا مع الشهوات،و من جهه اخرى:عند ما يرتكب البشر جريمه أو ذنبا يتهرب من وخز ضميره بتبريرهما،و لا يزال يبرر لنفسه ما يرتكبه حتى يقتنع بذلك التبرير،بل يتحول عنده إلى ثقافه متكامله،فلا يكاد يعرف الحقيقه،و من جهه ثالثه:الخير

عاده و الشر عاده، و من عوّد نفسه على الشر كيف سلوكه و سائر تصرفاته مع تلك العاده، و كان كدوده القز تنسج حول نفسها ما يقتلها.. أ رأيت الذى يكتسب الحرام، إما بالسرقة أو الغش أو التطفيف أو التعاون مع الظالمين أو العمل كجاسوس محترف للطغاه أو الأجانب، أ رأيته يتخلص من هذه المهنة و قد كيف نفسه معها، و اعتمد عليها فى رزقه اليومي؟! لذلك ينبغى للرشيد ان لا يتبع الشيطان منذ الخطوه الأولى، و لا يرتكب حتى الذنب الأول، و إذا مر به طائف من الشيطان فخدعه عن دينه، و ارتكب ذنبا فعليه أن يتوب عن قريب، و لا يتابع مسيره الذنب؛ فان الذنب بعد الذنب يفسد القلب، و يعد عن الإنسان توفيق التوبه.

هكذا

روى عن الامام الباقر-عليه السلام- أنه قال: «ما من شىء أفسد للقلب من الخطيئه. إن القلب ليوافق الخطيئه، فما يزال به حتى تغلب عليه، فيصير أسفله» أعلاه، و أعلاه أسفله قال رسول الله صلى الله عليه و آله:

ان المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء فى قلبه، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه، و إن ازداد زادت، فذلك الرين الذى ذكره الله تعالى فى كتابه: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١).

من هنا ينبغى التوبه الى الله فى كل يوم بل و فى كل ساعه حتى يمحي اثر الذنوب التى لا زلنا نمارسها قبل ان تترسخ فى القلب ففسده، كما ينبغى التلاقى و التواصى بالحق و الصبر، و التناصح حتى تجلى الأفئده من رينها، هكذا

أوصانا رسول الله-صلى الله عليه و آله-فيما روى عنه انه قال: «تذاكروا و تلاقوا و تحدثوا، فإن الحديث جلاء للقلوب. إن القلوب لترين كما يرين السيف

ص: ٤١٦

[١٥] هذه القلوب التي ترين بالذنب لا تتشرف بلقاء ربها يوم القيامة، ذلك أن هذه الذنوب تصبح حجبا كثيفا تمنع عنه أنوار الله البهية.

□
كَلَّا فَلْيَرْتَدَعُوا عَنِ الْاِسْتِرْسَالِ مَعَ الذَّنُوبِ وَ مَا يَسْبَبُ لَهُمْ رَيْنَ الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ لَذَلِكَ عَاقِبَهُ سَوَءٌ، وَ هِيَ:

إِنَّهُمْ عَيْنَ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ لَقَدْ حَجَبَهُمُ الذَّنْبُ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ عَطْفِهِ وَ رِعَايَتِهِ، كَمَا حَجَبَهُمُ الذَّنْبُ عَنِ نُورِ لِقَائِهِ وَ مَشَاهِدَتِهِ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، أَلَيْسَ أَعْظَمُ نِعْمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ رِضَاهُ عَنْهُ وَ مَنَاجَاتُهُ لَهُ، وَ لِقَاءُ قَلْبِهِ بِنُورِهِ؟ إِنْ هَذَا لَهُوَ النِّعِيمُ الْمَقِيمُ الَّذِي يَسْعَى إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ، إِنَّهُ أَعْظَمُ جَائِزَةٍ يَتَوَقَّعُهَا مِنْ رَبِّهِ،

فقد جاء في الحديث: «ان أهل الجنة يزورون العرش كل ليلة جمعه، فينظرون إلى نور ربهم فيقعون له ساجدين.» و

قد عبّر الإمام زين العابدين -عليه السلام- عن هذا اللقاء العاصف بالشوق و الوله بين العبد و الرب بقوله في مناجاته: «فقد انقطعت إليك همتي، و انصرفت نحوك رغبتى، فأنت لا -غيرك مرادى، و لك لا -لسواك سهرى و سهادى، و لقاءك قره عيني، و وصلك منى نفسى، و إليك شوقى، و فى محبتك و لهى، و إلى هواك صبايتى، و رضاك بغيتى، و رؤيتك حاجتى، و جوارك طلبى، و قربك غايه سؤلى، و فى مناجاتك روحى و راحتى، و عندك دواء علتى، و شفاء غلتى، و برد لوعتى، و كشف كربتى...الى ان يقول: و لا تبعدنى منك يا نعيمى و جنتى، و يا

ص: ٤١٧

دنيای و آخرتی. یا ارحم الراحمین « (١).

و إذا كان لقاء الله أعظم نعم المؤمنين فإن حرمان الفجار منه يعدّ أعظم عذاب لهم، و لا يعرفون عمق هذه المأساه إلا في يوم القيامة، لذلك

ترى الإمام أمير المؤمنين -عليه السلام- يجأر الى ربه خشيه فراقه و يقول: «فهبنى يا إلهى و سيدى و مولاي و ربى صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، و هبنى صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر الى كرامتك « (٢).

[١٦] و العذاب الاخر تصليه النار، فلا حجاب بينهم و بينها، و لا ستر، أو ليسوا لم يستروا أنفسهم منها فى دار الدنيا، و لم يتقوا حرها و لهيبها؟! انها هم اليوم يصلونها و يذوقون مسها مباشره.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ اما المؤمنون فقد تزودوا من الدنيا بزد التقوى فسترهم عن النار فى الآخرة كما استتروا بها عن الذنوب فى الدنيا؛ لأنهم عرفوا أن الذنوب تصحبهم من هناك إلى هناك، حيث تتحول نيرانا لا- هبه، و حيات و عقارب و ظلمات و آلاما، فتحصنوا عنها بحصن التقوى.

[١٧] اما العذاب الثالث فهو الازلال و التحقير و الإهانه و التبكيت أ و ليسوا قد استهزءوا بالرسالات، و قالوا: إن هى إلا أساطير الأولين، فالיום يشمت بهم حتى يذوقوا العذاب الروحى الذى كانوا يذيقونه الدعاه الى الله بتكذيبهم و الاستهزاء منهم.

ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

ص: ٤١٨

١- (١) الصحيفه السجديه/مناجاه المريدین.

٢- (٢) دعاء كميل/مفاتيح الجنان.

اشاره

كَلَّاۙ اِنَّ كِتَابَ الْاَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ (۱۸) وَ مَا اَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّوْنَ (۱۹) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (۲۰) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (۲۱) اِنَّ الْاَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (۲۲) عَلٰى الْاَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (۲۳) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (۲۴) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ (۲۵) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذٰلِكَ فَلَيْتَةَ اَفْسٍ الْمُنْتَفِسُونَ (۲۶) وَ مَرٰجِيْهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (۲۷) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (۲۸) اِنَّ الَّذِيْنَ اٰجْرَمُوْا كَانُوْا مِنَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا يَضْحَكُوْنَ (۲۹) وَ اِذَا مَرُّوْا بِهِمْ يَتَغَامَزُوْنَ (۳۰) وَ اِذَا انْقَلَبُوْا اِلٰى اَهْلِهِمْ انْقَلَبُوْا فَاَكْهَبُوْنَ (۳۱) وَ اِذَا رَاوْهُمُ قَالُوْا اِنَّ هٰٓؤُلَاءِ لَضٰلُّوْنَ (۳۲) وَ مَا اُرْسِلُوْا عَلَيْهِمْ حٰفِظِيْنَ (۳۳) فَالْيَوْمَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مِنَ الْكُفْرٰرِ يَضْحَكُوْنَ (۳۴) عَلٰى الْاَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (۳۵) هَلْ تُؤْتٰبُ الْكُفْرٰرُ مَا كَانُوْا يَفْعَلُوْنَ (۳۶)

بينات من الآيات:

[١٨] من هم الأبرار؟ إنهم الذين كان البر صبغه حياتهم، و يبدو من مقابله كلمه الأبرار لكلمه الفجار أن المراد من البرّ الذى يتبع سبيل المعروف و لا يتجاوزه، و ان كتاب هؤلاء و مجمل أعمالهم محفوظ عند الله فى مقام علىّ، حيث يجتمع المقربون.

□
كَلَّا لَا تَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ، بل اجتهد حتى تصبح من الأبرار.

□
إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ وَهُوَ دِيْوَانُ أَعْمَالِهِمْ، أو ذات أعمالهم محفوظة عند الله.

لَفِي عَلِيٍّ قَالُوا:الكلمه هذه جاءت بصيغه الجمع و لا واحد لها من لفظها مثل ثلاثون و عشرون،و قال بعضهم:بل انها من عليّ و هو فعيل من العلو،ثم قالوا معنى جمع هذه الكلمه العلو و الارتفاع بعد الارتفاع،كأنها أعلى الأعالي،و قمّه القمم،فأين هذا المقام؟
جاء فى حديث مأثور عن النبي-صلى الله عليه و آله-أنه قال:

«علتوني فى السماء السابعة،تحت العرش» (١)

و روى عنه صلى الله عليه و آله أيضا أنه قال:

«إن أهل الجنة يرون أهل عليين كما يرى الكوكب الدرى فى أفق السماء» (٢).

و قال بعضهم:انه عند صدره المنتهى،و أنى كان فإنه مقام كريم،يتواجد فيه المقربون،و هم النيون و الصديقون و الخالص من أولياء الله.

و انما يصعد العمل الى هذا المقام الكريم إذا كان صالحا خالصا لوجه الله حسب الحديث التالى:

روى عن الامام الصادق-عليه السلام-عن النبي -صلى الله عليه و آله-انه قال: «إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا به، فإذا صعد بحسناته يقول الله عز و جل:اجعلوها فى سجين،إنّه ليس إياى أراد فيها» (٣).

[١٩]أين هذا المقام الأسمى،و ما ذا يجرى فيه،و كيف يتواجد فيه المقربون؟ و أين توضع أعمال الأبرار منه؟إن معرفتنا بهذه الحقائق محدوده لأنها فوق مستوانا نحن البشر.

ص:٤٢١

١-١) القرطبي ج ١٩ ص ٢٦٢.

٢-٢) المصدر ص ٢٦٣.

٣-٣) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٣٠.

وَ مَا أَذْرَاكَ مَا عَلَيَّونَ يرى المفسرون فى مثل هذا الخطاب: أنه موجه الى شخص الرسول-صلى الله عليه وآله-و لكن يبدو لى انه موجه الى كل تال للقرآن؛ فإن القرآن نزل على الرسول و لكن للناس جميعا، و أمر الناس بتلاوته و التدبر فى آياته، و فيه خطابات لهم جميعا، كقوله سبحانه: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» أو للمؤمنين و حدهم، كقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» و قد

جاء فى الحديث: عن الصادق عليه السلام: «نزل القرآن بإيّاك أعنى و اسمعى يا جاره» (١).

فهذه الآية لا تدل على أن النبى-صلى الله عليه وآله-لم يكن يعرف ما العليّون، كيف و قد فسرّه لنا، بل أساسا هذه الجملة لا تدل على نفى العلم بهذا المقام بقدر دلالة على أنه مقام عظيم، و الله العالم.

[٢٠] فى ذلك المقام الشامخ يوجد:

كِتَابٌ مَرْقُومٌ قالوا: ان هذه الجملة بيان لكتاب الأبرار، و إنه كتاب مرقوم واضح لا لبس فيه، و يحتمل ان تكون الجملة تفسيرا للعلين، باعتبار أن الكتاب هو الأعلى و الأسمى، لما يحمل من صالح الأعمال، و الله العالم.

[٢١] و المقربون عباد الله شهود عند ذلك الكتاب الكريم، فيستبشرون به، و يستغفرون للصالحين لينالوا المزيد من الحسنات.

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ

ص: ٤٢٢

ان مجرد حضور المقربين عند الكتاب كرامه و شهاده منهم عليه، و لذلك فإن الشهاده هنا تأتي بمعنى الحضور و التوقيع أما المقربون فهم -حسب الآيه التاليه- طائفه من البشر يأكلون و يشربون، و هم الذين ذكرتهم آيات سوره الواقعه « وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ » و قد بين القرآن شهادتهم بقوله: « وَ يَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَيْنَا هَؤُلَاءِ » (١).

و قال بعضهم: انهم الملائكه المقربون، و قيل إسرافيل -عليه السلام- خاصه، بيد أن التفسير الأول أقرب الى السياق، و هو يوحى بكرامه المقربين عند ربهم، حيث جعلهم شهودا على كتاب الصالحين.

[٢٢] الكتاب مظهر بارز لمسؤوليه الإنسان عن أفعاله، أما المظهر الأجلى فانه النعيم المقيم للأبرار، و الجحيم الأليم للفجار.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ تحيط بهم آلاء الله، قالوا: لان كلمه «نعيم» جاءت بصيغه فعيل (صفه مشبهه) فانها تفيد الاستمرار، و لأنها جاءت نكره فهي تفيد الكثره و التنوع، و يبدو أن التعبير ب«لفى نعيم» هو الآخر يدل على الكثره و التنوع.

[٢٣] لأن الإنسان روح و جسد فإن روحه تتطلع الى لذات خاصه بها بعد أن يتشبع الجسد بالنعيم، فما هي لذه الروح في الجنه؟ يبدو أنها تتمثل في مجالس المؤانسه و المعرفه، فالحديث مع الأخوه الأصفياء يعطى النفس لذه عظيمه، كما أن العلم غذاء شهى للروح و العقل.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ

ص: ٤٢٣

جلوسهم على الأرائك مع إخوانهم المتقابلين لذه للنفس، و نظرهم الى خلق الله و تجليات رحمته و قدرته لذه للعقل،

و روى عن النبي -صلى الله عليه و آله- :

«ينظرون إلى أعدائهم في النار.» قالوا: الأرائك جمع أريكه، أى السرير، و قيل: أصلها فارسيه، و قيل: إنها مشتقه من اسم شجر يسمى بأراكه.

[٢٤] عند ما يصفو عيش المرء من الأكدار، و قلبه من الضغائن و الطمع و الحرص، يتلألأ- وجهه بآثار النعم، كما يزهر النبات و يتنور، كذلك أهل الجنة تفيض على وجوههم الجميله آثار النعم نضاره و نورا.

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ و لعل التعبير ب«تعرف» يوحى بأنك تعرف مدى النعيم الذى هم مستقرون فيه بنظره الى وجوههم، و مدى نضارتها؛ فإن النضاره درجات و أنواع، و هى تعكس ما وراءها من عوامل النعيم و درجاتها.

[٢٥] و جلسات الأانس لا تكتمل إلا بشراب يزيدهم نشاطا و سرورا.

يُسَيِّقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ قالوا: الرحيق: صفوه الخمر، و قال بعضهم: إنها الخمره العتيقه البيضاء الصافيه من الغش التيره، و أما المختوم فإنه يوحى بكرامه الشارب ألا تسبق الى الشراب يد غيره.

[٢٦] و إذا كان ختم الشراب عاده قطعه طين لازب، فإن ختم رحيق الجنة المسك الأذفر.

خَتَامُهُ مِسْكٌ فِيزِيدُهُ عَطْرًا وَجَمَالًا، وَ لَنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ آمَادَ هَذِهِ النِّعْمِ فَنَسْعَى إِلَيْهَا بِكُلِّ هَمٍّ وَ نَشَاطٍ.

وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ فِي ضَمِيرِ الْإِنْسَانِ نَزْعَهُ رَاسِخَةً تَدْعُوهُ إِلَى التَّسَابُقِ وَ التَّقَدُّمِ عَلَى الْآخِرِينَ، وَ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَسْتَشِيرُ هَذِهِ النِّزْعَةَ الْفِطْرِيَّةَ فِي التَّسَابُقِ عَلَى الدُّنْيَا وَ نَعِيمِهَا الزَّائِلِ، بَيْنَمَا الْعَقْلُ يَهْدِينَا إِلَى أَنْ التَّنَافُسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْمَكْرَمَاتِ وَ الْجَنَّةِ، وَ الْآيَةُ هَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنْ عَدَّةِ آيَاتِ قُرْآنِهِ تَسْتَشِيرُ هَذِهِ النِّزْعَةَ الْمُبَارَكَةَ فِي الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، وَ هُوَ التَّسَارُعُ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَ التَّنَافُسُ فِي الْمَكْرَمَاتِ، قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ» (١) وَ قَالَ سُبْحَانَهُ:

« فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا » (٢) وَ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنا رَغْبًا وَ رَهْبًا» (٣).

وَ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَتَنَافَسُ عَلَى شَيْءٍ فَإِنْ أَفْضَلَ مَا يَتَنَافَسُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الرَّحِيقُ الْمَخْتومُ، الَّذِي يَأْتِي مَكْمَلًا لِسُلْسَلِهِ مِنَ النِّعْمِ الْمَتَوَاصِلِ، وَ لَعَلَّ هَذَا هُوَ السَّرْفُ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْجَمْلَةِ عِنْدَ بَيَانِ هَذِهِ النِّعْمِ، لِأَنَّهَا مَكْمَلَةٌ لِسَائِرِ النِّعْمِ، أَوْ لِبَيَانِ عَظَمَةِ هَذِهِ النِّعْمِ وَ مَا فِيهَا مِنْ لَذَّةٍ عَظِيمَةٍ لَا تَقَاسُ بِسَائِرِ اللَّذَاتِ حَتَّى لَذَاتِ الْآخِرِ وَ نَعِيمِهَا، أَوْ لِأَنَّ مِنْ آدَابِ الشَّرْبِ عِنْدَ أَهْلِهِ فِي الدُّنْيَا تَنَازُعَ الْكُؤُوسِ بَيْنَهُمْ وَ تَنَافُسَهُمْ فِيهَا.

وَ أَنَّى كَانَ فَإِنَّ التَّنَافُسَ فِي الرَّحِيقِ الْمَخْتومِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتِمُّ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا

ص: ٤٢٥

١-١ (١) الحديد ٢١.

١-٢ (٢) البقرة ١٤٨.

١-٣ (٣) الأنبياء ٩٠.

بالتسارع فى الخيرات، و التنافس فيها، و قد جاء فى الأثر أن ترك الخمر فى الدنيا ثمن الرحيق المختوم فى الآخرة، كما أن ثواب سقاياه المؤمن و إطعامه هو الرحيق المختوم.

جاء فى وصيه النبى -صلى الله عليه و آله- لعلى -عليه السلام- أنه قال: «يا على! من ترك الخمر لغير الله سقاه الله من الرحيق المختوم، فقال على:

لغير الله؟ قال: نعم. و الله، صيانته لنفسه فيشكره الله تعالى على ذلك» (١).

و روى عن على بن الحسين -عليه السلام- أنه قال: «من أطعم مؤمنا من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، و من وسقا مؤمنا من ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم» (٢).

و روى: «من صام لله فى يوم صائف سقاه الله من الظمأ من الرحيق المختوم» (٣).

[٢٧] قيل: بأن فى الجنة عينا تجرى فى الهواء ثم تصب فى كؤوس الأبرار، و قالوا: إنها تجرى من تحت العرش و تسمى بالتسنيم، لأنها فى أعلى الجنة، و هى شراب المقربين خالصا، و يضاف شىء منه إلى شراب الأبرار فيعطيه نكهة خاصة ليس فقط لأنه عظيم اللذة، بل ربما أيضا لأن فيه أثرا من روح المقربين و ريحهم، و عقب درجاتهم المتسامية، و قالوا: انه أشرف شراب فى الجنة، قال الله سبحانه:

وَ مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ قال الرازى: تسنيم علم لعين بعينها فى الجنة، سميت بالتسنيم الذى هو

ص: ٤٢٤

١- ١) نور الثقلين ج ٥ ص ٤٣٤.

٢- ٢) المصدر.

٣- ٣) المصدر.

مصدر سنمه إذا رفعه، إما لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق على ما روى: إنها تجرى في الهواء مسنمه فتصب في أوانيهم، وإما لأنها لأجل كثرة مائها و سرعته تعلق على كل شيء تمر به و هو تسنيمه، وإما لأنها عند الجرى يرى فيه ارتفاع و انخفاض فهو التسنيم أيضاً، و ذلك لأن أصل هذه الكلمه العلو و الارتفاع و منه سنام البعير، و تسنمت الحائط إذا علوته (١).

و قال بعضهم: ان كل عين تجرى من الأعلى تسمى بالتسنيم، و بالرغم من أن هذا أقرب المعانى إلى سياق الآية إلا انى لم أجد مصدرا لغويا يؤيده.

[٢٨] و للجنة درجات تتعالى حتى تتصل بعرش الله، فعنده جنات عدن حيث منازل المقربين من عباده الأنبياء و الصديقين، و قد بينت سورة الواقعة جانبا من الفرق بين درجات المقربين السابقين و درجات أصحاب اليمين، و فى هذه السورة إشارة الى جانب منه، حيث أن مزاج شراب الأبرار التسنيم، بينما يرتوى منه المقربون، فهو شرابهم الخالص.

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ و لعل فى شراب التسنيم آثارا معنويه، حيث يكسب شاربه قربا الى الله و رضوانا، و هكذا خمره الجنة تزيد العقل، و تنشط الفكره، و تلهم الروح إيمانا و عرفانا، فأين هى من خمره الدنيا التى تزيل العقل، و تخمل الفكر، و تبعد الروح من مقام ربها؟! [٢٩] تلك كانت مجالس الأنس و المصافاه، و شرب الرحيق و السلسل يجازى الرب بها عباده الذين عانوا الآلام الروحيه، فكم ضحك منهم المجرمون و كم

ص: ٤٢٧

تفاخروا، وكم سرقوا منهم لقمة العيش فتفكحوا بها و تركوهم يتضورون جوعا.

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ذَكَرُوا فِي تَنْزِيلِ الْآيَةِ سَبِينَ:الأول:أن المجرمين هم أكابر قريش كانوا يضحكون من عمار و صهيب و بلال و غيرهم من فقراء المسلمين و يستهزئون بهم، الثانى:أنه جاء على-عليه السلام-فى نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون و ضحكوا و تفاخروا،ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الأصلح،فضحكوا منه،فنزلت هذه الآية قبل ان يصل على إلى رسول الله. (1)و الظاهر أن سبب النزول الثانى أقوى لأن السوره مدنيه.

[٣٠]أول شهادته تسجل ضد المجرم هى شهادته ضميره الذى لا ينى يلومه و يؤنبه على جريمته،لذلك تراه يسعى جاهدا للتخلص منه فماذا يفعل؟انه ينتقم من أهل الصلاح و ينتقص منهم و يستهزئ بهم لعله يخفف من وطأه اللوم الذى يتعرض له داخليا.كلا..إنه يزداد وخزا و ألما لأن الاستهزاء بالمؤمنين جريمه أخرى ارتكبتها و استحق عليها لوم ضميره،و هكذا يزداد استهزاء و سخرية دون آيه فائده.

وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ اى يشيرون إليهم بأعينهم و أيديهم استهزاء،وقيل:الغمز بمعنى العيب.

و الله يدرى كم تكون جراحه اللسان أليمه بالنسبه الى المؤمن الشريف الذى لا يزال يجتهد من أجل تزكيه نفسه.

ص:٤٢٨

و إذا كان الغمز فى الجاهليه بالعين و اليد فإنه أصبح اليوم بالأقلام و الأفلام و سائر وسائل التشهير التى امتلكها أعداء الإنسان، أعداء الله و الدين، و إن صمود المجاهدين اليوم أمام هذه الدعايات المضلله يزيدهم عند الله أجرا و زلفا، لأنهم يصبرون على أذى عظيم، و آلام نفسه لا تحتمل.

[٣١] و بينما يعيش المؤمنون و المجاهدون أشد حالات الألم و الخوف و تنتفض أطفالهم و نساؤهم فى المخابى و المهاجر خشيه مداهمه جنود إبليس المعسسون ترى المجرمين ينقلبون الى بيوتهم فى أمن ظاهر، يتبادلون نخب الانتصارات الزائفه، و يرتادون مجالس اللهو و العربه.

وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ قالوا: اى معجيين بما هم عليه من الكفر، متفكحين بذكر المؤمنين، و لعل المراد من الأهل هنا أصحابهم و أهل مؤانستهم.

[٣٢] و يحاول أعداء الرساله إصاق تهمة الضلاله الى المؤمنين لعلمهم يعزلونهم عن المجتمع.

وَ إِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ و يبدو ان هدف هذه التهمه إثارة حساسيه الناس ضدهم، لأنهم يخالفون الخرافات الشائعه التى ينصب المجرمون أنفسهم مدافعين عنها، بينما يسعى المؤمنون نحو إنقاذ المجتمع من ويلاتها.

[٣٣] و هؤلاء المجرمون الذين هم عاده أصحاب الثروه و القوه و الجاه العريض يزعمون أنهم الموكلون بأمر الناس فتراهم يوزعون التهم يمينا و يسارا، بينما هم بشر

كسائر الناس لم يجعل لهم ميزه و سلطانا على أحد.

وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حُرُوفًا يَفْقَهُنَّ بِلْ كُلِّ امْرءٍ مَسْئُولٌ عَنْ نَفْسِهِ، و بهذه الكلمه الحاسمه سلب القرآن الشرعيه المزيفه التي تدعيها السلطات و المترفون لتسلطهم على الناس. كلا..السلطه انما هي لله و لمن يخوله الله، أما أولئك المجرمون فإنهم غاصبون، و ان على المؤمنين ألا يأبھوا بأحكامهم الجائره عليهم، لأنه لا شرعيه لها أبدا.

[٣٤] بسبب تلك المعاناه الشديده و الآلام المبرحه التي ذاقها المؤمنون المجاهدون في سبيل الله من أيدي المجرمين تنقلب الصوره تماما في يوم الجزاء.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ قَالَ بعضهم: انه يفتح للكفار في أطراف النار باب الى الجنه، فإذا سعوا إليها و وصلوه بعد عناء عظيم أغلق دونهم فيشير ذلك ضحك المؤمنين عليهم، و روى مثل ذلك عن رسول الله صلى الله عليه و آله. (١)

[٣٥] و المؤمنون جالسون على الأرائك فرحين بما آتاهم الله، و ينظرون الى ما يجرى هناك في نار جهنم.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ

جاء في الحديث في قوله تعالى: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» أي المنافقين: و أمّا استهزاؤه بهم في الآخره فهو أنّ الله عزّ و جلّ إذا أقرّ المنافقين المعاندين لعليّ

ص: ٤٣٠

-عليه السلام- في دار اللعنه و الهوان، و عذبهم بتلك الألوان العجيبه من العذاب، و أقرّ المؤمنين الذين كان المنافقون يستهزون بهم في الدنيا في الجنان بحضره محمد صفى الملك الديان، أطلعهم على هؤلاء المستهزين بهم في الدنيا حتى يروا ما هم فيه من عجائب اللعائن و بدائع النقمات، فيكون لذّتهم و سرورهم بشماتتهم بهم كما لذّتهم و سرورهم بنعيمهم في جنان ربّهم، فالمؤمنون يعرفون أولئك الكافرين بأسمائهم و صفاتهم، و هم على أصناف:

منهم من هو بين أنياب أفاعيها تمضغه، و منهم من هو بين مخالب سباعها تعث به و تفترسه، و منهم من هو تحت سياط زبانياتها و أعمدتها و مرزباتها يقع من أيديهم عليه تشدّد في عذاب و تعظم خزيه و نكاله، و منهم من هو في بحار حميمها يغرق و يسحب فيها، و منهم من هو في غسلينها و غساقها تزجره زبانياتها، و منهم من هو في سائر أصناف عذابها؛ و الكافرون و المنافقون ينظرون فيرون هؤلاء المؤمنين الذين كانوا بهم في الدنيا يسخرون لما كانوا من موالات محمّد و علىّ و آلهم-صلوات الله عليهم- يعتقدون، فيرونهم: منهم من هو على فراشها يتقلّب، و منهم من هو على فواكهها يرتع، و منهم من هو على غرفاتها أو في بساينها و تنزّهاتها يتبحر، و الحور العين و الوصفاء و الولدان و الجوارى و الغلمان قائمون بحضرتهم و طائفون بالخدمه حواليتهم، و ملائكه الله عزّ و جلّ يأتونهم من عند ربّهم بالحاء و الكرامات و عجائب التحف و الهدايا و المبرّات يقولون: سلام عليكم بما صبرتهم فنعمة عقبى الدار، فيقول هؤلاء المؤمنون المشروفون على هؤلاء الكافرين المنافقين: يا أبا فلان و يا فلان-حتىّ ينادونهم بأسمائهم- ما بالكم في مواقف خزيكم ما كنون؟ هلّموا إلينا نفتح لكم أبواب الجنان لتتخلّصوا من عذاب و تلحقوا بنا في نعيمها، فيقولون: ويلنا أنّى لنا هذا؟ يقول المؤمنون:

أنظروا إلى هذه الأبواب، فينظرون إلى أبواب الجنان مفتحة يخيّل إليهم أنّها إلى جهنّم التي فيها يعدّون، و يقدرّون أنّهم ممكنون أن يتخلّصوا إليها، فيأخذون في

السِّبَاحِ فِي بَحَارِ حَمِيمِهَا وَ عَدُوا بَيْنَ أَيْدِي زَبَانِيَّتِهَا، وَ هُمْ يَلْحَقُونَهُمْ وَ يَضْرِبُونَهُمْ بِأَعْمَدَتِهِمْ وَ مَرْزَبَاتِهِمْ وَ سَيَاطِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ هَكَذَا يَسِيرُونَ هُنَاكَ وَ هَذِهِ الْأَصْنَافُ مِنَ الْعَذَابِ تَمَسُّهُمْ حَتَّى إِذَا قَدَرُوا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا تِلْكَ الْأَبْوَابَ وَ جَدُّوهَا مَرْدُومَهُ عَنْهُمْ وَ تَدْهَمُهُمُ الزَّبَانِيَةُ بِأَعْمَدَتِهَا فَتَنكَسُهُمْ إِلَى سُوءِ الْجَحِيمِ، وَ يَسْتَلْقَى أَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى فَرْشِهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ يَضْحَكُونَ مِنْهُمْ مُسْتَهْزِئِينَ بِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» وَ قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَّ: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ» (١).

[٣٦] ما ذا ينظرون؟ إنهم ينظرون إلى مجريات جزاء الكفار اليومي، و عقابهم المتتابع الذي يتصل بجرائمهم المتتاليه في الدنيا.

هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ أَى يَنْظُرُونَ لِكَى يَرُوا هَلْ أَنَّهُمْ تُؤَبِّبُوا وَ جُوزُوا؟ وَ بِالطَّبَعِ: إِنَّهُمْ يَجِدُونَ هَذَا الْجَزَاءَ لِحِظِهِ بِلِحِظِهِ، وَ لَا يَنْتَهَى جَزَاؤُهُمْ لِأَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ، ذَلِكَ أَنْ كُلَّ فَعْلَةٍ خَاطِئَةٍ قَامُوا بِهَا تَجَازَى بِمِثْلِ السَّنِينِ، فَيَسْتَمِرُّ النَّظْرُ وَ يَسْتَمِرُّ الْجَزَاءُ. أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ السُّوْأَى، وَ جَعَلْنَا مِنْ أَهْلِ جَنَّتِهِ وَ رِضْوَانِهِ. آمِينَ.

ص: ٤٣٢

١ - ١) بحار الأنوار ج ٨ ص ٢٩٨.

سوره الانشقاق

اشاره

ص: ۴۳۳

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: من قرأ هاتين السورتين، وجعلهما نصب عينيه في صلاه الفريضة و التّافله: «إذا السماء انفطرت» و «إذا السماء انشقت» لم يحجبه من الله حاجب، و لم يحجزه من الله حاجز، و لم يزل ينظر الله إليه حتى يفرغ من حساب الناس.

تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ص ٥٣٦

ص: ٤٣٥

قبسان من نور تشع بهما سوره الانشقاق:

1/ اقبس يرشه على واقع الإنسان عسى ان يعرف نفسه و يضعها فى المقام الأسمى الذى خلق له. فالإنسان كادح الى ربه كدحا فملاقيه..و هو يركب بالتأكيد طبقا عن طبق.

فهو إذا ذلك الإنسان المسؤول الذى سخرت له الأرض و أجرام السموات العلى، و أمامه عقبات كأداء لا بد أن يتحداها حتى يصل الى دار المقامه عند رب العزه، و إلا فيكون من أصحاب الشمال، يؤتى كتابه وراء ظهره، و يساق إلى جهنم ليصلى سعيرا.

2/ اقبس يضىء به الطبيعه أنها خليفه الله، و تستجيب لمشيئته النافذه، فالسماء حين تنشق، و الأرض حين تمتد تأذنان لربهما العظيم، و حق لهما ذلك أ و ليستا مخلوقتين! و يلتقى شعاع هذا القبس بذلك عند ما يستنكر السياق كفر هذا

الإنسان: فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرء عليهم القرآن لا يسجدون؟! أ و لم يخلقوا كما خلقت السموات و الأرض. أ هم أعظم خلقا أم ذاتك؟! و كما فى السور القصار تفتح آيات السوره منافذ القلب على الحقيقه.. و لكن قلب من؟ انما قلب الذين استجابوا لربهم، فأمنوا به و عملوا الصالحات، فتبشرهم بأجر متصل غير منقطع.

ص: ٤٣٧

[سوره الانشقاق (۸۴): الآيات ۱ الى ۲۵]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (۱) وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُحَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ (۴) وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُحَّتْ (۵) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (۷) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (۸) وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (۹) وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (۱۱) وَ يَصْطَلِي سَعِيرًا (۱۲) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (۱۴) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (۱۵) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَنْزِيلٍ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ (۱۹) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (۲۲) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۲۴) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

اللغة

١٤[يُحور]كلمته فلم يحر جواباً:أى ما رد جواباً،و حار الماء فى الغدير تردد فيه،و حار فى أمره تحيّر.

و معنى آخر ذكره أرباب اللغة:و هو التردد،و منه المحور للعود الذى تجرى عليه البكرة لتردده،و محاره الأذن لظاهره المنقعر تشبيهاً بمحاره الماء لتردد الهواء بالصوت فيه كتردد الماء فى المحاره،و القوم فى حوار:فى تردد الى نقصانه،و المحاوره و الحوار:المرادّه فى الكلام و أصل الكلمه الرجوع.

ص:٤٤٠

بينات من الآيات:

[١] هل تستطيع ان تتصور السماء كيف تنشق، و النجوم كيف تنتشر، و هذه السلاسل الجبلية التي تزن ملايين الأطنان من الصخور العملاقه كيف تندك اندكا كما؟ أ رأيت البحر حين يهيج فإذا بأمواجه كالجبال تتطلام فوق سطحه. هل لك أن تتصور لو أن بحار الأرض كلها سجرت. إنها أعظم من ألوف الملايين من القنابل الهيدروجينية حين تنفجر معا.. اننى اعترف بعجز قدره الخيال عندي من أن تتصور كل هذه الأحوال.. فكيف بنا و نحن لا بد ان نشاهدها عن كذب؟ عظيم إذا شأن هذا الإنسان الذى يستضاف لمثل هذا البرنامج بل المهرجان الكونى، لا- ان الإنسان ليس يومئذ ضيف شرف، بل متهم يساق الى المحاكمه، و يوقف للسؤال. حقا إنه ذا شأن عظيم، و ان مسئوليته التي يتحملها اليوم جدّ عظيمه. تعالى- يا اخى -

نرتفع لحظات الى مستوى تصور الساعه كما يصفها ربنا. و انى لعلى يقين ان مجرد تصورها يجعلنا ننظر إلى الأمور بطريقه مختلفه، و نعرف آئشذ أننا لا- زلنا فى ضلال بعيد لا- زلنا لا نعرف قيمه أنفسنا. من نحن، ما هى حكمه وجودنا، و الى أى مصير نساق؟ لمحكمه الرب جو رهيب. انها ليست فى قاعه مفروشه بالسجاد. انها فى الفضاء الرحب.. و أجرامها تصدع قلوب الجلاميد. السماء يومئذ تنشق. و لعل النيازك السماويه تتساقط من خلال شقوقها فوق الأرض، و لا نعرف ما ذا تحدث من دمار و صعقات، أمّا الأرض فان جبالها تندك، و بحارها تتسجر، و تمتد الى ما شاء الله حتى تصبح كاديم مبسوط.

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ و إذا كانت قاعه المحكمه فى الدنيا محاطه بجنود محافظين، فان جنود السموات و الأرض تقف يومئذ مستعده لتنفيذ أوامر الرب فوراً.

[٢] وَ أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَ حَقَّتْ و هل تستطيع أن تتمرد السموات عن أمر ربها؟ كلا.. بل حق لها أن تأذن لربها، أى تقف انتظاراً لأوامره الصارمه.

[٣] وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ فلا جبال و لا آكام و لا روابى و لا بناء و لا أشجار.. انها فى ذلك اليوم قاع صفصف.

[٤] وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ

فلا معادن ولا مقابر كلها اليوم فوق الأرض..فلا يستطيع أحد ان يبحث داخل الأرض عن مخبأ أو خندق.

[٥] وَ أَذِنْتُ لِربِّهَا وَ حَقَّتْ وَ كَيْفَ لَا تَنْتَظِرُ أَوْامِرَ الرَّبِّ وَ هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَدْبُورَةٌ. أَ فَلَا يَحِقُّ لَهَا الْخُضُوعُ؟! بلى.

[٦] يومئذ و فى هذه الأ-جواء المرعبه يلقي الإنسان ربه ليسأله عما فعله،و ليعطيه جزاءه الأوفى،و لكن بينه و بين ذلك اليوم الرهيب عقبات و صعوبات تكون بمثابة إرهابات و أشرار لما قد يلقاه الإنسان يومئذ.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا الْوَلَادَةَ سَاعَهُ كَدْحَ لَكَ وَ لِأَمِّكَ. تحديك للأمراض منذ نعومه أظفارك و الأخطار.و تعرضك لأ-عراض الجوع و العطش،و الحر و البرد،و الألم و الشدائد، و تواصل الإحباط و الحرمان عليك منذ أن ميّزت يمينك عن شمالك،ثم حينما نموت و ترعرعت واجهت ألوان الضغوط الجسديه و النفسيه،و دخلت معترك الحياه التى كلها صراع و صعوبات.ان كل هذه ألوان من الكدح فى حياه الإنسان.و لكن يا ليت كانت هى النهايه؟ كلا..بعد كل ذلك يأتى يوم اللقاء مع من؟مع رب العزه، و لم؟للسؤال،و فى أى يوم؟فى يوم الطامه.

ان كل ذلك يجعلنا ننظر الى أنفسنا باحترام بالغ.انها ليست كالشجره التى تنبت فى مزرعتنا ثم تمضى لشأنها بعد عمر محدود دون عناء التحديات،و ليست كالأنعام أو أى حى آخر يمضى دورته الحياتيه برتابه و دون تحديات أو كدح.انها النفس التى أكرمها الله و سخر لها الشمس و القمر و ما فى الأرض جميعا،و لهدف عظيم.إن ذلك الهدف هو لقاء الرب للمحاكمه فالجزاء،و هذه الحياه بما فيها من

كدح شاهد على ذلك المصير بما فيه من جزاء.

فَمَلَأْتِيهِ وَإِذَا كَانَتْ الْحَيَاةُ سُلْسُلَةً مُتَوَاصِلَةً مِنَ الْكَدْحِ وَالنَّصَبِ فَلَمَّا ذَا السَّرُورِ وَاللَّهُوِ إِذَا؟ وَلَمَّا ذَا بَيْعِ الْإِنْسَانِ الْآخِرِهِ بِالْدُنْيَا مَا دَمْنَا جَمِيعًا كَادِحُونَ. أَهْلُ الصَّلَاحِ وَالْمُفْسِدُونَ كُلُّهُمْ فِي طَرِيقِهِ؟ وَلَعَلَّ الْمَفْسِدَ يُتَعَرَّضُ لِكَدْحٍ أَكْبَرَ، لِأَنَّهُ يَفْقَدُ أَمَلَ الْمُسْتَقْبَلِ وَتَوَكَّلَ الْمُؤْمِنُ عَلَى رَبِّهِ،

و يبدو أن الإمام زين العابدين يشير الى ذلك حين يقول فيما روى عنه:

«الراحة لم تخلق في الدنيا ولا لأهل الدنيا، إنما خلقت الراحة في الجنة ولأهل الجنة، والتعب والنصب خلقا في الدنيا ولأهل الدنيا. وما أعطى أحد منها جفنه الا اعطى من الحرص مثليها، ومن أصاب من الدنيا أكثر كان فيها أشد فقرا، لأنه يفتقر إلى الناس في حفظ أمواله، ويفتقر إلى كل آله من آلات الدنيا، فليس في غنى الدنيا راحة. كلا ما تعب أولياء الله في الدنيا للدنيا، بل تعبوا في الدنيا للآخرة» (١).

[٧] و شتان بين لقاء المؤمن ربه و غيره. إن المؤمن يلقي ربه ليستلم جائزته بيمينه.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ [٨] يَأْخُذُهُ بِفَرْحٍ بَالِغٍ. لَقَدْ انْتَهَى الْكَدْحُ وَالْيَأْبُدُ. أَنَهَا وِلَادَةٌ جَدِيدَةٌ، وَ مُسْتَقْبَلٌ زَاهِرٌ.

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا

ص: ٤٤٤

١- (١) تفسير نمونه ج ٢٦ ص ٣٠٤ نقلا عن خصال الصدوق.

فالحساب لا- بد منه لكل إنسان إلا- عدد محدود من الصديقين و الصابرين، بيد أن حساب أصحاب اليمين يسير، فاذا مروا بحسناتهم قبلت. و إذا وجدوا بينها هفوات غفرت، و لكن الحساب العسير يعنى عدم قبول حسناتهم، و عدم التجاوز عن سيئاتهم.

و فى الخبر المأثور عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله: «ثلاث من كُنَّ فيه حاسبه الله حسابا يسيرا، و أدخله الجنة برحمته» قالوا: و ما هى يا رسول الله؟ قال: «تعطى من حرمك، و تصل من قطعك، و تعفو عن ظلمك» (١).

و لعل السبب فى ذلك سلامه خطهم العام مما يشفع لهم فى الانحرافات الجانيبه.

[٩] و يجتمع المؤمنون تحت ظلّ عرش الله، ينظرون إلى ساحه المحكمه، و ينتظرون رفاقهم الذين ينتهون من الحساب و يلتحقون بجمعهم المبارك، فاذا أخذ المؤمن كتابه أسرع إليهم مسرورا.

وَ يَنْقَلِبُ إِلَيْهِ أَهْلُهُ مَشْرُورًا أن هذا السرور يلزم المؤمن منذ خروجه من قبره بسبب صفاته الحميده، و لعل أبرزها رضاه عن ربه،

فقد جاء فى الحديث عن الصادق عليه السلام: «و من رضى باليسير من المعاش، رضى الله منه باليسير من العمل» (٢).

و جاء فى حديث مأثور عن الامام الصادق عليه السلام: «إذا بعث الله عز و جل المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدمه أمامه، كلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفرغ و لا تحزن، و أبشر بالسرور و الكرامه من الله جل و عز، حتى يقف بين يدي الله جل و عز فيحاسبه حسابا يسيرا، و يأمر به الى

ص: ٤٤٥

١- ١) موسوعه بحار الأنوار ج ٦٩ ص ٤٠٦.

٢- ٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٦١.

الجنة و المبال أمامه، فيقول له المؤمن: رحمك الله. نعم الخارج خرجت معي من قبرى و ما زلت تبشرنى بالسرور و الكرامه من ربي حتى رأيت ذلك، من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذى كنت أدخلته على أخيك المؤمن فى الدنيا، خلقنى الله جل و عز منه لأبشرك « (١).

[١٠] أما الكافر و المنافق و الفاسق فانه يستلم كتابه من وراء ظهره اما بعد أن تخلع يسراه و توضع الى ظهره، و إما لأن يديه مغلولتان وراء عنقه. فيوضع الكتاب فى يسراه من خلف، و عموماً فانه يصبح معروفاً عند الناس بسوء العاقبه.

وَ أَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وَ تَتَلَحَّقُ لَعْنَاتُ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَ يَشْدُدُ عَلَيْهِ فِى الْحِسَابِ، وَ لَا تَقْبَلُ حَسَنَاتِهِ، وَ لَا تَغْفِرُ سَيِّئَاتِهِ، وَ أَحْمَرُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ تَسْقُطُ عَنْهُ الْأَسْتَارُ الَّتِى تَزْمَلُ بِهَا فِى الدُّنْيَا حَتَّى لَا يَعْرِفَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَ يَعلَنُ لِلنَّاسِ أَسْرَارَهُ وَ خَبَايَا نَفْسِهِ الْخَبِيثَةَ [١١] أَلَيْسَ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ نَسْعَى جَمِيعاً لِإِصْلَاحِ أَنْفُسِنَا الْيَوْمَ وَ لَا نَسْتَمِرَّ فِى خِدَاعِ الذَّاتِ حَتَّى لَا نَبْتَلِيَ بِتِلْكَ الْفُضِيحَةِ الْكَبِيرِ؟! مَا ذَا يَكُونُ مَوْقِفَ هَذَا الْبَيْسِ؟! اِنَّهْ يَصِيحُ: وَ انْفَسَاهُ وَ ثُبُورَاهُ!! وَ لَكِنْ هِيَ هَاتِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، وَ لَا تَحِينَ مَنْدَمًا.

فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً وَ الثُّبُورَ هُوَ الْهَلَاكُ، وَ دَعَاؤُهُ بِهِ اعْتِرَافُهُ بِالْجَرِيمَةِ وَ اسْتِسْلَامُهُ لِلْهَلَاكِ، وَ لَوْ عَرَفَ

ص: ٤٤٤

الإنسان هذه العاقبه و هو فى الدنيا و اتقاها بصالح الأعمال لما ابتلى بهذا المصير الأسود.

[١٢] و لا تنفعه دعوته للهلاك و اعترافه بالشبور لأنه سوف يدخل النار و يصلى حرارتها.

وَ يَصَلِّ سَعِيرًا نارا مستعره متقدده ذات أوار و لهب.

[١٣] لما ذا هذا المصير؟ لأنه كان فى الدنيا مسرورا، لاهيا عما يراد به، مستهزء بالدعاء إلى الله.

إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْتَبْرُورًا و السرور هو إحساس الإنسان بأنه قد بلغ أهدافه. و الدنيا غايه علم الكفار، و لذلك تراهم يفرحون بما أوتوا فيها، و تعلق آفاق طموحهم دون الحياه الآخره، فلا يقدمون لها شيئا.

[١٤] كيف يتجاوز المؤمنون ظاهر الدنيا الى غيب الآخره؟ انما بايمانهم بالنشور، بينما غيرهم يظن انه لا يعود.

إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَنْ يَحُورَ اى يعود الى الآخره للحساب. قالوا: الحور: الرجوع، و قيل: كلمه فلم يحر جوابا: أى ما أرجع قولاً، و لا رد كلاماً،

جاء فى الدعاء: «نعوذ بالله من الحور بعد الكور» أى من العوده إلى النقصان بعد الزيادة، و سميت البكره ب«المحور» لأنها

تدور حتى ترجع الى محلها.

[١٥] و كان ظنه باطلا.فانه ليس يحور فقط،و انما أيضا يحاسب بهذه من لدن ربّ بصير بشأنه،محيط علما بظاهر فعله و غيب نيته.

بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا و لأن الإنسان يبرر جرائمه و ضلاله عادة؛فإن السبيل الوحيد لإصلاحه هو تحسسه برقابه الله عليه،و أنه بصير بخبايا قلبه أنى برّ أو نفاق.

[١٦]هل راقبت يوما الغروب:كيف تسقط الشمس في الأفق،و ينسبط عليه الشفق،و يلملم الظلام شمل الطيور في أوكارها،و الوحوش و الهوام في بيوتها و جحورها،و الناس في مساكنهم،و إذا بالقمر يطلع علينا بنور هادئ.انه مثل للأطوار التي يتحول عبرها الإنسان منذ أن كان نطفه في صلب أبيه،و إلى أن يضمّه التراب في رحمه.انه في رحله متواصله،يركب فيها طبقا بعد طبق،أ فلا- تؤمن باننا لسنا مالكي أنفسنا،و أن من يملك أمرنا أنشأنا لحكمه،فأين تلك الحكمه لو لم تكن في القرآن؟!أ فلا نسجد لربنا حين نتلوا آياته؟!حقا..إنها حكمه الخلق التي أشارت إليها الآية الكريمة « **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** » (١).

فَلا- أُقسِمُ بِالشَّفَقِ لَغروب الشمس هيبه في النفوس،و جلال عظيم،و ان منظر الشمس حين تغرب يثير فينا أكثر من احساس؛انه يرسم على الأفق لوحه متحركه،بارعه الجمال،ذات ألوان تبهر الأبواب،و لكنه لا يلبث أن يثير فينا الحزن على ينبوع النور الذي بلعه المغيب و لو بصوره موقتة،مما يجعلنا نتساءل:أ لسنا نحن أيضا ننتظر الغروب عند ما

ص:٤٤٨

يحين أجلنا.و متى يأتي الأجل؟ لا ندرى.

و أخيرا يصل الإنسان الى قناعه:لا بد من الرضا بالواقع.تعالوا نرجع الى بيوتنا.

و قال المفسرون عن الشفق:انه امتزاج ضوء النهار بظلام الليل،وقيل:إن أصل الشفق الرقه،و انما سمي المغيب بالشفق لأنه ينتشر فى الأفق ضياء رقيقا.

و قالوا عن اللام فى «فلا اقسام»:انها زائده للتأكيد،وقيل:بل معناها تعظيم الشفق ان يقسم به،أو تعظيم الحقيقه حتى لا تحتاج الى قسم،وقد سبق منا:ان اللام هنا تفيد تأكيد القسم.

[١٧]و بعد أن يللم الشفق بقايا خيوط الضياء،يسوق ظلام الليل الناس ليهجعوا،و الأشياء لتتكلمش،ذلك أن الضوء يبسط الطبيعه،بينما الظلام يجمعها..

أ رأيت أسراب الطيور عند الشفق كيف تعود الى أو كارها،و قطعان الأنعام تروح الى مرابضها،و الناس أيضا يعودون الى دورهم و مساكنهم؛إنه منظر رائع حقا.

وَ اللَّيْلِ وَ مَا وَسَقَّ قَالُوا:الوسق:الجمع،و طعام موسوق أى مجموع.

[١٨]و يطلع القمر،و يندفع الى كبد السماء،و يتجلّى بنوره الفضّى كسفينه من فضّه تسير فى بحر من الظلام،و يبعث من أفق السماء بنوره الهادئ فوق الآجام و الروابى بما لا يزاحم نوم النائمين،و فى ذات الوقت يكون سراجا للسايرين ليلا و أنيسا للشعراء و الوالهيين،و آيه مبصره لمن يحيى الليل من المتهجدين.

وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ

ص:٤٤٩

قالوا: اتسق: مشتق من الوسق، بمعنى تجميع أطراف الشيء مما يوحى بكماله، وقالوا: انه كناية عن القمر عند ما يكتمل بدرا، و يبدو لى أنه أعم منه و المراد من أتساقه ارتفاعه فى كبد السماء، بعيدا عن كدر الأفق و الله العالم.

[١٩] ان الإنسان ينتقل من حال الى حال.. تلك هى الحقيقه التى لا بد أن يعيها الإنسان بعمق، و إلا فإنه يخشى عليه أن يضل سبيله.

لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ما هو المراد من الطبق؟ قالوا: الطبق فى اللغة بمعنى الحال، ثم ساقوا أمثله لذلك، فذكروا ان الدواهى تسمى أم طبق، و بنات طبق، و استشهدوا بقول الشاعر:

الصبر أحمد و الدنيا مفعّجه من ذا الذى لم يذق من عيشه رنقا

إذا صفا لك من مسرورها طبق أهدى لك الدهر من مكروها طبقا

و يقول شاعر آخر:

انى امرؤ قد جلبت الدهر أشطره و ساقنى طبق منه الى طبق

و لعل أصل معنى الطبق التطابق، و انما سميت التحولات الأساسيه و المنعطفات الحساسه من الزمن بالطبق، لأنهم تصوروا الزمن طبقات كما الأرض طبقات أو العماره طوابق، فسموا كل مرحله طبقا، كما سموا كل طبقه من الأرض أو طابق من البيت، و لذلك قالوا: أتانى طبق من الناس أو طبق من الجراد، أى جماعه كأنهم قسم من الناس، و طبقه منهم، و مشهور فى أدبنا اليوم مصطلح الطبقات الاجتماعيه، و يسمى القرن من الزمان أيضا طبقا، كما قال العباس فى مدح النبى صلى الله عليه و آله.

تنقل من صلب الى رحم إذا مضى عالم بدا طبق

و يقال لضريح الليل و طرف النهار طبق، فيقولون مضى طبق من الليل أو طبق من النهار.

و إذا فان ظاهر الآيه يدل على ان الإنسان يتدرج فى طبقات الزمان، و مراحلها، و تحولاته طبقاً بعد طبق.

بلى. انه لا- يملك التحولات الكبيره التى تجرى عليه. بالرغم من وجود هامش بسيط من الاختيار عنده، فهو يولد فى عصر لا يختاره، و فى مصر لم ينتخبه، و من والدين قدرا له دون دخل له فيهما، و عشرات التقديرات الحتميه تصوغ حياته دون ان يكون له فيها صنع، ثم يتحول من نطفه الى علقه الى مضغه الى خلق سوى، يولد ليجتاز سبعة و ثلاثين مرحله منذ الرضاعه حتى يكون هرما فيموت، حسب الأسماء التى وضعتها العرب لمراحل حياه البشر.

و خلال هذه الفتره يتقلب عبر المرض و العافيه، و الفقر و الغنى، و الخوف و الأمان، و الجوع و الشبع، و ترمى به حوادث الزمان من حزن الى سرور، و من قلق الى سلام، و من شدة الى رخاء و هكذا.. و قد تحملها الدواهي من أرض لأرض، و من قوم إلى قوم، و من دين إلى دين.

ان كل هذه التحولات جزء من الكدح الذى كتب على الإنسان فى هذه الدنيا، و لكنها لا تنتهى بالموت فما بعد الموت أعظم و أدهى.

و هكذا نقرأ فى روايه مأثوره عن النبى -صلى الله عليه و آله- طائفه من هذه المراحل التى يمر بها الإنسان.

فقد روى عن جابر انه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه و آله- يقول:

إن ابن آدم لفي غفله عما خلقه الله-عز وجل- إن الله لا- إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك: اكتب رزقه و أثره، و أجله، و اكتب شقيًا أو سعيدا، ثم يرتفع ذلك الملك، و يبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته و سيئاته، فإذا جاءه الموت ارتفع ذاك الملكان، ثم جاءه ملك الموت- عليه السلام- فيقبض روحه، فإذا أدخل حضرته ردّ الروح في جسده، ثم يرتفع ملك الموت، ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعه انحط عليه ملك الحسنات و ملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه، ثم حضرا معه: و أحد سائق و الآخر شهيد، ثم قال الله-عز وجل-: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» قال رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ» قال: «حالا بعد حال» ثم قال: قال رسول الله- صَلَّى الله عليه و آله و سلم: «إِنَّ قَدَامَكُمْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ» (١).

و إذا تأملنا سياق سورة الانشقاق و تدبرنا آيه الكدح فيها، و لا حظنا هذه الروايه أيضا تبين لنا أن الجملة الأخيره في هذه الروايه هي العبره التي ينبغى أن نعيها من السوره، ذلك أن عدوّ الإنسان هو حاله اللهو و اللعب التي تنزع إليها نفسه، فتسول له العبيثه و الغفله أو الهروب من مواجهه الحقائق؛ و انما ينساق البشر الى هذه الحالات بسبب غفلته عن نفسه و عما يراد بها، و عن الأخطاء التي تنتظره. أ فلا يفكر هذا المسكين أن الظلام يلف الضياء، و يتسق القمر في السماء بدل قرص الشمس، و أن التحول سنه يخضع لها كل شىء، فهل يبقى بعيدا عنها؟! و إذا لم نعتبر بالطبيعه حولنا أ فلا نعتبر بتاريخنا الحافل بالتطورات، فهذه الأمم كيف دار بها الزمن دورته و لعبت بها رياح التغيير طبقا عن طبق، و حالا من بعد

ص: ٤٥٢

حال..اننا أيضا سائرون فى ذات الدررب،و على هذا جاء فى تأويل هذه الآيه

حديث مأثور عن رسول الله-صلى الله عليه و آله و سلم-انه قال: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر،و ذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلموه» قالوا:يا رسول الله!اليهود و النصارى؟!قال:فمن؟ (١).

و فى حديث عن أبى جعفر-عليهما السلام-رواه أبى الجارود، فى قوله:«و لا يزال الذين كفروا تصيبهم قارعه»قال:هى النقمه «أو تَحِيلُ قَرِيْباً مِنْ دَارِهِمْ» فتحلّ بقوم غيرهم،فيرون ذلك،و يسمعون به،و الذين حلّت بهم عصاه كفار مثلهم،و لا يتعظ بعضهم ببعض،و لن يزالوا كذلك حتى يأتى وعد الله الذى وعد المؤمنين من النصر،و يخزى الكافرين (٢).

و هكذا ينبغى للإنسان ان يعى آيات الطبيعه و عبر التاريخ،ثم ينظر الى نفسه عبرهما حتى يعرف قدرها،و لا يضيع فرصتها بالغفله و اللهو و الانشغال بالتوافه.

[٢٠]

دخل ابن أبى العوجاء على الصادق عليه السلام فلم يتكلم مهابه منه،فقال له الصادق-عليه السلام-:«يا ابن أبى العوجاء!أمصنوع أنت أم غير مصنوع؟» قال:لست بمصنوع،فقال له الصادق-عليه السلام-:«فلو كنت مصنوعا كيف كنت تكون؟»فلم يحر جوابا،و قام و خرج.

فعاد إليه فى اليوم الثانى فجلس و هو ساكت لا ينطق،فقال-عليه السلام-:

«كأنك جئت تعيد بعض ما كنّا فيه؟»فقال:أردت ذلك يا ابن رسول الله،فقال ابو عبد الله الصادق-عليه السلام-:«ما أعجب هذا!تنكر الله،و تشهد أنى ابن

ص:٤٥٣

١-١) المصدر ص ٢٧٩ و ذكر فى مجمع البيان حديث قريب منه ثم قال:و روى ذلك الصادق-عليه السلام-راجع مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٦٢.

٢-٢) موسوعه بحار الأنوار ج ٦ ص ٥٥.

رسول الله«فقال:العاده تحملنى على ذلك،فقال له العالم-عليه السلام- (و العالم هو الامام الكاظم-عليه السلام-و الى آخر الروايه يسميه بالعالم.الظاهر أنه الامام الصادق عليه السلام نفسه):«فما يمنعك من الكلام؟»قال:إجلالا لك، و مهابه،ما ينطق لسانى بين يديك،فإنى شاهدت العلماء،و ناظرت المتكلمين،فما تداخلى هيبه قَطُّ مثل ما تداخلى من هيبتك،قال عليه السلام «يكون ذلك،و لكن افتح عليك بسؤال»و أقبل عليه،فقال له:«أ مصنوع أنت أو غير مصنوع»فقال عبد الكريم أبى العوجاء:بل أنا غير مصنوع،فقال له العالم-عليه السلام-:«فصف لى لو كنت مصنوعا كيف كنت تكون»فبقى عبد الكريم مليا لا يحير جوابا،و ولع بخشبه كانت بين يديه و هو يقول:طويل،عريض،عميق،قصير،متحرك، ساكن، كل ذلك صفه خلقه،فقال له العالم-عليه السلام-:«فإن كنت لم تعلم صفه الصنعه غيرها فاجعل نفسك مصنوعا لما تجد فى نفسك مما يحدث من هذه الأمور»فقال له عبد الكريم:سألتنى عن مسأله لم يسألنى عنها أحد قبلك،و لا- يسألنى أحد بعدك عن مثلها،...الى أن اعترف أخيرا بأن له صانعا...و الحديث طويل أخذنا الشاهد منه.

و قد صاغ المتكلمون الحججه التاليه من هذه الحقيقه فقالوا:العالم متغير،و كل متغير حادث،فالعالم حادث.حقا ان تطورات الخليقه من حولنا،و تطورات حياتنا،و تقلبنا حالا- بعد حال(طبقا عن طبق)أفضل سبيل لمعرفة الرب و حكمه خلقه لنا،و لكن ليس كل الناس يسلكون هذا السبيل لأن بعضهم تراه يكذب، و يبنى حياته على أساس التكذيب، فلا تنفعه الحجج و لا المواعظ و العبر.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

و تأتي هذه الآيه فى سياق بيان تلك الحقائق المفزعه لعلها تنفض من فؤاد الإنسان رواسب الغفله و التهاون.

[٢١] حين يتصل قلب الإنسان بشلال النور لا تملك جوارحه إلا الاستجابة لمؤثرات الوحي، فأى قلب واع لا يخضع لهذا الوحي الذى كاد يصدع الجبال الراسيات، أم أیه جبهه لا تخر ساجده على التراب أمام هذه الصعقات المتتاليه التى تنبعث من ضمير القرآن.

وَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ قالوا: السجود هنا بمعنى التسليم و الخضوع للقرآن، و قال بعضهم: انه السجود المعهود الذى ينبأ عن التسليم النفسى، و قد اعتبر أئمه أهل البيت -عليهم السلام- السجود عند قراءه هذه مندوبا.

[٢٢] انى كانت الحجج الإلهيه بالغه فإن الجاحد يظل يعاند و يكذب، لأنه قد قرّر سلفا عدم التصديق بها، لذلك فإن موقفه لا يعكس ضعفا فى الحججه بل انحرافا فى نفسه.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ [٢٣] و تكذيبهم الظاهر لا يعكس واقعهم و مدى تأثرهم بالحججه، إذ أنهم بالتالى بشر، و تنفذ البراهين الواضحه فى أعماقهم، و لكنهم يخدعون أنفسهم و يكذبون بها طلبا لحطام الدنيا، و بحثا عن لذاتها، و الله سبحانه عليم بأنفسهم، و يحاسبهم على ما فيها، و ليس على مجرد ما يدعون من أنهم لم يقتنعوا بالحججه.

وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ

و الوعى بمعنى الحفظ، و يسمى الإناء:وعاء،لأنه يحفظ الطعام،و قال المفسرون فى معنى الآية:الله أعلم بما يضمرون.

[٢٤]و على أساس ما يظهرون يحاسبهم الله،لأن الكافر يشهد قلبه على كذبه قبل أى شخص آخر.

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ صدقوا بالحساب أم كذبوا.

[٢٥]و انما يستثنى من هذا التعميم الذين آمنوا و عملوا الصالحات،فإنهم وحدهم الذين يعطيهم الله أجرا،دائما غير منقطع.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قالوا فى معنى الاستثناء أنه منقطع إذ أن الكفار غير المؤمنين،فلا معنى لاستثنائهم منهم،و قال بعضهم:أن معنى «إلا»هنا العطف،و لعل الأفضل أن يقال:بل الاستثناء متصل،و لكن المستثنى منه محذوف بدليل ذات الاستثناء،أى أن الإنسان أنى كان مبشر بعذاب أليم إلا المؤمنون.

لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ صحيح أن الأجر بقدر المشقه،و لكن أجر الآخرة دائم،فلو أتيت على آيه ذكر فيها بيت الجنة فإن هذا البيت ليس كبيوت الدنيا،يتهدم بعد حين،بل هو بيت دائم لا يزول،و كذلك سائر أجر الآخرة.رزقنا الله ذلك بفضله.

قالوا:معنى كلمه «ممنون»أنه بمعنى القطع،و قد سأل نافع بن الأزرق ابن

عباس عن قوله: «لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» فقال: غير مقطوع. فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم. قد عرفه أخو يشكر حين يقول:

فترى خلفهن من سرعه الرجز مع منينا كأنه أهبا.

وقال المبرد: المنين: الغبار، لأنها تقطعه وراءها (١).

ص: ٤٥٧

١-١) القرطبي ج ١٩ ص ٢٨٢.

سوره البروج

اشاره

ص: ۴۵۹

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل السوره

فى كتاب ثواب الأعمال بإسناده عن أبى عبد الله-عليه السلام-قال:

من قرأ «و السماء ذات البروج» فى فرائضه فإنّها سوره النبىين كان محشره و موقفه مع النبىين و المرسلين و الصالحين نور الثقلين/ج

ص ٥٤٠

ص: ٤٤١

جبار سفیه تطغیه سلطه محدوده فی بلد متواضع فیتحذ قرارا خاطئا یاعدام جماعی لطائفه وعت الحقیقه فآمنت بالله،فیلقیهم فی نار فی الأخادید،و تشهد الجماهير سطوته لکی یكونوا لهم عبره..و ینتهی فی زعمه کلّ شیء. کلا..إنّ السموات و الأرض و جنودهما و سكانهما ینتظرون محاکمه هذا السفیه فی الیوم الموعود،و إنّ سنن الله فی الخلیقه التي تمتد من السماء ذات البروج فی عمق المكان إلی الیوم الموعود فی أفق الزمان و إلی الشاهد و المشهود تحیط بهذا الإنسان العاجز المسکین،فأین المفر؟! و هكذا تتواصل آیات سوره البروج التي تفتح بالیمین،و تختم بأنّ الله من ورائهم محیط،و أنّ القرآن المجید مصون فی اللوح المحفوظ،و فیما بینهما الحدیث عن أصحاب الأخدود الذین بالغوا فی الجریمه فأوقدوا النار فی حفر ثم ألقوا المؤمنین فیها و جلسوا یتفرجون علی مشهد احتراقهم.

و هكذا ابتلی المؤمنون(و ربما بصورة مکرره و فی بلاد مختلفه)بهذا البلاء

العظيم، دون أن ينال من إيمانهم مثقال ذره، بل ازداد إيمانهم صلابه و صفاء.

أمّا أعداؤهم فما ذا كانت عاقبه جرائمهم؟ هل بلغوا هدفهم؟ و ما ذا استهدفوا من هذا العمل الوحشى الموغل فى الجاهليه؟ أ و ليس كسر مقاومه المؤمنين؟ فهل أفلحوا؟ كلاً.. فقد انتشر الدين بسبب مقاومه المؤمنين، و نزل على الجبارين العذاب الأليم، كما أنزل الله على فرعون و ثمود العذاب الأليم.

و كلمه أخيره: إنّ هذه السوره الكريمه تتميز بإعداد المؤمنين لاجتياز أصعب الامتحانات و مقاومه أكبر التحديات.

ص: ٤٤٣

[سوره البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قِيلَ أَضْحَابُ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قَزَآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

اللغة

١[البروج]:القصور،و سميت بذلك لأنها ظاهره لعلوها، و جاء في مفردات الراغب:ثوب مبرج صوّرت عليه بروج فاعتبر حسنه و قيل تبرجت المرأه أى تشبّهت به في إظهار المحاسن،و على ذلك تكون بروج السماء هي الأجرام و المجزّات الضخمه الظاهره في الآفاق.

و قال البعض:هي منازل الشمس و القمر و الكواكب و هي اثنا عشر برجاً،يسير القمر في كلّ برج منها يومين و ثلاث و تسير الشمس في كلّ برج شهراً.

٤[الأخدود]:الشقّ العظيم في الأرض،و منه الخدّ لمجاري الدموع،و تحدّد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

١٠ [فتنوا]: أى أحرقوا، و الفتن حجاره سود كأنها محرقه، و أصل الفتنه الامتحان ثم يستعمل فى العذاب، و قال الراغب فى مفرداته: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته.

١٥ [المجيد]: المجد السعه فى الكرم و الجلال، و أصل المجد من قولهم: مجدت الإبل إذا حصلت فى مرعى كثير واسع و قد أمجدها الراعى، و وصف الله نفسه بذلك لسعه فيضه و كثره جوده، و لجلالته و عظم قدره.

ص: ٤٦٦

بينات من الآيات:

[١] الكائنات و الزمان و الإنسان ثلاثه شهود عظام على مسئوليهِ البشر، فأنى له الهروب، و أنى له التبرير! و أعظم الكائنات حسب علمنا السموات بما فيها من وحدات من بناء عظيم يسميها القرآن البروج.

وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ مَا هِيَ الْبُرُوجُ؟ يبدو أنها طبقات السماء المتمثلة في مجاميع المجرات، كل مجره فيها أعداد هائله من الشموس.

قالوا: أصل معنى البروج الظهور، و لأنّ البناء العالى ظاهر سمى القصر برجا، كما سمى موقع الدفاع عن المدينه بالبرج. و لعلّ انتخاب هذه الكلمه هنا كان لأنّ فى السماء حرسا اتخذوا مواقع لرصد حركات الإنس و الجن و الشياطين، ممّا

ينسجم مع السياق الذى يجرى فيه الحديث عن جزاء الطغاه على جرائمهم بحقّ المؤمنين، فإذا تحصّن الطغاه ببروجهم الأرضيه فإنّ للسماء بروجاً لا يستطيعون مقاومه جنودها.

وقال بعضهم: البروج هى منازل الشمس و القمر و الكواكب و أفلاكها التى لا تستطيع أجرام السماء على عظمتها تجاوزها قيد أنمله، ممّا يشهد على أنّها كائنات مخلوقه مدبره.

[٢] يوم القيامة رهيب ترتعد السموات و الجبال و البحار و سائر الكائنات خشيه منه و إشفاقاً، و أعظم ما فيه مواجهه الإنسان لأفعاله، بلا حجاب من تبرير، و لا قوه و لا ناصر.. و هكذا يحلف السياق به على ما يجرى الحديث عنه من مسئوليه الطغاه أمام ربّهم عن جرائمهم بحقّ المؤمنين.

وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ إِنَّهُ يَوْمٌ لَا مَنَاصَ مِنْهُ، لِأَنَّهُ وَعْدُ اللَّهِ، وَ وَعْدُ اللَّهِ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، وَ لَيْسَ الْإِنْسَانُ وَحْدَهُ بِلِ الْكَائِنَاتِ جَمِيعًا مَوْعُودَهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ، فَأَيُّ يَوْمٍ عَظِيمٍ ذَلِكَ الْيَوْمُ؟ [٣] ثمّ يقدم الإنسان للمحاكمه، فقد حضر الشهود. كلّ مكان عاش فيه يشهد عليه، و كلّ زمان مرّ به يشهد عليه، و كلّ جارحه استخدمها تشهد عليه، و كلّ إنسان عايشه يشهد عليه، و فى طليعه الشهود الأنبياء و الأوصياء و الدعاه إلى الله، يشهدون عليه أن قد بلّغوه رسالات ربه فلم يقبلها. أى مسكين هذا الطاغيه الذى تجتمع عليه الشهود من كلّ موقع و كلّ حدب؟! ثمّ تراه فى الدنيا غافلاً لاهايا سادراً فى جرائمه و كأنه لا حساب و لا عقاب.

□
وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ

ص: ٤٦٩

قال بعضهم:

الشاهد يوم الجمعة بينما المشهود يوم عرفه، و روى ذلك عن الإمام على -عليه السلام-، و قال البعض: بل كل يوم يشهد على الإنسان بما يفعل، و

روى عن الرسول -صلى الله عليه و آله- قوله: «ليس من يوم يأتي على العبد إلا -ينادى فيه: يا بن آدم أنا خلق جديد، و أنا فيما تعمل عليك شهيد، فاعمل في خيرا أشهد لك به غدا، فإنني لو قد مضيت لم ترن أبدا، و يقول الليل مثل ذلك» (١).

[٤] أ رأيت الذى خلق السماء ذات البروج فلم يدع فيها ثغره و لا فطورا، و جعل للناس اليوم الموعود ليجمعهم و يشهدهم على أنفسهم، أ رأيت سبحانه يترك الإنسان يعبث فى الدنيا و يقتل عباده المؤمنين بطريقه شنيعه ثم لا يجازيه؟ كلاً..

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ الَّذِينَ شَقُّوا فِي الْأَرْضِ أُخْدِيدَ كَالْأَنْهَرِ الْعَرِيضِ، وَ مَلَأُوهَا نِيرَانًا تَسْتَعْرِ.

قال بعضهم: تلك لعنه أبدية تلاحق الظالمين، فالقتل هنا كناية عنها.

و قال البعض: بل أن أولئك الظالمين قد قتلوا فعلا إذ خرجت شعله من نيران أخدودهم و أحرقتهم. و ربما قتلوا بعدئذ بطريقه أخرى.

المهم أنهم لم يفلتوا من عذاب الآخرة، و إن أمهلوا فى الدنيا لعدّه أيام، ذلك أن نظام الخليقه قائم على أساس العدالة، و لن يقدر الظالم الانفلات من مسؤوليه جرائمه.

[٥] كانت نيران تلك الشقوق التى صنعوا فى الأرض مشتعله تلتهم الضحايا بسرعه.

ص: ٤٧٠

الذَّارِ ذَاتِ الْوَعْدِ و كم هي فظيعة جرائم الطغاه، و كيف يتوسلون بأبشع الأساليب في سبيل بقائهم عدة أيام آخر في سدّه الحكم..أ فلا- يستحق مثل هؤلاء نيران جهنم المتّقده؟ [٦]أرهيب و مثير منظر الإنسان البريء الوداع و هو يحترق بالنار و يجأر للمساعدة دون أن يستجيب له أحد، و قد يكون شيخا كبيرا أو شابًا يافعا أو امرأه ضعيفه أو حتى طفله بعمر الورد.

ما أفسى قلوب الطغاه و أتباعهم و هم يتحلّقون حول النار ينظرون إلى المؤمنين يلقون في النار فيحترقون!حقًا: إنّ الكفر يمسخ صاحبه، و الطغيان يحوّله إلى ما هو أسوء من وحش كاسر.

إِذْ هُمْ عَلَيْهِمْ قُعُودٌ [٧]لقد دعوا الجماهير إلى حفله إعدام جماعيه، ليشهدوا عذاب المؤمنين، و ليكون عذابهم عبره لمن بعدهم لكي لا يفكر أحد بمخالفة دين السلطان.

وَ هُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ جريمه بشعه تقع في وضع النهار و بعمد و قصد و بتحدّى سفيه لملكوت الرب حيث يستشهد على وقوعها المجرم الناس..لا أظنّ أنّ جريمه تستكمل شروط الاجرام كهذه..فما ذا ينتظر المجرم غير القتل و ملاحقه اللعنه؟ من هم أصحاب الأخدود؟ و في أى بقعه كانوا؟قال مقاتل: إنّ أصحاب الأخدود ثلاثة: واحد بنجران، و الآخر بالشام، و الثالث بفارس، أمّا بالشام

أنطياخوس الرومي، و أمّا الذي بفارس فيختنصر، و الذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس (١).

و حسب هذا القول يحتمل أن تكون جريمه الحرق بالنار عبر الأخدود شائعه في الجاهليه في أكثر من بلد، و إذا لا يهمننا من كان يفعلها، إنّما العبره منها.

و جاء في بعض الأحاديث أن القصه وقعت في الحبشه حيث بعث الله إليهم نبيًا فأمنت به طائفه فأخذوه و إياهم و القوهم في النار.. (٢).

إلا أنّ النصوص استفاضت بقصه طريقه للاعتبار، و لا يهمننا ذكر الاختلاف في تفاصيلها:

روى مسلم في الصحيح عن هديه بن خالد عن حمّاد بن سلمه عن ثابت بن عبد الرحمن بن أبي ليلي عن صهيب عن رسول الله -صلى الله عليه و آله- قال:

«كان ملك فيمن كان قبلكم له ساحر، فلما مرض الساحر قال: إنّي قد حضر أجلى فادفع إليّ غلاما أعلمه السحر، فدفعت إليه غلاما و كان يختلف إليه، و بين الساحر و الملك راهب، فمرّ الغلام بالراهب فأعجبه كلامه و أمره، فكان يطيل عنده القعود، فإذا أبطأ عن الساحر ضربه، و إذا أبطأ عن أهله ضربوه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: يا بني إذا استبطأك الساحر فقل: حبسني أهلي، و إذا استبطأك أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو ذات يوم إذا بالناس قد غشيهم دابّه عظيمه، فقال: اليوم أعلم أمر الساحر أفضل أم أمر الراهب، فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك فاقتل هذه الدابه، فرمى فقلتها و مضى الناس، فأخبر بذلك الراهب فقال: يا بني إنك ستبلى فإذا ابتليت

ص: ٤٧٢

١- (١) القرطبي ج ١٩ ص ٢٩١.

٢- (٢) تفسير الميزان ج ٢٠ ص ٢٥٦ نقلا عن الإمام علي عليه السلام.

فلا تدل عليّ، قال: و جعل يداوى الناس فيبرئ الأكمه و الأبرص، فينما هو كذلك إذ عمى جليس للملك فأتاه و حمل إليه مالا كثيرا، فقال: اشفنى و لك ما هاهنا، فقال: أنا لا أشفى أحدا و لكنّ الله يشفى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك، قال: فأمن فدعا الله فشفاه، فذهب فجلس إلى الملك فقال: يا فلان من شفاك؟ فقال: ربي، قال: أنا؟ قال: لا، ربي و ربك الله، قال: أو إنّ لك ربّا غيرى؟ قال: نعم. ربي و ربك الله، فأخذه فلم يزل به حتى دلّه على الغلام، فبعث إلى الغلام فقال: لقد بلغ من أمرك أن تشفى الأكمه و الأبرص، قال: ما أشفى أحدا و لكنّ الله يشفى، قال: أ و إنّ لك ربّا غيرى؟ قال: نعم.

ربي و ربك الله، فأخذه فلم يزل به حتى دلّه على الراهب، فوضع المنشار عليه فنشر حتى وقع شقّتين، فقال للغلام: إرجع عن دينك فأبى، فأرسل معه نفرا قال: اصعدوا به جبل كذا و كذا فإن رجع عن دينه و إلّا فدهدوه منه، قال: فعلوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فتدهدوها أجمعون، و جاء إلى الملك فقال: ما صنع أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فأرسل به مره أخرى قال: انطلقوا به فلججوه فى البحر، فإن رجع و إلّا- فأغرقوه، فانطلقوا به فى قرقور (1) فلتمّا توسّطوا به البحر قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينه، و جاء حتى قام بين يدى الملك فقال: ما صنع أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، ثم قال: إنّك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به اجمع الناس ثم اصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضعه على كبد القوس، ثم قل: باسم ربّ الغلام فإنّك ستقتلنى، قال: فجمع الناس و صلبه ثم أخذ سهما من كنانته فوضعه على كبد القوس و قال: باسم ربّ الغلام و رمى فوقه السهم فى صدغه (2) و مات، فقال الناس: آمنا برّب الغلام، فقبل له:

أ رأيت ما كنت تخاف قد نزل و الله بك من الناس، فأمر بأخدود فخدّدت على

ص: ٤٧٣

١-١) القرقور-بالضم-السفينه الطويله.

٢-٢) الصدغ-بضم الصاد-ما بين العين و الاذن.

أفواه السكك ثم أضرّمها ناراً فقال: من رجع عن دينه فدعوه، و من أبى فأقحموه فيها، فجعلوا يقتحمونها، وجاءت امرأت با بن لها فقال لها: يا أمه اصبري فإنك على الحق « (١).

و روى سعيد بن جبیر قال: لمّا انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطاب:

ما هم يهود و لا نصارى، و لا لهم كتاب، و كانوا مجوساً، فقال عليّ بن أبي طالب:

«بلى. قد كان لهم كتاب رفع، و ذلك أنّ ملكاً لهم سكر فوقع على ابنته -أو قال: على أخته- فلمّا أفاق قال لها: كيف المخرج ممّا وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك و تخبرهم أنّك ترى نكاح البنات و تأمرهم أن يحلّوه، فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه فخذّ لهم أخدوداً فى الأرض و أوقد فيه النيران و عرضهم عليها فمن أبى قبول ذلك قذفه فى النار و من أجاب خلّى سبيله « (٢).

و روى عن الإمام الباقر -عليه السلام- قال: «أرسل على -عليه السلام- إلى أسقف نجران يسأله عن أصحاب الأخدود فأخبره بشيء، فقال -عليه السلام-: ليس كما ذكرت و لكن سأخبرك عنهم: إنّ الله بعث رجلاً حبشياً نبياً و هم حبشيه، فكذبوه فقاتلهم أصحابه، و أسروه و أسروا أصحابه، ثم بنوا له جسراً، ثم ملأوه ناراً، ثم جمعوا الناس فقالوا: من كان على ديننا و أمرنا فليعتزل، و من كان على دين هؤلاء فليرم نفسه بالنار، فجعل أصحابه يتهافتون فى النار، فجاءت امرأه معها صبية لها ابن شهر فلمّا هجمت هابت و رقت على ابنها، فنادى الصبى: لا تهابى و ارمىنى و نفسك فى النار، فإنّ هذا و الله فى الله قليل، فرمت بنفسها فى النار و صببها، و كان ممّن تكلم فى المهد « (٣).

و جاء فى حديث مأثور عن الإمام الصادق -عليه السلام- قال: «قد كان

ص: ٤٧٤

١-١) نور الثقلين ج ٥ ص ٥٤٦.

٢-٢) المصدر/ص ٥٤٧.

٣-٣) المصدر.

قبلكم قوم يقتلون، و يحرقون، و ينشرون بالمناشير، و تضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير تره و تروا من فعل ذلك بهم و لا أذى، بل ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فاسألوا ربكم درجاتهم و اصبروا على نوائب دهركم تدركووا سعيهم « (١).

و هكذا يفعل الإيمان بالقلب الإنساني فيجعله أقوى من زبر الحديد، أثبت من الراسيات، أسمى من القمم السامقة، أشد صلابه من كل ما يبتدعه الطغاه من وسائل الأذى و التعذيب و القتل!! و قد نساءل: ما الذى جعل هذا الإنسان الذى لا يكاد يتحمل أذى بقه يقتحم النيران المتقدمة بجسده النض ليحترق أمام أعين الناقلين و الشامتين، دون أن يتنازل عن إيمانه؟ أقول: أولاً: إن وضوح الرؤية عندهم كان قد بلغ حدًا كانوا يعيشون (ببصائر قلوبهم) الجنة و نعيمها فيتسلون بها عن شهوات الدنيا، و يعيشون (بتقوى قلوبهم) النار و عذابها فتهون عليهم مصائب الدنيا و مشاكلها.

و إننا نقرأ قصه الأم التى ترددت قليلاً باقتحام النار مع رضيعها فقال لها ابنها:

يا أمّاه إننى أرى أمامك ناراً لا تطفأ (يعنى نار جهنم) فقدفا جميعاً أنفسهما فى النار.

ثانياً: عند ما يقتر الإنسان شيئاً سهلاً عليه القيام به، و بالذات حينما يكون الأمر فى سبيل الله يهونه الرب له، و يثبت عليه قدمه، و يرزقه الصبر على آلامه و تبعاته، و يقوى إيمانه، و يشحذ بصيرته ليرى بها أجره فى الآخرة.. و هكذا ترى عباد الله الصالحين يقاومون عبر التاريخ مختلف الضغوط، و يتحملون ألواناً من

ص: ٤٧٥

الأذى بقلب راض و نفس مطمئنه، لعلمهم أنّ سنن الله واحده لا تتغير و لا تتبدل، و أنّ المؤمنين الذين احترقوا في الأخدود هم سواء مع أى مؤمن يعتقل اليوم في سجون الطغاه أو يعدّب أو يقتل أو يتحمّل مشاكل الهجره و الجهاد و مصائبهما، و كما خلد الله أمجاد أولئك الصّيدّيقين فإنّه لا يضع أجر هؤلاء التابعين لهم، و كما أنّ الله قتل أصحاب الأخدود و نصر رسالاته فإنّه يهلك الجبارين اليوم و يستخلفهم بقوم آخرين.

[٨] عند هيجان الصراع و ثوره الدعايه ضد المؤمنين. لا يعرف الناس ما ذا يفعلون، و أىّ جريمه يرتكبون، و لكن عند ما يرجعون إلى أنفسهم بعدئذ و يتساءلون:

لما ذا قتلوا المؤمنين، و لما ذا نقموا منهم، يعرفون أنّهم كانوا في ضلال بعيد.

و ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ فلا أفسدوا في الأرض، و لا اعتدوا على أحد، و لا طالبوا بغير حق، و إنّما استعادوا حريتهم، و آمنوا بربهم الله العزيز المنيع الذي لا يقهر و الحميد الذي لا يجور و لا يبخل، و يعطى جزاء العباد، و يزيدهم من فضله.

[٩] و أيهما الحق التمرد على سلطان السموات و الأرض، و الدخول في عبوديه بشر لا يملكون دفع الضر عنهم، أم التحرر من كلّ عبوديه و قيد، و الدخول في حصن الملك المقتدر القاهر؟ الّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ و بالرغم من أنّ الله منح الطغاه فرصه الاختيار ضمن مهله محدوده إلاّ أنّه شاهد على ما يعملون، و لا يغيب عنه شيء في السموات و الأرض.

وَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١٠] و شهادة الله ليست للتاريخ فقط، وإنما للجزاء العادل، فإنه يسوق الطغاه إلى جهنم ذات النار اللاهبة و العذاب المحرق.

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ هَذِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي إِعْطَاءِ الطَّغَاهِ فَرْصَةَ الامْتِحَانِ، لَأَنَّهُمْ بِعَمَلِهِمْ هَذَا فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ اخْتَبَرُوا إِرَادَتَهُمْ، حَتَّى ظَهَرَ لِلنَّاسِ قِيَمَةُ الْإِيمَانِ وَ مَعْنَاهُ، وَ كَيْفَ أَنَّهُ فَوْقَ الْمَادِّيَّاتِ، وَ أَنَّ دَعْوَةَ الرَّسُولِ وَ اتِّبَاعَهُ لَيْسَتْ مِنْ أَجْلِ مَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ. ثُمَّ إِنَّهُمْ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ فَخَلَصَ إِيْمَانَهُمْ مِنْ رَوَاسِبِ الشَّرْكِ، وَ خَلَصَتْ نَفُوسُهُمْ مِنْ بَقَايَا الْجَهْلِ وَ الْغَفْلَةِ، وَ خَلَصَتْ صَفُوفُهُمْ مِنَ الْعُنَاصِرِ الضَّعِيفَةِ، كَمَا يَخْلُصُ الذَّهَبُ حِينَمَا يَفْتَنُ فِي النَّارِ مِنْ كُلِّ الرَوَاسِبِ.

تلك كانت حكمه الرب في إعطاء الجبارين فرصه ارتكاب تلك المجازر البشعه بحق الدعاه إلى الله. و لعل بعضهم عادوا إلى الله و تابوا من فعلتهم، و لذلك أشار ربنا بقوله:

ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ وَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ عَذَابِ جَهَنَّمَ الْأَشَدِّ الْبَاقِي، وَ بَيْنَ عَذَابِ الْأَخْدُودِ الَّذِي يَمُرُّ كَلِمَحِ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَنْتَهِي الْمَعَذَّبُونَ إِلَى رُوحٍ وَ رِيحَانٍ.

[١١] أَمَا أَوْلَئِكَ الْمَعَذَّبُونَ فَإِنَّ الْجَنَّاتِ تَنْتَظِرُهُمْ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ

سواء دخلوا التحدييات الكبيره كأصحاب الأخدود أم كانوا من التابعين لهم.

و أئى فوز أعظم لهم من انتهاء محتتهم و فنتتهم، و بلوغ كامل أهدافهم و تطلعاتهم؟! [١٢]قسما بالسما ذات البروج و باليوم الموعود و بالشاهد و المشهود: إن أخذ الله شديد حيث يأخذ الطغاه و الظالمين.

إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ قالوا: إنَّ هذه الجملة جواب للقسم فى فاتحه السوره. و لعلَّ قوله: «قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ» أيضا جواب آخر للقسم، فيكون القسم إطارا لكل الحقائق التى تذكر فى هذه السوره.

و من هذه الآيه يظهر أن الله قد أخذ أصحاب الأخدود أخذا أليما كما أخذ سائر الطغاه.

[١٣] و كيف لا يكون شديدا بطش جبار السموات و الأرض الذى يبدئ خلق الإنسان و يعيده بعد الفناء؟! إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ

[١٤] و إنما لا يأخذ أهل الأرض بما كسبوا عاجلا، و يعفو عن كثير من سيئاتهم لأنه يستر ذنوبهم و يحبهم.

وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ [١٥] و وده للمؤمنين و غفرانه لذنوب عباده إنما هو لعزته و قوته.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ

ص: ٤٧٨

و سواء قرأناه بالضم ليكون صفة للرب أو بالكسر ليكون صفة للعرش فإنه واحد إذ عرشه هيمنته و سلطانه، و هو اسم من أسمائه الحسنی، و صفة من صفاته الكریمه.

[١٦] و كيف لا- يكون سلطانا عظيما من يفعل ما يريد دون ممارسه لغوب و لا علاج؟ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ و إرادته الله صفة قدرته المطلقة. و هذه الآية تدل على أنه لا شيء يحد إرادته، فليست إرادته قديمه كما زعمت فلاسفه اليونان، و تسربت تلك الفكرة إلى اليهود فقالوا: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»! سبحان الله كيف يكون القادر أولا- عاجزا آخرا؟! و هل يوصف الرب تعالى بالأول و الآخر فيكون متغيرا؟! و انعكاس هذه الصفة علينا- نحن البشر- ألا- يدعونا استمرار نعم الله و عاداته الكریمه علينا إلى الغرور به، و التماذى فى الذنوب دون خشية عقابه.

[١٧-١٨] فهؤلاء جنود إبليس اجتمعوا لبيطشوا بالمؤمنين فأين انتهى بهم المقام؟ هَيْلٌ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ* فِرْعَوْنٌ وَ ثَمُودٌ يسوقهما القرآن سوفا واحدا بالرغم من اختلاف أكثر الظروف، ذلك لأن سنه الله واحده فيهما كما فى غيرهما.

[١٩] قد بينى البشر بنيانا متكاملا من الكذب و يحشر نفسه فيه، فتراه يبحث لإنكاره لوجود ربه أو لقدرته أو لسنته فى الجزاء عن فلسفه ذات أبعاد لعله يقنع نفسه و الآخرين بها، و يسميها-جدلا-فلسفه الإلحاد أو الفلسفه الماديه، و قد

يتجاوز كلّ الحقائق و يسمّيها زورا بالفلسفه العلميه، ثم يجعل أمام كلّ حق باطلا، و لكلّ صواب بديلا من الخطأ، ثم يحكم-في زعمه-نسخ هذه الأباطيل ببعضها و يسمّيها نظريه أو مبدأ، و إن هي إلا سلسله من الأكاذيب.

و مثل هذا الإنسان لا يسهل عليه الخروج من شرئفه الكذب التي نسجها حول نفسه، و لذلك يتحصّن ضد كلّ العبر و المواعظ حتى و لو كانت في مستوى عبره العذاب الذي استأصل شأفه فرعون و ثمود.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ لَّأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِأَعْظَمِ وَ أَوْضَحِ الْحَقَائِقِ (بالله العظيم و رسالاته) و دخلوا في نفق التّكذيب فلم يخرجوا منه للاعتبار بمصير فرعون الذي اشتهرت قصته بين أهل الكتاب أو بمصير ثمود الذين عرفت العرب أمرهم.

[٢٠] و هل ينفعهم التّكذيب شيئا؟ هل يمنعهم جزاء أعمالهم أو يخدع من يجازيهم فينصرف عنهم؟ كلاً..لما ذا؟ لأنّ الإنسان يواجه ربّه و الله محيط بهم علما و قدره.

□
وَ اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ قَالُوا: وراء الشيء الجهات المحيطه به الخارجه عنه، فيكون مفهوم الآيه أنّ الله محيط بكلّ بعد من أبعاد حياتهم.

و هذا يتقابل مع كونهم في تكذيب.

[٢١] و لكن أ ينتظرون ما يدكرهم و يخرجهم من نفق التّكذيب أعظم من هذا الكتاب العظيم؟

بَيْلٌ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ عَظِيمُ الْمَسْتَوَى، رَفِيعُ الْمَجْدِ، لَا تَنَالُهُ أَيْدِي التَّحْرِيفِ، وَلَا يَبْلُغُ مَسْتَوَاهُ التَّافَهُونَ الْحَقَرَاءُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي حَضِيضِ الشَّهَوَاتِ، وَلَا يَمَسُ جَوَاهِرَ حَقَائِقِهِ وَلَا لَأَى مَعَانِيهِ سِوَى الْمُطَهَّرِينَ مِنْ دَنَسِ الشَّرْكِ، وَمِنْ رَجَسِ الْعَقْدِ النَّفْسِيِّ، وَمِنْ ظَلَامِ الْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ.

لا بد أن ترتفع إلى قمم المجد حتى تدرك بعض معاني الكتاب العظيم.

[٢٢] ومن علامات مجده وعظمته أنه محفوظ في لوح عند الله لا يستطيع أحد المساس به.

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ

جاء في الدر المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله-: «خلق الله لوحا من دره بيضاء دفناه من زبرجده خضراء، كتابه من نور، يلحظ إليه في كل يوم ثلاث مائة وستين لحظة يحيى ويميت، ويخلق ويرزق، ويعز و يذل، ويفعل ويشاء» (١).

و هذا الحديث تفسير قوله سبحانه: «فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ». أما اللوح المحفوظ المذكور في هذه الآية فلعله إشارة إلى الآية الكريمة: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»، حيث أن ربنا يحفظ اللوح من أن يرسم فيه غيره.

ص: ٤٨١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

